القوانوالمالخارون وِنَ لِيُطْفِئُوا نُوبَالُهِ بِأَفُوا هِهِم وَلَلَّهُ مُتِمُّ نُوبِهِ وَلُوكِمِ الْحَافِرِ وَن

لحتبالإسلاي

القوار والملكر وربي

تألیف محری وروزه حقوق لطبع مجفوظة

الطبعة الأولى ١٣٩٣ هـ - ١٩٧٣ م





والقرآن هو الممثل الاول للاسلام فيكون بدوره الهدف الرئيسي للنقد والتجريح والتهديم بطبيعة الحال .

ومع أن الملحدين لايجهلون أن كثيرا مما عليه العرب المسلمون لايمت الى القرآن وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم التي هي الممثل الثاني للاسلام ولا الى الصدر الاسلامي الاول الذي عاش في ظل القرآن والسنة ، ولا يجهلون ماكان عليه المسلمون الاولون في هذا الصدر من قوة وعزة وحضارة في ظل السلطان العربي الاسلامي ، فأن هذا لم يجعلهم يخففون من حملتهم وتجريحهم وتهديمهم للاسلام والقرآن الذي يمثله بدعوى أن الذهنية الاسلامية الراهنة التي يبدو أصحابها متخلفين ضعفاء تستمد على كل حال منه .

وفي كتاب صادق جلال العظم الذي ذكرناه قبل نقاط كثيرة من ذلك يسوقها في سبيل اثبات هذا الزعم ، وتسويغ تلك الحملة فضلا عن مايسوغها به من مزاعم تصادم الدين تصادما شديدا مع الحقائق العلمية والفنية . وهي مزاعم لاتثبت على أي تمحيص ومنطق وواقع وتاريخ الصدر الاسلامي الاول .

ولقد أمعنا النظر في جميع ماساقه صادق العظم من مسوغات واتكأ عليه من نصوص وأقوال . فظهر لنا أنه ارتكس ارتكاسا شديدا معيبا في التعسف والمجازفة وسوء الفهم والتأويل ، وعدم الاستيعاب. والاتكاء على أقوال وتفسيرات ومواقف لايتحمل القرآن والاسلام مسؤوليتها . وهذا فضلا عن عدم تورعه عن مس شعور المسلمين وإيذائهم في تطاوله على الله ورسوله وقرآنه توهينا أو تجريحا وسخرية . وهو في كل ذلك يمثل كل ألملحدين من ماركسيين وغير ماركسيين حيث يلمح أنهم يهاجمون

الاسلام بخاصة دون فهم واستيعاب لمبادئه وأحكامه وتلقيناته (١) .

ولقد كنا قرآنا لمبشر مسيحي سمى نفسه (الاستاذ الحداد) كتبا بعنوان « دروس قرآنية » ارتكس فيها ارتكاسا شديدا معيبا في كل ما ارتكسه العظم مع تعمد لذلك فكتبنا ردا عليه هو كتابنا (القرآن والمبشرون) .

ولقد كتبنا قبل ذلك كتابا آخر كرد على ما أخذ يرتفع من أصوات عربية داعية الى الماركسية اللينينية سميناه (الاسلام والاشتراكية) شرحنا فيه مبادىء الاسلام التي يمكنان تكون أحسن وأفضل وأوفى بديل عنها تضمن بها العدالة الاجتماعية والاقتصادية أفضل ضمان مع ضمان انسانية الانسان وكرامته وحريته وروحانيته، وليس فيها استغلال ولا استعلاء ولا

⁽١) قرأنا بحثا لواحد منهم أثناء كتابتنا هذه المقدمة فيه من الهراء والتناقض والمفارقة وارسال الكلام على عواهنه والغباء والجهل المطبق بخصائص الدين الاسلامي مايشر العجب وقد جاء فيه (أن النظام الاقطاعي الاستقراطي لايمني البشر بملذات الحياة الدنيا بل يحيلهم الى حياة أخرى . يرون فيها كل مايشتهون ، أكان هذا حلالا أم حراما في الحياة الدنيا ، وكل هذا ينالونه فقط بالطاعة والعبادة ولا شيء آخر . في الحياة الدنيا تفرقة في الحسب والنسب ، بين الغني والفقير ، بين الفرسان والرعاع . في الحياة الاخروية تفرقة بينالكافر والمؤمن ، والمطبع والعاصى . بين الزاهد والمتكالب على سفاسف الحياة ، سيان في هذا أكان المرء ملكا فيهم أم عبدا ، فارسا أم فلاحا ، وبينما تبدو التفرقة في الدنيا تفرقة من قبيل. الصدفة تأتى التفرقة الاخروية مقصودة ومبررة ، في الحياة الدنيا تكون الامكانات والادوار الاجتماعية محددة ومعروفة مسبقا . الاقطاعي هو ابن الاقطاعي . أو قريبه أو صيديقه ، أو هو المقرب من الملك ، الفارس هو ابن الطبقة الاقطاعية ، ابن الفلاح فلاح ، وابن الملك أمير وهكذا ، اما في الحهة المقابلة فكل انسان يستطيع ان يحدد مكانته في الهرم الاخروي ، أن يحدد بنفسه مكانه في سلم الامتيازات ، وهكذا نرى الطبقة الاقطاعية جماعة مغلقة علىنفسها ونرى المجتمع الاقطاعي مجتمعا جامدا ليست فيه حركة طبقية الا ماندر ، ونسرى الفرد حسب الابديولوجية السائدة للطبقة السائدة موجها تمام التوجيه نحو عالم آخر غير الذي يعيش فيه ٠٠٠

استقطاب ثروة فقر ولا طبقات متصارعة بسبب ذلك ، ويتكافأ الناس في ظلها في الفرص ، ويتساوون في الحقوق والواجبات بدون أي تمايز طبقي أو حسبي ، ويتفادى بها مافي تلك الماركسية من مصادمة مع غرائز البشر ومصالحهم وطمأنيناتهم وما تثيره من أحقاد تؤدي الى حمامات الدم عبر صراع الطبقات ، ويفقد الإنسان فيها انسانيته وحريته، ويصبح مسمارا في عجلة الدولة وحسب وكل ما يكون من أمر هو أنه يعيش عيشة مادية فيها بعض اليسر تعوزها الروح والحرية والانطلاق بالنسبة للجمهور الاعظم فرأينا أن نكتب هذا الكتاب أيضا كرد على تخرصات جلال العظم بخاصة وعلى الملحدين العرب ماركسيين وغير ماركسيين بعامة عن الاسلام والقرآن ومداهما ، وما يقعون فيه من سوء فهم وسوء تأويل وتعسف ومجازفة بسبيل إثبات أفكارهم ودعاواهم وترويجها في مناسبة صدور كتاب صادق العظم المذكور لننقد فيه كل ذلك ، ونثبت مافي نسبة التخلف العربي الى الاسلام والقرآن وهو ماكان بيت قصيد كتاب صادق العظم من كذبوتجن على الحق والحقيقة ، وما في المسوغات التي يسوغ الملحدون بها دعوتهم الإلحادية ضد الدين من وهن وتهافت .

- A -

والملحدون العرب يتظاهرون بأن مصلحة أمتهم وعزتها وقوتها هي قصدهم وأمنيتهم ، ويزعمون أن دعوتهم هي من أجل ذلك أيضا ، ويغفلون وهم يدعون عبر ذلك الى نبذ الاسلام والقرآن عن أنهم يدعون أمتهم من حيث يدرون أو لايدرون الى قطع صلاتها بتراثها الباذخ الذي صارت وظلت به وحده أمة واحدة ذات رسالة انسانية خالدة ، والذي برزوا به وحده بين الامم بحضارة لاتزال آثارها تشهد على ماوصلت اليه من شأو بعيد في كل ميدان ومجال لتصبح بين الامم مجردة من أية هوية وميزة ، سائرة في فلك غيرها ، واهنة مستضعفة ، مما لايمكن أن يدعو اليه مخلص لقومه

وانسانيته . وتكون هذه الدعوة والحالة هذه عونا للمستعمريسن والصهيونيين ومقاصدهم ، لانها ستؤدي لو تفاقمت لاسمح الله الى تحلل أمتهم من كل قيمة ، وضياعها أو على الاقل الى بث البلبلة في صفوفها وتبديد طاقتها ، وكبت مطامحها وتطلعاتها ، وإضعاف الحمية والامل والحيوية فيها . دون ان يكون لهذه الدعوة فائدة أو ضرورة ما قومية أو اجتماعية أو انسانية من حيث ان القرآن والاسلام كما قلنا يضمنان لاصحابهما وللعرب الذين أكثريتهم الساحقة مسلمة كل أسباب السعادة والنجاح والنشاط والحيوية والتقدم وليس فيهما أي عائق دون أي شيء في ذلك .

ومن الجدير بالتأمل المثير للعجب أن المبشرين وملحدي العرب يلتقون في ميدان واحد في الحملة على الاسلام والقرآن . ولقد قلنا في كتابنا الذي رددنا فيه على تخرصات المبشرين وذكرناه قبل: أن المبشرين هم على الأرجح عملاء مأجورون متآمرون مع الاستعمار الغربي الذي طرده الاسلام والقرآن من الشرق قبل اربعة عشر قرنا . وظلا يقفان في وجهه كلما حاول العودة الى الشرق لاستعماره ثانية ، وسينجحان في النهاية كما كان الشأن في الحروب المسماة بالصليبية ، ثم في حقبة القرنين الأخيرين الحديثين اللذين ناضل فيها العرب الذين أكثريتهم الساحقة مسلمة ضد ذلك الاستعمار وطردوه من بلادهم فصارا عدويه الاكبرين اللذين يترسم القضاء عليهما وهدمهما ، فليس من الجنف أن يقول قائل: أن ملحدي العرب بتهجمهم على الاسلام والقرآن ومحاولتهم تهديمهما هم أدوات أخرى لذلك بتهجمهم على الاسلام والقرآن ومحاولتهم تهديمهما هم أدوات أخرى لذلك وإنهم لأشد نكاية وأثرا على امتهم وبلادهم من المبشرين ، لان سخافة المبشرين لاتلبث أن تظهر وهم في كل حال متلبسون بالغرض والحقد في حين أن اللحدين يزوقون ويلغون كلامهم بالعلم والعقل والمنطق ، ويساعدهم أن اللحدين يزوقون ويلغون كلامهم بالعلم والعقل والمنطق ، ويساعدهم أن اللحدين يزوقون ويلغون كلامهم بالعلم والعقل والمنطق ، ويساعدهم



وقد احتوى شهادة حبة مستمرة نافذة الى أعماق القلوب والعقول على صحة ماقرره من عقائد وأركان ومبادىء كما احتوى حلا لكل مشكلة وحوايا لكل سؤال ، وإزالة لكل أشكال ، واستحابة لكل حاجة ومطلب روحي واجتماعي وسياسي وسلوكي واقتصادي على أحسن وأفضل ما يكون ، ودحضا لكل فرية. وسدا لكل تمحل على ماسو فيقرؤه قارىء هذا الكتاب قويا ساطعا لالمكن الا أن يقنع به اذا كان حسن النية ، صادق الرغبة في الحق والحقيقة والتزامهما . فتصدى الملحدين العرب له هو من جهة تصد لدين الله الذي ارتضاه لأمتهم ولأمم الارض قاطعة ، ومن حهة تصد للمبادىء والحوافز السامية التي تضمن لأمتهم ولأمم الارض كل اسباب السعادة والنحاة والنحام والقوة والكرامة والتقدم. مما فيه عداء غبى لئيم للصميم من مصلحة أمتهم ومصلحة الانسانية وخير هما . ولسوف برى القارىء في الكتاب الىهذا دحضا حاسما لكل تمحل بتمحلونبه وردا شافيا على كلنقد واعتراض يوردونهما ، وفضحا لسوء فهمهم وتأويلهم وتعسفهم وأدبهم فيحق الحق ويعلو ، ويزهق الباطل ويخبو ، ولسوف يرتدون خاسئين خاسرين عن قصدهم الفيي اللئيم ، ولسبو ف نظل الله مو قبا لو عده للصالحين من عباده المسلمين بالنصر والتأبيد والتمكين . ولسوف بظل طوائف من هؤلاء العباد على الحق معتزين بهذا الدين بجاهدون في سبيله كل من تصدى اله ، ولسوف يوفي الله بوعده ووعده الحق بأنه سوف يظهره على الدين كله . (يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبي الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون • هو الني أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون) (التوية:٣٣،٣٢) والله المستعان على ما يصفون. «ومنه نستلهم العون والسداد .

هذا ونريد في الختام أن ننبه على أمر في صدد فصول الكتاب. فالكتاب ، وان كان كتب للرد على تمحلات الملحدين وتعسفاتهم ، فاننا أردنا أن يكون

في الوقت نفسه مفيدا لسواد المسلمين ، ومن جملتهم اللامبالين بالدين. منهم من غير الحاد وتصميم بل ولذوي النيات الحسنة والرغبة في الحق. والحقيقة من غير المسلمين عامة ، فتوسعنا في الكلام في صدد الدعوة الاسلامية وأثرها ومداها ، وفي مسائل قرآنية عديدة يحاول ذوو النيات السيئة من الملحدين والمبشرين التماس المآخذ فيها تعسفاً وتمحلاً لبيان وجه الحق والحكمة فيما احتواه القرآن من مختلف الفصول والمواضيع والاساليب وآثار الدعوة الاسلامية فيمن شاهدوا أعلام النبوة المحمدية عيانا من آلاف الناس على اختلاف فئاتهم ليكون في ذلك رد على ذوي النيات السيئة وسد لذرائعهم وتمحلاتهم .

ونقطة أخرى يحسن أن نشير اليها ، وهو أن الالحاد العلمي مايزال. ضيق الدائرة . وأنما هناك الحاد بالمارسة أن صح التعبير آخذ بالتغلغل. ويشمل قطاعا كبيرا من الناس رجالا ونساء ومثقفين وغير مثقفين على السواء وبخاصة في فئة الشباب والناشئة من الجنسين وينتج عنه كثير من الموبقات والانحرافات الاخلاقية والاجتماعية والسلوكية ويعود بالضرر العظيم على الافراد والجماعات ونعني به تلك اللامبالاة بالدين وفكرته وأخلاقياته وواجباته وتلقيناته وعدم خشية الله وانعدام الطمأنينة بذكره. فنأمل أن يجد هؤلاء في ما احتواه الكتاب ماينبههم من غفلتهم ولا مبالاتهم ويبث فيهم الايمان وقوة الفكر الدينية ويحميهم من الارتكاس في الموبقات والانزلاق في متاهات الاوهام والأهواء والضياع النفسي ، والله الهادي الى سواء السبيل والعزة لله ولرسوله وللمؤمنين والحمد لله رب العالمين.

دمشق الشام ۹ صفر ۱۳۹۱ کنیسان ۱۹۷۱

الؤلف

الفصل لالأول

- 1 -

ليس الملحدون المحدثون ومنهم ملحدو العرب أول المتصدين الذي يمثله الذي يمثله

ليس الملحدون المحدثون ومنهم ملحدو العرب اول المتصدين والمتهجمين الذين يتهجمون على القرآن الكريم والدين الإسلامي الذي يمثله ، فقد تعرضا لكثير من التهجمات والتخرصات والوقاحات من مختلف الفئات الحاقدة والجاحدة في مختلف الظروف بقصد إطفاء نور الله بأفواههم ، ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون ، وهو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون (۱) . فصمدا لهم جميعا ، وردهم القرآن خاسئين خاسرين ، وقد تكسرت قرونهم الواهية على صخرته الصلبة العظيمة ، واستمر يهدي الله به مع اتبع رضوانه سبل السلام ، ويخرجهم من الظلمات الى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم (۲) لأنه كلام الله الأزلي الأبدي الخالق البارىء المدبر الحكيم المذي لا يأتيه البالما من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد (۲) .

- 1 -

وعظمة صمودالقرآن والدين الاسلامي الذي يمثله تظهر قوية رائعة بل ملحمة عظمى بخاصة إذا ماتذكرناان التهجمات والتخرصات عليه بدأت على مختلف

 ⁽۱) جاء هذا في آيات سورة التوبة ٣٣و٣٣ وآيات سورة الصف ٨و٩ (٢) جاء هذا في آية سورة المائدة (٢ ١٦) (٣) الآية ٤٢ من سورة فصلت السجدة .

الستويات وبمختلف الأساليب في العهد الذي انزل عليه صلى الله عليه وسلم ، ووجهت إليه مواجهة ، وأن حكمة التنزيل لم تر حرجاً من تسجيل كل ذلك في القرآن ثم لتنبري لتفنيده أقوىواروعوانفذ تفنيد ، ثم لتستمر قدماً في التنزيل لتحقيق ما قررته من صفات الهدى والحق والرحمة والشفاء للناس للقرآن الذي يمثله . مما يحمل في كل آية و فصل من الإعجاز السبكي والايماني والاجتماعي والاقتصادي والسياسي والأخلاقي والسلوكي البرهان القوي الذي لا يمكن أن يتحمل مراء ممن حسنت نيته ، وصفت نفسه ، ورغب في الحق والحقيقة في أنه وحي رباني نزل على من أصطفاه الله لتبليمه للناس وأنه لايمكن أن يكون من عقل بشري مهما بلغ من قوة وصفاء وإحاطة (۱) . والقرآن بين أيدي جميع الناس ، وسوف يرد في هذا الكتاب من أمثلة على ذلك ما فيه الشفاء والمقنع .

وتستعرض فيما يلي صوراً من هذه التهجمات والوقاحات ومواقف القرآنمنها . ولقدبدت من أصحابها منذ أوائل العهد النبوي المكي واستمرت طيلة هذا العهد على ما تفيده الصورالتي احتوتها سور نزلت في مختلف ادوار هذا العهد من أوله الى آخره .

ا ــ (ومنهم من يستمع اليك وجعلنا على قلوبهم أكثة أن يفقهوه وفي
 آذانهم وقرأ وإن يروا كل آية لايؤمنوا بها حتى اذا جاؤوك يجادلونك يقول
 الذين كفروا إن هذا الا أساطير الأولين) • (الأنعام ٢٥) •

⁽۱) وفي سورة يونس هذه الآيات التي ترد على اي دعوى خلاف ذلك (وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل الكتاب لاربب فيه من رب العالمين، أم يقولون افتراه قل فاتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله ، ان كنتم صادقين بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله كذلك كذب الذين من قبلهم فانظر كيف كان عاقبة الظالمين ٢٦ ـ ٣٩ .

٢ - (وإذا جاءتهم آية قالوا لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما اوتى رسل الله الله أعلم حيث يجعل رسالته سيصيب الذين أجرموا صغار عند الله وعذاب شديد بما كانوا يمكرون) (الأنعام ١٢٤) .

٣ – (نحن أعلم بما يستمعون به أذ يستمعون اليك وإهم نجوى أذ يقول الظالون أن تتبعون الا رجلاً مسحوراً (الاسراء ٧٤)

٤ – (مايأتيهم من ذكر من ربهم محدث إلا استمعوه وهم يلعبون ولاهية قلوبهم وأسروا النجوى الذين ظلموا هل هذا الا بشر مثلكم افتأتون السحر وانتم تبصرون و قال ربي يعلم القول في السماء والأرض وهو السميع العليم بل قالوا أضغاث أحلام بل افتراه بل هو شاعر فليأتنا بآية كما أرسل الأولون) (الانساء ٢ – ٥) .

٥ ـ (وإذا رآك الذين كفروا إن يتخذونك إلا هزوا أهذا الذي يذكر آلهتكم وهم يذكر الرحمن هم كافرون ٠٠) (الأنبياء ٣٦) .

آ – (أفلم يدبروا القول أم جاءهم مالم يأت آباءهــم الأولين ، أم لم يعرفوا رسولهم فهم له منكرون ، أم يقولــون به جنة بل جاءهــم بالحق وأكثرهم للحق كارهون ، ولو اتبع الحــق أهواءهم لفســدت السموات والأرض ومن فيهن بل أتيناهم بذكرهم فهم عن ذكرهــم معرضون ، أم تسألهم خرجا فخراج ربك خير وهو خير الرازقين ، وإنك لتدعوهم الى صراط مستقيم) (المؤمنون ٦٨ ـ ٧٣) .

∨ - (وقال الذين كفروا إن هذا إلا افك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون فقد جاؤوا ظلماً وزوراً • وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة حديما) الفرقات (٢ - ٦) •

وأصيلا . قل أنزله الذين يعلم السر في السموات والأرض إنه كان غفورا

٨ ــ وقالوا مالهذا الرسولياكل الطعام ويمشيفيالأسواق لولا انزلاليه
 ملك فيكون معه نذيراً . أو يلقى اليه كنز او تكون له جنة يأكل منها وقال

الظالمون ان تتبعون إلا رجلا مسحورا . انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا فلا يستطيعون سبيلا) (الفرقان ٣ ـ ٩) .

٩ - (وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قالوا ماهذا الا رجل يريد أن يصدكم
 عما كان يعبد آباؤكم وقالوا ماهنذا إلا إفك مفترى وقال الذين كفروا
 للحق لما جاءهم إن هذا إلا سحر مبين) (سبأ ٤٣) .

10 (وعجبوا أن جاءهم منذر منهم وقال الكافرون هذا ساحر كذاب أجعل الآلهة إلها واحداً أن هذا الشيء عنجاب وانطلق الملا منهم أن امشوا واصبروا على آلهتكم إن هذا لشيء ينراد وماسمعنا بهذا في الملة الآخرة إن هذا إلا اختلاق واانزل عليه الذكر من بيننا بل هم في شك من ذكري بل لما ينوقوا عذاب (ص ٤ – ٨) و

11 - (ولما جاءهم الحق قالوا هذا سحر وإنا به كافرون وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم و أهم يقسمون رحمة ربك نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضاً سخرياً ورحمة ربك خير مما يجمعون) ٥٠ (الزخرف ٣٠ - ٣٢)

17 _ (فذكر فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون • أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون • قل تربصوا فإني معكم من التربصين • أم تأمرهم أحلامهم بهذا أم هم قوم طاغون • أم يقولون تقوله بـل لايؤمنون • فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين • •) (الطور ٢٩ _ ٣٤) •

١٣ ـ (ن ، والقلم وما يسطرو ن، ماانت بنعمة ربك بمجنون ، وإن لك لأجرا غير ممنون ، وإنك لعلى خلق عظيم ، فستبصر ويبصرون ، بأيكم المفتون إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين ، فلا تطع

المكذبين ، ودوا لو تدهن فيدهنون ، ولا تطع كل حلاف مهين ، هماز مشاء بنميم ، مناع للخير معتد أثيم ، عتل بعد ذلك زنيم ، أن كان ذا مال وبنين ، إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين ، سنسمه على الخرطوم ، ، ،) (القلم ١٦-١)

١١ - (واصبر على مايقولون واهجرهم هجراً جميلا ، وذرني والكذبين أولى النّعمة ومهلهم قليلا ، إن لدينا أنكالا وجحيما ، وطعاما ذا غصة وعذاباً أليما . . .) .

(المزمل ١٠ - ١٢)

10 - (ذرني ومن خلقت وحيداً . وجعلت له مالا ممدودا . وبنين شهودا . ومهدت له تمهيدا . ثم يطمع أن أزيد . كلا إنه كان لآياتنا عنيداً سأرهقه صعوداً انه فكر وقدر . فقتل كيف قدر . ثم قتل كيف قدر . ثم نظر . ثم عبس وبسر . ثم أدبر واستكبر فقال إن هذا إلا سحر يؤثر . إن هذا إلا قول البشر . سأصليه شعر . . .) .

(المدثر ١١ ـ ٢٦)

17 - (كلا إن الإنسان ليطغى ، أن رآه استغنى ، إن إلى ربك الرجعى ، أرأيت الله على الهدى ، أو أمر أرأيت الله على الهدى ، أو أمر بالتقوى ، أرأيت إن كذب وتولى ، ألم يعلم بأن الله يرى ، كلا لئن لم ينته لنسفعاً بالناصية ، ناصية كاذبة خاطئة ، فليدع ناديه ، سندع الزبانية ، كلا لا تطعه واسجد واقترب) ، (العلق ٢ - ١٩ (١)) ،

(۱) هذه أولى الصور حيث تحكي تصدي الطاغية للنبي حينما أخذ يدعو بدعوته ويصلي صلاته الجديدة ، ونيها تثبيت قوي للنبي ، واندار قارع رهيب للطاغية ، ونكتفي بما تقدم، ويستطيع المتصفح للقرآن ان يرى صورا مماثلة في معظم السور المكية ،

وكما سجل القرآن بدون أي حرج مواقف الجاحدين وأقوالهم مسجلا بذلك عظمة صموده لهم معالرد القارع الرادع عليهم، ثم استمر ينزل بالهدى ودين الحق ليخرج الناس من الظلمات الى النور سجل بدون أي حرج تحديات أخرى منهم للنبي والقرآن .

ولقد كانت هــذه التحديات متنوعة ، منهـا بطلب الإتيان بالخوارق والمعجزات لإثبات نبوة النبي وصلته بالله ، ومنها بطلب استنزال الملائكـة لنفس القصد ولتأييدهم له ، ومنها بالاستعجال بالعذاب الموعود في القرآن لهم حيث كان الوعيد بذلك منذ عهد مبكـر جدا ، أو بعبارة أخرى منذ السور والفصول المبكرة جدا في النزول ثم استمر في مختلف أدوار التنزيل، والآيات كثيرة مبثوثة في مختلف السور وبخاصة المكية ، وسنقتصر على إيراد بعض الامثلة من كل نوع .

فمن صور النوع الأول مافي هذه الآيات:

ا - (وقالوا لولا نزل عليه آية من ربه قل إن الله قادر على أن ينزلآية ولكن اكثرهم لايعلمون • وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم مافرطنا في الكتاب من شيء ثم إلى ربهم يتحشرون • والذين كنبوا بآياتنا صم وبكم في الظلمات من يشأ الله يتضلله ومن يشأ يجعله على صراط مستقيم) • (الأنعام ٣٩) •

٢ – (وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها قل إنما الآيات عندالله وما يشعركم أنها إذا جاءت لايؤمنون ونقلب افئد تهموأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم في طغيانهم يعمهون ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شيء قبلا ماكانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء اللائكة وكلمهم يجهلون وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا شياطين الانس

والجن يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً ولو شاء ربك مافعلوه فذرهم وما يفترون • ولتصفى إليه افئدة الذين لايؤمنون بالآخرةوليرضوه وليقترفوا ماهم مقترفون) (الأنعام ١٠٩ - ١١٣ (١)) •

٣ ــ (ويقولون لولا أنزل عليه آية من ربه فقل إنها الغيب شه فانتظروا
 إنى معكم من المنتظرين (يونس ٢٠) .

٥ ــ (ويقول الذين كفروا لولا انزل عليه آية من ربه قل إن الله يضل من يشاء ويهدي إليه من أثاب (٢) • الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب • الذيان آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم وحسن منه (الرعد : ٢٧ ــ ٢٩) •

آ - (ولقد صرفنا للناس في هذا القرآن من كل مثل فأبى أكثر الناس إلا كفورا ، وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً ، أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الانهار خلالها تفجيراً ، أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفاً أو تأتي بالله والملائكة قبيلا ، أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى في السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتاباً نقرؤه قل سبحان ربي هل كنت الا بشرا رسولا ، وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلا أن قالوا أبعث الله بشراً رسولا ،) (الاسراء ، ٩-٩٠)،

٧ ـ (وقالوا لولا أنزل عليه آيات من ربه قل إنما الآيات عند الله وإنما

⁽۱) من المحتمل أن يكون المسلمون كانوا يتمنون ان يستجاب طلب الكفار وان جملة (وما يشمركم) هي خطاب لهم ، والآيات تفيد ما تفيدها سابقاتها ويحسن ان يلحظ الذيل السابق بالنسبة اليها أيضاً وفي نصها مع ذلك مايزيل مايبدو من أشكال ظاهري فيها .

 ⁽۲) في الآية تقرير بكون الهدى هو لمن يرغب وينيب الى الله ولا يتوقف على معجزة .
 وبذلك بزول مايظهر من إشكال في جملة (يضل الله من يشماء)

آنا نذير مبين ، او لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم إن في ذلك الرحمة وذكري لقوم يؤمنون . قل كفي بالله بيني وبينكم شهيدا يعلم مافي السموات والأرض والذين آمنوا بالباطل وكفروا بالله أولئك هم الخاسرون. (العنكبوت ٩٤ <u>ـ ٢٥)</u> .

ومن صور النوع الثاني مافي الآيات التالية:

1 _ وقالوا لولا أنزل عليه ملك ولو أنزلنا ملكا لقضي الأمر ثهـ لاينظرون ٠٠) (الأنعام ٨ (١)) ٠

٢ ـ (فلعلك تارك بعض مايوحي إليك وضائق به صدرك أن يقولو لولا أنزل عليه كنز او جاء معه ملك إنها أنت نذير والله على كل شيء وكيل) (هود ۱۲)

٣ - (وقالوا يا أيها الذي نزل عليه الذكر إنك لمجنون . لوما تأتينا باللائكة إن كنت من الصادقين . ماننزل اللائكة إلا بالحــق وما كانوا إذاً منظرين) (الحجر ٦ - ٨) ٠

٤ ـ (وقالوا مال هـذا الرسـول يأكل الطعام ويمشى في الأسواق) ح لولا أنزل الله ملك فيكون معه نديراً • الفرقان ٧

ونرى من المفيد أن تنبه استطرادا على مايلمح في الردود القرآنية من تعليلات حكيمة ، بل نرى ذلك متناسبا مع موضوع الكتاب وجوهره ، وإنه ليتضح من الأمثلة التي أوردناها من كل نوع ، ومالم نورده من أمثالها المبثوثة في السور القرآنية التي يسهل على القارىء أن يقرأها في المصحف أن مو قف القرآن من تحدى الكافر بن كان سلبيا ومعللا بالتعليلات الحكيمة المتنوعة التي بمكن تلخيصها بما بلي:

⁽١) تفيد الآية أن الله سبحانه جرت عادته أن ينزل الملائكة بالعذاب أذا ماحجدوا وأفسدوا . ران حكمة الله اقتضت أن يتأخر ذلك بالنسبة للكافرين السامعين . وهذا المعنى تكرر في آيات أخرى .

ان الله قادر على إنزال الآيات ولكن الدعوة التي يبلغها رسوله هي من قبيل التذكير والتبشير والإنـــذار ، وليس هو وكيلاً ، أو مسؤلا عن النـــاس .

٢ – ان سنة الله تعالى جبرت إذا ما انزل آية ولم يؤمن الناس أن يهلكهم . وفي هذا جواب ضمني آخر وهو أن حكمة الله لم تقتض ذلك بالنسبة للكفار بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، وإنما شاءت حكمته امهالهم لأجل مسمى ، وهذا الجواب ورد أيضاً جواباً على تحديهم بالإتيان بالعذاب واستعجالهم اياه ، وفي سور النحل والكهف وفاطر آيات فيها هذا المعنى أيضا كما ترى فيما يلى :

ا ــ (ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم ماترك عليها من دابة ولكن يؤخرهم إلى أجلل مسمى فإذا جاء أجلهم لايستأخسرون ساعة ولا يستقدمون)
 (النحل ٦١) •

٢ – (وربك الففور ذو الرحمة لو يؤاخذهـم بما كسبوا لعجل لهم
 العذاب بل لهم موعد لن يجدوا من دونه موئلا . وتلك القرى اهلكناهم لا ظلموا او جعلنا لمهلكهم موعدا) (الكهف ١٥٥٩٥) .

٣ ـ (ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ماترك على ظهرها من دابةولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى فإذا جاء أجلهم فان الله كان بعباده بصيرا ٠) ٠ . (فاطر ٥٥)

ولقد آمن كثير ونممن كفروا في بدء الدعوة ، أو في العهد المدني ، وحسن إسلامهم حيث تلمح حكمة الله تعالى في إمهالهم وعدم التعجيل في هلاكهم حينما وقفوا موقف الجحود واستعجلوا العذاب الموعود .

٣ ــ وإن الله تعالى قادر على أن ينزل ملكا ، ولكن سنته جرت على أنه
 لاينزل الملائكة إلا بقضاء الله الحق ، وعذابه الساحق ، وعلى عدم انظار

الكفار بعد نزولهم . وهو مالم تشأ حكمته ذلك بالنسبة لمن أرسل إليهم النبي محمد صلى الله عليه وسلم .

٤ - وإن في القرآن معجزة تصديقية لما في الكتب الأولى الثابت نزولها
 من الله . وفي هذا كفاية لمن أراد أن يهتدي .

٥ ــ وإن في القرآن الذي أنزله الله على رسوله ، ويتلى على الناس المعجزة الكافية التي فيها الرحمة والذكرى لمن أراد الهدى والإيمان والتذكر .

7 - وإن الله تعالى يعلم أنه مهما انزل من آيات حتى ولو سيرت بها الجبال أو قطعت بها الأرض وكلم بها الموتى حتى ولو أنزل عليهم الملائكة فإن ذلك لن يكون سببا لايمانهم ، لأن ذلك منوط بمشيئته ، ولأنه إنما يهدي من أناب اليه ، ورغب في الهدى، فهذا هو الذى يطمئن قلبه بذكر الله.

وننبه على أن في هذا الجواب الأخير الذي قررته آيات سورة الرعد ٢٧ و ٢٨ تفسيراً لكل ماجاء مطلقا من مشيئة الله تعالى بهداية الناس وضلالهم .

وفي سورتي الأنعام والحجر آيات تحكي ماسوف يتمحل به الكفار لو أظهر الله آية حتى لايكونوا ملزمين بالإيمان كما ترى فيما يلى:

ا ولو نزلنا عليك كتاباً في قرطاس فلمسوه بايديهم لقال الذين
 كفروا إن هذا إلا سحر مسن ٠٠) . (الأنعام ٧)

٢ - (ولو فتحنا عليهم باباً من السماء فظلوا فيه يعرجون ، لقالوا إنما
 سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون ،) (الحجر ١٤ و ١٥)

حيث ينطوي في هذه الآيات سبب من أسباب عدم استجابة الله تعالى لتحديهم .

٧ - وإن الذين يجحدون بدعوة الله ونبيه وكتابه ، ويتحدون رسوله هم ممن بيتوا العداء لهم ، وصار ديدنهم أن يوحي بعضهم إلى بعض ذخر ف القول حتى يثبتوا على عدائهم وجحودهم ، والذين يسمعون لهم هم الذين لا يؤمنون بالآخرة ولا يرغبون في الهدى ، وهؤلاء ينضمون إلى أولئك في طلب الآيات من قبيل التعجيز .

٨ - ولقد كان الكفار يتخيلون النبي فوق البشر وقادرا على كل شيء، فردت عليهم آيات سور الإسراء والأنبياء والفرقان بأن الله قد جرت سنته على إرسال رسله للبشر من البشر ، وأمرت النبي بأن يقول لهم ذلك .

9 - ولقد كان النبي يتحرج كثيراً من تحديهم فعاتبته آية سورة هود (١٢) قائلة له إنما أنت نذير والله على كل شيء وكيل ، ويتضمن هذا الإهابة به لعدم الاهتمام بتحديهم ، وهذا ما احتوته آيات عديدة أخرى من الآيات التي أوردناها .

• ١ - وآيات الأنعام ٣٣ - ٣٦ تفيد أن النبي نفسه كان يحرص على ظهور آية على يده ردا على تحدي الكفار ، وأملاً بايمانهم ، فنبهته على ان إيمانهم غير مرهون بالآيات ، وأن تحديهم هو من قيل ماكان من أمثالهم من قبلهم نحو رسلهم الذين كذبوهم وآذوهم مع أنهم جاؤوهم بالآيات على ماجاء اليه من أنبائهم ، وأن عليه أن يصبر كما صبروا ، وأن الذين يحبون سماع الحق فقط هم الذين يؤمنون ولا يتوقف إيمان هؤلاء على الآيات . وتأتي بعد هذه الآيات الآيات ٧٧و٨٨ التي فيها تقرير بأن الذين يكذبون هم كالصم البكم المرتكسون في الظلمات الذين لايسمعون الحق ولا يؤمنون به .

1۱ - والفقرة الاخيرة من آية سورة الأنعام (١٠٩) قد تفيد أن المؤمنين أيضا كانوا يحرصون أن يستجاب الكفار إلى تحديهم ، ويظهر الله آية فنبهتهم إلى مانبهت الآيات السابقة النبي صلى الله عليه وسلم .

١٢ _ وفي سورة الإسراء آية مهمة في بابها ، وهي هذه :

(وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها وما نرسل بالآيات إلا تخويفا) (الإسراء ٥٩) •

حيث تضمنت ايذاناً بأن الله تعالى امتنع عن إنزال الآيات على النبي محمد صلى الله عليه وسلم ردا على تحدي الكفار الأنه انزل آيات على أنبيائه السابقين فكذبها أقوامهم ولم يؤمنوا . ومن جملة ذلك ثمود الذين أظهر الدعوة المحمدية بالآيات والمعجزات الخارقة .

الله لهم معجزة الناقة بينة لايمكن أن يكابر فيها أحد ، ولكنهم ظلموا وكذبوا ، وإن الله تعالى لاينزل الآيات إلا للتخويف والإنذار ، وليس لأجل حمل الناس على الايمان ، لأن الذين يرغبون في الهدى يهتدون بدون آيات حين يسمعون الحق وبينات الهدى .

والردود والتعليلات القرآنية قوية مفحمة مقنعة من كل جانب من جوانب القضية ، وهي موجهة الى العقول لتتدبر وإلى القلوب لترعوي ، ومقررة صراحة وضمنا أن اللاعوة القرآنية إنماهي دعوة إلى الله وحده والإقرار له بالعبودية ، ونبذ ماسواه ، والتزام الأعمال الصالحة التي تشمل كل ماهو نافع وخير وواجب وحسن والامر بالمعروف والنهي عسن المنكر ، وحل الطيبات ، وتحريم الخبائث ورفع الإصر والأغلال السابقة ، وتحذير من الكفر والشرك والإثم والفواحش والمنكرات والبغي . وإن مثل هذه اللاعوة لاتحتاج إلى معجزات مؤيدة ، وإنما الى ترو وإذعان ونية حسنة وطوية نقية ، ورغبة في الحق والهدى والخير والصلاح ، وعزوف عن الخبث والخبائث والمنكرات ، وتجرد والهدى والغيد واللجاح . ويرى المرء البرهان على صحتها وقوتها في الكون وما فيه من آيات باهرة ، وحكمة بالغة ، ونواميس دقيقة ، وفي ما تدعو إليه من مكارم الأخلاق والفضائل ، وتبيحه من الطيبات الحلال، وتر فعه من التكاليف الشديدة السابقة ، وتنهى عنه من الإثم والبغتي والفواحش من التكاليف الشديدة السابقة ، وتنهى عنه من الإثم والبغتي والفواحش من التكاليف الشديدة السابقة ، وتنهى عنه من الإثم والبغتي والفواحش

والطفيان والعدوان ، والتكبر والتجبر ، وتأمر به من المعروف . ومثل هذه المعوة لاتحتاج الى معجزات . وتنطوي على مايحمل الذين حسنت طواياهم ونياتهم وصدقت رغباتهم في الحقيقة والحق والهدى على الإرعواء والإذعان والاستجابة بدون معجزات . أما الذين خبثت طواياهم ، وساءت نياتهم، وفسدت أخلاقهم ، وتنكبوا طريق الحق والعدل والإنصاف ، وانعدمت فيهم الرغبة في الحق والحقيقة والهدى ، فلن يؤمنوا مهما راوا من الآيات والمعجزات . .

وهكذا تنفرد الدعوة القرآنية والرسالة المحمدية عما سبقها من حيث إنها لم تقم على الخوارق استجابة للتحدي ، وإنما قامت على خطاب العقل والقلب ، والبرهنة بما في الكو نمن إبداع ونظام وعظمة على وجود الله عز وجل ، واستحقاقه وحده للخضوع والعبادة والاتجاه ، وبطلان الشرك والوثنية وسائر التقاليد والعقائد المتناقضة مع ذلك ، وبما انطوى في كتاب الله وحكمة رسوله وسنته من مبادىء الحق والخير والبر والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وإحلال الطيبات ، وتحريم الخبائث والفواحش والآثام ما ظهر منها وما بطن . والحث على التضامن والتعاون والتواصي بالحق والصبر والمرحمة ، والنهي عن البغي والظلم ومنعهما ، ومنع الاستعلاء والواجبات ، ويتكافلون فيها ، ويسود الحق والعدل والحرية والإخوة والعروف والخير والبر .

وقد يصح أن يضاف الى هذا من حكمة الله الملموحة في عدم الاستجابة الى تحدي الكفار أن الانبياء السابقين قد جاؤوا لقومهم وأن المعجزات التي حكى القرآن أنه أظهرها على أيديهم هي لإقناع جيل هذه الاقوام الذي خوطب بالدعوة . في حين أن الله سبحانه قد شاء أن تكون رسالة محمد

صلى الله عليه وسلم لجميع الأجيال ، ودين الانسانية العام في جميع الأزمنة والأمكنة على ما قررته آية سورة التوبة هذه :

(هو الذي ارسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو ثره المشركون) (٣٣)(١) وآية سورة الفتح (هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيداً) (٢٨)وان الخوارق لو ظهرت وأثرت فإن ظهورهاو تأثيرها سوف ينحصر ان في من الدي أنزله على نبيه المعجزة الكافية والدائمة بدون ان في الكتاب الذي أنزله على نبيه المعجزة الكافية والدائمة بدون انقطاع لمن يريد أن يؤمن كما جاء ذلك في آية سورة العنكبوت (٤٨) .

ونستدرك أن ماقلناه لايعني أنالنبي صلعم لم تظهر على يديه معجزات، أو لم ير معجزات بانية بأو لم يؤيد الله رسوله والمؤمنين بمعجزات بفي القرآن وفي الأحاديث الصحيحة ما يؤيد ذلك والمعجزات هي في نطاق قدرة الله تعالى ويجب على المسلم الإيمان بكل ما أخبر به القرآن وثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم وفي عهده وإنما الذي يعنيه هو أن القرآن وقف موقفا سلبيا من طلب الكفار وتحديهم النبي بالإثبات بالمعجزات . ونقول هذا ونحن نعرف أن آية سورة القمر الأولى تذكر انشقاق القمر ، وأن هناك أحاديث مؤيدة لوقوع ذلك فعلا في زمن النبي بناء على طلب الكفار ، وأن ذلك لما وقع قالوا أن محمدا قد سحرنا ، غير أن هناك من فسر آية سورة القمر بأن الانشقاق سيكون عند وقوع الساعة ونهاية الدنيا ، وتوقف في صحة الاحاديث . وآية سورة الاسراء التي تذكر صراحة أن الله امتنع عن ارسال آية في عهد النبي قد تلهم احتمال صواب ذلك . والله تعالى أعلم .

ومما يجدر التنبيه عليه أن موقف القرآن كان سلبياً من ناحية الاجابة بالايجاب على التحدي ، وأنه ليس سلبيا الا من هذه الناحية وحسب مع

⁽١) في سورة الصف آية مماثلة وهي الآية (٩)

التعليل القوى المقنع الحكيم ، وأنه من ناحية الحجاج والبرهنة والتدليل والتنبيه الى أهداف الدعوة ايجابي كل الايجابية .

وهذه نقطة جديرة بالتنويه في صدد الرسالة المحمدية وخصائصها ، ففي سياق الرد على جحود الجاحدين لوجود الله ووحدته وإشراك غيره معه في الاتجاه والعبادة والخضوع والدعاء ووحوب وجوده ، واتصافه بصفات الكمال ، وفي سياق الحملة على الكفار والتنديد بهم بسببعقائدهم الشركة والوثنية الاخرى ، كعقيدتهم ببنوة الملائكة لله ، وفي سياق اثبات حقيقة الحياة الأخرى ونعيمها وعذابها ، وقدرة الله على إعادة الخلق الذي بدأه ، وما ينطوى في هذه الحقيقة من حكمة الحق والعدل والتنزه عن العبث ، وفي سياق الدعوة إلى الأعمال الصالحة ، وتقبيح الاعمال المنكرة السيئة على أنواعها وكون ذلك هو لصالح الانسانية وخيرها وسعادتها ، وبعبارة واحدة في سياق الدعوة الى أهداف الرسالة المحمدية المتنوعة وتقريرها قد ورد في القرآن آيات كثيرة جدا فيها من قوة الحجة ، ونصاعة البيان ، واستحكام البرهان وأسلوب الخطاب الموجه إلى العقل والقلب معا مافيه كل الايجابية ، وما لايسم أي منصف حسن النية والرغبة في الحق والحقيقة ، غير متعمد للعناد والمكابرة الا أن يسلم به، وأن يلمح منه الحكمة السامية المنطوية في موقف القرآن السلبي من التحدي ، وعدم رهن صدق الدعوة المحمدية بالآيات والمعجزات الخارقة.

والمناسبة تسيغ الاستطراد السى زعم حديث من بعض المبشرين والمستشرقين حيث يصل فيهم الهذيان الى القول: إن محمدا قد تلقى القرآن من ورقة بن نو فل أو بحيرة الراهب ، أو من حبر من أحبار اليهود(١) ولقد قال كفار العرب شيئا من ذلك حيث حكته عنهم آيات سورةالفرقان

⁽١و٢) انظر الجزء الاول من كتاب «البرهان في علوم القرآن» للزرقاني وكتاب الاسلام في قفص الاتهام لشوقي أبي خليل .

(3—٦) التي أوردناها قبل وردته عليه ، ولقد فند غير واحد من كتاب السلمين وعلمائهم هذا الهذيان (١) . ونقول إضافة الى ذلك : إنه كان على هؤلاء الزاعمين الهاذين أن يتورعوا عن هذيانهم لو كان فيهم عقل وإنصاف وإذعان للحق بعد حكاية القرآن ورده ، والقرآن نفسه يكذب هذا الهذيان أشد تكذيب بما فيه من صور كثيرة جدا لسيرة النبي بعد نبوته وتطور اللاعوة وأحداثها ، ومواقف الناس على اختلافهم منها وحالة العربوغيرهم في بيئة النبي قبل الاسلام مما لايمكن أن يصح في حال ألا أن يكون قد أوحي. اليه بعد النبوة وفي مناسبات الاحداث والوقائع .

-7-

ولقد سجل القرآن جولات أخرى بين النبي صلى الله عليه وسلم والجاحدين في صدد القرآن بالاضافة الى ما حكاه عنهم من زعمهم بأنه افتراء. وأساطير الاولين استكتبها وحفظها باملائها عليه ، وأعانه عليه قوم آخرون وبأنه قول بشر وسحر وكهانة وشعر يوحي به الشياطين وبأن الله لم ينزل على البشر شيئاً على ما أوردنا أمثلة منه قبل ، وما ورد في القرآن من أمثلة مماثلة أخرى . حيث سجل القرآن قولهم :إنهم لو شاؤوا لقالوا مثله ،وانه لو كان حقا من الله لكان الأولى أن ينزل على زعيم معروف مسموع عند الناس بدلا من أن ينزل على غيرزعيم مسموع واقتراح بأن يأتي بقرآن غيره أو يبدله ، أو بأن يأتي به جملة واحدة أو بلغة غير عربية ، وسجل تواصيهم فيما بينهم بالتشويش عليه حسما يتلوه على الناس حتى تكون لهم الغلبة فيما بينهم بالتشويش عليه حسما حاء ذلك في الآبات التالية :

١ - (وإذا تتلى عليهم آياتنا قالوا قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا ان.
 هذا إلا أساطر الأولئ) (الأنفال ٣١) •

٢ ـ (وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين لايرجون لقاءنا ائت
 بقرآن غير هذا أو بدله قل مايكون لي أن أبدله من تلقاء نفسي ، إن اتبع الا

⁽۱) انظر الجزء الأول من كتاب «البرهان في علوم القرآن» للزرقاني ، وكتاب «الاسلام في. قفص الاتهام» لشوقي أبي خليل .

مايوحي الي إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم • قل لو شاء الله ماتلوته عليكم ولا أدراكم به فقد لبثت فيكم عمرا من قبله أفلا تعقلون) • • (يونس ١٥ و ١٦) (١)

٣ ـ (وإذا بدلنا آية مكان آية والله أعليم بما ينزل قالوا إنما أنت مفتر بل أكثرهم لايعلمون • قل نزله روح القدس من ربك بالحق ليثبت الذين آمنوا وهدى وبشرى للمسلمين • ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر لسان الذي يلحدون اليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين • أن الذين لايؤمنون بآيات الله لايهديهم الله ولهم عذاب أليم • إنما يفتري الكنبالذين لايؤمنون بآيات الله وأولئك هم الكاذبون •) (النحل ١٠٠٠–١٠٥)

٤ ـ (قد كانت آياتي تتلى عليكم فكنتم على اعقابكم تنكصون ٠
 مستكبرين به سامرا تهجرون ٠ أفلم يدبروا القول أم جاءهم مالم يأت
 آباءهم الأولين ٠ أم لم يعرفوا رسولهم فهم له منكرون) (المؤمنون٦٦٩-٢٥)

٥ ـ (وقال الرسول يارب إن قومي اتخذوا هذا القرآن مهجوراً .
 وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا من المجرمين (٣) وكفى بربك هاديا ونصيرا .
 وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلا .٠) (الفرقان ٣٠ ـ ٣٢) .

٦ (وقال الذين كفروا لاتسمعوا لهذا القـرآن والغوا فيه لعلكـم تغلبون) (فصلت ٢٦) .

٧ ـ (إن الذين كفروا بالذكر لما جاءهم وانهلكتاب عزيز • لايأتيه الباطل من يين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد • مايقال لك الا ماقد قيل للرسل من قبلك إن ربك لذو مغفرة وذو عقاب أليسم • ولو جعلناه قرآنا

(۱) الآيات تأمر النبي بان يذكرهم بأنه لبث فيهم عمرا قبل أن يتلو القرآن فلم يفعل من نفسه ، فهو يتبع مايوحى اليه من ربه ولا يمكنه ان يبدل أو يغير فيه ،

(٢) في هذه الآيات شيء مها في آيات سورة حيث تذكرهم بأنهم يعرفون النبي ويعرفون صدقه ، وأنهم مع ذلك كانوا حينما يتلو القرآن ينكصون على أعقابهم هجراً له كأنها هو سامر قصاص .

(٣) الحملة تتضمن تقرير ظاهرة اجتماعية وهي إذا بعث الله رسلا انبرى لهم المجرمون
 بالعداء والمناوأة .

اعجميا لقالوا لولا فصلت آياته اءعجمي وعربي قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء والذين لايؤمنون في آذانهم وقر وهو عليهم عمى أولئك ينادون من مكان بعيد) (فصلت ٤١ ـ ٤٤) (١) .

٨ - (ولا جاءهم الحق قالوا هذا سحر وإنا به كافرون ، وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم) (الزخرف ٣٠-٣٢) (٢)

٩ - انتى لهم الذكرى وقد جاءهم رسول مبين . ثم تولوا عنه وقالوا
 معلتم مجنون) (الدخان ١٤و١٤) .

ولما قال قائلهم: إنه لو شاء لقال مثل القرآن وإن القرآن مفترى، وإنه أساطير الأولين أخذ القرآن يتحداهم بالإتيان بمثله، أو بشيء منه أو بحديث أو بسورة أو سور، ولهم أن يستعينوا على ذلك بشركائهم وشهدائهم ومن يستطيع مساعدتهم على ماجاء في الآيات التالية:

١ - (وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فاتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين) (المقرة ٢٣) .

٢ - (أم يقولون افتراه قل فأتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتهمن
 دون الله إن كنتم صادقين) (يونس ٣٨) .

٣ - (ام يقولون أفتراه قل فاتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين) (هود ١٣) .

⁽١) في الآيات مايلهم أنهم طلبوا نزول القرآن بغير اللغة العربية من قبيل التعجيز فردت عليهم

⁽٢) أي كان ينبغي أن ينزل على أحد عظماء مكة أو الطائف .

إ - (فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا لولا أوتي مثل ماأوتي موسى أو لم يكفروا بما أوتي موسى من قبل قالوا سحران تظاهرا وقالوا إنا بكل كافرون • قــل فأتوا بكتاب من عنــد الله هو أهــدى منهما أتبعه إن كنتم صادقين • •) القصص : ٩ و • ٥

٥ - (أم يقولون تقوله بل لايؤمنون ، فليأتوا بحديث مثله إن كانوا
 صادقن ، ،) الطور : ٢٣ و ٢٤

وقد وقفوا عاجزين أمام هذا التحدي كما تفيده هذه الآيات التي جاءت بعد تلك الآيات مماشرة:

ا فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين ٠٠) البقرة : ٢٤

٢ - (بل كذبوا بمالم يحيطوا بعلمه (١) ولما يأتهم تأويله كذلك كذب
 الذين من قبلهم فانظر كيف كان عاقبة الظالمين ٠٠) يونس : ٣٩

٣ - (فإن لم يستجيبو لكم فاعلموا أنما أنزل بعلم الله وأن لا إله إلا هو فهل أنتم مسلمون ٠٠) هود : ١٤

٤ - (فإن لم يستجيبوا لك فاعلم انما يتبعون اهواءهم ومن اضل ممن
 القصص: ٠٠ التبع هواه بغير هدى من الله إن الله لايهدي القوم الظالمين

وآية البقرة مدنية ، ومن أوائل القرآن المدني ، وفيها إخبار عن عجزهم بالنسبة للعهد المكي أيضا فضلا عن تقرير عجزهم البتة .

وهذا العجز المطلق البات سجل بأسلوب قوي رائع في سورة الإسراء

⁽١) كلبوا به اعتباطاً وجزافاً وبدون أن يستوعبوه ويفهموا مداه . وهذا شأن الملحدين واللامبالين .

على كل مخلوق من جن وإنس مهما تظاهروا وتعاونــوا كما ترى في هذه الآبــة .

(قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أنْ يأتوا بمثل هذا القرآنلايأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ٍ ظهيراً ٠٠) الإسراء: ٨٨

وهكذا انتصر كتاب الله ورسول هذا الانتصار الرائع المفحم على المجاحدين في الصراع الهائل المديد الذي نشب بينهم وبين رسول الله حول القرآن ، وثبت نصا وعقلا وحجاجاً أنه لايمكن إلا أن يكون من وحي الله ولا يمكن أن يكون صادراً عن عقل بشري.

ونقول استطراداً: إن المؤولين والمفسرين وقفوا تجاههذا العجز المطلق الذي سجله القرآن على الجاحدين مواقف متنوعة ، فمنهم من قال: إن الله صرفهم عن الإتيان بمثله مع قدرتهم عليه ، ومنهم من قال: إنه أعلى من افهامهم وأساليبهم ، ومنهم من جمع بين التنويه ببلاغة القرآن وروعة نظمه وسمو طبقته ، وبين ما احتواه من المبادىء والأسس والتلقينات التي فيها هدى ورحمة للعالمين في كل ظرف ومكان ومن الروحانية النافذة الى الأعماق في كل ذلك وهذا هو الحق والصواب ، وبه كان القرآن معجزة الله الكبرى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم التي اكتفى بها عن إظهار معجزات خارقة استجابة لتحدي الكفار على ما قررته آيات سورة العنكبوت (٥٠و١٥) التي استجابة لتحدي الكفار على ما قررته آيات سورة العنكبوت (٥٠و١٥) التي اوردناها قبل .

_ ٧ _

وهناك جولة طويلة سجلها القرآن بين النبي صلى الله عليه وسلم والجاحدين حول الحياة الأخروية ، لعلها أطول وأشد الجولات الجدلية بينه وبينهم ، وإثباتها هنا والتنويه بها مهمان في صدد مانحن فيه من الرد على الملحدين ، لأن إنكار هذه الحياة والجدل فيهامن أهم معالم إلحادهم .

ولقد كان الإندار القرآني بالحياة الأخروية التي اقتضتها حكمة الله تعالى ، والتي هي في نطاق قدرته على ما سوف نشرحه في مناسبة أخرى آتية ، وما سوف يكون فيها من محاسبة للناس على اعمالهم في الحياة الدنيا وثوابهم وعقابهم وفاق ذلك من أوائل ما نزل من القرآن استهدافا لحمل الناس على الاستجابة الى دعوة الله والاعمال الصالحة ، وانصرافهم عن الشرك والاعمال المنكرة ، وحثاً على ذلك بالإضافة إلى حقيقتها الإيمانية ، ثم استمر نزول ذلك في مختلف ادوار التنزيل حتى شغل حيزاً عظيماً في القرآن وبخاصة في السور المكية . فقابل الجاحدون هذه الحياة والوعيد بها بالإنكار الشديد والسخرية والتحدي المستمر ، فكان ذلك مما أدى إلى شغل هذا الموضوع ذلك الحيز العظيم ، ولقد صمد القرآن لهم ورد عليهم ردوداً متنوعة ، ثم استمر ينزل بالهدى ودين الحقوالإنذار بالحياة الأخروية دون أي تحرج من إنكارهم وسخريتهم ، ومن تسجيل ذلك حيث تظهر في ذلك عظمة صمود القرآن أيضاً في هذا الموضوع .

وآيات هذا الموضوع كثيرة جداً ، ومبثوثة في معظم السور، ونورد فيما يلي صوراً من مواقف الجاحدين فقط ، وردود القرآن عليها لأن هذا هو موضوع النبذة .

ا _ ولو ترى إذ و ُقفوا على النار فقالوا ياليتنا ترد ولا تكنّب بآيات ربنا وتكون من المؤمنين وبل بدا لهم ماكانوا يخفون من قبل ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون وقالوا إن هي إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين ولو ترى إذ و ُقفوا على ربهم قال أليس هـنا بالحق قالوا بلى وربنا قال فنوقوا العذاب بما كنتم تكفرون وقد خسر الذيب كنبوا بلقاء الله حتى إذا جاءتهم الساعة بفتة قالوا ياحسرتنا على مافرطنا فيها وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم ألا ساء ما يزرون وما الحياة الدنيا إلا لعب ولهو وللدًا الآخرة خير للذين يتقون أفلا تعقلون) الأنعام: ٢٧-٣٢

٢ ـ (وهو الذيخلق السموات والأرض فيستةايام وكان عرشه على الماء ليبلوكم أيكم أحسن عملاً ولئن قلت إنكم مبعوثون من بعد الموت ليقولن الذين كفروا إن هذا إلا سحر منن) هود : ٧

٣ - (واقسموا بالله جهد اینمانهم لایبعث الله من یموت بلی وعداً علیه حقا ولکن اکثر الناس لایعلمون . لینبین لهم الذی یختلفون فیه ولیعلم الذین کفروا آنهم کانوا کاذبین . إنما قولنا لشیء إذا اردناه آن نقول له کن فیکون) النحل : ٣٨ - ٠)

٤ – (وقالوا اإذا كنا عظاماً ورفاتاً اإنا لمبعوثون خلقاً جديداً • قل كونوا حجارة أو حديداً أو خلقاً مما يكبر في صدوركم فسيقولون من يعيدنا قل الذي فطركم أول مرة فسينغضون إليك رؤوسهم ويقولون متى هو قل عسى أن يكون قريباً) الإسراء : ٩٠ – ١٥

ه - (وقال الذين كفروا أإذا كناتراباً وآباؤنا أإنا لمخرجون و لقدو عدنا هذا نحن وآباؤنا من قبل إن هذا إلا أساطير الأولين وقل سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المجرمين ولا تحزن عليهم ولا تكن في ضيق مما يمكرون ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين وقل عسى أن يكون رد ف كم بعض الذي تستعجلون وإن ربتك لذو فضل على الناس ولكن أكثرهم لايشكرون) النمل : ٧٧ - ٧٧

٦ - (وقالوا اإذا ضللنا في الأرض اإنا لفي خلق جديد بل هم بلقاء ربهم كافرون • قل يتوفاكم ملك الموت الذي وكل بكم ثم إلى دبكم ترجعون • ولو ترى إذ المجرمون ناكسوا رؤسهم عند دبهم ربئنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحاً إنا موقنون) السجدة : ١٠ - ١٢

٧ - (وقال الذين كفروا هل ندلكم على رجل ينبئكم إذا 'مزقتم كل

منمز ق إنكم لفي خلق جديد ، أفترى على الله كذباً ام به جنت بل الذين لا يؤمنون بالآخرة في العذاب والضلال البعيد ، أفلم ير وا الى ما بين أيديهم وما خلفهم من السماء والأرض إن نشأ نتخسيف بهم الأرض أو نسقيط عليهم كسيفاً من السماء إن في ذلك لآية لكل عبد منيب) سبأ: ٧ - ٩

٨ - (وضرب لنا مثلا ونسي َ خاته قال من يحيي العظام وهي دميم • قليحييها الذي أنشأها أو ل مرة وهو بكل خلق عليم • الذي جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً فإذا أنتم منه توقدون • أوليس الذي خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق َ مثلهم بلى وهو الخلاق العليم • إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون • فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء وإليه ترجعون •) يس : ٧٧ - ٨٣

ونكتفي بما تقدم من الآيات التي لها أمثال كثيرة في سور عديدة أخرى.

ومن الجدير بالتأمل أن البعث الأخروي من الأمور الرئيسية التبي يجادل فيها الملحدون وينكرونها ، فيكونون بذلك ليسوا أول من يفعلون ، وقد سبقوا بمن فعلوه في مواجهة من أنزل عليه القرآن ، فتلقوا الرد القرآني الزاجر الرادع .

وننبه على أمر وهو أن ما أثبتناه في البنود السابقة هو في صدد المواقف المجحودية المطلقة التي هي بالدرجة الأولى في صدد مواقف المشركين والجاحدين العرب دون أهل الكتاب الذين لا يعتبرون من وجهة النظر الموضوعية ملحدين ، وانما كانت مواقف المناوئين والمماحكين منهم من القرآن والنبي صلى الله عليه وسلم مواقف كيد وجحود لنبي الاسلام ، ورسالته وقرآنه وحسب ، وقد شرحنا هذا الأمر في كتابنا «الرد على المبشرين » .

ويلحظ أن كل الآيات التي تمثل مواقف الجحود المتنوعة باستثناء الآيات التي تمثل مواقف المنافقين هي مكية ، ويستتبع هذا القول: إن هذه المواقف كانت في العهد المكي في الدرجة الأولى .

وفي القرآن ما يفيد أن أصحاب هذه المواقف كانوا من الأكابر والزعماء والأغنياء والوجهاء ، وأن الجمهور تبعهم بقوة تأثيرهم وتحريضهم كما ترى في الآيات التالية :

ا - (ولا تطرد الذين يدعون ربتهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ما عليك من حسابهم من شيء وما من حسابك عليهم من شيء فتطردهم فتكون من الظالمين ، وكذلك فتنتا بعضهم ببعض ليقولوا أهؤلاء من الله عليهم من بيننا أليس الله بأعلم بالشاكرين) الأنعام : ٢٥ - ٣٥ (١)

٢ - (وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً شياطين الإنس والجن يوحبي بعضهم ألى بعض 'زخرف' القول غروراً ولو شاء ربك ما فعلوه فذرهم وما يفترون . ولتصغى إليه أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة وليرضو 'ه' وليقترفوا ما هم 'مقترفون) الأنعام : ١١٢ ، ١١٤

" - (وكذلك جعلنا في كل قرية أكابر مجرميها ليمكروا فيها وما يمكرون إلا بأنفسهم وما يشعرون ، وإذا جاءتهم آية قالوا لن نؤمن حتى نؤتى مثل مأأوتي رسل الله الله أعلم حيث يجعل رسالته سيصيب الذين أجرموا صغار" عند الله وعذاب" شديد بما كانوا يمكرون) الأنعام : ١٢٣

⁽١) كان الزعماء يطلبون من النبي أبعاد فقراء المؤمنين عنه ، حتى يجلسوا إليه ويستهزئون بهم قائلين ماحكته الآية .

- ٤ (ونادى أصحاب الأعراف رجالا يعرفونهم بسيماهم قسالوا ما أغنى عنكم جمعكم وما كنتم تستكبرون ، أهؤلاء الذين أقسمتم لاينالهم الله برحمة ادخلوا الجنة لاخوف عليكم ولا أنتم تحزنون) الأعراف :
 ٨٤ و ٩٩
- وبرزوا شجميعاً فقال الضعفاء للذين استكبروا إنا كناً لكم
 تبعاً فهل أنتم مغنون عنا من عذاب الله من شيء قالوا لو هدانا الله لهديناكم
 سواء علينا أجزعنا أم صبرنا مالنا من محيص) ابراهيم: ٢١
- ٦ (الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله زدناهم عذاباً فوق العذاب بما كانوا يفسدون) (١) النحل : ٨٨

٧ ــ (واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالفداة والعشي يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم تريد زيئة الحياة الدنيا ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فنرطا) (٢) الكهف: ٢٨

٨ ـ (وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين كفروا للذين آمنوا
 أي الفريقين خير مقاماً وأحسن ندياً) (٢) مريم : ٧٣

٩ - (وإذاتتلى عليهم آياتنابينات تعرف في وجوه الذين كفروا المنكريكادون

⁽١) يكفرون ويمنعون غيرهم من الايمان .

⁽۲) كان النبي يحرص على هداية الزعماء والاغنياء ، لانه كان يرى تأثيرهم على الجمهور حتى كان يشمغل نفسه أحيانا بهم عن المؤمنين ، فنبهته الآية الى ماهو الأولى .

⁽٣) كان الأغنياء والزعماء من الكفار يتباهون امام المؤمنين بمالهم وجاههم اللذين يتفوقان بهما عليهم كأنما يريدون أن يقولوا: نحن أحظى منكم عند الله بل هذا ما قالوه كما حكته آيات سورة المؤمنين ٥١ و ٥٢ وآية سورة سبأ (٣٥) التي تأتي بعد ..

يسطون بالذين يتلون عليهم آياتنا قل افانبئكم بشر من ذلكم النار وعدها الله الذين كفروا وبئس المصير) (١) الحج: ٧٢

١٠ ـ (أيحسبون انها نهدهم به من مال وبنين ، نسارع لهم في الخيرات بل لايشعرون) المؤمنون : ٥٥ و ٥٦

11 - (قال اخسئوا فيها ولا تكلمون • إنه كان فريق من عبادي يقولون ربنا آمنا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الراحمين • فاتخذتموهم سخريا حتى أنسوكم ذكري وكنتم منهم تضحكون • أني جزيتهم اليوم بما صبروا أنهم هم الفائزون) المؤمنون : ١١٨ - ١١١

١٢ - (وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً من المجرمين وكفى بربك هادياً
 ونصيراً) الفرقان : ٣١

17 ــ (وقال الذين كفروا للذين آمنوا اتبعوا سبيلنا ولنحمل خطاياكم وماهم بحاملين من خطاياهم من شيء إنهم لكاذبون) (٢) العنكبوت : ١٢

۱۱ - (وقالوا ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا ،
 ربنا آتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعناً كبيراً) الاحزاب : ٦٧ و ٦٨ و

۱۵ - (ولو ترى إذ الظالمون موقوفون عند ربهم يرجع بعضهم الى بعض القول يقول الذين استضعفوا للذيناستكبروا لولا أنتم لكنا مؤمنين. قال الذين استكبروا للذين استضعفوا أنحن صددناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم بل كنتم مجرمين ، وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا بل مكر الليل والنهار اذ تامروننا أن نكفر بالله ونجعل له أنداداً وأسروا الندامة

⁽١) لا يفعل هذا الا الزعماء الأقوياء .

⁽٢) لايقول هذا الا الزعماء .

لما راوا العذاب وجعلنا الأغلال في أعناق الذين كفروا هل يجزون إلا ما كانوا يعملون . وما أرسلنا في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا بما أرسلتم به كافرون . وقالوا نحن أكثر أموالا وأولاداً ومانحن بمعذبين) سبأ ٢١ـ٣٥

١٦ – (وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءهم نذير ليكونن أهدى
 من إحدى الأمم فلما جاءهم نذير ما زادهم الا نفوراً . استكباراً في الأرض
 ومكر السيء ولا يحيق الكر السيء إلا بأهله) فاطر : ٢ } و ٣ }

۱۷ ـ (وإذا قيل لهم أنفقوا مما رزقكم الله قال الذين كفروا للذين آمنوا أنطعم من و يشاء الله أطعمه إن أنتم إلا في ضلال مبين) يس : ٧٤

۱۸ - (وانطلق الملأ منهم أن امشوا واصبروا على آلهتكم إن هــذا لشيء يـراد ، ما سمعنا بهذا في الملة الآخرة إن هذا إلا اختلاق ، أأنزل عليه الذكر من بيننا) (١) ص : ٦ و ٨

۱۹ - (وقالوا مالنا لانری رجالا کنا نعدهم من الأشرار .
 اتخذناهم سخریاً أم زاغت عنهم الأبصار .) ص : ٦٣ و ٦٤

7٠ - (ولما جاءهم الحق قالوا هذا سحر" وإنا به كافرون . وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ، أهم يقسمون رحمة ربك نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضاً سخرياً ورحمة ربك خير" مما يجمعون) (٢) الزخرف: ٣٠ و ٣١

⁽۱) هذا قول الزعماء حيث كانوا يرون أنهم الاولى أن ينزل الله عليهم القرآن إن كان حقا وينكرون أن يكون الله اصطفى محمداً غير الزعيم وغير الغني عليهم .

⁽۱) استنكروا أن ينزل القرآن على محمد ولم ينزل على رجل عظيم في مكة أو الطائف ، فردت عليهم الآيات أن تفاوت المراكز المادية بين الناس في الدنيا نظام اجتماعي لتبادل المنافع في الحياة ، وان النبوة رحمة واصطفاء من الله لن هو أهل لها بأخلاقه وسيرته .

العظيم .) الواقعة : ٥١ - ٦١ العظيم .) الواقعة : ٥١ - ٦٦

۲۲ ـ (ولا تطع كل حلاف مهين ، هماز مشاء بنميم ، مناع للخير معتد أثيم ، عتل بعد ذلك زنيم ، أن كان ذا مال وبنين ، إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين ،) القلم : ١٠ ـ ١٥

٢٣ ـ (وذرني والمكذبين أولى النَّعمة ومهلهم قليلا ٠) المزمل : ١١

٢٤ – (ذرني ومن خلقت وحيداً . وجعلت له مالا ممدوداً . وبنين شهوداً . ومهدت له تمهيداً . ثم يطمع أن أزيد . كلا إنه كان لآياتنا
 عنيداً .) المدثر: ١١ – ١٦

۲۵ – (اما من استفنی ، فانت له تصدی ، وما علیك الا یزكی ،
 واما من جاءك يسعی وهو يخشی ، فانت عنه تلهی ،) عبس : ٥ و ١٠ و

٢٦ _ (الهاكم التكاثر ، حتى زرتم المقابر ،) التكاثر : ١ و ٢

٢٧ ــ (ويل " لكل همزة لمزة ، الذي جمع مالا وعد "ده ، يحسب أن
 ماله أخلده ،) الهمزة : ١ و ٣

وقد تقصدنا الإكثار من الآيات ، لتبدو قوة الدلالة التي أردنا

ولقد كان للزعامة دور خطير في بيئة النبي صلى الله عليه وسلم ، والمجتمع العربي بعامة ، حيث كان الزعماء وخاصة الزعماء الأغنياء و وكثيراً ما كان التلازم متحققاً بين الفنى والزعامة في هذا المجتمع يتمتعون بنفوذ قوي ، يأمرون فيطاعون ، ويدعون فيستجابون ، ويسنون فيتبعون ، وتكون لهم الكلمة الفاصلة في المشاكل والمواقف والقضايا ،

فلما أخذ النبي صلى الله عليه وسلم يدعو بدعوته ، ويبلغ عن ربه ، ولم يكن بعد قد تجاوز سن الشباب كثيراً ، ولم يكن كذلك بارزاً في مجال الزعامة والثروة ، بفتوا ، وعظم عليهم أن يكون داعية يستجاب ، ومرشدا يهتدي به الناس ، ولواء "ينضوون إليه من دونهم ، وكانوا هم أنفسهم من المدعووين المراد انضواؤهم الى هذا اللواء أسوة بسائر الناس، فاستكبروا الأمر واستنكروه ، وقالوا : إنه لو كان حقاً لكانوا هم المنتدبين للدعوة ، الأمر والمكلفين بالمهمة ، لأن الناس انما يستجيبون إليهم ، وتساءلوا كيف ينزل القرآن عليه من دونهم ، وقالوا : لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتي رسل الله ، أو ينزل على كل منا كتاب من الله ، وهزئوا بالنبسي واستصغروا شأنه ، على ما حاء في بعض الآبات التي أوردناها .

- A -

ولقد كانت الدعوة القرآنية دعوة ثورية شاملة لكل شيء حيث دعت أولا الى الله وحده عبادة ودعاء واتجاها ، وحاربت كل انواع مظاهر الشرك والوثنية التي كانت سائدة في العرب بما في ذلك عقيدة كون الملائكة بنات الله وشفعاءهم لديه حرباً شديدة مما يتمثل في الآيات التي أخذت تنزل من أول العهد المكي وتستمر ، ومنها هذه المجموعة التي لها أمثال كثيرة مبثوثة في مختلف السور وبخاصة المكية :

ا _ (وإلهكم إله واحد لاإله الا هو الرحمن الرحيم ، ان في خلق السماوات والارض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دبة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والارض لآيات لقوم يعقلون ، ومن الناس من يتخذ من دون الله اندادأ يحبونهم كحب الله والذين آمنوا أشد حباً لله ولو يرى الذين ظلموا إذ يرون العذاب أن القوة لله جميعاً وأن الله شديد العذاب)

أ - (قل أي شيء أكبر شهادة قل الله شهيد بيني وبينكم وأوحي إلى هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ أإنكم لتشهدون أن مع الله آلهـة أخرى قل لا أشهد قل إنما هو إله واحد وإنني بريء مما تشركون .)
 الأنعـام: ١٩

٣ – (أيشركون مالا يخلق شيئاً وهم يخلقون ، ولا يستطيعون لهم نصراً ولا أنفسهم ينصرون ، وإن تدعوهم الى الهدى لايتبعوكم سـواء عليكم أدعوتموهم أم أنتم صامتون ، ان الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم فادعوهم فليستجيبوا لكم إن كنتمصادقين) الاعراف : ١٩١ – ١٩٤

إن ربكم الله الذي خلق السموات والأرض في ستة ايام شم استوى على العرش يدبر الأمر ما من شفيع إلا من بعد إذنه ذلكم الله ربكم فاعبدوه أفلا تذكرون ، اليه مرجعكم جميعاً وعد الله حقاً إنه يبدؤ الخلق ثم يعيده ليجزي الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالقسط والذين كفروا لهم شراب من حميم وعذاب" اليم بما كانوا يكفرون .) يونس: ٣ و ؟

م ـ (ويعبدون من دون الله مالا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله قــل أتنبؤن الله بمالا يعلم في السموات ولا في الأرض سبحانه وتعالى عما يشركون ٠) يونس: ١٨

٦ - (وقالوا اتخذ الرحمن ولداً سبحانه بل عباد مكرمون ، لايسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون . يعلم مابين أيديهم وما خلفهم ولا يشفعون إلا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون . ومن يقل منهم إني إله من دونه فذلك نجزيه جهنم كذلك نجزي الظالمين .) الأنبياء : ٢٦ ـ ٢٩ ـ ٢٩

الا شه الدین الخالص والذین اتخدوا من دونه اولیاء مانعبدهم إلا لیقربونا الی الله زلفی إن الله یحکم بینهم فیما هم فیه یختلفون إن الله لایهدی من هو کاذب کفار ٠) الزمر: ٣

٨ - (ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر لاتسجدواللشمس ولالقمر واسجدوا لله الذي خلقهن إن كنتم إياه تعبدون ، فإن استكبروا فالذين عند ربك يسبحون له بالليل والنهار وهم لايسامون) فصلت : ٣٧ و ٣٨ عند ربك يسبحون له بالليل والنهار وهم لايسامون) فصلت : ٣٧ و ٣٨

٩ - (قل هو الله أحد ، الله الصمد ، لم يلد ، ولم يولد ، ولـم
 يكن له كفواً احد) ،

وحيث نددت: ثانياً بكثير من عادات الجاهلية المنكرة، وبينت مافيها من شذوذ وتعسف، مثل وأد البنات، والطواف في حالة العري، والتحليل والتحريم الجاهليين للانعام في بعض الظروف، والتفاخر بالانساب، والاسراف في الثارات كما ترى في الأمثلة التالية:

ا - (وجعلوا لله مما ذرا من الحرث والأنعام نصيباً فقالوا هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا فما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله وما كان الله فهو يصل الى شركائهم ساء ما يحكمون وكذلك زين لكثير من المشركين قتل أولادهم شركاؤهم ليردوهموليلبسوا عليهم دينهم ولو شاء اللهمافعلوه قذرهم وما يفترون وقالوا هذه أنعام وحرث حجر لايطهمها إلا منن نشاء بزعمهم وأنعام حرمت ظهورها وأنعام لايذكرون اسم الله عليها افتراء عليه سيجزيهم بما كانوا يفترون وقالوا ما في بطون هذه الانعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا وإن يكن ميتة فهم فيه شركاء سيجزيهم وصفهم إنه حكيم عليم . قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفها بغير عالم وحرموا ما رزقهم الله افتراء على الله قد ضلوا وما كانوا مهتدين .)

٢ - (يابني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد) (١) الاعراف : ٣١

⁽١) المفسرون والروايات متفقون على أن هذه الآية في صدد منع الطواف بالعري .

٣ - (قل أرأيتم ما أنزل الله لكم من رزق فجعلتم منه حراماً وحلالا
 قل آلله أذن لكم أم على الله تفترون . وما ظن الذين يفترونعلى الله الكذب
 يوم القيامة إن الله لذو فضل على الناس ولكن أكثرهم لايشكرون .)
 يونس : ٥٥ و ٢٠

إ ـ (وإذا بشر احدهم بالأنثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم ،
 يتوارى من القوم من سوء ما بشر به أيمسكه على هون أم يدسه في التراب
 الا ساء مايحكمون ،) النحل : ٥٨ و ٥٩

٥ - (فاذا نفخ في الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون ٠
 فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون ٠ ومن خفت موازينه فأولئك
 الذين خسروا أنفسهم في جهنم خالدون ٠) المؤمنون : ١٠١ و ١٠٣

٦ - (ولا تقتلوا النفس التي حرَّم الله إلا بالحق ومنَ قتل مظلوماً فقد جعلنا لوليه سلطاناً فلا يسرف في القتل إنه كان منصوراً ٠)
 الإسراء: ٣٣

٧ _ (وإذا الموؤة سئلت . بأي ذنب قتلت .) التكوير: ٨ و ٩

وحيث اخذت الآيات القرآنية ثالثاً: تدعو منذ بدء نزول القرآن وتستمر الى إطعام المساكين ، والبر بالفقراء والضعفاء ، والرحمة والعناية بالأيتام وحقوقهم ، وعتق العبيد ، واداء زكاة المال ، والتصدق به ، والتعامل بالعفو والحسنى ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، وتنعى على حب المال وكنزه ومنعه والاستغراق في الشهوات ، والاسراف والتبذير والكبر والخيلاء والبخل ، وتنهى عنه وعن الفواحش والإثم والبغي الخكما ترى في الأمثلة التالية :

١ _ (قل إنها حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والاثم

والبغي بغير الحق وأن تشركوا بالله مالم ينزل به سلطاناً وأن تقولوا على الله مالا تعلمون •) الاعراف: ٣٣

٢ - (الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والانجيل يأمرهم بالعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والاغلال التي كانت عليهم فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون ٠) الاعراف: ١٥٧

٣ ـ (خذ العفو وامر بالعرف وأعرض عن الجاهلين • وإما ينزغنك
 من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه سميع عليم •) الاعراف : ٢٠٠و١٩٩

إن المبئرين كانوا إخوان الشياطين وكان الشيطان لربه كفوراً . وإما تعرضن عنهم ابتفاء رحمة من ربك ترجوها فقل لهم قولا ميسوراً . ولا تعرضن عنهم ابتفاء رحمة من ربك ترجوها فقل لهم قولا ميسوراً . ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطهاكل البسط فتقعد ملوماً محسوراً . ولا أن ربك يبسط الرزق لن يشاء ويقدر إنه كان بعباده خبيراً بصيراً . ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم إن قتلهم كان خطئاً كبيراً . ولا تقربوا الزنا انه كان فاحشة وساء سبيلا . ولا تقتلوا النفس التي حرام الله إلا بالحق ومن قتل مظلوماً فقد جعلنا لوليه سلطاناً فلا يسرف في القتل إنه كان منصوراً . ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي يسرف في القتل إنه كان منصوراً . ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي الكيل إذا كلتم وزنوا بالقسطاس المستقيم ذلك خير وأحسن تأويلا . وأوفوا الكيل إذا كلتم وزنوا بالقسطاس المستقيم ذلك خير وأحسن تأويلا . ولا تقف ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا . ولا تمش في الارض مرحاً انك لن تخرق الارض ولن تبلغ الجبال طولا . كل ذلك كان سيئه عند ربك مكروها .) الاسراء : ٢٦ و ٣٨

- إ ـ (ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً وقــال إنني من المسلمين . ولا تستوي الحسنة ولا السيئة إدفع بالتي أحسن فاذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي" حميم" .) فصلت : ٣٢ و ٣٣
 - ٥ ـ (فأعرض عمن تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا ٠)
 النجم : ٢٩
- ٦ (واصحاب الشمال ما اصحاب الشمال . في سموم وحميم .
 وظل من يحموم . لابارد ولا كريم . إنهم كانوا قبل ذلك مترفين . وكانوا يصرون على الحنث العظيم .) الواقعة : ١١ و ٢٦
- ٧ ـ كل نفس بما كسبت رهينة ، إلا أصحاب اليمين ، في جنات يتساءلون ، عن المجرمين ، ما سلككم في سقر ، قالوا لم نك من المصلين ، وكنتًا نخوض مع الخائضين ،) المدثر : ٣٨ و ٨٨
 - $\Lambda = ($ کلا بل تحبون العاجلة \cdot وتذرون الآخرة \cdot) القيامة \cdot \cdot 1 و \cdot 1
- ٩ كلا بل لاتكرمون اليتيم ولا تحاضون على طعام المسكين •
 وتأكلون التراث أكلا لمنا وتحبون المال حبا جَما) الفجر : ١٧ ١٠
- 10 (فلا اقتحم العقبة ، وما أدراك ما العقبة ، فك رقبة ، أو اطعام في يوم ذي مسفبة ، يتيماً ذا مقربة ، أو مسكيناً ذا متربة ، شم كان من الذين آمنوا وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة ، أولئكأصحاب الميمنة ،) البلد : ١١ و ١٨
- ۱۱ ـ (فأما مَن أعطى واتقى ، وصدق بالحسنى ، فسنيسره للعسرى، لليسرى ، وأما منبخل واستغنى وكذببالحسنى ، فسنيسره للعسرى، وما يغني عنه ماله إذا تردى ، إن علينا للهدى ، وإن لنا للآخرة والاولى ،

فاندرتكمناراً تلظى • لايصلاها إلا الاشقى • الذيكذبوتولى • وسيجنبها الأتقى الذي يؤتي ماله يتزكى • وما لأحد عنده من نعمة تجزى إلا ابتفاء وجه ربه الأعلى • ولسوف يرضى •) الليل: ٥ - ٢١

۱۲ - (فأما اليتيم فلا تقهر ٠ وأما السائل فلا تنهر ٠ وأما بنعمة
 ربك فحدث ٠) الضحى : ٩ - ١١

17 - (إن الانسان لربه لكنود ، وإنه على ذلك لشهيد ، وإنه لحب الخير لشديد ، أفلا يعلم اذا بعثر ما في القبور ، و حصل ما في الصدور ، إن ربهم بهم يومئذ لخبير ،) العاديات : ٦ - ١١

الذي الذي الذي الذي والدين و فذلك يدعدُ اليتيم ولا يحض على طعام المسكين و فويل المصلين والذين هم عن صلاتهم ساهون والذين هم يراؤون ويمنعون الماعون و الماعون ويمنعون الماعون و الماعون

فكان ذلك كله بالاضافة الى كون النبي محمد صلى الله عليه وسلم من غير الزعماء مما جعل الزعماء والاغنياء ، يرون في بعثته وقرآنه ، ودعوته خطراً على مراكزهم وتقاليدهم وثرواتهم ، وينبرون لمناواته ، وتأليب الجمهور ضده ، فكانت تلك الجولات المتنوعة التي أوردنا صورها القرآنية العديدة بينه وبينهم ، ولقد ظل القرآن يستجل ما يستجل من مواقف الجاحدين رغم ما فيها من تحد ووقاحة وسخرية وسوء أدب وإحراج وتعجيز ومكابرة ، ويرد عليها ، ثم يأمر النبي صلى الله عليه وسلم

بأن يدع الجاحدين لضمائرهم وعقولهم ومصائرهم دون أبوه بمواقفهم ٤ هاتفاً به بما جاء في هذه الآيات :

١ = (قد جاءكمبصائر من ربكم فمنأبصر فلنفسه ومن عمي فعليها
 وما أنا عليكم بحفيظ ٠) الانعام : ١٠٤

٢ - (وإن كذبوك فقل لي عملي ولكم عملكم أنتم بريئون مما أعمل.
 وأنا بريء مما تعملون • ومنهم من يستمعون إليك أفأنت تسمع الصمئول ولو كانوا لايعقلون • ومنهم من ينظر اليك أفأنت تهدي العمي ولو كانوا لايبصرون •) يونس : ١١ - ٣٤

٣ ــ (ولا يحزنك قولهم إن العزة شه جميعاً هو السميع العليم ٠)
 يونس : ٥٦

إ ـ (قل يا أيها الناس قد جاءكم الحق من ربكم فمن اهتدى فانما يهتدي لنفسه ومن ضل فانما يضل عليها وما أنا عليكم بوكيل واتبع ما ينوحى إليك واصبر حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين ٠)
 يونس : ١٠٨ و ١٠٩

٥ - (أدع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي أحسن إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين • وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ماعوقبتم به ولئن صبرتم لهو خير للصابرين • واصبر وما صبرك إلا بالله ولا تحزن عليهم ولا تك في ضيق مما يمكرون إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون •) لنحل : ١٢٥ - ١٢٨

٦ _ (فاصبر على ما يقولون وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها ومن أناء الليل فسبح وأطراف النهار لعلك ترضى ٠) طبه : ١٣٠

٧ - (قل كل متربص فتربصوا فستعلمون من أصحاب الصراط السوي و من اهتدى ٠) طــه : ١٣٥

٨ - (فتوكل على الله إنك على الحق المبين ٠ إنك لاتسمع الموتسى
 ولا تسمع الصم الدعاء اذا ولوا مدبرين ٠ وما أنت بهادي العمي عن ضلالتهم إن تسمع إلا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون ٠) النحل : ١٩٩-٨١

٩ - (فاصبر إن وعد الله حق ولا يستخفنك الذين لايوقنون ٠)
 الروم: ٦٠

ا - (أفمن زين له سوء عمله فرآه حسناً فان الله يفسل من يشاء ويهدي من يشاء فلا تذهب نفسك عليهم حسرات إن الله عليهم بما يصنعون ١) فاطر : ٨

۱۱ ـ (قل ما أسألكم عليه من أجر وما أنا من المتكلفين . إن هو إلا ذكر للعالمين . ولتعلمن أنبأه بعد حين .) ص : ٨٦ ـ ٨٨

۱۲ - (إنا أنزلنا عليك الكتاب للناس بالحق فمن اهتدى فلنفسه وَمَن ضَلَ فانها يضل عليها وما أنت عليهم بوكيل ٠) الزمر : ١٦

١٣ - (وقيله يارب إن هؤلاء قوم لايؤمنون ٠ فاصفح عنهم وقل
 سلام فسوف يطمون) ٠ الزخرف : ٨٨ ، ٨٩

١٤ - (فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل ولا تستعجل لهم كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار بلاغ فهل يهلك إلا القوم الفاسقون ٠) الأخقاف : ٣٥

(نحن أعلم بما يقولون وما أنت عليهم بجبار فذكر بالقرآن مسن يخاف وعيد ٠) ق : ٥٥ (١)

⁽١) ليست هذه كل الآبات من بابها ففي القرآن المكي خاصة آيات كثيرة أخرى .

۱۵ - (واصبر على مايقولون واهجرهم هجراً جميلا · وذرني والمكذبين أولي النعمة ومهلهم قليلا ·) المزمل : ١١ و ١١

۱٦ ـ (فذكر إنما انت مذكر ، لست عليهم بمسيطر ،) الفاشية : ١١ و ١٢

۱۷ _ (قل یاایها الکافرون . لا اعبد ماتعبدون . ولا انتم عابدون ما اعبد . ولا انا عابد ما عبدتم ولا انتم عابدون ما اعبد . لكم دينكم ولي ديني .) سورة الكافرون

ثم يستمر في النزول عليه ليستمر في دعوته مبشراً منذراً ، تالياً على الناس ما ينزل عليه من آيات الحقوالهدى والأمثالوالحكمة والعبرة، داعياً الى الله وحده ، والعمل الصالح محذراً من الكفر والشرك والمنكرات. حيث تبلغ عظمة الصمود القرآني الذروة تجاه الجاحدين والملحدين والمنكرين والمتمحلين والمتواقحين .

ولقد انتصرت دعوة الله ورسالة رسوله ، واستجاب اليها مختلف الفئات في حياة النبي ثم من بعده في مشارق الارض ومفاربها على ماسوف نشرحه بعد ، فتحقق بذلك إعجاز الإنباء القرآني الذي احتوته آيات الروم ٢٠ ، و ص ٨٦ ـ ٨٨ وغيرهما مما لم نورده .

ولقد علم الله أن مواقف الجاحدين والمنكرين والمتواقحين تثير في نفس رسوله أزمات وهموماً وهو الحريص على أن تستجاب دعوته ، ويهتدي الناس جميعاً بهدي الله وقرآنه ، فاقتضت حكمته تسليته ، وتهدئت روعه ، وايذانه بأن دعوته تستجاب من قبل ذوي النيات الحسنة والرغبة الصادقة في الحق والهدى ، وفي الآيات السابقة امثلة عديدة لذلك ، وفي ما يلى امثلة أخرى :

1 - (قد نعلم إنه ليحزنك الذي يقولون فانهم لايكذبونك (۱) ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا ولا مبدل لكلمات الله ولقد جاءك من نبإ المرسلين وإن كان كبر عليك اعراضهم فان استطعت أن تبتغي نفقاً في الارض أو سلماً في السماء فتأتيهم بآية ولو شاء الله لجمعهم على الهدى (٢) فلا تكونن من الجاهلين وانها يستجيب الذين يسمعون والموتى يبعثهم الله ثم اليه يرجعون و) الانعام: ٣٣ - ٣٦

٢ - (فلعلك باخع نفسك على أثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا ٠ إنا جعلنا ما على الارض زينة لها لنبلوهم أيتهم أحسن عملا ٠)
 الكهف : ٢ ، ٧

٣ ـ (واصبر نفسكمع الذين يدعون ربهم بالفداة والعشي يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطاً . وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن و من شاء فليكفر إنا أعتدنا للظالمين ناراً أحاط بهم سرادقنها وإن يستغيثوا يفاثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه بئس الشراب وساءت مرتفقاً .
 إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات إنا لانضيع أجر من أحسن عملا .)
 الكهف : ٢٨ ـ ٣٠٠

إ ـ (فانها يسرناه بلسانك لتبشر به المتقين وتنذر به قوماً له؟ .)
 مريم : ٩٧

 ⁽۱) العبارة قد تفيد والله أعلم أنهم لا يقولون لك كذاب لانهم يعرفون عنك الصدق 4.
 ولكنهم غير مؤمنين أصلا بآيات الله .

⁽٢) المبارة قد تفيد والله أعلم أن الله قادر على أن يقسرهم على الهدى ولكن حكمته اقتضت ترك الناس لتمييزهم واختيارهم ليستحقوا الثواب والعقاب وقاق ذلك .

٥ - (طه ، ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى ، إلا تذكرة لن يخشى)
 طــه : ١ - ٣

٦ - (لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين ٠) الشعراء: ٣

٧ - (إنك لاتسمع الموتى ولا تسمع الصم الدعاء إذا ولوا مدبرين وما أنت بهادي العمي عن ضلالتهم إن تسمع الا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون ٠) النمل : ٨٥ ، ٨١

۸ ـ (إنما تنذر من اتبع الذكر وخشي الرحمن بالفيب فبشره بمففرة وأجر كريم ٠) يس : ١١

٩ ــ (وما علمناه الشعر وما ينبغي له إن هو إلا ذكر وقرآن مبين ٠
 ليننر من كان حياً ويحق ً القول على الكافرين ٠) يس : ٦٩ و ٧٠

• ۱ - (عبس وتولى • أن جاءه الأعمى • وما يندريك لعله يزكى • أو يذكر فتنفعه الذكرى • امنًا من استغنى فأنت له تصدى • وما عليك الا يزكى • وأمنًا من جاءك يسعى وهو يخشى • فأنت عنه تلهى • كلا إنها تذكرة • فمن شاء ذكره •) عبس : ١ - ١١(١)

وفي القرآن في سياق الجدل والحجاج حيناً ، وباسلوب تقريري مطلق حيناً مجموعتان من الآيات ذواتا مغزى هام في صدد الوحي القرآني وكتاب الله وهدفه ، وفي واحدة منهما توكيد بأن القرآن منزل من الله على رسوله لينذر به الناس والعالمين ، ويخرجهم من الظلمات الى النوري، وأنه كتاب حكيم مبين الآيات والفصول ، وفيه هدى وشفاء ورحمة ،

⁽۱) هناك آيات كثيرة من باب هذه الآيات فاكتفينا بما أوردناه ، اقرأ أيضاً آيات الانعام ٥١ و ١٢٧ و الاعراف ١ و ٢ ويونس ٩٩ وهود ١٢ و ١١٩ ـ ١٢٣ والرعد ٢٧ و ٢٨ و ٣١ و ٣١ ع

وفي الأخرى إهابة بالسامعين بأن يتفكروا ويترووا ويتدبروا ما يتلى عليهم من آيات القرآن وتقريراته ، وبأنه أنزل لقوم يعلمون ويعقلون ويسمعون ويتفكرون ، ولأجل أن تتدبروا وتتذكروا .

وهذه طائفة من المحموعة الاولى:

١ - (ألم • ذلك الكتاب لاريب فيه هدى ً للمتقن •) للقرة: ١ و ٢

٢ ــ (الم الله لا إله إلا هو الحي القيوم • نز "ل عليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه وأنزل التوراة والانجيل من قبل هدى للناس وأنزل الفرقان إن الذين كفروا بآيات الله لهم عذاب شديد والله عزيز ذو انتقام ، إن الله لايخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء •)آل عمران : ١ ـ ٣

٣ - (لكن ِ الله يشهد بما أنزل إليك أنزله بعلمه والملائكة يشهدون وكفى بالله شهيداً •) النساء: ١٦٦

٤ – (یاأهل الکتاب قد جاءکم رسولنا یبین لکم کثیراً مما کنتـم تخفون من الکتاب ویعفو عن کثیر قد جاءکم من الله نور وکتاب مبـین ،
 یهدی به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ویخرجهم من الظلمات الی النور باذنه ویهدیهم الی صراط مستقیم ،) المائدة : ١٥ و ١٦

٥ - (قل أي شيء أكبر شهادة قل الله شهيد بيني وبينكم وأوحي إلى هذا القرآن لأندركم به ومن بلغ ٠) الانعام : ١٩

٦ - (وهذا كتاب أنزلناه مبارك مصدق الذي بين يديه ولتنذر أم القرى و من حولها والذين يؤمنون بالآخرة يؤمنون به وهم على صلاتهم يحافظون ٠) الانصام : ٩٢

٧ ـ (أفقير الله ابتغي حكماً وهو الذي أنزل اليكم الكتاب مفصلاً والذين آتيناهم الكتاب يعلمون أنه منزل من ربك بالحق •) الانعام: ١١٤

٨ ـ (المص ، كتاب أنزل اليك فلا يكن في صدرك حرج منه لتنذر
 به وذكرى للمؤمنين ،) الاعراف : ١ و ٢

٩ ـ الر ، تلك آيات الكتابالحكيم ، اكان للناس عجباً أن أوحينا
 إلى رجل منهم أن انذر الناس وبشر الذين آمنوا أن لهم قدم صدق عند
 ربهم قال الكافرون إن هذا لساحر مبين ،) يونس : ١ ، ٢

۱۰ ـ (وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين ٠) يونس : ٣٧

۱۱ ـ (الر ، كتاب احكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير ،) هود : ۱

۱۲ ـ الر ، تلك آيات الكتاب المبين ، إنا أنزلناه قرآناً عربيساً لعلكم. تعقلون ،) يوسف : ١ و ٢

١٣ ـ الر ، تلك آيات الكتاب والذي أنزل إليك من ربك الحق ولكن أكثر الناس لايؤمنون ،) الرعد : ١

۱۱ - (الر ، كتاب انزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات الى النور بإذن ربهم الى صراط العزيز الحميد ،) ابراهيم : ١

الر ، تلك آيات الـكتاب وقرآن مبين ، ربما يود الـذين
 كفروا لو كانوا مسلمين ، ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الامـل فسوف
 يعلمون ،) الحجر : ١ ـ ٣

۱٦ ـ (ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين ٠) النحل : ٨٩

۱۷ - (وإنه لتنزيل رب العالمين ، نزل به الروح الأمين ، على قلبك لتكون من المنذرين ، بلسان عربي مبين ،) الشعراء : ١٩٢ - ١٩٥

١٨ - (فلا أقسم بمواقع النجوم ، وإنه لقسم لو تعلمون عظيه .
 إنه لقرآن كريم ، في كتاب مكنون ، لايمسه إلا المطهرون ، تنزيل من رب العالمين ،) الواقعة : ٧٥ - ٧٩ (١)

ومن المجموعة الشانية:

ا - (ويسألونك ماذا ينفقون قل العفو كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون ٠) البقرة : ٢١٩
 ٢ - (كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تعقلون ٠) البقرة : ٢٤٣

٣ - (وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون ، وهو الـذي أنشأكم من نفس واحـدة فمستقر ومستودع قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون ،)الانعام : ٩٧ و ٩٨

إ - (قل من حرّم زينة الله التي آخرج لعباده والطيبات من الرزق
 قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة كذلك نفصل
 الآيات لقوم يعلمون ٠) الأعراف: ٣٢

⁽۱) هناك آيات كثيرة أخرى من باب ما أوردناه ، فاكتفينا بها تقدم ، اقرأ إذا شئت آيات سورة النحل 1.1 و 1.7 ، والاسراء 1.8 و 1.7 ، والنمل 1.7 ، والمنكبوت 1.7 ، ولقمان 1.7 ، والسجدة 1.7 ، ويس 1.7 و 1.7 ، والمنكبوت 1.7 ، وقصلت 1.7 ، و 1.7 ، والزخرف 1.7 ، والدخان 1.7 ، والنجم 1.7 ، والحاقة 1.7 ، والتكوير 1.7 ، والنجم 1.7 ، والحاقة 1.7 ، والتكوير 1.7 ،

م - (إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام حتى إذا أخذت الأرض زخرفها واتزيتنت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلا أو نهاراً فجعلناها حصيداً كأن لم تفن بالأمس كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون ٠)
 يونس: ٢٤

٦ (فأما الزيد فيذهب جفاء وأما ماينفع الناس فيمكث في الأرض
 كذلك بضرب الله الأمثال ٠) الرعد : ١٧

V = (100 Mpc) للم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون V = V

٨ ـ ('ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات إنفي ذلك لآية لقوم يتفكرون • وسخر لكم الليلوالنهار والشمس والقمر والنجوم' مسخرات بأمره إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون • وما ذرأ لكم في الأرض مختلفاً ألوانه إن في ذلك لآية لقوم يذكرون •)
 النحل : ١١ و ١٢

٩ - (ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مود"ة ورحمة إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم والوائكم إن في ذلك لآيات للعالمين ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغاؤكم من فضله إن في ذلك لآيات لقوم يسمعون ومن آياته يريكم البرق خوفاً وطمعاً وينزل من السماء ماء فيحيي به الأرض بعد موتها إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون ٠) الروم : ٢٠ - ٢٤

۱۰ ـ (كتاب انزلناه إليك مبارك ليد بروا آياته وليتذكر أولوا الألباب ٠) ص : ٢٩

۱۱ - (ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كلمثل لعلهم يتذكرون. قرآناً عربياً غير ذي عوج لعلهم يتقون ٠) (١) الزمر : ٢٧ و ٢٨

- 11 -

وهذا بالاضافة الى أن في القرآن آيات فيها تعظيم لجريمة الافتراء على الله بسبيل توكيد كون النبي لايمكن أن يرتكب هذه الجريمة ، وأنه صادق كل الصدق في التبليغ عن الله كما ترى في الأمثلة التالية:

ا - (ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً أو قال أوحي إلي ولم
 يوح إليه شيء ٠) الأنعام : ٩٣

٢ - (أو لم يتفكروا ما بصاحبهم من جِئة إن هو إلا ندير مبين .)
 الأعراف : ١٨٤

٣ - (وإذا لم تأتهم بآية قالوا لولا اجتبيتها قل إنما أتبع ما يوحى
 إلي من ربي هذا بصائر من ربكم وهدى ورحمة لقوم يؤمنون ٠)
 الأعراف : ٢٠٣

إذ تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين لايرجون لقاءنا ائت بقرآن غير هذا أو بدله قل ما يكون لي أن أبدله من تلقاء نفسي إن اتبع الا مايوحى الي اني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم . قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا ادراكم به فقد لبثت فيكم عمرآمن قبله أفلا تعقلون . فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو كذب بآياته انه لا يفلح المجرمون .) (٢) يونس : ١٥ و ١٧

⁽۱) والآيات ليستكل ما في القرآن من بابها ، ففيه آيات كثيرة اخرى ، اقرأ أيضا آيات النحمل ؟} والقصص ٢٦ ، والعنكبوت ١١ و ٤٤ ، والجماثية ١٣ ، والحمديد ١٧ ، والحشر ٢١

⁽٢) الآيات تأمر النبي بأن يقول لهم : إنه لم يكن يتصدى لهم قبل وهم يعرفون أخلاقه وعدم فضوليته ، وهذا وحده يكفي ليعرفوا أنه صادق ، وأنه يبلغهم وحي الله ، ويقف عنده ، ويخاف إن عصاه ، ويعرف أنه ليس من إجرام أعظم من الافتراء على الله .

٥ ـ (وإذا بدلنا آية مكان آية والله أعلم بما ينزل قالوا إنما أنت مفتر بل اكثرهم لايعلمون • قل نزله روح القدس من ربك بالحق ليثبت الذين آمنوا وهدى وبشرى للمسلمين •) النحل : ١٠١ و ١٠٢

٦ - إنما يفتري الكذب الذين لايؤمنون بآيات الله وأولئك هـــم
 النحل: ١٠٥

٧ ـ (أفلم يدبروا القول أم جاءهم ما لم يأت آباءهم الأولين • أم لم يعرفوا رسولهم فهم له منكرون • أم يقولون به جنة بل جاءهم بالحق واكثرهم للحق كارهون •) (١) المؤمنون : ٦٨ ـ ٧٠

٨ ــ (قل ما اسالكم عليه من اجر وما انا من المتكلفين إن هو إلا ذكر للعالمين ولتعلمن نبأه بعد حين ٠) ص ٨٦ ــ ٨٨

٩ ـ (أم يقولون افترى على الله كذبا فان يشأ الله يختم على قلبك ويمـح الله الباطل ويحق الحق بكلماته إنه عليم بذات الصدور .)
 الشورى : ٢٤

١٠ ـ (ام يقولون افتراه قــل إن افتريته فــلا تملكون لي من الله شيئاً هو أعلم بما تغيضون فيه كفى به شهيداً بيني وبينكم وهو الغفور الرحيــم ٠) الاحقاف : ٨

11 - (فلا اقسم بها تبصرون وما لا تبصرون ، إنه لقول دسول كريم ، وما هو بقول شاعر قليلا ما تؤمنون ، ولا بقول كاهن قليللا ما متذكرون ، تنزيل من رب العالمين ، ولو تقول علينا بعض الاقاويل لأخذنا منه باليمين ، ثم لقطعنا منه الوتين ، فما منكم من أحد عنه حاجزين ، وإنه لتذكرة للمتقين ، وإنا لنعلم أن منكم مكذبين ، وإنه لحسرة على الكافرين ، وإنه لحق اليقين ،) الحاقة : ٣٨ و ٥١

⁽١) في هذه الآيات ما في آيات يونس ، فانهم يعرفون النبي ويعرفون أخلاقه وصدقه ولا يمكن أن يكون به جنة .

17 - (فلا أقسم بالخنس ، الجوار الكنس ، والليل إذا عسعس، والصبح إذا تنفس ، إنه لقول رسول كريم ، ذي قوة عند ذي العرش مكين ، مطاع َثم ً أمين ، وما صاحبكم بمجنون ، ولقد رآه بالأفق المبين ، وما هو بقول شيطان رجيم ، فأين تذهبون ، إن هو إلا ذكر للعالمين ،) التكوير : 10 - 77

- 17 -

وفي سورة القيامة آيات ذات دلالة عظمى في صدد الوحي الرباني للنبي صلى الله عليه وسلم وهي:

(لاتحرك به لسانك لتعجل به ، إن علينا جمعه وقرآنه ، فاذا قرأناه فاتبع قرآنه ، ثم إن علينا بيانه ،) القيامة : ١٦ و ١٩

فهذه الآيات جاءت معترضة بين آيات متصل قبلها بما بعدها اتصالا موضوعياً ، واتصال خطاب ونظم ، في حين أنها غير متصلة بهذه الآيات لاموضوعاً ولا خطاباً ولا نظماً كما يبدو حين قراءة السياق بطوله ، وهذا ما حاء قبلها منه :

(لا أقسم بيوم القيامة ، ولا أقسسم بالنفس اللوامة ، أيحسب الانسان أن لن نجمع عظامه ، بلى قادرين على أن نسوي بنانه ، بل يريد الانسان ليفجر أمامه ، يسأل أيان يوم القيامة ، فاذا برق البصر ، وخسف القمر ، وجمع الشمس والقمر ، يقول الانسان يومئذ أين المفر كلا لاوزر ، الى ربك يومئذ المستقر ، ينبأ الانسان يومئذ بها قدم وأخر ، بل الانسان على نفسه بصيرة ، ولو ألقى معاذيره ،) القيامة : ١ – ١٥

وهذا ما جاءبعدها:

(كلا بل تحبون العاجلة ، وتذرون الآخرة ، وجوّه يومئذ ناضرة ، الى ربها ناظرة ، ووجوه يومئذ باسرة ، تظن أن يفعل بها فاقرة ،) الخ ولقد روي في مناسبتها حديث يستفاد منه أنها نزلت على النبي ،

لانه كان حينما يتلقى وحي القرآن يحرك شفتيه بما ينزل على قلبه خشية نسيانه ، ووجود الآيات في موضعها يلهم بقوة أنها أوحيت للنبي في أثناء نزول الآيات التي قبلها والتي بعدها ، ولا يصح فرض غير هذا فيما نعتقد لفهم حكمة وجودها في السياق . ولا مناص من فرض ثان ، وهو أن النبي أمر بتدوين آيات السورة فور وحيها ، وأملى على الكاتب هذه الآيات في سياق إملائه آيات السورة الأخرى ، لأنها أوحيت اليه مع آيات السورة ، مع أنها كانت خطاباً خاصاً له ، وبقصد تعليمه كيفية تلقي الوحي ، فدونت كما جاءت بين الآيات التي قبلها والتي بعدها .

وفي هذه الآيات في موضعها ملهمات اخرى عظيمة الخطورة ايضا في صدد القرآن ، فهي تقف امام اي شك حتى من اشد الناس تشككا بأن ما كان يبلغه النبي من آيات القرآن إنما كان وحياً يشعر به في اعماق نفسه ، ويدركه ويستمع اليه باذن بصيرته ، ويعيه بقلبه ، وانه شيء منفصل عن ذاته غير نابع من باطنه كما يظنه بعضهم ، وتبين مقدار شدة حرصه على ان لايفلت منه اية كلمة او حرف او معنى مما كان يوحى اليه به قرآنا ، فكان يسارع الى ترديده وإملائه على كتابه حتى يبلغه تقرر معنى من معاني العصمة النبوية في صدد مايبلغه النبي من وحي تقرر معنى من معاني العصمة النبوية في صدد مايبلغه النبي من وحي القرآن الرباني في توكيدها ، بأن الله يثبت في قلبه وذاكرته مايلقى عليه ، ويجعله يحيط به ، ويلهمه فهمه وبيانه ، فالنبي بهذا قد عصم من الغلط والنسيان والخطأ ، والتقديم والتأخير والزيادة والنقص في القرآن ، فكل والنسيان والخطأ ، والتقديم والتأخير والزيادة والنقص في القرآن ، فكل ما بلغه منه هو وحي رباني ، وقد بلغ كل ما أوحي اليه بتمامه وحر فيته ، ولعلها تقوم قرينة على أن لامحل ولا معنى للقول : إن القرآن نزل على النبي بالمعنى لا باللغظ ايضا ، وهذا مؤيد بآيات سورة الشعراء هذه :

(وإنه لتنزيل رب العالمين ، نزل به الروح الامين ، على قلبك لتكون من المنذرين ، بلسمان عربي مبين ،) ١٩٢ ـ ١٩٥

واذا لاحظنا أن ضمير الآيات هو ضمير المتكلم ، وأن القرآن كـلام

الله وأوامره ، أمكننا أن نقول: إن في الآيات دلالة على أن القرآن كان وحياً ربانياً مباشراً . ينقذف في قلب النبي فيعيه ويبلغه ، أو على الأقل إن هذه الطريقة من الطرق التي كان يوحي الله الى النبي بما يشاء أن يوحى اليه به (١) .

كذلك فان هذه الآيات تفيد أن ما كان يوحى به الى النبي كان يبادر الى الامر بتدوينه وتسجيله حتى ولو كان موضوعه خاصاً به ، وبصدد تعليمه تلقي الوحي واستيعابه . وأن النبي صلى الله عليه وسلم قد جرى على هذا منذ اوائل نبوته ، لأن هذه السورة من أوائل القرآن نزولا . وهذا المعنى عظيم من وجهة عصمة النبي في تبليغ كل ما كان ينزل على قلبه من وحي الله قرآناً بما في ذلك من خطرات النفس ، وأسلوب تلقي القرآن ، والتصرف الشخصي ، أو الحركة الشخصية اللاشعورية . وهو مؤيد بآيات عديدة حيث أمر بتسجيل كل ما نزل عليه في شؤونه الخاصة ، وفي بعض تصرفاته التي كانت خلاف الاولى في علم الله ، وعوتب عليها . وفي سورة « طه » آية فيها مشهد مماثل للمشهد الذي حكته عليها . وفي سورة « القيامة » في معناه وظروفه وهى :

⁽۱) نقول هذا استدراك السببين: الاول أن في آيات سورة الشسورى هسذه (وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحي باذنه ما يشاء . انه علي حكيم . وكذلك اوحينا اليك روحاً من امرنا ماكنت تدري ما الكتاب ولا الايمان ولكن جعلناه نورا نهدي به من نشاء من عبادنا وانك لتهدي الى صراط مستقيم . صراط الله اللذي له ما في السسموات وما في الارض الا السي الله تصسير الامور .) الزخرف : ١١ - ٣٥ ثلاث طرق لوحي الله لانبيائه : منها القذف المباشر الذي عبر عنه في الآية بجملة (ألا وحيا) والله اعلم . والسبب الثاني : ان هناك أحاديث وردت في كتب الحديث المعتبرة تذكر ان النبي كان يتلقى القرآن من الملك يأتيه بصورة ما ، فقد روى الشيخان والترمذي عن عائشة ان الحارث بن هشام سأل النبي صلى الله عليه وسلم كيف يأتيك الوحي ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : احيانا يأتيني مثل صلصلة الجرس وهو أشده علي ، فيفصم عني وقد وعيت عنه ما قال ، وأحيانا يتمثل لي الملك رجلا فيكلمني ، فأعي ما يقول ، قالت عائشة : ولقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه ، وان جبينه ليتفصد عرقا) .

(فتعالى الله الملك الحق ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى اليك وحيه وقل رب زدني علماً ٠) ١١٤

والظاهر والله أعلم أن النبي صلى الله عليه وسلم ، كرر حركته بسبيل استذكار ما أوحي به اليه في احدى المرات ، فاقتضت حكمة التنزيل تنبيهه مرة اخرى .

- 18 -

وكل ما تقدم يبعث أقوى اليقين بالله والنبي والوحي الرباني للنبي بالقرآن في كل شخص ذي ضمير حي ، ورغبة صادقة في الحق والهدى مهما كانت ثقافته ونحلته . واذا كان الملحدون بعد ذلك كله ، لا يرعوون عن غيهم ، ولا يثوبون الى رشدهم وضمائرهم ، فلن يضير ذلك الحق والحقيقة والايمان والدعوة الاسلامية في شيء . ولقد حكى القرآن مواقف عديدة عن أمثال لهم ، أصروا على مواقفهم وهواهم رغم كل ما سبق من عديدة عن أمثال لهم ، أصروا على مواقفهم وهواهم رغم كل ما سبق من المواقف ، ويستمر بالنزول بالهدى والحق ليهتدي بهما من حسنت نيته ، وطابت سريرته ، ورغب بالحق والهدى مما أوردنا أمثلة كثيرة منه في النبذ السابقة . ونضع مع ذلك بعضها امام القارىء في لحظته هذه :

۱ - (إن الذين كفروا سواء عليهم الندرتهم ام لم تندرهم لايؤمنون٠
 ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى ابصارهم غشاوة ولهم عــذاب عظيم ٠) البقرة : ٦ و ٧

٢ - (ومنهم من يستمع اليك وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه
 وفي آذانهم وقرآ وإن يروا كل آية لايؤمنوا بها حتى اذا جاؤك يجادلونك
 يقول الذين كفروا إن هذا ألا أساطر الأولن ٠) الأنعام : ٢٥

٣ - (واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فاتبعه الشيطان

فكان من الفاوين ، ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه اخلد الى الارض واتبع هواه فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ذلك مثل القوم الذين كنبوا بآياتنا فاقصص القصص لعلهم يتفكرون ،) الاعراف: ١٧٦ و ١٧٦

إذا جاءه لم يجده شيئاً ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سحريع إذا جاءه لم يجده شيئاً ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سحريع الحساب ، أو كظلمات في بحر لجي يفشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور ،)(۱) النور : ٣٩ و ٠)

- 10 -

وقد يسايرنا بعض الملحدين فيقولون: إن محمداً صلى الله عليه وسلم لم يتعمد الكذب حين كان يقول: إن القرآن يوحى اليه من الله وحياً ، وإنما كان متوهماً متخيلا منفعلا انفعالا عصبياً نتيجة لما يعرفه من أخبار الأنبياء ولما كان يشعر به في داخله من انفعال وجيشان وإيمان بالله ورغبة في الدعوة اليه ومحاربة الشرك ، وتقاليد الجاهلية ، واصلاح الانسانية وسعادتها بدءا بالمجتمع العربي والحجازي . ونقول: إن هذا قد قيل للنبي صلى الله عليه وسلم مواجهة أيضاً بالاسلوب الذي كان يتلقى يخطر على بال القائلين إذ ذاك حيث قالوا: إن به جنة ، وإنه كان يتلقى ما يقوله من الشياطين ، وانه مجنون ، وقد سجل القرآن اقوالهم هذه بدون أي تحرج ورد عليها وأكد أن القرآن وحي من الله تعالى كما جاء فيما يلى:

⁽۱) صيغة الآيات اسلوبية بسبيل تقرير شدة إصرار الكفار المسبق على الكفر والجحود والتكذيب . وفي آيات النور بخاصة تمثيل لما سوف تصير أمورهم اليه من خيبة وضياع ومواجهة لعذاب الله الرهيب .

١ - (أولم يتفكروا ما بصاحبهم من جنة إن هو إلا نذير مبين .)
 الاعراف : ١٨٤

٢ - (وقالوا يا أيها الذي نزل عليه الذكر إنك لمجنون . لو ما تأتينا باللائكة إن كنت من الصادقين . ما ننزل الملائكة إلا بالحق وما كانوا إذا منظرين . إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون .) الحجر : ٦ - ٩

٣ - (أفلم يدبروا القول أم جاءهم مالم يات آباءهم الاولين . أم
 لم يعرفوا رسولهم فهم له منكرون . أم يقولون به جنة بل جاءهم بالحق
 وأكثرهم للحق كارهون .) المؤمنون : ٦٨ - ٧٠

٤ - (وما تنزلت به الشياطين ٠ وما ينبغي لهم وما يستطيعون ٠)
 الشعراء : ٢١٠ و ٢١١

ه - (هل أنبئكم على من تنزل الشياطين • تنزل على كل أفاك أثيم •
 يلقون السمع وأكثرهم كاذبون •) الشعراء : ٢٢١ - ٢٢٣

٧ - (فلا أقسم بالخنس ، الجوار الكنس ، والليل إذا عسعس ، والصبح إذا تنفس ، إنه لقول رسول كريم ، ذي قوة عند ذي العرش مكين ، مطاع ثم أمين ، وما صاحبكم بمجنون ، ولقد رآه بالافق المبين ، وما هو على الفيب بضنين ، وماهو بقول شيطان رجيم ، فأين تذهبون ، إن هو إلا ذكر للعالمين ،) التكوير : ١٥ - ٢٧

٨ - وفي سورة سبأ آيات فيها رد من جهة ، وفيها من جهة خطاب نافذ الى القلوب والعقول من شأنهأن يهز الضمائر ، ويبعث أقوى اليقين حيث يهيب بالسامعين بأن يترووا ، ولا يؤخذوا بالتهويش الذي يكون في

الاجتماعات الصاخبة ، ويتفكروا في ما جاء اليهم به واحدا واحدا ، أو اثنين اثنين فقط ، وحينتُذ يرون أنه ليس في صاحبهم جنة ، ولا يريد أجراً ، وأنه نذير لهم ، وأن الله شهيد على ذلك ، وأنه الحق الذي يدحض الباطل . وهي :

(قل إنما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفرادى شم تتفكروا ما بصاحبكم من جنة إن هو إلا نذير لكم بين يدي عذاب شديد وقل ما سألتكم من أجر فهو لكم إن أجري إلا على الله وهو على كل شيء شهيد وقل إن ربي يقذف بالحق علام الفيوب قدل جاء الحق وما يبدىء الباطل وما يعيد) سبأ: ٦} و ٩}

٩ ـ وفي سورة الجن آيات أخرى ذات معنى رائع في صدد رسالة الرسول صلى الله عليه وسلم ٤ تبعث هي الاخرى أقوى اليقين بصحة الرسالة والوحي القرآني أيضاً وهي:

(قل إنما أدعو ربي ولا أشرك به أحداً ، قل إني لا أملك لكم ضراً ولا رشداً ، قل إني لن يجيرني من الله أحد ولن أجد من دونه ملتحداً ، إلا بلاغاً من الله ورسالاته ومن يعص الله ورسوله فأن له نار جهنم خالدين فيها أبداً ، حتى إذا رأوا ما يوعدون فسيعلمون من أضعف ناصراً وأقل عدداً ، قل إن أدري أقريب ما توعدون أم يجعل له ربي أمداً ، عالم الفيب فلا يظهر على غيبه أحداً ، إلا من ارتضى من رسول فأنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصداً ، ليعلم أن قد ابلغوا رسالات ربهم وأحاط بما لديهم وأحصى كل شيء عدداً ،) الجن : ٢٠ و ٢٨

ومع تقرير كون النبي صلى الله عليه وسلم ، قد اتجه منذ شبابه نحو الله وحده ، وأنف مما كان عليه قومه من شرك وتقاليد جاهلية ، وأخذ يقوم باعتكافات روحية مفكرا في آلاء الله وعظمته ، فان في القرآن آيات تقرر أنه لم يكن مطلعاً الى نبوة ورسالة وكتاب ينزل عليه من الله ، ولم يكن بدا عليه أي فضول ونشاط بسبيل الدعوة الى أن شاءت حكمة

1

(۱) أما اخلاقه العظيمة ، فقد اثنى عليها الله في القرآن ومن ذلك في آية سورة القلم هذه : (وإنك لعلى خلق عظيم) . وإما اهليته للرسالة فقد قسرر الله في القرآن أن الله اعلم حيث يجعل رسالته ، فجعلها فيه لاهليته لها ، وإما اتجاهه نحو الله واعتكافاته الروحية ، والتفكير بآلاء الله ، فقد جاء في ذلك أحاديث صحيحة ، منها حديث أول نزول الوحي عليه ، دوي عنعائشة قالت : (أول مابدىء به رسول الله من الوحي الرؤيا الصادقة في النوم ، فكان لايرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ، ثم حبب اليه الخلاء ، وكان يخلو بغار حراء فيتحنث أي يتعبد فيه الليالي ذوات العدد قبل أن يسزع الى خديجة فيتزود لمثلها ، حتى جاءه الحق وهو في غار حراء ، فجاءه الملك فقال : أقرأ ، قلت : ما أنا بقارىء ، قال : فأخذني فغطني حتسى بلغ مني الجهد ، ثم أرسلني ، فقال : أقرأ ، قلت : ما أنا بقارىء ، فأخذني فغطنسي فغطني الجهد ، ثم أرسلني فقال : أقرأ باسم ربك الذي خلق ، خلق الانسان من علق ، إقرأ وربك الاكرم . .

فرجع بها النبي يرجف فؤاده ، فدخل على خديجة بنت خويلد فقال : زملوني زملوني وراوني فزملوه حتى ذهب منه الروع ، فقال لخديجة وأخبرها الخبر : لقد خشيت على نفسي ، فقالت خديجة : كلا والله ما يخزيك الله أبدا ، انك لتصل الرحم ، وتحمل الكل ، وتكسب المعدوم ، وتقري الضيف ، وتعين على نوائب الحق ، فانطلقت به خديجة حتى أتت ورقة ابن نوفل بن أسد بن عبد العزى ابن عم خديجة ، وكان امرءا قد تنصر في الجاهلية ، وكان يكتب الكتاب العبراني فيكتب من الانجيل بالعبرانية ماشاء الله أن يكتب ، وكان شيخا كبيرا قد عمي ، فقالت له خديجة : يا ابن عم السمع من ابن أخيك ، قال : ماذا تحرى يا ابن أخي أ فأخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم بما رأى فقال له ورقة : يا ابن أخي هذا الناموس الذي نزل على موسى ، يا ليتني فيها جلعا ، ليتني أكون حيا اذ يخرجك قومك ، فقال رسول اللهصلى الله عليه وسلم أو مخرجي هم أ قال نعم لم يأت رجل قط بهثل ما جئت به الا عودي ، وان يدركني يومك انصرك نصرا مؤزرا ، ثم لم يلبث ورقة ان توفى) ،

وتم الاتصال بينه وبين الله عز وجل ، وتبلغ أمر مهمته كما ترى في الآيات التالية:

١ ــ (قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ، ولا أدراكم به فقد لبثت فيكم.
 عمراً من قبله أفلا تعقلون ،) يونس : ١٦

٢ ـ (ان الذي فرض عليك القرآن لرادك الى معاد قل ربي أعلم
 من جاء بالهدى ومن هو في ضلال مبين ٠ وما كنت ترجو أن يلقى اليك
 الكتاب إلا رحمة من ربك فلا تكونن ظهيراً للكافرين ٠) القصص : ٨٦٥٨٥

٣ ــ (قل ما أسألكم عليه من أجر وما أنا من المتكلفين . !ن° هو إلا ذكر للعالمين . ولتعلمن نبأه بعد حين .) ص : ٨٨ و ٨٨

إ - (وما كان لبشر أن يكلمه الله الا وحياً أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحي بإذنه ما يشاء أنه علي حكيم • وكذلك أوحينا اليك روحاً من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الايمان ولـكن جعلناه نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا وأنك لتهدي الى صراط مستقيم • صراط الله الذي له مافي السماوات ومافي الارض ألا إلـى الله تصـير الامور •) الشورى : ١٥ ـ ٥٣

ففي هذه الآيات جواب أيضاً على ما قد يقوله الملحدون مسايرة من أن النبي كان منفعلا بما عرفه من الانبياء ، وبما انبثق في نفسه من جيشان. ورغبة في المعوة إليه مثلهم .

والذي يؤمن بوجود إله حكيم مبدع للكون ومدبر له ، لا يصح أن ينكر مهما بلغ من العقل والتحفظ جواز اتصال الله عن وجل بأفراد يصطفيهم من خلقه مؤهلين لذلك ايماناً وخلقاً وحيوية ليوحي اليهم بدعوة البشر اليه ، وعبادته والاتجاه اليه وحده ، وبيان أفضل الاساليب والمبادىء والقواعد الايجابية والسلبية التي يجب عليهم أن يسيروا عليها ، ويلتزموها لضمان خيرهم وسعادتهم وصلاحهم ونجاتهم مما يعلم الله أن عقول البشر قد لا تهتدي اليها بجهدها ، ويكون في مصدريتها الإلهية من قوة التأييد والالزام الإيمانيين ما لا يكون لما يضعه البشر

باحتهادهم من قوانين وتقاليد، وقواعد مما هو متمثل في كل آيات القرآن وفصوله ، لا يمكن لعاقل منصف يرغب في الحق والحقيقة أن يماري فيه .

- ١٦١ -

ونصل الآن الى مواجهة الملحدين في إنكار وجود ذلك الإله الذي هو أساس الحادهم وانكارهم لكل ما يصدر عنه ، وللنبوة والوحى بالتبعية . وحين تسبألهم عن علة الكون الاولى ، أو أصل الكون ومصدره لا يستطيعون الاجابة إجابة جازمة ، ويقرون بالجهل مع تجريدهم العلة الاولى ، أو المصدر الاول للكون من أي عقل وإرادة وحكمة ، وبكلمة أخرى يقولون : إن الكون المادي أو السديم الاول صدرعن تلك العلة المجردة من ذلك بالصدفة العمياء ، وظلت تسمير كذلك . والمؤمن وإن كان بدوره يجهل كنه الله تعالى ، فإنه على الاقل _ ونقول هذا للمساجلة _ يكون في موقف المطمئن بوجود خالق بارىء مصور مبدع حكيم عليم خبير مدبر قويمحيط أزلى أبدى وراء هذا الكون ، يراقبه وبلاحظه ، ويجعله يلتزم حدود الحق والعدل والخير مطلقاً ، في حين أن الملحد يكون في فراغ وضياع ، متحللا من أى التزام لا يلزمه إياه مقياس نفعه وضرره الخاص ، مادياً كان أم أدبياً ، والذي هو على الأعم الأغلب عابر متحول . وليس في موقف المؤمن _ ونقول هذا للمساجلة أيضاً _ أي ضير على الإنسانية وخيرها وصلاحها إذا لم لكن فيما يعتقده ما يتعارض مع ذلك ، أو يؤدى الى الشلل والجمود ، وعدم الانطلاق العقلي والعلمي والفني والحضاري والمعاشي والعمراني ، والتطور في كل ذلك الى أبعد الحدود . وهذا ما تكفلت به تعاليم القرآن المحكمة خاتم كتب الله الذي صار به الدين الاسلامي الذي جاء به خاتم أنبياء الله رب العالمين فريداً مختلفاً كل الاختلاف عن غيره من حيث إنه دين نظام وعقيدة وتنظيم شامل لكل الشؤون على اختلاف نواحيها من روحية وسياسية واقتصادية ومعاشية واجتماعية وشخصية وأخلاقية، وسلوكية واسروية ، و فكرية وعلمية على أحسن الوحوه وأقومهاوأ فضلها ، مستحيباً لكل مطلب ، حالاً لكل مشكل ، مستهدفاً لمصلحة الإنسانية وصلاحها وسعادتها في الدنيا والآخرة ، ودعوة مفتوحة للجميع ، ومرشحة بكل ذلك لتكون دين الانسانية العام على اختلاف أجناسها وأاوانها ومراكزها وعلى قدم المساواة التامة بدون أي اختصاص وتميز وطبقات ، وفيه الدليل

الذي لا يدحض على أنه لا يمكن أن يصدر عن عقل بشري مهما بلغ من رقي وصفاء وإحاطة ، ولا يمكن إلا أن يكون صادرا عن الله عز وجل الحكيم المدبر العليم الخبير خلافاً لما يظنه بعضهم والملحدون منهم بسبب مافي القرآن من آيات متشبابهة يسيئون فهمها وتأويلها ، وبسبب أقوال واجتهادات ووقائع واحداث ومواقف شاذة عن جوهر تعاليم القرآن المحكمة لا تتحمل هي مسئوليتها على ما سوف يأتي شرحه ، بل فيه كل الخير ماديا ومعنويا من حيث إن المؤمن يكون مطمئن النفس بحكمة الله برقابته عليه في جميع أفعاله مؤملا برحمته ورعايته وعونه مما يجعله برقابته عليه في جميع أفعاله مؤملا برحمته ورعايته وعونه مما يجعله ممتأثرا بذلك في الانكماش عن الشر والضرر والسوء والمنكر والأذى متأثرا بذلك في الانكماش عن الشر والضرر والسوء والمنكر والأذى والأنانية والنفعية المفرطة قولا وفعلا حيث يكون له من تدينه وازع عن كل إثم، وحافز على كل خير لذاتهما، في حين يكون الضياع والفراغ واليأس ، وفقدان الوازع والحافز لذاتهما إذا ما حزبت الامور من صفات الملحد .

على أن هناك مئات من أساطين العلم المعاصرين الذين صاروا أصحاب اختصاصات وشهرة عالمية في مختلف العلوم الرياضية والفلكية والنباتية والحيوانية والطبيعية والنفسية والذرية والجيولوجية والبيولوجية والفيزيولوجية والكيميائية والفيزيائية ، والذين نال كثير منهم جوائز عالمية على بحوث متفوقة لهم في اختصاصاتهم ينكرون كل الإنكار أن يكون هذا الكون المذهل في سعته وكائناته البديع المتقن في نظمه وانسجامه وتركيبه وتوازنه ، بدءاً من الذرة والخلية والأحماض والعناصر السبيطة الى أصل الحياة ونشوئها وبدايتها وتطورها الى الاحياء المتنوعة النباتية والحيوانية الى السماوات وما فيها من مجرات وشموس وكواكب وحركاتها الى الكهرباء والمفناطيس الى العضويات وغير العضويات والرياح والسحاب ، والوراثات والفرائز المذهلة في مظاهرها الثابتة في القوانين التي تسير عليها سيرا ثابتاً عجيباً ، حتى ليعرف بها ماكان وسوف يكون من مشاهدها لمئات آلاف السنين الماضية والآتية ، وحتى أمكن أن تعرف بها ثفرات سلسلة العناصر البسيطة التي لم تكن اكتشفت ثم اكتشفت في المركز المخمن لها في السلسلة ، قد جاء صدفة عمياء ، ومظهرا عشوائياً بدون تدبير محكم من مدبر حكيم ، وخالق مبدع غير حادث . وقد جاء هذا في كتاب «الله يتجلى في عصر العلم» لمحرره وجامعه جون كلوفرمون والذي ترجم الى العربية من قبل الدكتور الدمرداش عبد المجيد سرحان ، وروجع وعلق عليه من قبل الدكتور جمال الديسن الفندي . ثم كتاب « العلم يدعو الى الايمان » لمؤلفه ، كريس موريسون الذي ترجم من قبل الاستاذ محمود صالح الفلكي ، وصدره الاستاذ الشيخ حسن الباقوري ، وقدمه الدكتور أحمد زكي .

وهناك عشرات الكتب والابحاث والمقالات العربية وغير العربية التي كتبها علماء في مختلف العلوم المادية ، تحتوي تقريرات مماثلة .

وفي القرآن آيات كثيرة جدا ، فيها تنبيهات نافذة الى أعماق القلوب والعقول بأسلوب يفهمه أوساط الناس فضلا عن متعلميهم وأذكيائهم على آيات الله في كونه الدالة على وجوده وحكمته ، وبديع تدبيره وتقديره ، وإحاطته وعظمته . نكتفى منها بالإمثلة التالية :

ا - (وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم • إن في خلق السماوات والارض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما انزل الله من السماء من ماء فأحيا به الارض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والارض لآيات لقوم يعقلون •) البقرة : ١٦٣ و ١٦٨

٢ ـ (وعنده مفاتح الفيب لا يعلمها الا هو ويعلم ما في البر والبحر وما تسقط من ورقة الا يعلمها ولا حبة في ظلمات الارض ولا رطب ولا يابس الا في كتاب مبين ٠) الأنعام: ٥٩

٣ ـ (ان الله فالق الحبّ والنوى يخرج الحيّ من الميت ومخرج الميت من الحيّ ذلكم الله فأتى تؤفكون ، فالق الاصباح وجعل الليل سكناً والشمس والقمر حسباناً ذلك تقدير العزيز العليم ، وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر قد فصّلنا الآيات لقوم يعلمون ، وهو الذي أنشأكم من نفس واحدة فمستقر ومستودع قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون ، وهو الذي أنزل من السماء ماء ً فأخرجنا به نبات كل شيء فأخرجنا منه خضراً نخرج منه حباً متراكباً ومن النخل نبات كل شيء فأخرجنا منه خضراً نخرج منه حباً متراكباً ومن النخل

من طلعها قنوان دانية وجنات من أعناب والزيتون والرمان مشتبها وغير متشابه انظروا الى ثمره إذا أثمر وينعه إن في ذلكم لآيات لقوم يؤمنون ٠) الأنعام: ٥٥ ـ ٩٩

إلله الذي رفع السماوات بغير عمد ترونها ثم استوى على العرش وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى يدبس الأمسر يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون • وهو الذي مد الارض وجعل فيها رواسي وانهارا ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين يغشي الليل النهار إن فيذلك لآيات لقوم يتفكرون • وفي الارض قبطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يئستى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في الأكل إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون •)
 الرعد: ٢ - ٤

ه - (والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل شيء مورزون و وجعلنا لكم فيها معايش ومن لستم له برازقين و وإن من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم وأرسلنا الرياح لواقح فأنزلنا من السماء ماء فأسقينا كموه وما أنتم لمه بخازنين والحجر: ١٩ - ٢٢

7 - (أولم ير الذين كفروا أن السماوات والارض كانتا رتقاً ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شيء حي افلا يؤمنون • وجعلنا في الارض رواسي أن تميد بهم وجعلنا فيها فجاجاً سبلا لعلهم يهتدون • وجعلنا السماء سقفاً محفوظاً وهم عن آياتنا معرضون • وهو الذي خلق الليل والنهار والشمس والقمر كل في فلك يسبحون •) الأنبياء: ٢٩ - ٣٣

٧ - (ألم تر أن الله ينزجي سحاباً ثم يؤلف بينه ثم يجعله ركاماً فترى الودق يخرج من خلاله وينزل من السماء من جبال فيها من بسرد فيصيب به من يشاء ويصرفه عن من يشاء يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار، يقلب الله الليل والنهار إن في ذلك لعبرة لأولي الأبصار، والله خلق كل يقلب الله الليل والنهار إن في ذلك لعبرة لاولي الأبصار، والله خلق كل دابئة من ماء فمنهم من يمشي على رجلين ومنهم من يمشي على أربع يخلق الله ما يشاء إن الله على كل شيء قدير،

لقد أنزلنا آيات مبيئنات والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم •) النور : ٣٤ - ٢٦

٨ - (ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر" تنتشرون • ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن في ذلك لآيات لقيوم يتفكرون • ومن آياته خلق السماوات والارض واختلاف السنتكم وألوانكم إن في ذلك لآيات للعالمين • ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتفاؤكم من فضله إن في ذلك لآيات لقوم يسمعون • ومن آياته يربكم البرق خوفاً وطمعاً وينزل من السماء ماء فيحيي به الارض بعسد موتها • إن في ذلك لآيات لقسوم يعقلون •) الروم : ٢٠ - ٢٤

٩ ــ (ألم تر أن الله أنزل من السماء ماءً فأخرجنا به ثمرات مختلفاً الوائها ومن الجبال جندك بيض وحمر مختلف ألوائها وغرابيب سود ومن الناس والدواب والانعام مختلف ألوائه كذلك إنما يخشى الله من عباده العلماء إن الله عزيز غفور ٠) فاطر: ٣٧ و ٣٨

1٠ ـ (فاطر السماوات والارض جعل لكم من أنفسكم أزواجاً ومن النعام أزواجاً يدرؤكم فيه ليس كمثله شيء وهو السميع البصير ٠ له مقاليد السماوات والارض يبسط الرزق لمن يشساء ويقدر إنه بكل شيء عليم ٠) الشورى : ١١ و ١٢

11 - (إن في السماوات والارض لآيات للمؤمنين ، وفي خلقكم وما يبث من دابة آيات لقوم يوقنون ، واختلاف الليل والنهار وما أنزل الله من السماء من رزق فأحيا به الأرض بعد موتها وتصريف الرياح آيات لقوم يعقلون ، تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق فبأي حديث بعد الله وآياته يؤمنون ، ويل لكل افاك أثيم ، يسمع آيات الله تتلى عليه ثم ينصر مستكبراً كأن لم يسمعها فبشره بعذاب اليم ، وإذا علم من آياتنا شيئاً اتخذها هزواً أولئك لهم عذاب مهين ، من ورائهم جهنم ولا يغني عنهم ما كسبوا شيئاً ولا ما اتخذوا من دون الله أولياء ولهم عذاب عظيم ، هذا هدى والذين كفروا بآيات ربهم لهم عذاب من رجمز أليم ،)

١٢ ـ (والشمس وضحاها . والقمر إذا تلاهـا . والنهـار إذا
 جلاهـا . والليل إذا يفشاها . والسماء وما بناها . والأرض وما طحاها .

ونفس وما سواها ، فالهمها فجورها وتقواها ، قد افلح من زكاها ، وقد خاب من دساها(۱) ،) الشمس : ١ _ ، ١

ففي كل ما تقدم ما يكفي ليجعل الملحدين واللامبالين إذا لم يكونوا متعمدين المكابرة والعناد والتصامم عن سماع كلمة الحق ، ووعي الحق يثوبون الى رشدهم ، وينتهون عن مواقفهم ، ولن يضير الدين والمؤمنين أصرار المكابرين والمعاندين على المكابرة والعناد ، ولقد كان هذا موقف فريق من أمثالهم في عهد النبي صلى الله عليه وسلم على ما شرحناه في الفقرات او٢و٣و١و٢و٢ وأوردنا شواهده القرآنية ، وما كان من ردود القرآن على مواقفهم وتحدياتهم ومكابرتهم ، ولقد وصفهم القرآن بهذا الوصف في آيات سورة البقرة .

(إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون وختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم •) البقرة : ٧ وفي آية سورة الأنعام • (ومنهم من يستمع إليك وجعلنا على قلوبهم أكنتَة أن يفقهوه وفي آذانهم وقراً وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها حتى إذا جاؤوك يجادلونك يقول الذين كفروا إن هـذا الا أساطير الاولين •) الأنعام : ٢٥

تعبيرا عن إصرارهم على المكابرة والعناد . ولقد أوحى الله لرسوله الآيات التي أوردناها في الفقرات ١٠و٠١ وأمثالها ، والتي يأمره بها بعدم الأبود لمواقفهم ، وتحدياتهم وعنادهم ، والمضي قدماً في تبليغ رسالته

⁽۱) ما أوردناه من الامثلة على كثرته ليس كل مافي القرآن من بابها . ففيه آبات كثيرة أخرى . اقرأ إذا شئت آبات سورة آل عمران ١٨١-١٩١ ، والانعام ١-١٤ ، ويونس ٢-٦ و ١٣-٣٥ ، والرعد ١٥-١٥ ، والنحل ١٨-١ ، والحج ١٣-٦٦ ، والمؤمنون ١١-٢٢ ، والنمل ١٠-٥٦ ، والمروم ١٨-١٥ ، ولقمان ١١و١١ و ١٢-٦٧ ، والسجدة ١٩-١ ، وسبأ ٣-٢ ، وفاطر ١-٣ و ١١-١٤ ، ويس ٣٣-٢٤ ، وص ٢٧-٢٩ ، والزمر هو ١١-١٤ ، وفصلت ١-١١ ، والزخرف ١٩-١١ ، وق ١-١١ ، والرحمين ١١-٢١ ، والحديد ١-٦ ، والمنشقاق ١١-١١ ، والعلم ١١٠ ، والعلم ١١-١١ ، والعلم ١١٠ ، والعلم ١١٠ ، والعلم ١١-١١ ، والعلم ١١-١١ ، والعلم ١١-١١ ، والعلم ١١ ، والعلم ١١-١١ ، والعلم ١١-١١ ، والعلم ١١٠ ، والعلم ١١ ، والعلم ١١٠ والعلم ١١٠ ، والعلم ١١ ، والع

ودعوته لذوي الرغبات الصادقة والقلوب الحية حتى حقق الله وعده الذي وعده في آيات عديدة منها هذه الآيات:

ا ـ (هو الذي ارسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيداً ٠) الفتح : ٢٨

٢ - (وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً يعبدونني لا يشركون بي شيئاً ٠)
 النسور : ٥٥

فأظهر دينه على الدين كله ، وصارت كلمة الله هي العليا وكلمة الله ين كفروا هي السفلى ، ومكن الله للمؤمنين في الارض . ولقد بدأ ذلك في حياة النبي صلى الله عليه وسلم ، فلم يتوفه الله إلا وعمت دعوته ، وساد الاسلام وسلطانه جميع أنحاء جزيرة العرب على اختلاف منازل اهلها وثقافاتهم ونحلهم واجناسهم ، وأخذت تتسرب إلى خارجها على ما سوف نشرحه في الفصل الثاني . ثم اتسع نطاق ذلك حتى عم مشارق الارض ومغاربها ، وفي هذا تعليم وتطمين لنا ولسائر المؤمنين ، ورد على الكابرين والمعاندين المحدثين ، وليستمرن الله في تحقيق وعده ونصره والله لا يخلف وعده ، والعزة لله ولرسوله وللمؤمنين .



الفصاليتاني

أثر الدعوة في حياة النبي صلى الله عليه وسلم

- 1 -

ننبه أولا على أن هــذا الفصل ليس للتاريخ ، وإنما هـو متصل بموضوع الكتاب من حيث إنه يتضمن الشهادات العيانية للآلاف المؤلفة من الناس على اختلاف مراكزهم وثقافاتهم ونحلهم الذين سمعوا النبي صلى الله عليه وسلم والقرآن مواجهة ، وآمنوا بهما .

فإنه برغم مواقف الزعماء والأغنياء الجحودية الحجاجية المعاندة ، وتأليبهم الجماهير منذ بدء الدعوة في مكة ، فإن هذه الدعوة بقوة ما انطوى فيها من عناصر الاستجابة التي احتواها كثير من السور المبكرة في النزول مثل الفاتحة والأعلى والليل والشمس والعصر والماعون والفجر والبلد والاخلاص و ص و يس والأعراف وغيرها وغيرها من دعوة الى الله وحده وعبادته وحده ، والتحرر مما سواه بأي أسلوب وصورة والايمان بنبوة رسوله ، والتزام مكارم الأخلاق ، وأحاسن الصفات والأفعال من بر ورحمة وتعاون ورفق وصبر وصدق وعدل ، وحق وإحسان ، واجتاب المنكرات والفواحش والظلم والبغي والتقاليد المنكرة والكذب والرياءوالبخل والفساد ، أخذت تجذب إليها فئات عديدة في مكة أولا وبمقياس ضيق ، والفساد ، أخذت تجذب إليها فئات عديدة في مكة أولا وبمقياس ضيق ، ثم اتسع النطاق بعد هجرة النبي صلى الله عليه وسلم منها إلى المدينة حتى عمئت سائر أنحاء الجزيرة العربية ، وأخذت تتسرب الى خارجها في حياة النبي صلى الله عليه وسلم ، وقد تم هذا بخاصة بعد أن يسر في حياة النبي صلى الله عليه وسلم ، وقد تم هذا بخاصة بعد أن يسر الله لرسوله فتح مكة حيث أسلم جميع أهلها بما فيهم الذين بقوا أحياء ،

من الذين وقفوا موقف الجحود من الزعماء والجماهير في المرحلة الاولى • حيث كانت مكة إماماً وقدوة وحاجزاً . وقد عبرت سورة النصر التي نزلت في اواخر حياة النبي صلى الله عليه وسلم عن ذلك تعبيراً قوياً ، حيث حاء فيها :

(إذا جاء نصر الله والفتح ، ورأيت الناس يدخلون في دين الله افواجا ، فسبّح بحسمه ربك واستغفره إنسه كان تواباً ،)

ولقد كان المنضوون الى الدعوة في مكة يمثلون مختلف الغئات والطبقات ، من شباب وكهول وشيوخ ، ورجال ونساء ، وقرشيين ذوي احساب وأنساب ، وأغنياء وفقراء وأرقاء ، وعرب وعجم ، وبيض وسود وسمر ، ومشركين ووثنيين وكتابيين نصارى ويهود وصابئين(۱) بحيث يمكن القول إنهم كانوا يمثلون جميع أنواع البشر والنحل ، وصار الاسلام بهم مصداقاً لما رشحه الله ليكون دين الانسانية جميعاً كما جاء ذلك في آيات التوبة (٣٣) والفتح (٨٨) والصف (٩) التي أوردناها في مطلع الكتاب . وظلت هذه الظاهرة مستمرة في العهد المدني .

ولقد سجل القرآن مشاهد عيانية رائعة لايمان بعض الذين آمنو! بالنبي والقرآن من ذوي العلم وأهل الكتاب وشهاداتهم بصدق وحي الله وفرحهم به في العهد المكي أولاً ، ثم في العهد المدني . وهذه تسجيلات ذلك في السور المكية :

۱ - (الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم(٢)٠) الأنعام: ٢٠

⁽۱) رجحنا في كتابنا عصر النبي صلى الله عليه وسلم ، وبيئته قبل البعثة أن الصابئين هم الذين تركوا دين وتقاليد المشركين ، واتجهوا نحو الله وحده من العرب ، وأيدنا ترجيحنا بأحاديث عديدة ، أنظر الطبعة الثانية ٢٩٦-٢٧١

 ⁽۲) المتبادر انهم كانوا يشعهدون أيضاً بصدق دعوى النبي صلى الله عليه وسلم لانهم عرفوا أنها حق ، وعرفوا أنه صادق كهعرفتهم أبناءهم .

٢ - (أفغير الله أبتغي حكماً وهو الذي أنزل إليكم الكتاب مفصئلا والذين آتيناهم الكتاب يعلمون أنه منزئل من ربك بالحق فلا تكونئن من المترين ٠) الأنعام: ١١٤

٣ - الذين يتبعون الرسول النبي الأمي السذي يجدونه مكتوب عندهم في التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم فالذين آمنوا به وعز روهونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون ٠) الأعراف: ١٥٧

إ - (أفمن كان على بينة من ربه ويتلوه شاهد منه ومن قبله كتاب موسى إماماً ورحمة أولئك يؤمنون به ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده فلا تك في مرية منه إنه الحق من ربك ولكن أكثر الناس لا يؤمنون •) هود: ١٧

٥ - (والذين آتيناهم الكتاب يفرحون بما أنــزل إليــك(١) .)
 الرعــد : ٣٦

٦ - (قل كفي بالله شهيداً بيني وبينكم ومن عنده علم الكتاب(٢)٠) الرعدد: ٣٤

٧ - (قل آمنوا به أو لا تؤمنوا إن الذين أوتوا العلم من قبله إذا يتلى عليهم يخرون للأذقان ستُجداً . ويقولون سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولا(٢) . ويخرون للأذقان يبكون ويزيدهم خشوعاً .)
 الاسراء: ١٠٧ - ١٠٩

⁽۱) ما دام أنهم يغرحون فقد استبشروا وصدقوا وآمنوا .

⁽٢) الآية تتضمن أن الذي عنده علم الكتاب مستعد للشمهادة ايجابا وهذا يستتبع كونه آمن بالقرآن والنبي .

 ⁽٣) في العبارة تأييد لما ذكرته آية سورة الاعراف ١٥٧ من أن النصارى واليهسود
 يجدون صفات النبي مكتوبة عندهم في التوراة والانجيل ، ويجب عليهم أن يتبعوه ، فلها

٨ - (الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون . وإذا يتلى عليهم قالوا آمنا به إنه الحق من ربنا إنا كنا من قبله مسلمين . أولئك يؤتون

بعث قالوا : إن بعثته هي تحقيق لوعد الله السابق المذكور في كتبهم ، وفي سورة الصف هذه الآسـة :

(وإذ قال عيسى بن مريم يا بني اسرائيل إني رسول الله إليكم مصدقا لما بين يسدي من التوراة ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد ..) الصف :٦

وفي آية الانعام (١٩) صراحة أنهم عرفوا النبي وصدق دعواه كما عرفوا أبناءهم وفي سورة البقرة هذه الآية :

(ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين ،) البقرة : ٨٩

فغي هذه الآية تصديق قرآني مدني لما ذكر في آية سورة الاعراف المكية بالاضافة الى الصراحة التي في آية سورة الصف ، حيث جاء فيها هذه الآية :

(وإذ قال عيسى ابن مريم يا بني اسرائيل إني رسول الله إليكم مصدقة لما بين يدي من التوراة ومبشرة برسول يأتي من بعدي أسمه أحمد ٠٠)

ونقول من باب المساجلة : إنه لا يعقل أن يذكر القرآن ذلك الا أن يكون هناك تصديق إيجابي من أهل الكتاب اليهود والنصارى على السواء ، وقد آمن بالقرآن والنبي يهسود وتصارى في مكة ثم في المدينة كما سجل ذلك القرآن على ما جاء في الآبات التي أوردناهـــا في المتن ، فكان ذلك التصديق يقينا قائماً . وصادق العظم في كتابه (نقد الفكر الديني) . يصف محاولة المسلمين إثبات ذكر النبي في إنجيل برنابا سخافة . ونحسن نعـــرف أن النصارى بنكرون هذا الانجيل غير أن إثبات كون صفات النبي محمد مذكورة في الكتب التي يتداولها اليهود والنصارى غير مرهون بذكر برنابا بذلك . فالقرآن قد ذكر ذلك ، وكان يتلى علناً ، وأهل الكتاب منوا وصدقوا ، فظهر الحق وزهق الباطل ، وصـــار ما أراد صادق العظم نفيه ووصفه بمحاولة سخيفة هو سخف متهافت لا معنى ولا محل ولا طائل له. وجحود طوائف من اليهود والنصارى لنبوة النبي في عهده وبعده لا ينقض ما قلنساه وله أسباب اخرى دنيوية ، ومع ذلك ففي نصوص بعض اسفار العهد القديم والجديد اشارات وبشارات عديدة بنبوة النبي محمد صلى الله عليه وسلم على ما استنبطه بعض باحثى المسلمين قديما وحديثا فقد ذكر السيد رشيد رضا في تفسيره (المنار) ثماني عشرة بشارة وأورد النصوص المستنبطة منها . وقد ذكر عدداً من الاشارات أو البشارات الإمام ابن قيم الجوزية في كتابه «هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى» استباطأ من هذه الأسيفار ،

أجرهم مرتبن بما صبروا ويدرؤن بالحسسنة السيئة ومما رزقناهم ينفقون • وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلام عليكم لا نبتغي الجاهلين(١) •) القصص: ٢٥ ـ ٥٥ •

9 - (قل أرأيتم إن كان من عند الله وكفرتم به وشهد شاهد من بني اسرائيل على مثله فآمن واستكبرتم إن الله لا يهدي الظالمين(٢) .) الأحقاف: ١٠

وهذه تسجيلات لايمان أهــل الكتاب بالقــرآن والنبي في العهــد المدني:

١ - (الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته أولئك يؤمنون به ومن يكفر به فأولئك هم الخاسرون (٢) ٠) البقرة : ١٢١ ٠

٢ - (ليسوا سواء من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء
 الليل وهم يسجدون • يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف
 وينهون عن المنكر ويسارعون في الخيرات وأولئك من الصالحين • وما
 يفعلوا من خير فلن يكفروه والله عليم بالمتقين •) آل عمران : ١١٥-١١٥

٣ - (وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل إليكم وما أنزل
 إليهم خاشعين لله لا يشترون بآيات الله ثمناً قليلا أولئك لهم أجرهم عند
 ربهم إن الله سريع الحساب ٠) آل عمران : ١٩٩ ٠

لكنالراسخون في العلم منهم والمؤمنون يؤمنون بما انزل إليك وما انزل من قبلك والمقيمين الصلاة والمؤتون الزكاة والمؤمنون بالله واليوم الآخر أولئك سنؤتيهم أحراً عظيماً (٤) .) النساء : ١٦٢ .

⁽۱) الآيات تلهم أن المذكورين المؤمنين فيها ليسوا من أهل مكة وأنهم كانوا في حالة حسنة اجتماعيا وخلقيا وماليا ، وأن كفار مكة أو زعماء كفارها وبخوهم على ايمانهم بالنبي فلم يبالوا وثبتوا على ايمانهم .

 ⁽٢) أشير قبل هذه الآية الى القرآن ، وأشير اليه في آية بعدها فيكون ضمير (به)
 راجعا اليه .

⁽٣) قبل هذه الآيات آيات فيها اشارة الى النبي والقرآن فيكون ضمير (به) عائداإليهما .

⁽٤) الآية من سياق في صدد اليهود .

٥ - (لتجدناشدالناسعداوةللذين آمنوااليهودوالذين أشر كواولتجدن اقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وانهم لا يستكبرون و وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول تسرى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين وما لنا لا نؤمن بالله وما جاءنا من الحق ونظمع أن يدخلنا ربنا مع القوم الصالحين و فاثابهم الله بما قالوا جنات تجري من تحتها الانهاد خالدين فيها وذلك جزاء المحسنين و المائدة : ٢٨ - ٥٨

٦ - (ثم قفينا على آثارهم برسلنا وقفينا بعيسى ابن مريم وآتيناه الانجيل وجعلنا في قلوب الذين اتبعوه رافة ورحمة ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم الا ابتغاء رضوان الله فما رعوها حق رعايتها فآتينا الذين آمنوا منهم اجرهم وكثير منهم فاسقون ٠) الحديد: ٢٧

- " -

وهذا فضلا عما احتواه القرآن من إشارات عديدة إلى المؤمنين المحسنين المخلصين بصورة عامة ، وتنويهات بإيمانهم وتقواهم وصالح اعمالهم ، منها ما جاء في صدد المؤمنين في العهد المكي عامة ، ومنها ما جاء في صدد المؤمنين في العهد المدني عامة ، أي : تشمل المؤمنين من أهل الكتاب وغيرهم ، فمما جاء في القرآن المكي :

1 - (واندر به الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم ليس لهم مسن دونه ولي ولا شفيع لعلهم يتقون ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والمشييريدون وجهه ماءليكمن حسابهم منشيء ومامن حسابك عليهم من شيء فتطردهم فتكون من الظالمين وكذلك فتنا بعضهم ببعض ليقولوا أهؤلاء من الله عليهم من بيننا أليس الله باعلم بالشاكرين وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم كتب ربكم على نفسه الرحمة أنه من عمل منكم سوءاً بجهالة ثم تاب من بعده وأصلح فانه غفود رحيم والأنعام : ١٥ - ١٥

٢ _ آية سورة الأعراف ١٥٧ التي أوردناها قبل قليل

٣ - (أن الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم بإيمانهم تجري من تحتهم الانهار في جنات النعيم • دعواهم فيها سبحانك اللهم وتحيتهم فيها سلام وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين •) يونس : ٩ و ١٠ فيها سلام وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين •) يونس : ٩ و ١٠

١ - (للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ولا يرهق وجوههم قتر ولا ذلة أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون ٠) يونس : ٢٦

٥ - ألا إن اولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون . الذين آمنوا
 وكانوا يتقون . لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة لا تبديل لكلمات
 الله ذلك هو الفوز العظيم .) يونس : ٦٢ - ٦٢

آ - (الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضونالميثاق والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب والذيب صبروا ابتفاء وجه ربهم وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سرأ وعلانية ويدرؤن بالحسنة السيئة أولئك لهم عقبى الدار جنات عدن يدخلونها ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم والملائكة يدخلون عليهم من كل باب مسلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار ،) الرعد : ١٠ - ١٢ (١)

٧ - (الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب . الذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم وحسن ماب .) الرعد: ١٨ و ٢٩

٨ - (وقيل للذين اتقوا ماذا أنزل ربكم قالوا خيراً للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة ولدار الآخرة خير ولنعم دار المتقين ، جنات عـدن يدخلونها تجري من تحتها الأنهار لهم فيها ما يشاؤون كذلك يجزي-الله المتقين ، الذين تتوفاهم الملائكة طيبين يقولون سلام عليكم ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون ،) النحل : ٣٠ - ٣٢

٩ - (والذين هاجروا في الله من بعد ما ظلموا لنبؤنهم في الدنيا

 ⁽۱) هذه الآيات وان كانت تذكر الصفا تالتي يجب أن يتصف بها المؤمنون إلا أن روحها بلهم بقوة أنها تنضمن وصف حالة المؤمنين في العهد المكي .

حسنة ولأجر الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون · الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون ·) النحل: ١١ و ٢٢

١٠ - (ثم إن ربك للذين هاجروا من بعد ما فتنوا ثم جاهدوا
 وصبووا إن ربك من بعدها لغفور رحيم(١) .) النحل : ١١٠

1۱ ـ ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات إنا لا نضيع أجر من أحسن عملاً • أولئك لهم جنات عدن تجري من تحتهم الانهار يحلّون فيها مسن أساور من ذهب ويلبسون ثياباً خضراً من سندس وإستبرق متكئين فيها على الأرائك نعم الثواب وحسنت مرتفعا •) الكهف: ٣٠ و ٣١

17 - (قد أفلح المؤمنون ، الذين هم في صلاتهم خاشعون والذينهم عن اللغومعرضون والذينهم للزكاة فاءلون والذينهم لفروجهم حافظون والاعلى أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين ، فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون ، والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون ، والذين على صلواتهم يحافظون ، أولئك هم الوارثون ، الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون (٢)) المؤمنون : ١ - ١١١

17 - (ان الذين هم من خشية ربهم مشفقون • والذين هم بآيات ربهم يؤمنون • والذين هم بربهم لا يشركون • والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة أنهم الى ربهم راجعون • أولئك يسارعون في الخيرات وهم لها سابقون(٢) •) المؤمنون : ٧ - ٦١

١٤ - (وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً • والذين يبيتون لربهم سُجداً وقياماً • والذين يقولون ربنا اصرف عنا عذاب جهنم إن عذابها غراماً • إنها ساءت مستقراً ومقاماً • والذين إذا انفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواماً

 ⁽۱) هذه الآية في حق فريق تعرضوا لضغط الكفار حتى أجبروهم على الارتداد ولكنهم اغتنموا فرصة ففروا وهاجروا وعادوا الى الاسلام صابرين مجاهدين في سبيله .

⁽١) ما قلناه ذيلا على آيات سورة الرعد ١٩-٢٤ يقال أيضا في صدد هذه الآيات .

والذين لا يدعون مع الله إلها آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحقّ ولا يزنون ومن يفعل ذلك يلق أثاماً . يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهاناً . إلا من تاب وآمسن وعمل صالحاً فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفوراً رحيماً . ومن تاب وعمل صالحاً فإنه يتوب الى الله متاباً . والذين لا يشهدون الزور وإذا مروا باللفو مروا كراما . والذين إذا ذكروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صماً وعمياناً . والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين واجعلنا للمتقين والله يجزون الفرفة بما صبروا ويلقون فيها تحية وسلاماً . خالدين فيها حسنت مستقراً ومقاماً (١) .) الفرقان : ٣٦ ـ ٧٦

۱۰ - (طس ، تلك آيات القرآن وكتاب مبين ، هـدى وبشـرى للمؤمنين ، الذين يقيمون الصـلاة ويؤتون الزكاة وهم بالآخـرة هـم يوقنون (۱) ،) النهل : ١ - ٣

١٦ - (يا عبادي الذين آمنوا إن أرضي واسعة فإياي فاعبدون .
 كل نفس ذائقة الموت ثم إلينا ترجعون . والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنبوئنهم من الجنة غرفاً تجري من تحتها الانهاد خالدين فيها نعم أجر العاملين . الذين صبروا وعلى دبهم يتوكلون .) العنكبوت : ٥٦ - ٥٩

۱۷ - (إن الذين يتلون كتاب الله وأقامواالصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية يرجون تجارة لن تبور ، ليوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله إنه غفور شكور ،) فاطر : ٢٩ و ٣٠

۱۸ - (والذين اجتنبوا الطاغوت أن يعبدوها وأتابوا إلى الله لهم البشرى فبشر عباد ، الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولوا الألباب ،) الزمر : ١٧ و ١٨

۱۹ - (ألله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثاني تقشعر منه حلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم الى ذكر الله ذلك هدى الله يهدي به من يشاء ومن يضلل الله فما له من هاد .) الزمر : ٢٣ .

⁽١) و (٢) وما تلناه في صدد الآيات السابقة يقال في صدد هذه الآيات .

٢١ ــ إن المتقين في جنات وعيون . آخذين ما آتاهم ربهم إنهم كانوا قبل ذلك محسنين . كانوا قليلا من الليل ما يهجعون . وبالاسحار هم يستغفرون . وفي أموالهم حق للسائل والمحروم .) الذاريات : ١٥ ــ ١٩

٢٢ - إن الإنسان خلق هلوعاً . إذا مسه الشر جزوعاً . وإذا مسه الخير منوعاً . إلا المصلين ، الذين هم على صلاتهم دائمون ، والذين في أموالهم حق معلوم السائل والمحروم ، والذين يصدقون بيوم الدين ، والذين هم من عذاب ربهم مشفقون ، إن عذاب ربهم غير مأمون ، والذين هم لفروجهم حافظون ، إلا علىأزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين ، فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون ، والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون والذين هم بشهاداتهم قائمون ، والذين هم على صلاتهم يحافظون ، أولئك في جنات مكرمون(١) ،) المعارج : ١٩ - ٢٥

77 - (إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافورا ، عيناً يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيراً ، يوفون بالندر ويخافون يوماً كان شـــره مستطيراً ، ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما واسيراً ، إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورا ، إنا نخاف من ربنا يوماً عبوساً قمطريرا ، فوقاهم الله شــر ذلـك اليوم ولقاهم نفـرة وسروراً ،) النسان : ٥ ، ١١

ومما جاء في القرآن المدني في وصف واقع المؤمنين والتنويه بهم :

الم • ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين • الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون • والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون • أولئك على هدى من ربهم

⁽١) في هذه الآيات وصف لواقع المرْمنين أيضا مثل سابقاتها .

وأُولَئُك هم المُفلحون(١) م) الْبَقْرَةُ: ١ ـ ٥

٢ ـ (ومن الناس من يشري نفسه ابتفاء مرضات الله والله رؤوف العداد ٠) النقرة : ٢٠٧

٣ ــ (إن الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله أولئك
 يرجون رحمة الله والله غفور رحيم ٠) البقرة : ٢١٨

١ (الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سراً وعلانية فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون ٠) البقرة : ٢٧٤

٥ - (آمن الرسول بها أنزل إليه من ربه والمؤمنون كسل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير لا يكلف الله نفساً إلا وسعها لها ماكسبت وعليها ما اكتسبت ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ربنا ولا تحمل علينا إصرا كما حملته على ألذين من قبلنا ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين ،) البقرة :

آ = (قل أؤنبئكم بخير من ذلكم للذين اتقوأ عند ربهم جنات تجري من تحتها الانهار خالدين فيها وأزواج مطهرة ورضوان من الله والله بصير بالعباد • الذين يقولون ربنا إننا آمنا فاغفر لنا ذنوبنا وقنا عذاب النار • الصابرين والصادقين والقانتين والمنفقين والمستغفرين بالأستحار •)
 آل عمران: ١٥ - ١٧

٧ - الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح للذين احسنوا منهم واتقوا أجر عظيم • الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل • فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم •) آل عمران: ١٧٢ - ١٧٤

٨ ـ (الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون في

 ⁽۱) هذه الآيات من أوائل ما نزل في العهد المدني بحيث يمكن أن يكون فيها وصف لواقع المؤمنين في العهد المكي أيضا .

غلق السماوات والارض ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانك فقنا عذاب النار ، ربنا إنك من تدخل النار فقد أخزيته وما للظااين من أنصار ، ربنا إنئا سمعنا منادياً ينادي للايمان أن آمنوا بربكم فآمنا ربنا فاغفر لنسا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا وتوفنا مع الأبرار ، ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك ولا تخزنا يوم القيامة إنك لا تخلف الميعاد ، فاستجاب لهم ربهم أني لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض فالذين هاجروا وأخرجوا مسن ديارهم أوذوا في سبيلي وقاتلوا وقتلوا لأكفسرن عنهم سيئاتهم ولأدخلنهم جنات تجري من تحتها الانهار ثواباً من عند الله والله عنده حسن الثواب ،) آل عمران : ١٩١ – ١٩٥

٩ ـ (الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله والذين آو والأونسروا أولئك هم المؤمنون حقاً الهم مغفرة ورزق كريم • والذين آمنوا من بعد وهاجروا وجاهدوا معكم فأولئك منكم •) الأنفال : ٧٤ و ٥٠

10 - (أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد في سبيل الله لا يستوون عند الله والله لا يهدي القوم الظالمين و الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله باموالهم وأنفسهم أعظم درجة عند الله وأولئك هم الفائزون و يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان وجنات لهم فيها نعيم مقيم و) التوبة : 19 - 11

١١ - (والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله أولئك سيرحمهم الله إن الله عزيز حكيم ٠) التوبة : ٧١

١٢ - (لكن الرسول والذين آمنوا معه جاهدوا بأموالهم وأنفسهم
 وأولئك لهم الخيرات وأولئك هم المفلحون ٠) التوبة : ٨٧

۱۳ – (ومن الأعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر ويتخذ ما ينفق قربات عند الله وصلوات الرسول الا إنها قربة لهم سيدخلهم الله في رحمته إن الله غفور رحيم ، والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذيسن اتبعوهم بإحسان رضي الله عنهم ورضوا عنه واعد لهم جنات تجري من

تُحتها الأنهار خالدين فيها أبداً ذلك الفوز العظيم .) التوبة : ٩٩ و ١٠٠

11 - (في بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه يسبح له فيها بالغدو والآصال رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة يخافون يوماً تتقلب فيه القلوب والأبصار ليجزيهم الله أحسن ما عملوا ويزيدهم من فضله والله يرزق من يشاء بغير حساب .) النور: ٢٥ - ٢٨

10 – (ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله وما زادهم إلا إيماناً وتسليماً . من المؤمنين رجال صدقوا ماعاهدوا الله عليه فمنهم منقضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا .) الأحزاب: ٢٢ و ٢٣

17 - (محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعا سجداً يبتفون فضلا من الله ورضواناً سيماهم في وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم في التوراة ومثلهم في الإنجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستفلظ فاستوى على سوقه يعجب الزارع ليغيظ بهم الكفار وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجراً عظيماً ،) الفتح : ٢٩

1۷ ـ (والذين آمنوا باللهورسله أولئك همالصديقونوالشهداء عند دبهم لهم أجرهم ونورهم والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب الجحيم .) الحديد : ١٩

1\lambda - (للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلا من الله ورضواناً وينصرون الله ورسوله أولئك هم الصادقون والذين تبوؤا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة وَمَن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون والذين جاؤا من بعدهم يقولون ربنا أغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلا ً للذين آمنوا إنك رؤوف رحيم •) الحشر : ١٠ - ١٠

19 _ (إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي الليل ونصفه وثلثه وطائفة من الذين معك والله يقدر الليل والنهار علم أن لن تحصوه فتاب عليكم فاقرؤا ما تيسر من القرآن علم أن سيكون منكم مرضى وآخسرون يضربون في الارض يبتغون من فضل الله وآخرون يقاتلون في سبيل الله فاقرؤا ما تيسر منه وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأقرضوا الله قرضا حسناً وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيراً وأعظم أجراً واستغفروا الله إن الله غفور رحيم(١)) المزمل: ٢٠

ولقد تقصدنا الاكثار من النصوص لتبدو دلالتها قوية للقارىء غير المسلم أيضا .

ونلفت النظر الى ما احتوته من صور قوية تعبر أقوى تعبير عن قوة إيمان ويقين المستجيبين للدعوة بصدق الرسالة النبوية ، وصلتها بالله عز وجل ، وما احتوته من سمو المبادىء الايمانية والاجتماعية والاخلاقية والانسانية . ومن شدة استغراقهم فيها .

- { -

ولقد كان النبي صلى الله عليه وسلم في مكة ضعيفا من حيث عدد أتباعه وقوته المادية ، وكان أعداؤه هم الاكثر والاقوى بحيث ينتفي أي ظن بأن الذين آمنوا به من أهل ااكتاب والعلم ومشركي العرب وملحديهم ووثنييهم قد آمنوا بضغط وإكراه ، بل كانوا يؤمنون به وينضوون اليه وهم يعلمون أنهم يخاطرون بأنفسهم ويعرضونها للملامة والتوبيخ والخطر . وفي آبة سورة القصص هذه:

(وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلام عليكم لا نبتغي الجاهلين ٠)

(۱) هذه الآية مدنية ، ولقد كان النبي وأصحابه في مكة يجتهدون في عبادة الله في الليل كما وصفتهم آيات سورة الذاريات

(كانوا قليلا من الليل ما يهجمون . وبالأسحار هم يستففرون .)

وواظبوا على ذلك بعد هجرتهم الى المدينة ، وأراد المؤمنون الجدد أن يحدوا حذوهم . وقد علم الله أن المؤمنين قد كثروا وصارت لهم مشاغل وأعذار متنوعة ، وأنهم لا يقدرون على الاستمرار في ذلك ، فخفف عنهم في هذه الآية .

ألتي هي من آيات سورة القصص (٥٦ ــ ٥٥) التي أوردناها قبل في صدد ايمان بعض أهل العلم والكتاب دليل على أن ذلك وقع على هؤلاء ، وفي آية أخرى في سورة الفرقان تعبير مماثل فيه دلالة على أن اللوم والتوبيخ كان يشمل مختلف فئات المؤمنين وهذا نصها:

(وعباد الرحمن الذين يمشون علسى الارض هسوناً وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً ٠) ٦٣

ولقد اشتد الأذى والمضايقة والخطر ومحاولات الارغام على كثير من شباب الأسر القرشية الذين انضووا الى دعوة الله ورسوله نابذين الشرك وتقاليد الجاهلية من قبل الزعماء والاغنياء والآباء والأعمام ، فأذن الله ورسوله لهم بالهجرة الى الحبشة أولا ، فهاجروا فارين بدينهم ضاربين بذلك أروع الامثلة على التضحية بالمال والوطن والأقارب والمصالح في سبيل الدين الحق الذي اهتدوا اليه معربين بذلك عن شدة استفراقهم فيه وتمسكهم به ، وقد أشارت آيات سورة النحل هذه الى هذا الحادث:

(والذين هاجروا في الله من بعد ما ظلموا لنبوئنهم في الدنيا حسنة ولأجر الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون. الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون (١).) النحل: ١١ و ٢٢

ولقد استطاع الطغاة أن يرغموا بعض الضعفاء الذين لم يتمكنوا من الهجرة على الارتداد عن دينهم ، غير أنهم بادروا الى اغتنام فرصة سنحت لهم ، فهاجروا بدورهم ، وعادوا الى دينهم والجهاد في سبيله على ما تفيده آبات سورة النحل هذه أبضا:

(من كفر بالله من بعد إيمانه إلا مَن أكّره وقلبه مطمئن بالايمان ولكن من شرح بالكفر صدراً فعليهم غضب من الله ولهم عذاب عظيم ، ذلك بأنهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة وأن الله لا يهدى القوم الكافرين ، أولئك

⁽۱) في أذهان بعض الناس أن اللدين هاجروا الى الحبشة هم مسن الفقراء والأرقاء والأرقاء والضعفاء ، ولكن الواقع أن كلهم أو جلهم من أبناء الاسر القرشية البارزة بل ومنهم من أبناء زعماء وقادة المعارضة للنبي ورسالته ، وقد هاجر المنزوجون منهم هم وزوجاتهم اللائي هن الأخريات من بنات الاسرالقرشية البارزة، انظر سبرة ابن هشام ج٢ ص٣٢٣-٣٣٠

الذين طبع الله على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم وأولئك هم الفافلون • لا جرم أنهم في الآخرة هم الخاسرون • ثم إن ربك للذين هاجروا من بعد ما فتنوا ثم جاهدوا وصبروا إن ربك من بعدها لففور رحيم •) النحل :

وفي هذا الموقف نفس الصورة القوية من التضحية والتمسك التي نبهنا عليها ، والآيات قد تفيد أن بعض المرتدين ظل مرتداً طمعاً بالسلامة والاغراء ، ولكن هذا ليس من شأنه الاخلال بالصورة . ولقد بدأت فتنة المؤمنين عن دينهم أي ارغامهم على الارتداد في وقت مبكر ، وشملت النساء والرجال معا على ما تفيده آية في سورة البروج التي هي من السور المبكرة في النزول وهي :

(إن الذين فتنوا الؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق .)

ثم استمرت على ما تفيده آيات قرآنية أخرى كما ترى فيما يلي بالاضافة الى آيات سورة النحل التي أوردناها قبل:

ا ـ (وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين ، واقتلوهم حيث ثقفتموهم واخرجوهم مـن حيث أخرجوكم والفتنة اشد من القتل ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه فإن قاتلوكم فاقتلوهم كذلك جزاء الكافرين(١) ،) البقرة : ١٩٠ و ١٩١

٢ ــ (يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قلقتال فيه كبير وصد"
 عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام واخراج أهله منه أكبر عند الله والفتنة أكبر من القتل ولا يزالون يقاتلوكم حتى يردوكم عن دينكم إن الستطاعوا(٢) •) البقرة: ٢١٧

٣ - (فاستجاب لهم ربهم اني لا اضيع عمل عامل منكم من ذكر أو

⁽۱) و (۲) الآیات مدنیة ، نزلت بعد هجرة النبي واصحابه الى المدینة وبسبیل تشریع قتال الکفار والاعداء ، وفي الآبتین اشارة الى ما کان من فتنة الکفار للمؤمنین وتصمیمهم على ذلك .

انثي بعضكم من بعض فالذين هاجروا وأخرجوا من ديارهم أوذوا في سبيلي وقاتلوا وقتلوا لأكفرن عنهم سيئاتهم ولأدخلنهم جنات تجري من تحتها الانهار(١) ٠) آل عمران: ١٩٥

ولقد اشتد الآذى والضغط على الذين لم يهاجروا الى الحبشة ، واستطاعوا أن يصمدوا مدة أخرى ، فأذن الله ورسوله لهم بالهجرة الى المدينة بعد أن انضوى فريق من زعماء يثرب (المدينة المنورة) من الأوس والخزرج الى دين الله ، ورحبوا بهجرة النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه اليهم ، ووعدوه بالنصر والدفاع ، فهاجروا فريق بعد فريق ورجال ونساء مكررين الصورة المشرقة بالتضحية بالمال والوطن والاقارب والمصالح في سسبيل دين الله معبرين بذلك عن شهدة تمسكهم به ، واستغراقهم فيه كما فعل رفاقهم من قبل ، مما عبرت عنه آية سهورة الحشر هذه تعبيراً قوياً .

(للفقراء المهاجرين الذين اخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلا من الله ورضواناً وينصرون الله ورسوله أولئك هم الصادقون ٠) الحشر : ٨

وقد أشارت الآية التالية لهذه الآية الى ايمان زعماء الأوس والخزرج وأقاربهم قبل الهجرة وترحيبهم بالمهاجرين من مكة بهذه العبارة التنويهية القوية:

(والذين تبوؤا الدار والإيهان من قبلهم يحبون من هاجر اليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة مها إوتوا ويؤثرون على انفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون ٠) الحشر : ٩

ولقد أحس زعماء الكفار من قريش بالخطر بعد ذلك ، فتآمروا على النبي صلى الله عليه وسلم على ما تفيده آية سورة الأنفال هذه:

⁽۱) الآية كذلك مدنية وبعد الهجرة ، وتعبير (أخرجوا) يعني : أنهم الجبوا على الخروج نتيجة للاذى والضغط .

(وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمتر الله والله خير الماكرين(١) ٠) ٣٠

قاذن الله حينيًا لرسوله بالهجرة بدوره مما أشارت اليه آية التوبة هذه:

(إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين إذ هما في الفار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا فأنزل الله سكينته عليسه وايده بجنود لم تروها وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هي العليا والله عزيز حكيم ٠) ٠٠

وفي سورة الممتحنة آيات أخرى تشير الى أضطرار النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه الى الهجرة نتيجة لأذى الكفار وهي هذه:

(يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق يخرجون الرسول واياكم أن تؤمنوا بالله ربكم إن كنتم خرجتم جهاداً في سبيلي وابتغاء مرضاتي تسرون إليهم بالمودة وأنا أعلم بما أخفيتم وما أعلنتم ومن يفعله منكم فقد ضل سواء السبيل ، إن يثقفوكم يكونوا لكم أعداء ويبسطوا إليكم أيديهم والسنتهم بالسوء وودوا لو تكفرون ، المتحنة : ١ و ٢

وقد تعذر على بعضهم الهجرة مع النبي والمؤمنين إلى المدينة فظلوا تحت الضغط والأذى ، ومنهم من اضطر الى كتم إسلامه على ما تفيده هذه الآبات:

ا _ (وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك نصيراً .) النساء : ٧٥ - (ان الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم قالوا فيم كنتم قالوا كنا مستضعفين في الارض قالوا ألم تكن أرض الله وأسعة فتهاجروا فيها

⁽۱) تآمروا على النبي صلى الله عليه وسلم فمنهم من أشار بحبسه ، ومنهم من أشار بنفيه ، ومنهم من أشار بقتله ، فأخبره الله بنفيه ، ومنهم من أشار بقتله ، فأخبره الله بذلك وأذن له بالهجرة .

فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيراً . إلا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا ، فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم وكان الله عفواً غفوراً ، ومن يهاجر في سبيل الله يجد في الأرض مراغماً كثيراً وسعة ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله وكان الله غفوراً رحيهاً (١)) ، النساء : ٩٧ ـ ٩٩

٣ ـ (هم الذين كفروا وصدوكم عن المسجد الحرام والهدي معكوفاً أن يبلغ محلله لولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات لم تعلموهم أن تطؤوهم فتصيبكم منهم معرة بغير علم ليدخل الله في رحمته من يشاء لو تزيلوا لعذبنا الذين كفروا منهم عذاباً اليماً (٢) •) الفتح: ٢٥

وفي سورة الممتحنة إشارة إلى صورة مشرقة قوية أخرى حيث تغيد أن بعض المؤمنات اللائي تعذر عليهن الهجرة ، وكن زوجات للكفار ، اغتنمن فرصة سانحة ، فتركن أزواجهن ووطنهن ومصالحهن وهاجرن إلى المدينة ملتحقات بالنبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه ضاربات بذلك المثل الرائع الذي ضربه الرجال ، وقد جاء ذلك في الآية التالية :

(يا أيها الذين آمنوا أذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتحنوهن الله أعلم بايمانهن فإن علمتموهن مؤمنات فلا ترجعوهن إلى الكفار لا هن حل لهم ولا هم يحلون لهن وآتوهم ما أنفقوا ولا جناح عليكم أن تتكحوهن إذا آتيتموهن أجورهن (٣) •) المتحنة : ١٠

⁽١) الآيات تفرق بين من يستطيع الهجرة ولو مجازفة ، وبين من لا يستطيع ، فتلوم الاولين وتحثهم ، وتفدر الآخرين .

[&]quot; (٢) في الآية اشارة الى اناس مؤمنين رجال ونساء في مكة يكتمون اسلامهم ، وهم على الارجح الذين لم يستطيعوا الهجرة وعدرهم الله .

⁽٣) كان ذلك بعد صلح الحديبية الذي كان من شروطه أن يرد النبي من يأتي اليه من مكة ولو كان مسلماً ، فجاء أزواج النساء المؤمنات الفارات أو أهلهم يطلبون الوفاء بالشرط ، فأمر الله بعدم إعادتهن ، لأنهن أصبحن محرمات على أزواجهن الكفار ، وأمر بالتعويض على هؤلاء الازواج حلا للامر ، انظر سيرة أبن هشام ج٣ ص ٣٧٥ وبعدها ، مطبعة حجازي بالقاهرة .

وفي كتب السيرة ما يفيد أن من المؤمنين الذين تعذر عليهم الهجرة إلى المدينة من كان محبوساً مقيداً بالأغلال منعاً له من الهجرة (١)

والرعيل الأول من الأنصار (أهل المدينة من العرب) قد آمنوا قبل هجرة النبي صلى الله عليه وسلم إليهم على ما تفيده آية سورة الحشر هـنده:

(والذين تبوؤا الدار والإيمان من قبلهم مَن يحبون هاجر إليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم الفلحون .)

حتى لقد روت كتب السيرة أنه لم يكن بيت في المدينة لم يدخله الاسلام قبل هجرة النبى صلى الله عليه وسلم إلى المدينة (٢).

وكل هذا يؤيد أن إيمان الذين آمنوا في مكة ، ثم في المدينة قبل هجرة النبي إليها كان بحافز الرغبة في الايمان بأنفسهم لما راوه من أعلام صدق نبوة النبي صلى الله عليه وسلم ، ومبادىء الدعوة السامية التسي دعا بها .

ولقد كان من هؤلاء أهل كتاب وعلم وجدل وحجاج ، ومنهم من ثبتت عبقرية عقولهم وحكمتهم وحنكتهم القيادية ، وثاقب بصائرهم ، وقوة شخصياتهم وقدرتهم على استيعاب الأمور والنفوذ إليها ، ولايمكن أن يكونوا قد خدعوا أو توهموا ، ولا بد من أن يكونوا قد تيقنوا بما لا يتحمل أي ريب من صدق تلك الأعلام فضلا عما كان من قوة مبادىء الدعوة واهدافها الاصلاحية والانسانية والاجتماعية والسلوكية والروحية . وعدد هؤلاء كبير ، فيكون أمر صدق صلة النبي صلى الله عليه وسلم باللهووجيه يقيناً ثابتاً بالمشاهدة العيانية ، وإنكار ذلك بعدهم هو إنكار تعسفي يقيناً ثابتاً بالمشاهدة العيانية ، وإنكار ذلك بعدهم هو إنكار تعسفي كبير من مختلف الفئات ، وفيهم العلماء والنبهاء والاذكياء والخبراء ،

⁽١) انظر سيرة ابن هشام ج٣ ص ٥٥٥ وبعدها .

⁽٢) ابن هشام ج٢ ص ٣٨ وبعدها مطبعة حجازي .

ومنهم ما لا يصح أن يفرض أنه كان مخدوعاً أو متوهماً ، ويكون ذلك الانكار متهافتاً وجزافاً من دون ربب .

وتبدو قوة الشهادات والمشاهد العيانية عظيمة إذا ما لوحظ أنها وردت أيضاً في القرآن الكريم الذي هو بقطع النظر عن قدسيته عند المسلمين وثيقة مسلم بها من كل الناس بأن ما فيها من أحداث وأخبار ومشاهد وشهادات قد دون فور نزوله دون تأخر ، ودون أن يئساب بشائبة من خيال ومبالفة وتناقض وروايات متعددة أو متأخرة مما هو فريد بالنسبة لما هو من بابه من أخبار الانبياء السابقين .

وإذا نجن قلنا: إن أي ظن بأن إسلام الرعيل الأول من المكيين أو المدنيين الذين سماهم القرآن (السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار) كان بالضغط أو التهويش أو الخداع غير وارد البتة، فان هذا لا يعني أن ذلك وارد بالنسبة للذين آمنوا من بعدهم في العهد المدني وبعد هجرة النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة، فالدعوة استمرت وفق توجيه القرآن الذي تمثله آية سورة النحل هذه:

(أدع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين .) ١٢٥٠

ومن لم يؤمن كان يترك وشأنه إلى ان يرعوي فيؤمن أو يموت كافراً حسابه عند الله ما دام مسالماً لا يمد يده للاسلام والمسلمين بأذى ، اتباعاً لتوجيه القرآن كذلك في آيات كثيرة مكية ومدنية معاً منها هذه الآيات :

ا - (لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الفي فمن يكفر بالطاغوت
 ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع
 عليم ٠) البقرة : ٢٥٦ مدنية .

٢ - (إن الدين عند الله الاسلام وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم ومن يكفر بآيات الله فان الله سريع الحساب ، فإن حاجوك فقل أسلمت وجهي لله ومن اتبعن وقل للذين

اوتوا الكتاب والأميين ااسلمتم فإن اسلموا فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما عليك البلاغ والله بصير بالعباد ٠) آل عمران: ١٩ و ٢٠ مدنية ٠

٣ ـ (قل يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أدباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون ٠) آل عمران : ٦٤ مدنية ٠

إلا الذين يصلون الى قسوم بينكم وبينهم ميثاق أو جاؤكم حَصِرت صدورهم أن يقاتلوكم أو يقاتلوا قومهم ولو شاء الله لسلطهم عليكم فلقاتلوكم فإن اعتزلوكم فلم يقاتلوكم والقوا إليكم السّلم فما جعل الله لكم عليهم سبيلا •) النساء : • ٩ مدنية •

٥ - (يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً الذي له ملك السماوات والأرض لا إله إلا هو يحيي ويميت فآمنوا بالله ورسوله النبي الأمي الذي يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون ٠) الاعتراف : ٨٥ مكتة .

٦ - (لقد جاءكم رسول من انفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم • فإن تولوا فقل حسبي الله لا إله إلا هـو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم •) التوبة : ١٢٨ و ١٢٩ مدنية •

٧ - (قل يا أيها الناس قد جاءكم الحق من ربكم فمن اهتدى فانما يهتدي لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها وما أنا عليكم بوكيل • واتبع ما يوحى إليك واصبر حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين •) يونس: الماد و ١٠٩ مكبة •

٨ - (يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا . وداعيا إلى الله بإذنه وسراجاً منيرا . وبشر المؤمنين بأن لهم من الله فضلا كبيرا .
 ولا تطع الكافرين والمنافقين ودع أذاهم وتوكل على الله وكفى بالله وكيلا .)
 الأحزاب : ٥٥ - ٨٥ مدنية .

٩ - (إنا انزلنا عليك الكتاب للناس بالحق فمن اهتدى فلنفسه ومن ضل
 فإنها يضل عليها وما أنت عليهم بوكيل ٠) الزمر : ١٤ مكية ٠

۱۰ ـ (نحن أعلم بما يقولون وما أنت عليهم بجبار · فذكر بالقرآن من يخاف وعيد ·) ق : ٥٥ مكية ·

١١ - قل يا أيها الكافرون . لا أعبد ما تعبدون . ولا أنتم عابدون

ما اعبد . ولا اناعابدماعبدتم . ولا انتم عابدون ما اعبد . لكم دينكم ولي َ دين (۱) .) سورة الكافرون : مكية .

ويلفت النظر إلى التساوق والانسجام البارزين في التوجيه القرآني بقطع النظر عن اختلاف العهد ، وتبدل مركز القوة إلى جانب النبي ضلى الله عليه وسلم والمسلمين في العهد المدني ، بل إن القرآن قد حث في هذا العهد والنبي ، والمسلمون في مركز القوة على البر بمن يسالم المسلمين من الكفار والإقساط إليهم كما جاء في آية في سورة الممتحنة التي نزلت بين يدي بلوغ النبي والمسلمين شأواً كبيراً في القوة ، جعلهم يتحفزون إلى الزحف على مكة ذلك الزحف الذي أدى إلى فتحها وهي هذه:

(لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المسطين •) المتحنه: ٨ •

وكل ذلك يبلغ الذروة والجلال واليقين بأن الدعوة هي إلى الحق والصلاح وخير الانسانية وسعادتها ، وقد كانت تسير في نطاق الحكمة والموعظة الحسسنة والجدال بالتي هي أحسن ، وترك الناس بعد ذلك لعقولهم وتمييزهم واختيارهم ، وكل دعوى خلاف ذلك هي داخضة باطلة .

ولقد ظل ينضوي إلى الاسلام بعد الرعيل الأول من الأنصار مسن مختلف فئات الناس مسن مشركين ووثنيين وكتابيين وعرب وغير عرب طوائف بعد طوائف استجابة للدعوة التي ظلت تسير في هذا النطاق مما يمثله جملة (والذين اتبعوهم بإحسان) في آية سورة التوبة هذه:

(والسابقون الأولون من المهاجرينوالأنصار والذين اتبعوهم بإحسان رضي الله عنهم ورضوا عنه •) التوبة : ١٠٠ •

وآية سورة الحشر هذه:

(والذين جاؤوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذيسن سيقونا بالإيمانولا تجعل في قلوبنا غِلا للذين آمنوا ربنا إنكرؤوف رحيم،) الحشر : ١٠٠

التي جاءت بعد ذكر الرعيل الأول من المهاجرين والأنصار في الآيتين (٨ و ٩) حتى عم سائر انحاء الجزيرة مما تمثله سورة النصر هذه التي نزلت في أواخر حياة النبي صلى الله عليه وسلم:

(إذا جاء نصر الله والفتح ، ورأيت الناس يدخلون في ديسن الله افواجاً ، فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان تواباً ،)

وأخذ يتسرب إلى خارج الجزيرة ، ويدخل فيه أناس من المشركين والكتابيين في بلاد الشام والعراق والحبشة على ما ذكرته روايات السيرة الوثيقة ، وقد يكون بعض طوائف دخلت في الدين الاسلامي رغبة وطمعاً أو تقية ، وأن لا يكون الايمان قد تمكن من قلوبها ، وهذا مما تؤيده نصوص قرآنية عديدة كما ترى فيما يلي :

١ ــ (ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وماهم بمؤمنين .
 يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون .)
 البقرة : ٨ و ٩ .

٢ ـ (ويحلفون بالله إنهم لمنكم وما هم منكم ولكنهم قوم يفرقون ٠
 لو يجدون ملجا أو مفارات أو مدخللا لولوا إليه وهم يجمحون ٠)
 التوبة : ٦ هو ٥٧ ٠

٣ - (سيقول لك المخلفون من الأعراب شغلتنا أموالنا وأهلونا فاستغفر لنا يقولون بالسنتهم ما ليس في قلوبهم قل فمن يملك لكم من الله شيئاً إن أراد بكم ضراً أو أراد بكم نفعاً بل كان الله بما تعملون خبيراً ، بل ظننتم أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهليهم أبداً وزين ذلك في قلوبكم وظننتم ظن السوء وكنتم قوماً بوراً) الفتح : ١١ و ١٢ ٠

ه ـ (قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان في قلوبكم وإن تطيعوا الله ورسوله لا يلتكم من أعمالكم شيئاً إن الله غفور رحيم .) الحجرات : ١٤ .

وقد كان الله ورسوله يقبلون منهم هذا الموقف لأنهم كانوا يتظاهرون بالاسلام ، ويحلفون أنهم من المسلمين كما جاء في آيات سورتي البقرة والتوبة التي أوردناها قبل قليل ، ولأنهم كانوا يصلون ، ويؤتون الزكاة ولو بكسل ورباء على ما ذكرته آبات أخرى كما ترى فيما بلى:

١ ــ (إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم وإذا قاموا إلى الصلاة
 ١٤٢ ـ النساء : ١٤٢ .

 Υ _ (وما منعهم أن تقبل منهم نفقاتهم إلا أنهم كفروا بالله ورسوله ولا يأتون الصلاة إلا وهم كسالى ولا ينفقون إلا وهم كارهون Υ التوبة : Υ .

وذلك على احتمال توبتهم ، وكان القرآن يحثهم دائماً على ذلك كما ترى في هذه الآيات :

ا بنافقين في الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيراً . إلا الذين تابوا واصلحوا واعتصموا بالله واخلصوا دينهم لله فاولئك مع المؤمنين وسوف يؤت الله المؤمنين أجراً عظيماً . ما يفعل الله بعدابكم إن شكرتم وآمنتم وكان الله شاكراً عليماً .) النساء: ١٤٥ و ١٤٦ .

٢ - (يحلفون بالله ما قالوا ولقد قالوا كلمة الكفر وكفروا بعبد إسلامهم وهموا بما لم ينالوا وما نقموا إلا أن أغناهم الله ورسوله من فضله فإن يتوبوا بك خيراً لهم وإن يتولوا يعذبهم الله عذاباً أليماً في الدنيسا والآخرة وما لهم في الارض من ولى ولا نصير ٠) التوبة : ٧٤ .

ولقد سجل القرآن صورة متطورة للأعراب ، فقد جاء في سورة التوبة فصل عنهم انتهى بهذه الآيات :

(الأعراب أشد كفراً ونفاقاً وأجدر ألا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله والله عليم حكيم ، ومن الأعراب من يتخذ ما ينفق مغرماً ويتربص بكم الدوائر عليهم دائرة السوء والله سميع عليم ،)

ثم جاء بعد ذلك هذه الآية:

(ومن الأعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر ويتخذ ما ينفق قربات

عند الله وصلوات الرسول الا إنها قربة لهم سيدخلهم الله في رحمته إن الله غفور رحيم .) التوبة : ٩٧ ـ ٩٩ .

ولقد تطير اليهود في المدينة حينما هاجر النبي صلى الله عليه وسلم اليها لأنهم راوا في هجرته خطراً على ما كان لهم من مصالح ومراكز ، فأخذ معظمهم موقف المناوىء المتآمر . ولقد كان عبد الله بن أبي زعيم عشيرة قوية من الخزرج مرشحاً للملك على قومه قبل هجرة النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة ، فحالت هذه الهجرة دون مطمحه فحقد ونافق(۱)، وتعصب له بعض أفراد عشيرته ، فقامت حركة النفاق في المدينة ، وسارع اليهود إلى التحالف معهم والوسوسة لهم ، وتحريضهم فكانت المواقف المتنوعة التي ذكرها القرآن ، وندد بأصحابها وأنذرهم(۲) . فلما أجلى النبي صلى الله عليه وسلم اليهود عن المدينة ، أخذت هذه الحركة تشول ، وثاب كثير من المنافقين إلى رشدهم ، وتابوا إلى الله ، ولسم يستمر على نفاقه إلا أفراد قليلون ماتوا أو مات جلهم في حياة النبي صلى الله عليه وسلم . ولم ترو أية رواية أن النبي طاردهم أو أمر بقتل أي منهم ، والمتبادر أنه لم يعتبرهم أعداء خطرين على الاسلام والمسلمين ، فوسع الصدر لهم ، ولا سيما أنهم كما قلنا : كانوا يظهرون الإسلام ، ويقيمون الصلاة ، ويؤتون الزكاة .

وما كان من أمر قرآني بالقتال ، أو عمل نبوي حربي وتأديبي وتنكيلي ضد الجاحدين إنما كان بسبب أنهم لم يبقوا في نطاق الجحود والمماحكة الكلامية والجدلية ، بل تجاوزوا هذا النطاق إلى الأذى والعدوان . ومصادرة حربة الدعوة ، وتهديد سلامة المسلمين ، والاعتداء

⁽۱) انظر سیرة ابن هشام ج۳ ص ۳۳۵ - ۳۳۰

⁽٢) اقرأ اذا شئت آیات سورة البقرة ٨-١٦ ، و ّل عمران ١٥١و١٦٦١٥٢١ ، والنساء ١٣٠١٩ و ١١٠١٢ ، والمائدة ٢٥و٣٥ ، والانفال ١٩ ، والتوبة ٢٤-١١٠ و ١٢١-١٢٨ ، والنور ٨٤-١٤ ، والاحزاب ١-٠٠ و ١٥-٦٢ ، ومحمد ٢٠-٠٠ ، والمجادلة ٨-٩ و ١٤-٢٢ والحشر ١١-١٥ ، والمخانقون ١٨٠١ .

عليهم بالقتال مع عدم العدوان ، وعدم تجاوز الحد في التأديب والمقابلة بالمثل ، ودفع الأذى والخطر مما احتوت تقريره آيات قرآنية عديدة منها هذه الآبات:

(وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين . واقتلوهم حيث ثقفتهوهم وأخرجوهم من حيث أخرجوكم والفتنة أشد من القتل ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه فإن قاتلوكم فاقتلوهم كذلك جزاء الكافرين . فإن انتهوا فإن الله غفور رحيم . وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين . الشهر الحرام بالشهر الحرام والحرمات قصاص فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم واتقوا الله وأعلمو أن الله مع المتقين . وأنفقوا في سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة وأحسنوا إن الله يحب التعسنين .) البقرة : ١٩٠ ـ ١٩٠ .

٢ - (ستجدون آخرین یریدون أن یأمنوكم ویأمنوا قومهم كلما ردوا إلى الفتنة أركسوا فیها فإن لم یعتزلوكم ویلقوا إلیكم السلم ویكفوا أیدیهم فخذوهم واقتلوهم حیث ثقفتموهم وأولئك جعلنا لـكم علیهم سلطاناً مییناً ٠) النساء : ٩١ .

٣ ـ (قل للذين كفروا إنينتهوا يففر لهم ما قد سلف وإن يعودوا فقد مضت سئة الأولين . وقاتلوهم حتى لا تكون فتئة ويكون الدين كله لله فإن انتهوا فإن الله بما يعملون بصير . وإن تولوا فاعلموا أن الله مولاكم نعم المولى ونعم النصير .) الأنفال : ٣٨ ـ ٠٤ .

إ ـ أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير • الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً ولينصرن الله من ينصره إن الله لقسوي عزيز(۱) •) الحج: • إ و ا } •

 ⁽۱) هذه الآیات أول ما نزل بالاذن للمسلمین بقتال أعدائهم الکفار الله ین کانوا یعتدون علیهم باللسان والید والقتال .

ولقد لقي مسلمون بعض الناس ، فالقى هؤلاء السلام ، أو أظهروا أنهم مسلمون أو مسالمون ، وقتلوهم وغنموا أنهم مسلمون أو مسالمون ، وقتلوهم وغنموا ما معهم اجتهاداً أنهم من الكفار الأعداء ، فغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالوا له : إنهم كانوا كاذبين مخادعين ، فقال لهم : هلا شققتم عن قلوبهم . وأنزل إلله هذه الآية الرائعة :

٥ - (يا أيها الذينُ إِذَا ضربتم في سبيل الله فتبينوا ولا تقولوا لن القي إليكم السبلام لست مؤمناً تبتغون عرض الحياة الدنيا فعند الله مفانم كثيرة كذلك كنتم من قبل فمن الله عليكم فتبينوا إن الله كان بما تعملون خبيراً ٠) النساء : ٩٤ .

ولقد كان يقبل من الأعراب أن يقولسوا: أسلمنا ولسو لم يدخسل الايمان في قلوبهم أملا بأن ذلك سيكون بالقدوة والممارسة على ما تتضمنته آية سورة الحجرات هذه:

(قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخـل الايمان في قلوبكم وإن تطيعوا الله ورسوله لا يلتكم من أعمالكم شيئاً إن الله غفور رحيم ٠) ١٤ ٠

وفي سورة الأنفال آيات تأمر النبي بالجنوح للسلم إذا جنع إليها العدو حتى ولو كان قد نقض العهد قبل أو كان متوقعاً منه الخداع وهي:

(إن شر الدواب عند الله الذين كفروا فهم لا يؤمنون ، الذين عاهدت منهم ثم ينقضون عهدهم في كل مرة وهم لا يتقون ، فإما تثقفنهم في الحرب فشرد بهم من خلفهم لعلهم يذكرون ، وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء إن الله لا يحب الخائنين ، ولا يحسبن الذين كفروا سبقوا إنهم لا يعجزون ، وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم وما تنفقوا من شيء في سبيل الله يوف إليكم وانتم لا تظلمون ،

وإن جنحوا للسلم فاجنحلها وتوكل على الله إنه هو السميع العليم • وإن يريدوا أن يخدعوك فإن حسبك الله هو الذي أيدك بنصره وبالمؤمنين وألف بين قلوبهم لو أنفقت ما في ألأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله الف بينهم إنه عزيز حكيم •) ٥٥ – ٦٣ •

وألوقائع الحربية التي جرت في زمن النبي صلى الله عليه وسلم سواء التي قادها بنفسه أم عهد بقيادة المسلمين فيها إلى قواد عينهم كانت في نطاق هذه التوجيهات . وما يقال ويروى ويفسر خلاف ذلك لا يثبت على تمحيص .

ولو كان في الملحدين حسين نبة ورغبة في الإذعان للحق وضمير حي ، لتأثروا بدون ريب بما احتوته الآيات التي أوردناها في جميع النبذالسابقة النافذة إلى الأعماق الباعثة لأقوى اليقين في النفس الصافية بأنها لا يمكن أن تكون النبي صلى الله عليه وسلم فيها كاذباً ومفترياً ومتوهماً ومتخبلاً، ولا بد من أن يكون قد تم اتصال بينه وبين مبدع الكون الحكيم ، وتلقى وحياً منه بتبليغ رسالته إلى خلقه ليخرجهم من الظلمات إلى النور ، وبهديهم إلى صراط مستقيم ، وبأن آلاف الآلاف من الناس الذين رأوا النبي صلى الله عليه وسلم ، وسمعوا منه مواحهة ، وآمنوا به ، وكان منهم كثيرون من أهل الكتاب ، ومن الراسخين في العلم ، ومن ذوى العقول الراجحة والنباهة والذكاء والاطلاع والشخصيات القوية ، ومنهم وأفدون عليه من خارج الجزيرة لاستطلاع أمره والسماع منه ، إنما آمنوا تأثرا بذلك وتيقناً منه ، وفي ذلك شهادات عيانية لا يماري فيها إلا مكابر عنيد متعسف ولن ينقض هذا أن بكون طوائف أو أفراد من الذبن أسلموا من بدو قد أسلموا رغبة وطمعاً أو تقية ونفاقاً على ما شرحناه آنفاً ، فان إيمان الرعيل الأول والذبن اتبعوهم باحسان ، والذبن هم متصفون بالصفات التي ذكرناها بظل شهادة عيانية لا يمكن أن تدحض .

وليس ما تقدم هو كل حجتنا عليهم ، ففيما يأتي المزيد المقنع لمن بريد أن يقنع ويذعن للحق .

الفصيل الثالث

النظرة الاعتباطية الجزافية إلى القرآن والعواصم من ذلك

-1-

يقع الملحدون فيما يقعون فيه من سوء فهم وتأويل وتمحل ، ويجرؤون على ما يجرؤون عليه من تخرص وتنطع في صدد محتويات القرآن بسبب كونهم ينظرون فيه نظرة اعتباطية وجزافية ، ويتعسفون في فهمه تعسفا متناقضا مع اللغة والتاريخ والوقائع والحقائق والمنطق العام . وكثيراً ما يأخذون آية بل جملة من آية ، أو فصلا من سورة فيماحكون ، ويتمحلون فيه دون أن يتنبهوا ، أو يهتموا ، أو يستوعبوا لما في بقية الآية أو سياقها السابق أو اللاحق ، أو السور الاخرى من تتمات واستدراكات وتوضيحات في حين أن الواجب والمنطق والحق والعلم معا يقضي بأن يؤخذ القرآن ككل متكامل ، يفسر بعضه بعضا ، ويوضح بعضه بعضا ، ويتمم بعضه بعضا بحيث يقال بحزم : إنه لا يوجد آيدة فيها وهم تعارض وتباين وإشكال إلا وفي سياقها أو في آيسة أخرى ما يزيل ذلك الوهم ، ويظهر وجه الحق والحكمة والصواب مما هو من معجزات القرآن العظيمة الخالدة .

وكثيراً ما يتجاهلون أو يجهلون ، أو لا يتنبهون إلى الصلة الوثيقة بين القرآن والبيئة التي نـزل فيها ، وبين القـرآن والسيرة النبوية ، فينظرون في آياته و فصوله نظرة منعزلة عن ذلك وغير متسقة مع ظروف نزولها وبواعثها وأسبابها وجوها ، وكثيرا ما يكونون جاهلين للغة التي نزل بها القرآن ، وأساليبها الخطابية ، فيتعسفون في تأويل لغـة القرآن ، وكثيراً ما يتمسكون بجوانب متشابهة من القرآن ، ويهملون ما فيه من

محكمات حاسمة فيها تفسير لهذه الجوانب، وفي كتاب «نقد الفكر الديئي» لصادق جلال العظم نماذج كثيرة من هذه المسائل مما سوف نعرض له بعد.

ومن المؤسف أن كثيراً من المسلمين ، بل ومن علمائهم وباحثيهم ومفسريهم قديماً وحديثاً وقعوا في كل ذلك بقطع النظر عن حسن نية هؤلاء وسوء نية أولئك ، فكانوا مع ذلك فيما يقولون ويكتبون ويؤلفون وتخرصون تكأة للملحدين أيضاً فيما يقولون ويكتبون ويؤلفون ويتخرصون ويتحججون ، وقد استند العظم على كثير من ذلك فيما ساقه وتحجج به .

ولو تروى الناظرون في القرآن من الفريقين ، لأمكنهم أن يصححوا كثيراً من الأخطاء التي يقعون فيها ، ويفهموا القرآن على وجهه الحق . وفيما يلى شرح وتوضيح .

ولقد أطلنا الشرح في مباحث هذا الفصل حتى صار أطول فصول الكتاب ، لأن هذه المباحث مهمة جدا في فهم القرآن ، واستيعاب محتواه واهدافه بصورة عامة للمسلمين وغيرهم ، ولأن صادق العظم وهو يمثل الملحدين قد تصدى في كتابه « نقد الفكر الديني » لكثير من محتويات القرآن التي تدخل في نطاق هذه المباحث ، فصار من المفيد والواجب التصدي والرد عليه ، ووضع الأمر في نصابه الحق إن شاء الله .

- 1 -

iek:

القرآن والسيرة النبوية

إن التروي في القرآن يظهر أنه من اعتبار ما سلسلة تامة للسيرة النبوية وتطورها منذ بدئها إلى نهايتها ، متصل بعضها ببعض ، ومفسر

بعضها للعض(١) ففي كل سورة من سوره ومجموعة من مجموعاته 4 أو فصل من فصوله صورة لموقف من مواقف النبي صلى الله عليه وسلم من أهل بيئته من العرب وغير العرب ، ومن المشركين والوثنيين والكتابيين ، أو صورة لموقف من مواقفهم منه ومن دعوته ، أو صورة من صور مواقف النبي صلى الله عليه وسلم من الذين استجابوا للدعوة ، أو من مواقفهم منه ، أو من مواقف الكفار منهم، أو مواقفهم من الكفار، أو صورة لتطورات جميعهذهالمواقف دعوة وتبيانا وبرهنة وتدليلا وعظة وتنبيها وتبشيرا وإنذارا ووصفاً وتشبيها ، وقصصاً وأمثالا ، وترغيباً وترهيباً ووعداً ووعيداً ، وجدالا وحجاجاً ، وتحدياً وعناداً ، ومكابرة وأستكباراً وأذى وتنديداً ، وتنويها وتسلية وتثبيتا وتطمينا وتصبيرا وسدؤالا وجوابا وجهادا وتشريعاً وتسجيلا لواقعوقت النزول إلخ الخ ، وكل صورة معطوفة على صورة سابقة ، أو مرتبطة بصورة لاحقة في اتساق وانسجام تامين ، وضمن نطاق واحد مما يتضح لكل من ينعم النظر في القرآن ، ويقرأ سوره خاصة وفق تتابع النزول المعروف أو المخمن بقدر الامكان . وملاحظة ذلك مهمة جداً في فهم مواضيع القرآن وتقريراته ومداه وروحه ، وفي جعل الناظس فيه لا ببتعد عن حقيقة الواقع والباعث ، ولا يأخذ ما يقرأ منعزلا عن ملابساته ، وهذه الملاحظة تعصم من التورط في التخمينات والتزيدات والجدليات وتحميل العبارات القرآنية ما لا تتحمله .

ففي القرآن مثلا ما يفيد أنه جرى تبديل بعض الآيات ببعض ، وأن بعض آيات أو أمور مأمورة نسخت بفيرها ، وأن ذلك أثار إشكالا بين

⁽۱) نقول من قبيل الاستدراك: إننا لا نعني أن القرآن قد احتوى جميع صور السيرة النبوية ، أو ما احتواه منها قد جاء قصدا لها بالذات ، فهناك من دون ريب أحمداث وصور كثيرة من السيرة النبوية لم ترد في القرآن ، كما أن ما جاء منها فيه انما جاء في الحقيقة عرضا وبسبيل الدعوة أو الموعظة أو التذكير أو التشريع أو الأمسر والنهي ، أو التوضيح أو الإجابة على سؤال ومشكل مما اقتضته الحكمة ليكون مصدر إلهام وإيحاء وتوجيه ومرجع تشربع وتلقين في جميع العصور ، وليس محصورا بأهل عصر النبي صلى الله عليه وسلم وبيئته كما يفيده الاسلوب الذي جاءت به والذي صار بذلك فريدا معجزا ومرشحا له وللشريعة القرآنية والرسالة الاسلامية للخلود والابدية .

المسلمين 6 وأن الكفار من أهل الكتاب والمشركين استغلوا ذلك فانبروا للتشويش 6 كما ستفاد من الآيات التالية:

ا ـ (ما يود الذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين أن ينزل عليكم من خير من ربكم والله يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم ، ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها ألم تعلم أن الله على كل شيء قدير ، ألم تعلم أن الله لـــه ملك السماوات والأرض وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير ، أم تريدون أن تسألوا رسولكم كما سئل موسى من قبل ومن يتبدل الكفر بالايمان فقد ضل سواء السبيل ، ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً حسداً من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق فاعفوا واصفحوا حتى يأتي الله بأمره إن الله على كل شيء قدير ، واقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله إن الله بما تعملون بصير ،)

٢ – (فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم ، إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون ، إنها سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون ، وإذا بدلنا آية مكان آية والله أعلم بما ينزل قالوا إنها أنت مفتر بلأكثرهم لايعلمون ، قلنزله روح القدس من ربك بالحق ليثبت الذين آمنوا وهدى وبشرى للمسلمين ، ولقد نعلم أنهم يقولون إنها يعلمه بشر لسان الذي يلحدون إليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين ، إن الذين لا يؤمنون بآيات الله لا يهديهم الله ولهم عذاب أليم ، إنها يفتري الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله وأولئك هم الكاذبون .)
 النحل : ٨٥ – ١٠٥ .

وفي القرآن مثلا ما يفيد أن أحكاماً وأوامر وتشريعات ، عدلت أو نسخت ، أو تطورت كما تدل عليه الآبات التالية:

ا - (واللاتي يأتين الفاحشة من نسائكم فاستشهدوا عليهن أربعة منكم فإن شهدوا فأمسكوهن في البيوت حتى يتوفاهن الموت أو يجعل الله لهن سبيلا • واللذان يأتيانها منكم فآذوهما فإن تابا وأصلحا فأعرضوا عنهما إن الله كان تواباً رحمياً •) النساء: ١٥ و ١٦ •

٢ — (يا ايها النبي حرض المؤمنين على القتال إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين وإن يكن منكم مئة يغلبوا الفا من الذين كفروا بأنهم قو ملا يفقهو ن. الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفاً فإن يكن منكم مئة صابرة يغلبوا مائتين وإن يكن منكم الف يغلبوا الفين بإذن الله والله مع الصابرين .) الانغال: ٦٥ و ٦٠ .

٣ ـ (الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مئة جلدة ولا تأخذكم
 بهما رافة في دين الله إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر وليشهد عذابهما
 طائفة من المؤمنين(١) .) النور : ٢ .

إيا أيها الذين آمنوا إذا ناجيتم الرسول فقدموا بين يدي نجواكم صدقة ذلك خير لكمواطهر فان لم تجدوا فإن الله غفور حيم اأشفقتم أن تقدموا بين يدي نجواكم صدقات فإذ لم تفعلوا و تاب الله عليكم فاقيموا الصلاة و آتوا الزكاة و أطبعوا الله ورسوله والله خبير بما تعملون ٠) الجادلة: ١٢ و ١٣٠٠

وفي القرآن مثلا تنوع في الخطاب للناس عامة مسلمين وغير مسلمين، سواء أكان ذلك في صدد الدعوة أم في صدد المواقف أم في صدد التبشير والإندار والتمثيل والتشريع والهداية والضلال والكفر والايمان والإحسان والاساءة حيث يكون الخطاب شديداً ميئساً حيناً ، وليناً مؤملاً حيناً ، وجانحاً حيناً الى تقرير كون الهداية والضلال والكفر والايمان والاحسان والإساءة من مكتسبات المرء ، وتقرير التبعية عليه فيها حسنة أم سيئة نتيجة لذلك ، وجانحاً حيناً الى تقدير كون ذلك من تقديرات الله ومشيئته المطلقة التي لا ينفع فيها انذار ولا تبشير مما هومبثوث في مختلف السور والفصول في القرآن ، ومستغن عن التمثيل هنا .

وفيه مثلا تقريرات شديدة وميئسة بالنسبة للكفار والمنافقين ، كما حاء مثلا في الآبات التالية :

 ١ ـ (إن الذين كفروا سواء عليهم انذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون.
 ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عـذاب عظيم ٠) البقرة : ٦ و ٧ ٠

⁽١) في الآية تعديل لبعض أحكام آيني سورة النسباء ١٥ و ١٦ المذكورتين في الرقم -ا-

٢ - (المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض يأمرون بالمنكر وينهون
 عن المعروف ويقبضونأيديهم نسبوا الله فنسيهم إن المنافقين همالفاسقون
 وعد الله المنافقين والمنافقات والكفار نار جهنم خالدين فيها هي حسبهمم
 وثمنهم الله ولهم عذاب مقيم •) التوبة : ٧٧ و ٨٨ •

٣ ـ (إنا جعلنا في أعناقهم أغلالاً فهي إلى الأذقان فهم مقمحون •
 وجعلنا من بين أيديهم سداً ومن خلفهم سداً فأغشيناهم فهم لا يبصرون •
 وسواء عليهم أأنذرتهم أم تنذرهم لا يؤمنون •) يس : ٨ ـ - ١ •

إ - (ذلك بأنهم آمنوا ثم كفروا فطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم وإن يقولوا تسمع لقولهم كأنهم خشسب مسندة يحسبون كل صيحة عليهم هم العدو فاحذرهم قاتلهم الله أنسي يؤفكون وإذا قيل لهم تعالوا يستغفر لكم رسول الله لووا رؤوسهم ورأيتهم يصدون وهم يستكبرون وسواء عليهم استغفرت لهم أم لم تستغفر لهم لك يغفر لهم إن الله لا يهدي القوم الفاسقين و المنافقون . ٣ - ٣ .

وقد تضمنت هذه الآيات تقريراً جازماً بمصير رهيب محتوم لهؤلاء بعدم الايمان باستحقاق الخلود في النار مع أن آيات عديدة أخرى ، فتحت لكفار والمنافقين على اختلاف فئاتهم باب التوبة ، وآيات أخرى سجلت إيمان بعضهم ، وأثنت عليهم . وهذه آيات فتح فيها لهم باب التوبة :

١ ـ (إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس في الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون . إلا الذين تابسوا وأصلحوا وبينوا فأولئك أتوب عليهم وأنا التواب الرحيم .) البقرة : ١٦٠

٢ - (كيف يهدي الله قوماً كفروا بعد إيمانهم وشهدوا أن الرسول تتق وجاءهم البينات والله لا يهدي القوم الظالمين • أولئك جزاؤهم أن عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين • خالدين فيه لا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينظرون • إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا فان الله غفور رحيم •) آل عمران : ٨٦ - ٨٩ •

٣ ـ (إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيراً وإلا الذين تابوا وأصلحوا واعتصموا بالله وأخلصوا دينهم لله فأولئك مع المؤمنين وسوف يؤت الله المؤمنين اجراً عظيماً وما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم وكان الله شاكراً عليماً و) النساء: ١٤٥ ـ ١٤٧ و

إنها جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فساداً أن يُقتلوا أو يُصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض ذلك لهم خزي في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب عظيم • إلا الذين تابوا من قبل أن تقدروا عليهم فاعلموا أن الله غفور رحيم •) المائدة :
 ٣٣ و ٣٤ •

٥ ــ (يحلفون بالله ما قالوا ولقد قالوا كلمةالكفر وكفروا بعد إسلامهم وهموا بما لم ينالوا وما نقموا إلا أن أغناهم الله ورسوله من فضله فــان يتوبوا بك خيراً لهم وإن يتولوا يعذبهم الله عذاباً اليما في الدنيا والآخرة وما لهم في الأرض من ولى ولانصير ٥) التوبة : ٧٤ ٠

7 - (والذين لا يدعون مع الله إلها آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق ولا يزنون ومن يفعل ذلك يلق أثاماً ، يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهاناً ، إلا من تابوآمن وعمل عملا صالحاً فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفوراً رحيماً ،) الفرقان : ٢٨ - ٧٠ .

وهذه آيات سجل فيها انضمام طوائف منهم إلى المؤمنين بعد كفرهم أو نفاقهم وارتدادهم مع الثناء والتنويه:

١ ــ (والنين آمنوا من بعد وهاجروا وجاهدوا معكم فأولئك منكم
 وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض(١) •) الأنفال : ٧٥ •

٢ ـ (والسابقون الأولون من الهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم
 باحسان رضى الله عنهم ورضوا عنه (٢) .) التوبة : ١٠٠ .

⁽۱) كان التوارث قد منع بين المؤمنين واقربائهم الكفار ، وجعل بين المتآخين من الانصار والمهاجرين ، فلما آمن الاقرباء عدل ذلك ، وعاد التوارث الى حالته الطبيعية وهي أولوا الارحام بعضهم أولى ببعض ،

 ⁽۲) جملة الذين اتبعوهم باحسان تعني كما هو المتبادر : الذين أمنوا بعد وحسن إسلامهم .

٣ ـ (فإن تابوا واقاموا الصلاة وآتوا الزكياة فإخواتكم في الديسن ونفصل الآيات لقوم يعلمون (٢) .) التوبة : ١١ .

٤ ــ (ثم إن ربك للذين هاجروا من بعد ما فتنوا ثم جاهدوا وصبروا
 إن ربك من بعدها لففور رحيم (١) ٠) النحل : ١١٠ ٠

ه ـ (والذين جاؤوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولاخواننا الذين سبقونا بالايمان ولا تجعل في قلوبنا غـلاً للذين آمنوا ربنا إنـك رؤوف رحيم •) الحشر : ١٠ .

وهناك أمثلة كثيرة أخرى من هذا الباب لا تفوت المدقق في الآيات القرآنية ، فاكتفينا بما تقدم لأن فيه الدلالة التي نريد أن ننبه عليها .

ولقد كانتهذه المسائل وما تزال مثار جدل وحيرة حول ما إذا كان يصح على الله المحيط بما كان ويكون ، والأزلي العلم والارادة البداء اي الرجوع عما انزله وقرره وامر به وشاءه واراده ، ونسخه ، وتعديله وتبديله ، وتنويع مفهومات الاحتمالات والنصوص فيه . فيحين أن ملاحظة الوحي القرآني الوثيقة بالسيرة النبوية ، وأحداثها على تنوع وتظور صفحاتها وظروفها تجعل الناظر في القرآن يندمج في الوقائع والمقتضيات ، ويجد أن كثيراً من الآيات والفصول القرآنية إنما كانت تنزل حسب حوادث السيرة وظروف الدعوة ، وتسجيلا للواقع عند النزول ، وأثه لما كانت هذه الحوادث والظروف متحركة متكررة متجددة متطورة ، فإن ذلك يجعله برى الحكمة واضحة في التعديل والتكرار والتبديل ، والنسخ والتنويع والشدة واللين في الخطاب ، ويجعله برى ان الجدال في ذلك النظاق والأذهان والمواقف متسقان مع طبائع الأمور والحياة ونواميسها التي فطر الله الكون عليها ، فلا بدع أن تقتضي حكمته أن يكون ذلك في التنزيل فطر الله الكون عليها ، فلا بدع أن تقتضي حكمته أن يكون ذلك في التنزيل القرآني اتساقا مع هذه الطبائع والنواميس .

 ⁽۱) هذه الآية في صدد أشخاص ارتدوا من الاسلام تحت ضغط الكفار وإغرائهم ثم فروا فعادوا الى الاسلام ثانية .

⁽٢) من الأمور اليقينية أن من هؤلاء من تاب وآمن ودخل الأخوة الاسلامية .

والمدقق في الآيات القرآنية التي تفيد ذلك يجد القرآن يورد التقريرات المقتضبة حسب الأحداث والظروف وتنوعها وتطورها على أسلوب الحكيم ، فلا يدخل في نقاش جدلي إلا بمقدار الضرورة المتناسبة مع الموقف الواقعي المتحرك ، فيعلمنا بذلك الطريقة المثلى لفهم القرآن وروحه ومداه ، وظروف تنزيله وتنوعه وأسلوبه ، وكون المهم فيه هو الاصلاح والتوجيه إلى خير الوجهات لظروف قائمة واذهان وفئات ومواقف متفاوتة ومتنوعة ومتطورة .

- 7 -

ثانيــاً:

القرآن والبيئة النبوية

إن المدقق في القرآن يجد الصلة وثيقة بين ما كانت عليه بيئة النبي صلى الله عليه وسلم وعصره من تقاليد وعادات وعقائد وأفكار ومعارف ، وبين محتويات القرآن(١) . وهذه الصلة واضحة :

أولا _ من جهة أن الدعوة الإسلامية والوحي القرآني بوجه عام إنما اقتضتهما حكمة الله بسبب ما كان عليه الناس _ وأهل بيئة النبي صلى الله عليه وسلم في مقدمتهم وهم المخاطبون الأولون _ قبل البعشة من ضلال في فهم وإدراك وجوب وجود الله وكمال صفاته وتنزهه عن الشريك والولد ، واستغنائه عن الولي والمساعد ، ومطلق تصرفه في كونه ، واستحقاقه وحده للعبودية والخضوع والاتجاه ، ووجوب نبذ ما سواه ومن انحراف عن طريق الحق والخير والعدل والفضيلة ، ومن اختلاف عظيم في المذاهب والعقائد والطقوس ، سواء في ذلك كله العرب وغيرهم ، والكتابيون والمشركون ثم بسبب أن ذلك ناشىء عما كان من تقاليد وأفكار ومعارف وأهواء وتأويلات ومفاهيم عند الناس وفي بيئة النبي صلى الله عليه وسلم في المقدمة ، اقتضت حكمة الله نسخها أو تعديلها .

الاستدراك الذي أوردناه في صدد صلة القرّن بالسيرة النبوية وارد بتمامه في صدد الصلة بين القرّن والبيئة النبوية ، فنكتفي بهذا التنبيه دون التكران .

وثانياً مما احتواه القرآن من فصول الجدل والتنديد والتقريسع في صدد هذه التقاليد والعادات والأفكار والمعارف والأهواء والتأويلات والمفاهيم ، فيها إشارات كثيرة إلى كثير من صورها المتنوعة ، وفيها ربط بينها وبين مواقف أهل بيئة النبي صلى الله عليه وسلم من الدعوة النبوية ، يضاف إلى هذا المظهر القرآني العام نصوص قرآنية خاصة في هذا المعنى ، وردت في مواضع عديدة وبأساليب متنوعة إذا تمعن القارىء فيها ظهرت له هذه الصلة ظهوراً جلياً (۱) . ونزيد بالايضاح بالأمثلة التالية :

ا ـ في القرآن توكيدات مكررة بعدم جدوى الشفاعة والشفعاء عند الله إلا باذنه ورضاه ، وتنديدات باعتدار المشركين عن عبادتهم لشركائهم واتجاههم إليه في الدعاء والتصريح بأنهم إنما يتخدونهم شفعاء ووسائل قربي إلي الله ،وتكرر ذلك يدل على رسوخ هذا المفهوم في أذهان المشركين في بيئة النبي صلى الله عليه وسلم وعصره قبل البعثة ، وهكذا تبدو الصلة وثيقة بين ذلك وبين ما جاء في القرآن في صدده .

٢ - في القرآن آيات بل فصول كثيرة عن الملائكة والجن والشياطين بأساليب متنوعة مما يفيد أنهم كانوا يشغلون حيزاً كبيراً في أذهان سامعي القرآن الأولين ، وهم أهل بيئة النبي صلى الله عليه وسلم وعقائدهم ، فكان ذلك مما يلمح فيه حكمة التنزيل فيما جاء عن هذه المخلوقات الغيبية في القرآن .

٣ - في القرآن المكي نفي لاتخاذ الله ولدا في معرض السرد على المشركين والتنديد بهم ، وفيه آيات تفيد أن ذلك متصل بعقيدة العسرب التي حكاها القرآن أيضاً بكون الملائكة بنات الله ، وقد تكرر كل هذا مما يدل على رسوخه في أذهان المشركين من أهل بيئة النبي صلى الله عليه وسلم .

٤ - إن آيات القرآن الواردة في شعائر الحج ، تفيد صراحة حيناً وضمنا حيناً آخر ، انها كلها أو جلها قد كانت ممارسة قبل البعثة و فاقرت في الاسلام بعد تنقيتها من شوائب الشرك والوثنية والقبح (١) ، وكان العرب ينسبونها إلى إبراهيم عليه السلام ، وقد أيد القرآن ذلك ، وكان ذلك التجريد إعادة للامر إلى نصابه الذي لا بد من أنه هو الذي كان عليه في عهد هذا النبي المؤمن الموحد المخلص ، معان فيها ما قد لا يفهم حكمة إقراره الآن مثل الطواف حول الكعبة والسعي بين الصفا والمروة ورمي الحمار (٢) . واستلام الحجر الاسود ، فهذه الآيات متصلة بتقاليد الحج العربية قبل والسلام ورسوخها واهدافها ، وفيها مظهر ما لوحدة العرب على اختلاف منازلهم ونخلهم حيث كانوا يشتركون جميعهم في الحج ومواسمه وتقاليده وحرماته ، وأشهره الحرم ، وحكمة إقرارها في الاسلام منطوية في ذلك الرسوخ من جهة وماكان له من فائدة وأثر في الوحدة المذكورة التي كان القرآن يدعو إليها من جهة اخرى ، ولعل قصد تأنيس العرب بالدعوة الاسلامية مما ينطوي في تلك الحكمة أيضاً ، وفي سورة القصص آية مهمة في هذا الباب وهي:

(وقالوا إن نتبع الهدى ممك نتخطف من أرضنا ٠)

خيث تفيد انهم حسبوا ان تكون دعوة النبي صلى الله عليه وسلم قد هدفت إلى إلفاء تقاليد الحج ، وكان من مقتضى هذه التقاليد حرمة مكة ومنطقتها وتوافد العرب عليها من كل صوب ، وإقامة المواسم حولها ،

⁽١) مثل الطواف في حالة العرى .

 ⁽٢) رمي الجهار كناية عن الحصوات التي يقذفها الحجاج على انصاب في منى بعد نزولهم من عرفة في ايام العيد .

فَكُأْن خُوفُهم من أسباب أمتناعهم عن الاستجابة للدعوة مع انهم لمحوا أن فيها هدى وحقا . وهكذا تبدو الصلة وثيقة بين ما جاء في القرآن مسن ذلك ، وما كان عند أهل بيئة النبي صلى الله عليه وسلم من هذه التقاليد الراسخة .

ه ـ في القرآن آيات كثيرة فيها قصص وأخبار ، ومواقف عديدة عن إبراهيم عليه السلام ، ليسبت واردة في سفر التكوين أول أسفار العهد القديم الذي هو المصدر القديم الوحيد الذي وصل الى عهدنا ، والذي فيه تفصيل لسيرة هذا النبي وذريته ، ومن ذلك دعوته لقومه ومحاججته معهم ، وتكسيره الأصنام ، ومحاولتهم إحراقه بالنار ، ودعاؤه بأن يجنبه الله وَبنيه الأصنام ومحاججته مع أبيه ومع ملكه ، وإسكانه بعض ذريته في منطقة الحرم المكي ، وإنشاؤه مع إسماعيل ابنه الكعبة ، وكونه أول من دعا إلى الحج إليها ، وكون العرب أو بعضهم ينتسبون إليه ، ودعاؤه مع اسماعيل بأن يرسل إليهم منهم رسولا يهديهم . وجميع ذلك الذي لم لذكر في المصدر الوحيد القديم الذي ذكرت فيه سيرة هذا النبي مما كان يتداوله أهل بيئة النبي صلى الله عليه وسلم أيضاً قبل البعثة ، وهكذا تبدو الصلة وثيقة بينما انفرد القرآن بذكره من ذلك ، وبين ما كان معروفاً متداولا في هذه البيئة ، ومن ألحكم الملموحة في ذلك تنبيه العرب إلى ما كان من عقيدة ابراهيم التوحيدية الخالصة ، ورغبته ودعائه في أن يكونوا على ذلك ، ووجوب استجابتهم للدعوة النبوية التي هي ملة أبيهم إبراهيم ، ونبذ ما شابها من شوائب(١) .

7 ـ ليس في القرآن المكي حملات عنيفة على اليهود الذين كان يسكن منهم في الحجاز جاليات كثيرة من أصل إسرائيلي ، واكتفى فيه بذكس قصص موسى و فرعون وبني إسرائيل الأولى مستهدفاً بذلك ما استهدفه بذكر قصص الأنبياء الأخرى من عبرة وعظة ، وقد جاءت هذه القصص بإسهاب أوفى مما جاءت قصص الأنبياء والأمم الأخرى مما يمكن أن يكون

سببه أو الحكمة فيه وجود تلك الجاليات الكثيرة ، وصلته الوثقى بالبيئة الحجازية العربية ، في حين أن القرآن المدني احتوى حملات شديدة لاذعة على اليهود ، ووصفا لسوء أخلاقهم ودسائسهم ومكايدهم مع وصل حاضر هذه الأخلاق بأخلاق آبائهم الأولين . فهذا متصل بدون ريب بحالة قائمة في البيئة النبوية وظروفها ، إذ لم يكن لليهود في مكه كيان ومركز قوي راسخ في حين كان لهم ذلك في المدينة ، فلم يقع بينهم وبين النبي في مكة احتكاك وصدام وتشاد بل وكان منهم نحوه موقف إيجابي في حين أن ذلك قد وقع بينهم وبينه في المدينة بسبب ماكان لهم فيها مسن كيان قوي ، وقسدم راسخة ، ومصالح حيوية ، ومركز ممتاز ، لأنهم رأوا في هجرة النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة وبروزه ، وانتشار دعوته ، وتعلق الناس به خطراً على ذلك ، فظهر أثسر ذلك في الأسلوب المدني دون الإسلوب المكين) .

٧ ــ ولقد كان صنع الخمر والانتفاع به تجارياً وممارسة شـربه راسخاً في بيئة النبي صلى الله عليه وسلم ، فانعكس ذلك على ما جاء في القرآن من تدرج في النهي عنه وتحريمه(٢) .

٨ _ ومثل هذا يقال في الميسر والربا أيضاً ، ولقد نبه القرآن بناء على ذلك والله أعلم ، أولاً على عدم رضى الله عن الربا ، وعلى إثم الميسر، ثم نهى عن أكل الربا أضعافاً مضاعفة ، ثم شلد النهي والتحريم في النهاية بالنسبة لكليهما (٢) .

⁽۱) قارن بين ما جاء في القرآن المكي وأسلوبه في سيسور الاعراف ١٠٦-١٠٦ ويونسس ٥٧-٥٥ والاسراء ٤٠٨ وطه ٩-٩٥ والمؤمنون ٤٥-٨٨ والشعراء ١٠٦٠٦ والقصص ٣-٣٤ والصافات ١١١-١١١ وغافر ٢٦-٢٦ وبين الاسلوب المدني في صدد بني اسرائيل واليهود في سورة البقرة ٤٠-١١٦ و ١٤٢-١٥١ وآل عمران ١٠٥-١٢١ و ١٨١ والنساء ٤٤-٥٠ و ١٠١٠ والمائدة ١٢ و ١١ و ٢٠-٣٦ و ١٨١ .

⁽٢) أقرأ آيات البقرة ٢١٨ والنسباء ٤٢ والمائدة ٩٠ .

 ⁽٦) اقرأ آیات سورة السروم ٢٩ والبقسرة ٢١٩ و ٢٧٥-٢٨١ وآل عمران ١٣٠ و ١٣١
 والمائدة ٩٠ و ٩١ وآیات البقرة ٢٧٥-٢٨١ في الربا نزلت بعد آیات آل عمران فیه فهده
 الآیات نهت عن اکله أضعافا مضاعفة و آیات البقرة نهت عنه کلیاً وبکل شدة .

 أ - وفي القرآن فصول عديدة في الأنعام وأنواعها وأكلها وتقاليدها ومحرماتها ، ولقد كانت الأنعام تشفل حيزاً كبيراً في بيئة النبي صلى الله عليه وسلم ، وكان أهل هذه البيئة يصدرون في تقاليدهم فيها عن زعم كونها تقاليد دينية ، فكان من حكمة النتزيل ذكر ذلك في مناسبات عديدة ووضع الأمر فيه في نصابه الحق (١) .

.١ - ولقد كان الرق والانتفاع به تجارياً وجنسياً راسخاً في بيئة النبي صلى الله عليه وسلم ، فانعكس ذلك فيما جاء عنه في القرآن حيث اقتضت حكمة التنزيل تنظيمه تنظيماً عادلاً مع الحث على تحريره والرفق به ، ومع أساس تشريعي لالفاء استرقاق أسرى الحرب ، وهذا هو المورد الأعلم الأغلب للرق (٢) .

وليس ما أوردناه هو كل ماتظهر الصلة بينه وبينما احتواه القرآن، فهناك كثير يمكن أن يورد أيضاً فاكتفينا بما تقدم .

وملاحظة هذه الصلة مهمة جداً كسابقتها في فهم مواضيع القرآن وتقريراته وروحه ومداه وفي جعل الناظر فيه يندمج في الوقائع ومقتضياتها، ولا يبتعد عن حقيقة الواقع والباعث، وفي عصمته من التورط في الجدل والتزيد، وتحميل العبارات القرآنية ما لا تتحمله، وما لا طائل من ورائه، وأخذها مجردة عن ملابساتها، مع التذكير بأن ما نبهنا عليه في صدد ما احتواه القرآن من صور للسيرة النبوية ينسحب على ما احتواه من صور ما جاء فيه مما له صلة بالبيئة النبوية من حيث إنه قد جاء باسلوب يجعله مصدر إلهام وإيحاء وتوجيه ومرجع تشريع وتلقين في جميع العصور، وليس محصوراً بأهل عصر النبي صلى الله عليه وسلم وبيئته.

⁽۱) أقرأ آيات المائدة اـــ و ١٠٣ و ١٠٨ والانعام ١١٨ـ١٢١ و ١٣٦ــ١٥١ .

⁽٣) أقرأ آيات البقرة ١٧٧ والنساء ١٥ و ٣٦ و ٩٢ والمائدة ٨٩ والتوبة ٦٠ والمؤمنون ٧ والنور ٣١ و ٨٩ والمجادلة ٣ والانسان ٨ والبلد ١١سـ أما التشريع الذي انطوى على أساس الفاء استرقاق أسرى الحرب فينطوي في آية سنورة محمد الرابعة ، مع التنبيه على أن السنة النبوية أقرت لولى الامر أن يسترق الاسرى اذا كان في ذلك مصلحة عامة .

ثالثاً:

اللفة القرآنية

مما يجب ملاحظته على الناظر في القرآن أن مفردات اللغة القرآنية واصطلاحاتها واساليبها وأمثالها وتشبيهاتها واستعاراتها ومجازاتها هي لغة البيئة النبوية ، وأنها مألوفة ومفهومة ألفة وفهماً تامين من أهلها .

وليس الذي نعنيه بهذا تقرير قضية قد تكون بديهية في بعض الأذهان ، ولكن الذي نعنيه وجوب ملاحظة ذلك حين النظر في القرآن ، لأنه يساعد على فهم اصطلاحات لغة القرآن وأساليبه وأمثاله وتعبيراته واستعاراته ومجازاته وجدلياته ، ومعاني مفرداته من جهة ، ثم ملاحظة كون القرآن من جهة أخرى قد وجه اول ما وجه إلى أناس الفوا لغت كل الألفة ، وفهموها كل الفهم ، ووصلوا في عقولهم ومعارفهم وبيانهم ودقة تعابيرهم ، وبلاغة أساليبهم ، وفصاحة ألسنتهم والاستمتاع بمتنوع أشكال الحياة المادية والمعاشية ، والنفوذ الى المفاهيم الأخلاقية والاجتماعية والدينية والعلمية والأدبية إلى درجة غير يسيرة من الرقي متناسبة مع ما عبرت عنه لفة القرآن ، وقررته ، وأشارت إليه وتضمنته مما هو نتيجة لإزمة لكون القرآن إنما نزل بلسانهم ، ولكون لغة القوم هي اصدق مظهر لحياتهم المادية والعقلية والاجتماعية والدينية ، ثم اننا نعني بذلك بالإضافة إلى هذا أن ينتغي من ذهن الناظر في القرآن :

أولاً: المعنى الذي حلا لبعضهم أن ينوه به وهو انطواء بعض حروف القرآن وكلماته بل وبعض جمله وتعابيره وصور سبكه ونظمه على أسرار وألغاز ومعميات.

وثانياً : المعنى الذي قرره بعضهم من علو طبقة القرآن عن أفهام سامعيه إطلاقاً دون استثناء .

وثالثاً : المعنى الذي قرره بعضهم من أن لغة القرآن قد احتسوت أو قصد أن تحتوي جميع لهجات ولغات العرب القديمة والحديثة ـ عند نزوله ـ مع لغات الأمم الأخرى .

ورأبعاً: الحجة التي حلا لبعضهم أن يسوقها وهي أن الله كما أرسل موسى عليه السلام في ظرف ارتقى فيه السحر وشاع ، بمعجزات تشبه السحر وليست سحراً ، وكما أرسل عيسى عليه السلام في ظرف ارتقى فيه الطب وشاع ، بمعجزات يعجز عنها الطب والأطباء ، فقعد أرسل محمداً صلى الله عليه وسلم بالقرآن في ظرف كانت سوق الفصاحة والبلاغة رائجة ، ووصلتا إلى أعلى الذرى نظماً ونثراً ، فقصر عنه البلغاء والفصحاء ، فكان في ذلك معجزته(١) من حيث إن جميع ذلك لا يصح في حال . فمن ناحية علو طبقة لفة القرآن عن أفهام الناس إطلاقا أو انطواء حروفه وكلماته على أسرار ومعميات ، فإن في القرآن نصوصاً حاسمة تنفي ذلك حيث تنص على أنه أنزل بلسان مبين ، أي : واضح مفهوم ، وأن تياته فصلت تفصيلاً ، وأنه أنـزل ليتدبره السامعون ويعقلوه ويفهموه ويتذكروا به ، ويحلون به ما يختلفون فيه . وإنه أنزل لقوم يعلمون وبلغة النبي صلى الله عليه وسلم التي هي لغة قومه كما ترى في الأمثلة التالية:

۱ ـ (کتاب احکمت آیاتـه ثم فصلت مـن لدن حکیم خبیر ٠) هـود: ۱ ٠

- ٢ ـ (إنا انزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون ٠) يوسف: ٢٠
- ٣ ـ وما أرسلنا مــن رسول إلا بلسـان قومه ليبين لهـم ٠)
 إبراهيم: ٤ ٠
 - إيات الكتاب وقرآن مبين •) الحجر ١ •
- ٥ ـ (وما أنزلنا عليك الكتاب إلا لتبين لهم الذي اختلفوا فيهوهدى
 ورحمة لقوم يؤمنون) النحل : ٦٤ •
- ٦ (فإنها يسرناه بلسانك لتبشر به التقين وتنذر به قوماً لداً ٠)
 مريم: ٩٧ ٠
- V = (it) به الروح الأمين على قلبك لتكون من المندرين بلسان عربي مبن V مبن V الشعراء : 19V 19V
- ٨ ــ (إن هو إلا ذكر وقرآن مبين ، ليندر من كان حياً ويحق القول على الكافرين ،) يس : ٦٩ و ٧٠ ،

⁽١) في كتاب الاتقان للسيوطي مثلا أقوال كثيرة من كل هذه الابواب .

- أ (كتاب أنزلناه إليكمبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولو الألباب.) ص: ٢٩ .
- ۱۰ ـ (کتباب فصلت آیاته قرآناً عربیاً لقوم یعلمون ۰) فصلت : ۳ .
- ١١ ـ (إنا جعلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون ٠) الزخرف : ٣ .
 - ١٢ (فإنما يسرناه بلسانك لعلهم يتذكرون .) الدخان : ٥٨ .
 - وفي سورتي النساء ومحمد آيتان مهمتان في هذا الباب وهما :
- ا له افلا يتدبرون القرآن ولو كأن من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً) النساء : ٨٢ .
- ٢ ـ (أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها .) محمد : ٢٤ .
 حيث تنطويان على تقرير كون تدبر القرآن سهلا على من أراد ،
 وليس من مانع يمنعه إلا المكابرة والعناد .

وفي سورة الزمر هذه الآيات :

(ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كـل مثل لعلهم يتذكرون . قرآناً عربياً غير ذي عوج لعلهم يتقون .) ٢٧ و ٢٨ .

حيث تنطوي على تقرير كون امثال القرآن مضروبة لجميع الناس ليتدبروا ويتذكروا ، وكون القرآن سلس اللفة لا غموض فيه ولا تعقيد . وهناك آيات عديدة من باب آيات سورة الزمر هذه ، وفي مداها منها هذه الآيات :

١ _ (ولقد صرفنا للناس في هذاالقرآن من كل مثل فأبي أكثر الناس إلا كفوراً) الاسراء : ٨٩

٢ - ولقد صرفناه بينهم ليذكروا فأبى أكثر الناس إلا كفوراً ٠)
 الفرقان : ٥٠ ٠

٣ ـ (ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل ولئن جئتهم
 بآية ليقولن الذين كفروا إن أنتم إلا مبطلون .) الروم : ٥٨ .

وهذه الآيات وآيات كثيرة اخرى تفيد بقوة وحسم أن القرآن كان موجها إلى كل طبقة من أهل بيئة النبي صلى الله عليه وسلم . يحكي

كلامهم وأسئلتهم ، ويرد عليها مجيباً أو مندداً أو مكذباً أو ملزماً ، أو واعظاً أو مشرعاً . وفي هذا ما يتنافى كذلك مع تلك المعاني . ومن ناحية أخرى ، فان ذلك لا يمكن أن يتسق مع مهمة النبي صلى الله عليه وسلم التي هي بالدرجة الاولى تلاوة القرآن على جميع الناس ، ودعوتهم به إلى الله ، وقد جاء في القرآن فيما جاء :

(وأوحي إلى هذا القرآن لأنذركم به 0) الأنعام : 19 .

ولا مع هدف القرآن الذي أنزل ليكون هدى ورحمة للناسجميعهم، والذي أمرهم فيه باتباع ما جاء فيه من أحكام ، وفهم ما فيه من عبر ومواعظ، وأمثال وبتدبر آياته، وبالتروي في محتوياته، والذي نبههم فيه إلى أنه مرجعهم في مختلف شؤونهم ، ومنه يستمدون تشريعهم ، وأخلاقهم ونذرهم وبشائرهم وحل مشاكلهم وخلافاتهم . . الخ .

ومن ناحية احتواء القرآن لختلف اللهجات ولفات الأمم عربها وعجمها وقديمها وحديثها على المقصد الذي قصده القائلون ـ وهو أن النبي محمداً صلى الله عليه وسلم رسول إلى جميع العرب وإلى جميع الأمم ، وأن القرآن يقول: إن الله لم يرسمل رسولا الا بلسمان قومه ، فصمار من الضروري أن يكون في القرآن لفة كل العرب وكل الأمم الأخرى ، فانسه . لا يتسبق مع نصوص القرآن المطلقة والمتعددة بأنه أنزل بلسمان عربي ، وجعل لساناً عربياً ، وأنزل بلسان النبي صلى الله عليه وسلم بحيث يقال بكل حزم: إن كل كلمة فيه هي عربية كانت مستعملة مفهومة من سامعيه قبل نزوله ، وإن كان حقاً فيه كلمات أعجمية الأصل ومن ذلك أسماء معظم الانبياء الذين هم ليسوا من العرب الصمريحين ، والذين وردت أسماؤهم معربة بصيغ عربية ، ومن ذلك جبريل وميكال ومالك وهاروت وماروت وطالوت وجالوت الخ . . ، ومن ذلك سندس واستبرق ودينار و قنطار ودرهم و فردوس وسحيل وغير هاوغير ها فانها قدعربت ، واستعملت من قبل العرب قبل نزوله ، ففدت جزءاً من اللسمان العربي المبين الذي نزل به القرآن ، وما يمكن أن بكون فيه من كلمات تنسب الى قبائل عربية غير قريش فان ذلك بكون عائداً إلى وقت ماض ، ثم صارت جزءاً من اللسان العربي المبين الذي نزل به القرآن .

ولقد أمر الله رسوله بأن يتلو القرآن على الناس كما جاء في آيات كثيرة منها هذه الآبات:

أ ـ (وأوحي إلي هذا القرآن لأنفركم به •) الأنعام: ٩٩

٢ _ (أتل ما أوحي إليك من كتاب ربك .) الكهف: ٢٧ .

٣ - (إنما امرت أن أعبد رب هذه البلدة الذي حرمها وله كل شيء وأمرت أن أكون من المسلمين • وأن أتلو القرآن فمن اهتدى فانما يهتدي لنفسه ومن ضل فقل إنما أنا من المنذرين •) النمل : ٩١ - ٩٢ •

إليك من الكتاب ·) العنكبوت : ٥٤ ·

٥ ـ (أولم يكفهم أنا أنزلنا عليسك الكتاب يتلى عليهم ٠)
 العنكبوت: ١٥٠

ومن الأمور اليقينية أن الذين كان النبي صلى الله عليه وسلم يتلو عليهم القرآن ، كانوا من مختلف الفئات والطبقات والجهات ، وكان منهم من يأتي من أنحاء بعيدة من جنوب الجزيرة وشرقها وشمالها بل ومن خارجها من العرب الذين كانوا يقيمون في بلاد الشام والعراق ، ولا ينبغي أن يشبك ثناك في أنهم كانوا يفهمون ما يتلى عليهم . ولقد احتوى القرآن نصوصاً كثيرة تقرر المرة بعد المرة ماهو عليه من وضوح وبيان وإحكام وتغصيل ويسر فهم وسهولة إدراك في معرض التنديد بالمكابرين والمجادلين. وهذا إنما هو ملزممفحم ، لأن اللغةالتي يسمعونها واضحةبينة مما الفود كلّ الألفة ، وليس فيها غموض ولاتعقيد ولا إشكال ، ولا علو عن الأفهام -لا من ناحية النظم والسبك والمفردات ولا من ناحية المعنى والمفهوم والدلالة . ولقد تكرر في القرآن المكي والمدنى الاشارة الي أهل الكتــاب وأهل العلم ، وفي بعض الآيات مايفهم أن من هؤلاء من جاء خصيصاً ليجتمع بالنبي ويسمع منه ، وكان منهم من تفيض عيونهم بالدمع ، ويخسرون سجدا من تأثير ما يسمعون منه ويعلنون إيمانهم وتصديقهم على ما سجله القرآن ، وأوردنا تستجيلاته في نبذة سابقة مما يلهم أنهم كانوا يستمعون كلاماً يفهمونه معانهم جاؤوا من نجران اليمن أو بلاد الحبشة أو بلاد الشام على ما روته الروايات ، كما أن اليهود الاسرائيليين والنصارى غيير

الحجازيين ، والذين يمتون أو يمت أكثرهم إلى أصول غير صريحة العروبة كانوا يفهمون ما يتلى عليهم منه .

على أن كل هذا ملموح في القرآن إلى اليوم من كل أمرىء متوسط الثقافة فضلا عن رفيعها ، وإذا كان يبدو فيه لبعض الناس شيء مسن الغموض أو الغرابة في المفردات والتعبيرات ، وإذا كان بدا فيه شيء من ذلك في القرون التي تلت القرون الثلاثة الاولى ، فان هذا كله إنما كان يسبب بعد الناس عن جو نزول القرآن وزمنه ، وجو لفته ، وجو البيئة التي نزل فيها من جهة ، وما طرا على اللسان العربي من الفساد من جهة ، وما كان من اندماج كثير من غير العرب في العروبة ولفتها وتعلمها تعلماً لا يمكن أن يقوم مقام السليقة الأصلية في بنيها الأصليين من جهة ،

وفي كل ما تقدم دحض لما جاء في النقطة الرابعة من حجة أو بالاحرى (نكتة) لا تثبت على تمحيص لا في مقدمتها ولا في نتيجتها .

ومن هذه البيانات والشروح تتجلى فائدة ملاحظة كون اللغة القرآنية هي لغة أهل بيئة النبي صلى الله عليه وسلم ، وفي نفس الوقت هي لغة سائر جميع العرب والمستعربين الذين كان كثير منهم يلتقي بالنبي صلى الله عليه وسلم ، ويسمعون القرآن منه ، وأنها لم يكن فيها بالنسبة إليهم جميعاً غموض ولا تعقيد ، وأنهم كانوا يفهمونها ، فان ملاحظة ذلك تجعل الناظر في القرآن يندمج في جو ذلك ، فتتجلى له المعاني والأساليب الخطابية على وجهها ، وحقيقة مداها ، ويعتصم بذلك من الانحراف إلى معان ومفهومات وتزيدات وتكلفهات وتخمينات ومعميات لا تتحملها نصوص القرآن وأساليبه ودلالاته وظروف وجو نزوله ، ومهمة من أنزل إليه .

ونريد أن نستدرك أمرا ، فاننا لسنا نعني بما نقرره أننا نشك في إعجاز القرآن ، وعلو طبقته اللغوية والنظمية كما أن كلامنا لا يفيد ذلك ، فإعجاز القرآن لا يحتمل شكأ ، فهو مقرر في القرآن ، وثابت فعلا بعجز أي كان عن الاتيان بمثله أو بشيء من مثله رغم تكرر التحدي . وقد شرحنا ذلك في مناسبة سابقة ، وعلو طبقته بارز بروزا لم يترك العلماء

- 170

الثقات في التنبيه عليه محلاً للزيادة ، غير أن الذي نعنيه أن إعجاز القرآن ، وعلو طبقته ، وروعة أسلوبه لا تقتضي أن يكون أعلى من مستوى إفهام الذين خوطبوا به ووجه إليهم ،ولا أن يكون أبعد من متناول إدراكهم، ولا أن تكون مفرداته ومضامينه وتراكيبه غير مألوفة لديهم ، ولا أن يكون قصد به أن تكون معجزاً في تلاغته اللغوية والنظمية والفنية ، والفرق كبير بين المعنيين كما هو واضح فيما يتبادر . ولعله مما يصح أن يذكر في هذا المقام على سبيل التمثيلوالتقريب _ ولله ولكتابه ونبيه المسل الأعلى _ مثل كاتب ذي أسلوب براق شائق قوى النفوذ ، يجعله في الطبقة الاولى أو ذروتها في حين بكون سهل التناول غير غامض ولا معقد ، يستطيع ان سبيغ كتابته ، ونفهمها مختلف القراء وأواسطهم بل وإن هذا الأسلوب ليكون دائماً احسن الأساليب وأفصحها 4 وهو الذي يسميه البيانيون بالسهل الممتنع ، هذا عدا عن أن إعجاز القرآن فيما نعتقد ليس من ناحية نظمه ، وأسلوبه اللفويين فحسب ، بل هو أيضاً من ناحية ما احتواه من أحكام وإحكام ومبادىء وتلقينات روحانية نافذة باهرة ، ونعتقد أن لهذا الاعتبار الأول في اعجازه ، وأن التحدي وتقرير عدم إمكان الإتيان بمثله او بشيء من مثله إنما هو (للقرآن) وهذا هو الذي استعمل في القرآن الذي كما هو لغة وأسلوب هو كذلك معان ودعوة نافذة قوية باهرة في مداها ومضمونها ، وشمولها وسعة افقها وروحانيتها التي وصف أثرها في القرآن بهذا الوصف.

١ ـ (إن هذا القرآن يهدي للتي هي اقوم ٠) الإسراء : ٩٠
 ٢ ـ (وننزل مـن القرآن ما هـو شــفاء ورحمة للمؤمنين ٠)
 الإسراء : ٨٢٠

٣ ــ (الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم الى ذكر الله ذلك هدى الله يهدي به من يشاء ٠) الزمر : ٢٣ ٠

} ـ (قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء ،) فصلت : }} .

٥ ــ (لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً مـن خشية الله وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون ٠) الحشر: ٢١ ٠

ثم الذي وصف القرآن أثرها في أهل العلم والكتاب بهذا الوصف القوى النافذ:

ا ـ (وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين . وما لنا لا نؤمن بالله وما جاءنا من الحق ونطمع أن يدخلنا ربنا مع القوم الصالحين .) المائدة : ٣٨ و ٨٤ .

٢ - (والذين آتيناهم الكتاب يفرحنون بما أنزل إلينك ٠)
 الرعند: ٣٦ .

٣ ـ قل آمنوا به أو لا تؤمنوا إن الذين أوتوا العلم من قبله إذا يتلى
 عليهم يخرون للاذقان سجداً . ويقولون سبحان ربنا إن كان وعد ربنا
 لفعولا ً . ويخرون للاذقان يبكون ويزيدهم خشوعاً .) الاسراء: ١٠٩ ـ ١٠٩

ونريد كذلك أن ينبه على نقطتين أخريين:

فأولا: إن ما قلناه عن فهم المخاطبين على اختلاف طبقاتهم ومنازلهم للقرآن لا يقتضي أن يكون متناقضاً مع ما هو مقرر بصورة حاسمة من أن لفة القرآن هي لفة قريش ، فالقرآن وجه أول ما وجه إليهم وإلى القبائل والمدن الحجازية كما جاء في آيتين متماثلتين في سورتي الأنعام والشورى وهما:

۱ - (وهذا كتاب أنزلناه مبارك مصدق الذي بين يديه ولتنذر أم القرى ومن حولها ٠) الأنعام: ٩٢ ٠

۲ ـ (وكذلك أوحينا إليك قرآناً عربياً لتنذر أم القـرى ومـن
 حولها ٠) الشورى : ٧ .

على أن لغة قريش من جهة أخرى كانت إجمالا في عهد البعثة النبوية لغة العرب جميعهم على اختلاف منازلهم ، أو على الاقل كانت مفهومة من

العرب جميعهم بسبب ما كان من اشتداد التحاك بين قريش وسائر العرب في مواسم الجج التي كان يشترك فيها العرب جميعهم الذين كانوا يفدون من كل صوب من انحاء الجزيرة وخارجها والتي كانت تقوم قبل البعثة بمدة ما 6 بسبب وحدة الاصل من حيث المبدأ .

(ولقد نعلم انهم يقولون إنما يعلمه بشر لسان الذي يلحدون إليه أعجمي" وهذا لسان" عربي" مبين ٠)

بحيث يستفاد من ذلك أن العربية حينما تطلق كانت تشمل العرب جميعهم لغة وجنساً ، وأنه لم يكن للعرب جميعهم لغة غير اللغة التي نزل بها القرآن ، وأن لغة قريش التي هي لسان النبي صلى الله عليه وسلم الذي ذكر القرآن أن الله قد يسر القرآن به:

(فإنما يسرناه بلسانك لعلهم يتذكرون .) الدخان : ٥٨ .

اي لفة النبي صلى الله عليه وسلم كانت هي لفة العرب جميعهم التي وضفت بأنها (لسان عربي مبين .)

وثانياً: ان ما قلناه من ان كل كلمة في القرآن كانت مفهومة مين العرب والمستعربين على حقيقة مداها ومعناها لا يقتضي ان يكون مناقضاً لما هو طبيعي فرضاً وواقعاً وبديهة من وجود كلمات فيه لا يفهم مداها ومعناها بعض فئات من العرب ، بل ومن وجود كلمات قد لا يكون سمعها بعض فئات من العرب بل ومن وجود تعبيرات يقال في صددها مثل ذلك . وهذه الظاهرة ملموسة في كل ظرف وقطر ، وفي كل فئة بما فيها الفئات المتعلمة ، ومع ذلك فمس المشاهد الملموس أن الناس على اختلاف فئاتهم وثقافاتهم وخاصة اواسطهم لا يعييهم أن يفهموا ما يقرؤونه من وسائسل وكتب وصحف وسسمعونه من خطب وإذاعات . وطبيعي أن العرب في

عصر النبي صلى الله عليه وسلم ، وعن بعثته لم يكونوا ليخرجوا عن نطاق هذه الظاهرة وإذا روي عن بعض الصحابة جهلهم لمعنى كلمة من الكلمات القرآنية ، فلا يكون في ذلك غرابة بقطع النظر عن صحة الرواية متناً وسائداً .

_ 0 _

وابعاً: الأسس والوسائل ، او المحكمات والمتشابهات في القرآن مما يجب ملاحظته على الناظر في القرآن أن محتوياته نوعان متميزان ، وهما الأسس والوسائل ، والأسس هي التي انطوى فيها أهداف التنزيل القرآني ، والرسالة النبوية من مبادىء وقواعد وتشريع وأحكام وتلقينات، مثل وجوب وجود الله تعالى ووحدته وتنزهه عن كل شائبة وشريك وولد ، واتصافه بجميع صفات الكمال ومطلق تصرفه في الكون ، واستحقاقه وحده العبادة والخضوع ، ونبذ كل ما سواه ، والإيمان باليوم والآخر وكتب الله ورسله ، والقيام بالواجبات التعبدية له ، ومثل المبادىء والأوامر والنواهي والتشريعات والاحكام والتلقينات الأخلاقية والاجتماعية والسياسية والسلوكية والاقتصادية سلبية كانت أم اجتماعية .

أما عدا ذلك مما احتواه القرآن من مواضيع مثل القصص والأمثال والوعد والوعيد ، والترهيب والترغيب ، والتنديد والجدل والحجاج ، والأخذ والرد والتذكير والبرهنة ، والإلزام ولفت النظر إلى نواميس الكون ، ومشاهد عظمة الله وقدرته ، وتقرير ما فيها من مدى ، والى مخلوقاته الخفية والعلنية والمشاهد الأخروية ، فهو وسائل تدعيم وتأييد لتلك الأسس والأهداف ، وبسبيل ذلك .

ومع أن النوع الثاني قد شغل حيزاً كبيراً ، بل الحيز الأكبر في القرآن مما هو متصل بمواقف السيرة النبوية ، وأحوال البيئة النبوية ، فإن ملاحظة هذا التقسيم لآيات القرآن تجعل الناظر في القرآن بل وتوجب

عليه أن يكون اهتمامه الأشد ، وعنايته الكبرى مصروفين لتفهم آيات الأهداف والمبادىء وتجليتها ، وأن يقف من آيات النوع الثاني – أي الوسائل – عندما اقتضت حكمه التنزيل إيحاق منها بالأسلوب اللذي أوحيت به دون تزيد ولا تكلف ولا تخمين ، ولا تحميل لها ما لا ضرورة لتحميلها إياه ، ولا سيما أنها جاءت بأساليب متنوعة تتحمل وجوها عديدة التأويل لتحقيق هدفها التدعيمي ، وأن لا يترك لها المجال لتغطي على النوع الأول – الأسس – وتكون له شغلا شاغلا مستقلا بحيث يستغرق فيها أستغراقه في النوع الاول ، فضلا عن استغراقه فيها أكسر من السنواقه في هذا مما هو مع الاستف واقع ومشاهد ، كالانشال بماهية القصص القرآنية ، والنواميس والمساهد الكونية ، والمخلوقات الخفية من ملائكة وجن وشياطين ، ومشاهد الحياة الاخروية ، وبحيث يغفل عن هدفها الرامي الى تدعيم النوع الاول ، ويجمله يهمل التدبر فيه ، ويتورط فيما لا طائل من ورائه ، ويقع نتيجة لذلك في الحيرة والبلبلة دونما ضرورة وموجب .

ونسارع إلى استدراك مهم ، وهو أن كلامنا في صدد مدى آيات الوسائل إنما هو من اجل الوقوف منها عندما اقتضت حكمة التنزيل إيحاؤه منها بالأسلوب والمدى اللذين أوحيت بهما لتحقيق الهدف منها ، ومن اجل التنبيه على عدم ضرورة التزيد والتكلف في استكناه الماهيات وحسب ، ولا يعني ولا يصح أن يعنى أنها ثانوية أو أنها غير جوهرية أو أنها زائدة ، فجميع مافي القرآن من النوعين هو كلام الله ، وكله حقوحكمة ومهم وجوهري في ما انزل في صدده ، والى هذا فان المتمعن في القرآن لا بد من أن يلمح مافي هذه الآيات من روائع الموعظة والحكمة والأمثال والبيان من الوقوة الجدل والحجة والإلزام والتذكير والتنبيه والترغيب والترهيب مما فيه إلهام وتلقين جليلان لكل مسلم ، بل لكل إنسان على مر العصور ، وفي كل المناسبات .

وننيه على أن هذا التقسيم بالمعنى الذي نقرره مستلهم بوجه عام من روح القرآن وأسلوبه وآياته مما يستطيع أن يلمحه كل من أنعم النظر فيها حيث يجد أنه لم ترد قصة أو مثل أو موعظة أو جملة تنديدية أو إندار أو تنويه أو أشادة أو إشارة تنبيهية إلى السابقين أو الى ملكوت الله وعظمته ودعوة إلى التفكير في آلائه ، أو ذكر للملائكة والجن والشياطين ، أو وعد ووعيد بالحياة الأخروية ، ومشاهدها ونتائجها المبهجة أو المزعجة إلا بعد تقرير الأسس والأهداف أو شيء منها ، أو الدعوة إليها ، أو بيان الحق والخير والصلاح والسعادة والنجاة فيها أو حكاية مواقف الكفار منها ، أو تثبيت النبي والمسلمين فيها وتصبيرهم عليها ، وهذا من مميزات الأسلوب القرآني وخصوصياته بالنسبة لسائر الكتب التي يتداولها أهل الكتاب ، وينسبونها إلى الله وأنبيائهم ، وحيث يجد أن هده الأسس والأهداف تظل محكمة ثابتة مع ما هو طبعي من اختلاف مواقف النبي صلى الله عليه وسلم وتنوعها بالنسبة لفئات الناس والعقول والظروف في حين يجد أن ما هو من الوسائل والتدعيمات يتنوع ويختلف أسلوبا في حين يجد أن ما هو من الوسائل والتدعيمات يتنوع ويختلف أسلوبا أن يكون مقياساً وضابطاً للتفريق بين نوعي آيات القرآن المذكورين ، بل ومن شأنه أن يحل ويزيل ما يتوهم الناظر في القرآن مسن إشكالات في الأسلوب والمدى والتعبير أيضاً .

وهو مستلهم كذلك من آيات كثيرة جدا ذكر فيها القرآن في معرض التنويه بما احتواه من هدى ونور ورحمة وذكر ، أو في معرض الجدل مع الكفار ، أو حكيت فيها أقوالهم عن القرآن كما ترى في هذه الآيات التي لها أمثال كثيرة جداً .

ا - (يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيراً مما كنتم تخفون من الكتاب ويعفو عن كثير قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين . يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات الى النور بإذنه ويهديهم الى صراط مستقيم .) المائدة : 10 و 17 .

٢ - (قل أي شيء أكبر شهادة قل الله شهيد بيني وبينكم وأوحي إلى هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ ٠) الأنعام : ١٩ .

٣ ــ (وهذا كتاب أنزلناه مبارك فاتبعوه واتقوا لعلكم ترحمون . أن تقولوا إنما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا وإن كنا عن دراستهم

لفافلين . او تقولوا لو انا انزل علينا الكتاب لكنا اهدى منهم فقد جاءكم بيئة من ربكم وهدى ورحمة .) الأنعام : ١٥٥ - ١٥٧ .

إليك فلا يكن في صدرك حرج منه لتنذر به وذكرى المؤمنين •) الأعراف: ٢ •

٥ - (وإذا تتلى عليهم آياتنا قالوا قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا
 إن هذا إلا أساطير الأولين ٠) الأنفال : ٣١ ٠

7 - (وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين لا يرجون لقاءنا ائت بقرآن غير هذا أو بدله قل ما يكون لي أن أبدله من تلقاء نفسي إن أتبع إلا ما يوحى إلي إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم ولا أدراكم به فقد لبثت فيكم عمراً من قبله أفلا تعقلون و) يونس: 10 و 17 و

٧ ــ (آلر كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور
 باذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد .) إبراهيم : ١

٨٦ (لقد آتيناك سبعاً من المثاني والقرآن العظيم ٠) الحجر : ٨٨
 ٩ ــ (إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم ويبشر المؤمنين الذيسن يعملون الصالحات أن لهم أجراً كبيراً ٠) الإسراء : ٩ ٠

١٠ ــ (وننزل من القـرآن ما هو شــفاء ورحمة للمؤمنين ٠)
 الإسراء: ٨٢ ٠

١١ - (وقال الذين كفروا إن هذا إلا إفك افتراه وأعانه عليه آخرون فقد جاؤوا ظلماً وزوراً • وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بترة وأصيلا •) الفرقان : } و ه •

۱۲ ـ (وقال الرسيول يا رب إن قيومي اتخذوا هيذا القرآن مهجوراً .) الفرقان : ۳۰ .

17 ـ (وقال الذين كفروا لـولا نزل عليه القرآن جملة واحـدة كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلا .) الفرقان : 27 .

 ١٤ ــ (وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون ٠) فصلت : ٢٦ .

١٥ - (إنه فكر وقدر ، فقتل كيف قدر ، ثم قتل كيف قدر ، ثم
 نظر ، ثم عبس وبسر ، ثم أدبر واستكبر ، فقال إن هذا إلا سحر يؤثر ،
 إن هذا إلا قول البشر(١) ،) المدثر : ١٨ - ٢٥ ،

فمع أن من المسلم به أن كلمة (القرآن) تطلق على كل ما بين دفتي المصحف من كلام الله ، فان هذه الآيات وأمثالها الكثيرة جداً ، والتي لا تكاد سورة من سوره الطويلة أو المتوسطة أو القصيرة نوعاً ما تخلو من آية أو أكثر منها تشير إلى شيء آخر غير ما احتوته من ردود ومجادلات وتنديدات وتحديات ومواقف وأقوال لرسول الله صلى الله عليه وسلم أو الكافرين والجاحدين ، وتسليات لرسول الله صلى الله عليه وسلم وأوامر ربانية الخ . وتفيد بدون شك أن المقصود الأصلي هو الآيات والفصول التي فيها أسس الدعوة ومبادؤها وأركانها وحكمها وتلقيناتها وأحكامها وتشريعاتها ، وتفيد أن الكفار إنما كانوا يقولون أقوالهم المحكية والقرآن قاصدين بذلك هذه الآيات والفصول ، وأن النبي صلى الله عليه وسلم حين قال : ما حكته سورة الفرقان : (يا رب إن قومي اتخذوا هذا القرآن مهجوراً م) قد قصد كذلك هذه الآيات والفصول ، وهذا فضلا عما يفيده الجدل حول القرآن وكلام الكافرين عنه من أن ذلك خارج عن ذلك المقصود ، حينما نزلت الآيات التي تحكي هذا الجدل والكلام .

وهو مستلهم بوجه خاص من بعض نصوص صريحة في القرآن _ مع ملاحظة ما قد يكون لها من خصوصيات زمنية ، يأتي في مقدمتها وقد يكون أقواها مدى وأوضحها دلالة آية سورة آل عمران هذه:

⁽۱) الآیات التي من هذا الباب التي فیها ذکر القرآن والکتاب وکلام المشرکین والکفار والجدال معهم في صدده کثیرة ، وقد اکتفینا بها تقدم على کثرته لابراز المعنى الذي نرید تقریره إقرأ أیضا آیات البقرة ۱ و ۲ ، والنسساء ۸۳ ، والانعام ۱۱۶ ، ویونسس ۳۸ ، وهود ۱۲ وطه ۳ و ۱۱۲ .

(هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمسات هن آم الكتاب وأخر متشابهات فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولوا الألباب ، ربنا لاترغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لذلك رحمة إنك أنت الوهاب ،) ٧ و ٨

والآيات نزلت في سياق الرد على وفد نصراني من اليمن ، تناظر مع النبي صلى الله عليه وسلم في أمر المسيح عليه السلام ، فلما أفحمه النبي صلى الله عليه وسلم قال له : (الا تقول : إن المسيح كلمة الله وروح منه) قال النبي صلى الله عليه وسلم : بلى ، فقال الوفد : هذا حسبنا ، فنزلت الآية الأولى تندد بالوفد الذي ترك الأصل القرآني المحكم ، وهو أن الله واحد ولا يصح أن يكون له ولد ولا شريك ولا شبيه ولا يتجزأ ، ولا يصح فرض انتقال جزء منه إلى غيره ، وجنح إلى تأويل بعض آيات قصد بها التقريب والتمثيل تأويلا متناسباً مع هواه حيث أريد بما ذكر في القرآن عن ظروف ولادة عيسى عليه السلام تقرير كون ذلك قد تم بإعجاز رباني وحسب ، وهذا فضلا عن المحكم القرآني المقرر أن عيسى عبد الله ورسوله ، وأن كمثل آدم خلقه من تراب ، والمقرر كذلك بلسان عيسسى بأنه عبد الله ورسوله ، وكان الواجب أن يلتزم بالمحكم ، وأن يقول للمتشابه : آمنا به كل من عند ربنا ، وأن يدعو الله بأن لايزيغ قلبه كما للمتشابه : آمنا به كل من عند ربنا ، وأن يدعو الله بأن لايزيغ قلبه كما للمتشابه : آمنا به كل من عند ربنا ، وأن يدعو الله بأن لايزيغ قلبه كما

وعلى خصوصية الآيات من حيث المناسبة ، فإنها جاءت بأسلوب تقريري عام لتكون شاملة الحكم والمدى بحيث يصح ان يستلهم منها بقوة ان القرآن نوعان متميزان ، أحدهما محكم أساسي لا يحتمل تأويلا ولا تنوعا ولا وجوها افتراضية وتقريبية ، وهو (أم الكتاب) .

وثانيهما متشابه بسبيل التقريب والتمثيل والإلـزام والبرهنة ، و يحتمل التأويلات المتعددة أو الوجوه الافتراضية العديدة .

والمتمعن في الفصول والآيات التي تدخل فيما سميناه بالوسائليري

أنها قد اختلفت أساليبها وألفاظها ، وأنها أريد بها التشبيه والتمئيسل والتقريب والترغيب والترهيب والوعظ والتذكير ، والتنبيه والتنويسه والتنديد والتبشير والإيضاح والإنذار ، ويلمح فيها بكل قوة هدف تدعيم المبادىء والأسس والأحكام والتلقينات التي احتوتها آيات وفصول النوع الأول ، الذي نعتقد أ نالقرآن قصده بتعبير (آيات محكماتهن أم الكتاب) ونعتقد أن تعبير (وأخر متشابهات) قد قصد به آيات النوع الثاني . وفي هذا تلقين قوي بعدم الضرورة ديناً لاستكناه ماهيات مافي النوع الثاني من مسائل ومواضيع ، وبوجوب الوقوف عندما اقتضت حكمة التنزيل إيحاءه بالأسلوب الذي أوحيت به لتحقيق الهسدف التدعيمي الذي استهدفته دون تزيد ولا تكلف ، والتزام ما أمر به من القول (كل من عند ربنا) وما علمته من الدعاء (ربنا لاتزغ قلوبنا بعد اذ هديتنا) .

وسيأتي بعد هذا البحث بحوث في كل نوع من انواع الآيات التدعيمية والمتشابهة المذكورة ماسوف يزداد الأمر به وضوحاً أمام القارىء إن شاء الله . وفي سورة محمد هذه الآيات :

(ويقول الذين آمنوا لولانزلت سورة فإذا أنزلت سورة محكمة وذكر فيها القتال رأيت الذين في قلوبهم مرض ينظرون إليك نظر المفشي عليهمن الموت فأولى لهم م طاعة وقول معروف فإذا عزم الأمر فلو صدقه والله لكان خيراً لهم م) ٢٠ و ٢١

فإن كلمة (محكمة) في الآيات تفيد كما هو واضح (الأمر المبرم) أو (الغرض المطلوب) الذي لا بد من القيام به ، والمراد الذي لا يتحمل تأويلات عديدة .

وآيات آل عمران على هذا هي ضابط ومفتاح حاسم للقرآن ،ولا يصح لذي نية حسنة ورغبة في الحق والحقيقة غير قاصد للتمحل والتعسف والمماحكة أن لا يتقيد بها . ويلفت النظر إلى جملة (فأما الذين في قلويهم زيغ فيتبعون ماتشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ..) حيث

تعبر تعبيراً تظهر معجزته الربانية من خين إلى حين فيما يعمد إليه المماحكون والمتمحلون والمتواقحون والمتنطعون من ملحدين ومبشرين من التوقف عند المتشابهات ، والتمسك بها وسوقها في معرض النقد والتجريح والتحجج والتشكيك حيث يكون هذا بنص القرآن الذي شاء الله منزليه أن يكون فيه المحكم ، وفيه المتشابه ، وان يكون المحكم هو (ام الكتاب) دليلا على سوء النية ، وزيغ القلوب ، والانخساء أمام محكمات القرآن والهروب منها ، والرغبة فقط في التجريح والتشكيك والنقد والفتنسة وإثارة الإشكالات دون تقيد بالضابط الذي قرره القرآن ، والمفتاح الذي وضعه له منزله سبحانه وتعالى .

ولقد انكشف للنبي صلى الله عليه وسلم احتمالات هذا الموقف ٤ فنبه على مافي ذلك من انحراف وخطل ، وعلى الموقف السليم تجاهذلك، حيث روى الشبيخان عن عائشة قالت : ينلا رسول اللههذه الآية ثم قال: «فإذا رأيت الذين يتبعونما تشابه منه فآولئك الذين سمى فاحذروهم(١)»، وروى مسلم حديثاً جاء فيه «سمع رسسول الله صلى الله عليمه وسلم رجلين اختلفا في آية ، فعرف في وجهه الغضب ، وقال : إنما هلك منكان قبلكم باختلافهم في الكتاب» وروى ابن مردويه حديثاً عن ابن العاص عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : «إن القرآن لم ينزل ليكذب بعضه بعضاً ، فما عرفتم منه فاعملوا به وما تشابه منه فآمنوا به» وروى الحافظ أبو يعلى حديثاً عن حذيفة ، عن رسول الله قال : «إن في أمتى قوماً يقرؤون القرآن ، ينثرونه نثر الدقل ، ويتأولونه على غير تأويله» وروى الإمام أحمد حديثاً عن عمرو بن شعيب ، عن أبيه ، عسن جد"ه قال : سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم قوماً يتدارؤون في القرآن فقال : «إنما هلك من كان قبلكم بهذا ، ضربوا كتاب الله بعضه ببعض ، وإنما أنزل الله كتابه ليصدق بعضه وبعضاً ، فلا تكذبوا بعضه ببعض ، فما علمتم فقولوا به ، وما حهلتم فكلوه إلى عالمه» .

⁽١) أي : وصفهم الله بأن في قلوبهم زيغا .

فَفَي هذه الأحاديث تدعيم لما قررناه من كون الآية مطلقة عامة ، تشمل كل موقف مماثل للموقف الذي نزلت فيه ، وفيه تلقين بما يجب أن يكون عليه موقف المخلصين المؤمنين وذوي النيات الحسنة من الآيات المتسابهة ، وتحذير من ابتفاء الفتنسة ، وإثارة الشبهات والإشكالات حولها ، وفيها تأييد لما استلهمناه من نص الآية من أنه ليس من الضروري دينا استكناه ما في الآيات المتشابهة من ماهيات . .

وإذا كان من المسلمين وكتابهم بل ومفسريهم قديماً وحديثاً من شغل بالمتشابهات وتأويلها واستكناه ما فيها من ماهيات ، ومنهم مسن أغرب وتورط في التخمين والتخيل والتزيد والتكلف ، وصرف آيات الله عن أهدافها الوعظية التذكيرية التمثيلية التقريبية المنذرة المبشرة إلى ما كاد يتحول القرآن به إلى كتاب تاريخ وفلك وهندسة وتنجيم ، والى كتاب له ظاهر وباطن ، وفيه أسرار والفاز ، وإلى ما فيسه كفر بواح ، وتأييد للمذاهب والأهواء ، وإلى ما فيه إخراج له عن نطساق قدسيته وهدايته ، وإذا كان ما فعلوه قد صار مع الأسف تكأة للملحدين والمبشرين وجدوا فيما فعلوه كثيراً من الثفرات فحاولوا أن ينفذوا منها فلا يتحمل قرآن الله ورسوله مسؤولية ذلك .

وننبه على أن هناك من يعطف جملة (والراسخون في العلم) في آية آل عمران على كلمة (الله) ليكون المعنى : والراسخون في العلم يعلمون أيضا تأويله بالإضافة إلى الله ، وهناك من يجعل الجملة مستأنفة ليكون المعنى: إنه لا يعلم تأويله إلا الله وحده .

ومما دلل عليه قائلوا القول الأول والآخذون به أنه لا يصحأن يكون في كتاب الله مالا يعرف تأويله وما لا نفهمه أحد ما .

وللامام ابن تيمية كلام طويل في صدد البرهنة على وجاهة هذا القول أو رد فيه حججاً عقلية ونقلية قوية ، وقد يكون هذا وجيها إذا أريد بكلمة (تأويله) حكمته وهدفه والمقصود منه ، ويصح أن يقال حينئذ:

أنه ليس في متشابهات القرآن ما يمكن أن يعجز الراسخون في العلم عن أح حكمته وهدفه والمقصود منه فضلاً عن محكماته . أما إذا أربد بالكلمة (السرو الماهية) فإن في القرآن مالا بمكن لأحد من البشر أن يعسر ف سره وماهيته ، مثل كنه الله عز وحل ، وسر الوحى والنبوة ، وسر خلق الله للكون والحياة الأخروبة ، وسر ومدى المخلوقات الخفية مما يجب على المسلم الإيمان به ، لأن القرآن اخبر به بأسلوب قطعي ومحكم غير قابل للتأويل - ومهما سما العقل البشري ، فإنه يظل عاجزاً عن إدراك سرها إدراكا تاماً . ولا يكفى أن يقال : إنها سر الله وحكمته ، وإنها في نطاق قدرته فهذا صحيح ، غير أنه لايمكن أن يوصف بأنه علم بتأويلها إذا أريد بالكلمة السر والماهية ، وإن كان يمكن أن بقال :إن المستنير بن والراسخين في العلم يستطيعون أن يلمحوا حكمة الله ومدى هدفه فيها وفي ذكرها ، وإن العقل البشرى لا يستطيع رفض التسليم بها حقاً وصدقاً . ولقد يصح القول أيضاً: إن ما لا يعلم تأويله إلا الله ، وإن الأمر بالقول (آمنا به كل من عند ربنا) هو المتشابه الذي يشكل فهمه صراحة أو ضمناً ، ولا لكون له حسم من المحكمات . أما ما لا لكون فيه ذلك ومسا يكون في المحكمات حسم له فلا بدخل في حدود ذلك ، ومع ذلك كله فنحن ترجع أن لا تكون الجملة معطوفة ، وأن يكون السر والماهية هما المقصودان من كلمة تأويله ، وبقية الآية الأولى ، وفحوى الآيتين الثانية والثالثة مما يؤيد هذا الترجيح فيما نعتقد . والقول الثانـــى يمكن أن يصح بدون ضرورة لأن تكون جملة (والراسخون في العلم) معطوفة على ما قبلها بوجه عام • والله تعالى أعلم .

والملحدون لا يقبلون حقيقة كون العقل البشري لا يستطيع رفض التسليم بأسرار وماهيات وحقائق غيبية ، لأنهم ينكرون مالا يثبت بالحس والمادة ، ومقاييس العلم والمعرفة ، ويقولون : إن المغيبات التي يؤمن بها المؤمنون تتنافى مع العلم والعقل ، وإن الدين يتنافى بالتالي مع العلم والعقل ، وإن الدين يتنافى بالتالي مع العلم والعقل ، ولا يقنعون بالتقريرات السديدة التي يسوقها علماء المسلمين

وباحثوهم بسبيل التوفيق بين الدين والعلم والعقل (١) . وفي كتاب صادق العظم نماذج من كل ذلك . ونقول نحن : إن من حق المؤمن الذي اطمأن قلبه بالإيمان بوجود الله الحكيم المدبر المبدع للكون أن يؤمن بما ثبت خبره، وتقرير وجوده ووقوعه عن الله بواسطة من اصطفاهم الله من خلقه من مغيبات ، وأن يستوحى ويلمح حكمة ذلك ولو لم يــدرك سره وكنهـــه وليس كل مالا يقبله ويقنع به إنسان ما هو فيحد ذاته غير مقنعولا مقبول، ومقاييس العلم والعقل متبدلة متحولة غير ثابتة وغير مطلقية ، وأمور كثيرة كانت تقاس بمقاييس علمية وعقلية كانت معتبرة وظهر فسادها ، وقام مقامها مقاييس جديدة ، وأمور كثيرة لـم يكن تصورهـا ووقوعها معقولا وممكناً ، قد وقعت وصارت قائمة . وعقول الناس ومعارفهم وتجاربهم متفاوتة ، وهذا التفاوت يؤدى إلى أن كثيراً من الناس يدركون مالا يدركه غيرهم ، ويعقلون مالا يعقله غيرهم ، ويقنعون بما لا يقنع إله غيرهم ، ويكون ذلك ناشئًا عن ذلك التفاوت ، وليس مسوغًا لذاته، ولذلك يظل إنكار الملحدين وقولهم جزافاً ، وكل ما ثبت تقريره من المغيبات بأسلوب قطعى ومحكم مما ذكرناه قبل ممكن عقلاً ، وهو في نطاق قدرة الله ، وما دام أن العلم مظهر أو حصيلة من مظاهر العقل وحصائله، فيكون الإيمان بذلك ، وبالتالي يكون الدين غير متناف مع العلم . وقد أشرنا قبل إلى مالئات أساطين العلوم المادية من تقريرات مقنعة عن وجود الله وحكمته وبديع تقديره في كونه استنتاجاً من هذه العلوم التي تعمقوا فيها ، ووجود الله عز وجل في رأس هذه المفيبات .

ويركز الملحدون بخاصة على أمر وهو أن الإيمان بالمفيبات ، وأن الله ينبالتالي يتعارضان مع حرية انطلاق العقل والعلم والنشاط في المؤمنين بها والمتدينين بدين . وأن ذلك مما شل قوى العرب والمسلمين

 ⁽۱) من واجبنا أن ننبه إلى أن المؤمنين بالله والمغيبات التي يؤمن بها المسلمون من أهل الكتاب يسمهون أيضا في سوق مثل هذه التقريرات .

ويعطلها ، وهذا مما يركز عليه صادق العظم كثيرا في كتابه . وهذا زعم باطل ، تكذبه نصوص القرآن المحكمة ، وتكذبه وقائع التاريخ الاسلامي، وآلاف الكتب التي كتبها علماء المسلمين في مختلف مواضيع الحياة ، ولقد انطلق المسلمون والعرب في الطليعة بعد إيمانهم بكل مافي الرسالة الإسلامية القرآنية النبوية قدرة وعظمة وسلطانا وعلماً وحضارة وازدهارا ، وتفتحا ومرونة وخبرة واقتباسا واستكشافا للآفاق الكونية والفنية إلى ابعد الحدود التي كانت ممكنة في القرون الاسلامية الأولى دون اصطدام بمعتقداتهم الفيبية والإيمانية ، وجمعوا بينهما جمعا عظيماً رائعا ، ولا يصح أن يؤخذ ما عليه المسلمون اليوم سبباً ولا مقياساً . واذا كان هناك حكام من العرب والمسلمين أو أفراد يتظاهرون بالتمسك بالدين ، أو يتكئون عليه ، ثم يكونون متخلفين في سلوكهم وحكمهم وأنظمتهم وتنظيماتهم وعقلياتهم منحرفين عن جادة الحق والعدل والصالح العام ، وأساليب المعقل والعلم ، فيكونون في حقيقة الأمر منحرفين عن أحكام القرآن وتلقيناته المحكمة التي سوف نورد موجزاتها في فصل لاحق من الكتاب .

والقول بعد هذا كله: إن الإيمان بالله والنبوة والوحي والحياة الاخروية ، والملائكة والجن ، يشل القوى ويعطلها قول فيه كثير من الغلو والسطحية ، ولا يستحق ان ينظر فيه بجد . ولقد كان أهل القرون الاسلامية الأولى يؤمنون بكل ذلك ، ولم يمنعهم هذا الإيمان عن الانطلاق كما قلنا في كل ميادين الحياة بقوة واندفاع عظيم ، ولقد كان الغربيون الذين نهضوا وتقدموا في القرون الاخيرة والحديثة في ميادين العلم التي تخلف عنها المسلمون والعرب لاسباب غير اسباب الدين الصحيح مؤمنين بكل هذه الفيبيات حينما بدؤوا ينهضون ويتقدمون ، وما يـزال معظمهم مؤمنين بها فلم يمنعهم إيمانهم من النهوض والتقدم ، بل إن هذا الإيمان مع العمل الصالح الذي يشمل كل أمر دينوي أيضاً ، وما ينطوي في الدين الاسلامي من حوافز عظيمة ، هو الذي مكن المسلمين الأوليين في الأرض دلك التمكين الشديد الذي ارتفعت به راياتهم على مشارق الأرض ومغاربها ذلك التمكين الشديد الذي ارتفعت به راياتهم على مشارق الأرض ومغاربها بما لمم يتيسر مثله لاية حركة قديمة وحديثة سعة وقوة وعزة ، وقامت

به حضارة باذخة فاقت كل ما تقدمها ، تحقيقاً لوعد الله لهم في آية النور هذه:

(وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً يعبدونني لا يشركون بي شيئاً ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون ٠) ٥٥

وجعلهم ينطلقون ذلك الانطلاق العظيم . والظنّ بأن الدين الاسلامي هو مجموعة عقائد غيبية ظن غبي جاهل ، فهذا الدين متكامل ، وبقدر ما هو دين عقيدة وإيمان هو دين نظام وتنظيم وسلوك واجتماع وإنسانية وعلم وعقل وفكر وجهد وجهاد وعمل ، وصلاح الإنسانية في الدنيا من مختلف النواحي هو من أهدافه الجوهرية ، ولا يمكن أن يتم هذا إلا باستيغاء كل أسبابه ، ولقد انطوت تعاليم هذا الدين على أفضل القواعب والأسس والتوجيهات والتلقينات ، وأشدها انسجاماً مع مصلحة الانسانية وخيرها وسعادتها في كل ظرف ودوروطور ، ويجبعلى من يريد أن يتكلم فيه أن ينظر إليه بمثل هذه النظرة الشاملة ، ويدرسه دراستة صادقة جادة ، ويستوعبه استيعاباً صحيحاً إذا كان ممن يحترم العقل والعلم والحسق والحقيقة .

هذا وقد يلحظ أن هناك فرقاً بين تسميتنا لنوعي الآيات القرآنية بالأسس والوسائل ، وبين النص القرآني في سورة آل عمران الله يسميهما (الآيات المحكميات) و (الآخر المتشابهيات) غير أنه ليس هنياك فرق إلا في التعبير ، فجمهرة العلماء والمؤولين والمفسرين يقولون: إن الآيات المحكمة التي هي ام الكتاب هي مافي القرآن من أحكام وحلال وحرام ، وأركان الإسلام ، وعماد الدين ، والفرائض ، والحدود ، وسائر ما يكلف به المسلمون ويحسن بهم لعاجلهم وآجلهم ، ومالا يتحمل تأويلات عديدة . وأن المتشابهات : هي ما سوى ذلك ، ويظهر من هذا أن الأولى هي ما يصح تسميته بالأسس والثانية مما يدخل فيما سميناه بالوسائل ، لأن معظم النوع الثاني بل كله تدعيم للنوع الأول عبرة وعظة وتمثيلاً وتقريباً وترغيباً وترهيباً وتنويهاً وتنديداً

وإنذاراً وتبشيراً وإفحاماً وإلزاماً . . الغ وآية سورة محمد التي اوردناها قبل شاهد على ذلك . فالسورة المحكمة التي ذكرت فيها قد فسرت فيها بأنها فرض القتال الذي ذكرت آيات آخرى انه كتب على المسلمين ، أي فرض عليهم ، وبالتالي : أن المحكمة هي الفروض والتكاليف الأساسيسة القرآنية ، ولقد روي عن إبن عباس أن المحكم هو أمثال ما جاء في آيات سورة الأنعام ١٥١ – ١٥٣ وسورة الاسراء ٢٣ – ٣٨ التي هي مجموعات رائعة من الاسس والمبادىء والأهداف التوحيدية والأخلاقية والاجتماعية والسلوكية كما ترى في آيات الإنعام هذه :

(قل تعالوا أتل ماحرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً ولا تقتلوا أولادكم أملاق نحن فرزقكم وإياهم ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ولا تقتلوا النفس التي حرّم الله إلا بالحسق ذلكم وصتاكم به لعلكم تعقلون و لا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشدة وأوفوا الكيل والميزان بالقسط لاتكلف نفساً إلا وسعها وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى وبعهد الله أوفوا ذلكم وصتاكم به لعلكم تذكرون واتن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصتاكم به لعلكم تتقون (١٥٠) ١٥١ سـ ١٥٣

وهذا التقسيم متسق مع حكمة بعثة النبي صلى الله عليه وسلم وسيرته في الدعوة ، فقد اخذ منذ نزول الوحي عليه يدعو إلى اللهومكارم الأخلاق والمبادىء التي يقوم عليها صلاح الانسانية وسعادة الناس في

⁽۱) آیات سورة الاسراء مهائلة إجهالا لهذه الآیات ، فاکتفینا بایراد هذه نوننبه علی أن في القرآن آیات ومجموعات آخری فیها مثل هذه الوصایا ، وفیها بیان لمهمة الرسسول مثل الوصایا الحکیمة المحکمة مثل آیة سورة البقرة (۱۷۷) وآیات سورة آل عمران ۱۰۵–۱۰۵ والنساء ۲۹–۳۲ و ۳۲–۲۲ والاعراف ۳۱–۳۳ و ۱۵۷ والنحل ۹۰–۹۷ والمؤمنون الساء ۱۱ والفرقان ۳۳–۲۲ والمعارج ۱۹–۳۵ وهذا عدا مفردات کثیرة جدا فیها الحکم وآیات وفصول کثیرة جدا فیها أحکام ومبادیء ووصایا وتشریعات وتلقینات محکمة ،

الدارين ، ونبذ المستنكر المنحرف من عقائم وتقاليم وعادات وأخلاق ويتلو آيات القرآن في ذلك ، فوقف الزعماء بخاصة يناوئونه لأسباب متنوعة شرحناها قبل ، فصارت تنزل الفصول القرآنية مسجلة لمواقفهم ورادة عليهما ، ومنذرة منددة مذكرة قاصمة لأخبار الأمهم والأنبيماء الأولين واعظمة منبهة ، داعمة من جهمة ومستمرة في تقرير مبادىء الدعوة والأحكام والتشريعات والتلقينات الأساسية من جهة ، ومسجلة لآثار دعوته في الفريق الذي استجاب إليها من جهة .

ومما يزيد ما نقرره قوة ووضوحاً ما يلاحظ من تطيور التنزيل القرآني ، وتطورإطلاق تعبير (القرآن) على أجزاء القرآن وسوره و فصوله فالقرآن يطلق كما هو معروف على مجموعة السور التي بين دفتي المصحف ، غير أن هذا التعبير بدىء باستعماليه منذ مبادىء نزول القرآن ، وبدىء بإطلاقه على ماكان من مجموعاته وآياته قبيل تمامه بل قبل أن ينزل منه إلا القليل ، ثم ظل يطلق على ماكان ينزل منه وسلم يجتمع من مجموعاته إلى أن تم تمامه بوفاة النبي صلى الله عليه وسلم كما يفهم أولاً من آيات عديدة مكية هذه أمثلة منها تمثيل مختلف أدوارا التنزيل المكى (۱) .

ا – (یا أیها المزمیّل • قم اللیل إلا قلیلا • نصفــه أو انقص منه قلیلا • أو زد علیه ورتل القرآن ترتیلا •) المزمل : ۱ – γ = (γ • والقرآن ذی الذکر •) ص ۱ و γ

٣ ــ (وقال الرسول يا رب إن قومي اتخذوا هذا القرآن مهجوراً ٠)
 الفرقان : ٣٠

٤ - (وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ٠) الإسراء: ٨٢
 ٥ - (قل أي" شيء أكبر شهادة قل الله شهيد بيني وبينكموأوحي إليّ هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ ٠) الأنعام : ١٩

⁽١) سنورد آيات السور حسب ترتيب نزول هذه السور المروي .

٦ - (وقال الذين كفرولاتسمعوا لهذا القرآن والفوا فيه لعلكم
 تفليون ٠) فصلت : ٢٦

٧ ــ (ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل ولئن جئتهم
 بآية ليقولن " الذين كفروا إن انتم إلا ميطلون ٠) الروم : ٥٨

وثانيا : من آيات عديدة مدنية هذه امثلةمنها مختلف ادوار التنزيل المدنيي :

٢ ـ (افلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه
 اختلافاً كثيراً •) النساء : ٨١

٣ ـ (لو انزلنا هذا القرآن على جبل لرايته خاشعاً متصدعاً من خشية الله ٠) الحشر : ٣١

 إن" الله اشترى من المؤمنين انفسهم واموالهم بان" لهم الجنة يقاتلون في سبيل فيتقتتلون و'يقتلون وعداً عليه حقاً في التوراةوالإنجيل والقرآن •) التوبة: ١١١١

والمعقول والواقع ان الآيات والسور القرآنية التي نزلت قبل غيرها في أوائل الدعوة قد احتوت في الأكثر اسس الدعوة ومبادئها وأهدافها ، واقتصرت أو كادت تقتصر على التبشير بها ، وإنذار الذين لا يستجيبون إليها ، ولم تتوسع في الوسائل كما يظهر للمتمعن في سور الفاتحة والأعلى والشمس والليل والعصر والإخلاص والتكاثر والبلد والفجير والتين والقارعة مما يؤيد أن الأهداف والأسس هي المقصودة في البدء من تعبير (القرآن) والأساسية فيه ، وقد خلت هذه السور وأمثالها أو كادت تخلو من العنف مما هو طبيعي ، لأن الدعوة وأهدافها ومبادئها هي التي قصد عرضها ونشرها والتبشير بها أولا دونما عنف ، ثيم أخذت الفصول والسور بعدها تحتوي إلى جانب المبادىء والأهيداف حملات عنيفة على الجاحدين والكافرين والصادين ، وحكاية مواقفهم وإنكارهم لصحةالوحي

القرآني ، وتحد يهم كما أخذت تتوسع في الوسائل التدعيمية من قصص وأمثال ، ووصف لنواميس الكون ، ومشاهد عظمة الله وآياته ، وذكسر لغيبيات إيمانية الخ . مما هو طبيعي كذلك ، لأن الجحود والجدل والإنكار والشك والاستفراب والاذي والصد والتحدي والتحريض انما وقع بعد عرض مبادىء الدعوة وأهدافها . ولأن مواقف الجاحديب والمنكرين والشاكين والمستفربين والمتردديس والصادين والمكابريس والمتحدين استتبعت التوسع في الوسائل التدعيمية والتأبيدية . وهذا مـا بحملنا نرجح أن فصول سور العلق والقلم والمزمل والمدثيل التي جاءت بعد مطالعها ، والتي احتوت مواقف جدلية وحملات على الكافرين والطفاة قد نزلت منفصلة عن مطالعها إذا صح أن هذه المطالع نزلت أبكر من غيرها من القرآن . ولقد احتوت الفصول التالية الذكورة حدلاً وحجاجاً بين النبى صلى الله عليه وسلم والكفار حول القرآن وصحة الوحسى القرآني الرباني مثل آيات سورة القلم ٩ ــ ١٥ والتكوير ١٩ ــ ٢٩ والفرقان ١٦٦ و ٣٢ والشعراء ١٩٢ – ٢٢٦ والإسراء ٥٥ ــ ٤٧ و٨٨وه ١٠٠٠ ويونس ١٥ - ١٧ و ٣٧ - ٠٤ وهود ١٣ و ١٤ والسحدة ١ ٣ وسيأ ٣١ و فصلت . (١) الخ (١) .

والمعقول أن يكون الكفار قد اعتبروا (القرآن) بدورهم هو ما احتوته

 ⁽۱) الآيات كثيرة ، ويحسن أن يقرأها القارىء في المصحف ، ونورد بعضها فيما يلي لبيان
 المقصود من الكلام لن لم يقرأ القرآن :

١ - (وقال الذين كفروا إن هذا إلا إفك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون فقد جاءوا ظلما
 وزوراً . وقالوا أساطير الاولين اكتتبها فهي تملي عليه بكرة وأصيلا . قل أنزله الذي يعلم
 السر في السماوات والارض إنه كان غفور رحيماً .) الفرقان ٤-٣

٢ - (وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه
 ترتيلا .) الفرقان : ٣٢

٣ - (وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين لا يرجون لقاءنا ائت بقرآن غير هذا أو بدله قل ما يكون لي أن أبدله من تلقاء نفسي إن أتبع إلا ما يوحى إلي إني أخاف إن عصيت دبي عداب يوم عظيم . قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا أدراكم به نقد لبثت فيكم عمرا من قبله أفلا تعقلون .) يونس : 10-10 .

الأجزاء التي فيها الأهداف والأسس ، فجادلوا فيها وكفروا بنبوة النبي صلى الله عليه وسلم وصحة الوحي الرباني ، فأخذت هذه الآيات وأمثالها تحكي اقوالهم ، وترد عليها ردودا مفحمة ، وتضرب لهم الأمثال، وتذكرهم بمن سبقهم من الأمم والأنبياء ، وتتوعدهم وتنذرهم بالآخرة وهولها وعذابها ، وتتحداهم وتندد بما هم عليه من سخف وضلال ، وتثبت النبي صلى الله عليه وسلم وتسليه وتذكره بما كان من أمسر الأنبياء السابقين ، ومواقف أممهم منهم ، وتبشر المستجيبين بسعادة الدنيا ونعيم الآخرة ، وتثبتهم وتصبرهم إلخ . ثم استمر الأمر على ذلك كله مع تنوع في الأساليب حسب تنوع المواقف وتجددها .

فالإنذار والتبشير والتنديد والتنويه والوعد والوعيد والقصص والأمثال والإلزام والإفحام والجدل والبرهنة والتثبيت والتطمين إنما كان وجاء _ كما هو واضح _ تبعاً للأسس والمبادىء والأهداف أو المحكمات، ودار حولها بسبيل التدعيم والتأييد اللذين اقتضتهما ظروف السيرة والدعوة ، ومواقف الناس مستجيبيين وجاحدين من تلك الأسسوالمبادىء والاهداف التى هى المحكمات في التنزيل القرآني .

وكلمة أخيرة مهمة نختم بها البحث . ففي رواية اسباب نزول آيات آل عمران (٧و٨) تنبيه إلى وجوب الرجوع إلى المحكمات في تأويل المتشابهات، وهذا يقتضيان يتنبّه المرء إلى اعتبار كون القرآن متكاملاً يوضح بعضه بعضا ، وان يكون محيطاً لمختلف آيات القرآن المحكمة والمتشابهة في مختلف المواضيع ، أو يرجع إلى من يكون كذلك ، وإنه ليصح القول بناء على ذلك إنه ليس من شيء يرى امرؤ فيه إشكالاً ، أو وهم تناقض في آية قرآنية من الآيات المتشابهة إلا وهو واجد على الاعم ألا غلب ما يزيل ذلك الإشكال والوهم ، ويحسمه في الآيات المحكمة . وفي الماثورات أمثلة كثيرة لذلك . من ذلك مثلاً ما روي عن جواب لعائشة على سؤال عما إذا كان النبي صلى الله عليه وسلم رأى ربّه حيث قالت: «إن من يقول: ان محمداً قد رأى ربه . فقد أعظم الفرية ، والله يقول (لاتدركه الأبصار) فهذه جملة في آية في سورة الانعام محكمة في وصف الله

عز وجل "ساق إزاء كل ما يرد في القرآن من صفحات الله وحركاته واحتمالات رؤيته ، والتي قد توهم الجسمانية ومثل ذلك كثير حيث يوجد في القرآن آيات كثيرة يبدو فيها إشكال أو وهم تعارض وتناقض في حين أن فيه آيات أخرى تحسم هذا الإشكال والتناقض والتعارض، وتكون ضوابط محكمة للعبارات المتشابهة في صدد الملائكة والجن" ، ونشأة الإنسان والكون والقدر والجبر والهدى والضلال ، وصفات الله الذاتية والفعلية الخ الخ مما سوف نزيده شرحا في بحوث آتية . وحيث يمكن أن يقول قائل : إن ما كان من خلافات جدلية وكلامية ومذهبية ، وشغل حيزا كبيرا في كتب علماء الكلام والمذاهب والطوائف والفرق الإسلامية ، إنها جاء من الاستناد إلى آيات وعدم الربط بينها وبين آيات أخرى ، وعدم اعتبار القرآن كلاءً متكاملاً ، وإن ما فيه من متشابهات تتحميل وجوها عديدة للتأويل يمكن أن تحسم بالضوابط المحكمة القرآنية ، فتظهر بذلك معجزة الله تعالى في قوله :

(افلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيهاختلافاً كثيراً) النساء : ٨٢

ولقد استفل الملحدون والأغيار ذلك ووجدوا فيه منفذا للتجريح والغمز مما الممنا بكثير من امثلته ، وفندناه في كتابنا « القرآن والمبشرون » ومما سوف نأتي فيما بعد بأمثلة منه ، سبوقها الملحدون ، ونفنده على ضوء المحكمات الحاسمة إن شاء الله .

خامساً: القصص القرآئية.

-1-

مما يجب ملاحظته أن ما ورد في القرآن من قصص وأخبار الامم السابقة وأحداثها وأنبيائها بما في ذلك معجزات الأنبياء ، وما وقع على الأمم الجاحدة من عذاب الله ونكاله لم يكن:

أولاً : غريباً عن السامعين إجمالاً سماعاً أو مشاهدة آثار ، أو اقتباساً وتناقلاً ، وسواء منه ما هو موجود في أسفار وكتب أهل الكتاب

وغيرهم المتداولة مماثلاً أو زائداً أو ناقصاً أو مبايناً لما جاء في القرآن ، أم ليس موجوداً فيها مما يتصل بالأمم والأنبياء الذين وردت اسماؤهم فيها مثل قصص ابراهيم المتعددة مع قومه ، وتسخير الجن والربح لسبليمان ، وقارون ، والعبد الصالح مع موسى ، ومائدة المسيح ، أو مما يتصل بغيرهم من الأمم والبلاد العربية وأنبيائها مما لم يرد اسماؤهم فيها مثل قصص عاد وثمود وسبأ وتبع وشعيب ولقمان وذي القرنين .

وثانيا: إنها لم ترد للقصة ذاتها ، وإنما وردت للعظة والتمثيل والتذكير والإلزام والإفحام ، والتنديد والوعيد والتسليسة والتطمين ، وبكلمة اخرى هي من ما سميناه بالوسائل .

وثالثا : إنها وردت بأساليب متنوعة تتحمل وجوها للتأويل ، وصدق عليها وصف المتشابهات .

وفي القرآن شواهد وقرائن ونصوص عديدة مؤيدة للنقطة الأولى كما هو ظاهر في الآيات التالية التي لها أمثال:

١ ـ (الم ياتهم نبأ الذين من قبلهم قوم نوح وعاد وثمسود وقوم إبراهيم وأصحاب مدين والمؤتفكات أتتهم رسلهم بالبيئات فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ٠) التوبة : ٧٠

٢ – (وإن يكذبوك فقد كذابت قبلهم قوم نوح وعاد وثمود وقوم إبراهيم وقوم لوط وأصحاب مدين وكذاب موسلى فأمليت للكافرين ثم أخذتهم فكيف كان نكير وفكان من قرية اهلكناها وهي ظالمة فهي خاوية على عروشها وبئر معطئة وقصر مشيد وافلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فإنها لا تعمي الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور (١) و) الحج : ٢٦ – ٢٦

 ⁽۱) الآية الاخيرة تفيد أن السامعين عرفوا أخبار السابقين ، ونكال الله فيهم أنناء تطوافهم
 في بلادهم . وكان ذلك في رحلاتهم التجارية وغير التجارية كما هو المتبادر ،

٣ ـ (ولقد اتوا على القرية التي أمطرت مطر السوء أفلم يكونوا
 يرونها بل كانوا لا يرجون نشوراً (١) •) الفرقان • ؟

إ ـ (وعاداً وثمود وقد تبيان لكم من مساكنهم وزين لهم الشيطان
 اعمالهم فصد هم عن السبيل وكانوا مستبصرين ٠) العنكبوت : ٣٨

٥ - (وإن لوطاً لن المرسلين . إذ نجّيناه وأهله أجمعين . إلا عجوزاً في الغابرين . ثم دمّرنا الآخرين . وإنكم لتمرون عليهم مصبحين . وبالليل أفلا تعقلون .) الصافات (٢) : ٣٣ - ١٣٨

ولقد جاء في سورة القلم التي هي ثانية سورة في ترتيب النزولهذه الآبات :

٦ ـ (فاصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب الحوت إذ نادى وهـو
 مكظوم • لولا أن تداركه نعمة من ربه لنبذ بالعراء وهو مذموم • فاجتباه
 ربه فجعله من الصالحين) القلم : ٨٨ ـ • ٥٠

فالاكتفاء بهذه الإشارة الخاطفة إلى قصة يونس ونعته بصاحب الحوت في هذه السورة المبكرة جداً في النزول دليل قاطع على أن القصة لم تكن مجهولة عند النبي صلى الله عليه وسلم والسامعين قبل البعثة وإذا كانت سور اخرى نزلت بعد ، واحتوت تفصيلا أكثر عن القصةمثل ما جاء في آيات سورة الصافات (١٣٩ – ١٤٨) فالمتبادر أن لذلك حكمة سامية ، ولكنها لا تنقض الدليل من دون ريب ، وهذه القصة واردة بتفصيل في سفر يونان بن متاي من أسفار العهد القديم المتداول اليوم ، والذي نعتقد انه كان متداولاً في زمن النبي صلى الله عليه وسلم وبيئته في أوساط الكتابيين ، وهناك حديث رواه مسلم وأبو داود عن النبي صلى

⁽¹ و ٢) والمقصود هم قوم لوط وبلادهم المدمرة الواقعة على ضفاف بحيرة لوط في غدور الاردن ، وكان تجار الحجارة ، فيرون ت الاردن ، وكان تجار الحجاز يمرون بها أثناء ذهابهم الى مضر وفلسطين للتجارة ، فيرون ت آثار الدمار ويسمعون قصته ،

الله عليه وسلم جاء فيه «ما ينبغي لعبد أن يقول: أنا خير من يوئس بن متى» ونسبه إلى أبيه واسم الأب لم يرد في القرآن ، وإنما ورد في سفر يونان بصيغة (متاي) . وفي سيرة ابن هشام حديث يذكر أن النبي صلى الله عليه وسلم حينما ذهب إلى الطائف قدم له غلام طبقاً عليه قطف عنب فسمى أولا اسم الله ، ثم أكل ، فأكب الغلام على يده يقبلها ويقول: إن هذا كلام لا يقوله أهل هذه البلاد فسأله النبي صلى الله عليه وسلم مسن أي بلد هو ؟ فقال له: إنه من نينوى ، فقال له: «بلد يونس بسن متى» فقال له: ومن أين عرفت يونس بن متى ؟ فقال له: «هو نبي ، وأنا نبي مثله ، ونينوى لم تذكر في القرآن ، وإنما ذكرت في السغر المذكود .

٧ ــ ومثل هذا يقال في الإشارة الخاطفة المقتضية في سورة المزمئل
 ثالث سورة في ترتيب النزول إلى فرعون وهي :

(إنا أرسلنا إليكم رسولاً شاهداً عليكم كما أرسلنا إلى فرعون رسولاً ، فعصى فرعون الرسول فأخذناه أخذاً وبيلاً ،) ١٥ و ١٦

فقصص موسى وفرعون مما كان معروفاً متداولا في بيئة النبي صلى الله عليه وسلم قبل البعثة ومبثوثاً بسعة في أسفار العهد القديم التي كان يتداولها أهل الكتاب فيها . وفي آية سورة القصص هذه :

(فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا لـولا أوتــي مثل مـا اوتي موسى ٠) ٨٤

دليل قاطع على أن هذه القصص كانت معروفة عند أهل بيئة النبي صلى الله عليه وسلم من المشركين العرب قبل البعثة .

٨ ــ ومثل هذا يقال في أولى إشارة إلى قصة صالحوثمود وناقتهم
 في سورة الشمس التي هي من السور المبكرة جدا في النزول وهي :

(كذبت تمود بطغواها ، إذ انبعث اشقاها ، فقال لهم رسول الله ناقة الله وسقياها ، فكذبوه فعقروها فدمـدم عليهـم ربهـم بذنبهـم فسواها ،) ١١ ـ ١٥

فالإشارة المقتضبة في سورة مبكرة جداً دليل على أن سامعيالقصة يعرفونها ، وهذه القصة قصة عربية ، ومنازل ثمود وآثارهم في حدود الحجاز الشمالية مما يسمى اليوم مدائن صالح ، ولا محل للريب في أن قصة صالح وقومه وناقته ودمارهم ما القصص التي كان يتداولها أهمل بيئة النبي صلى الله عليه وسلم جيلاً عن جيل . وفي سورة العنكبوت آية تذكرهم بأنهم يعرفون ذلك معرفة مشاهدة وسماع معاً وهى :

(وعاداً وثمود وقد تبيّن لكم من مساكنهم وزين لهـــم الشيطان اعمالهم فصدهم عن السبيل وكانوا مستبصرين .)

9 - ومثل هذا يقال في الإشارات المقتضبة الواردة في آيات سورة ص ١٢ و ١٣ وسورة ق ١٢ - ١٤ والفجر ٦ - ١٤ إلى الأقوام السابقين حيث يصح القول بجزم: إن هذه الاشارات دليل على أن السامعين للقرآن من العرب يسمعون أسماء أقوام يعرفون قصصها قبل أن ينزل القرآن م

١٠ - وفي سورة الأنبياء آية يصح أن تورد في هذا المساق وهي:
 (بل قالوا أضغاث أحلام بل افتراه بل هو شاعر فليأتنا بآية كما أرسل الأوليون ٠) ٥

حيث ينطوي في قولهم الأخير أنهم كانوا يعرفون خبر الرسل السابقين ، وما كان يظهر على أيديهم من آيات ومعجزات .

أما النقطة الثانية ، أي : كون القصص لم ترد في القرآن لذاتها، وإنما وردت للعظة والتذكير والالزام والافحام والتنديد والوعيد والتسلية والتثبيت ، فهو ظاهر في أسلوب جميع القصص القرآنية الذي لم يكن سردآ تاريخياً ، والذي تخلله الوعظ والارشاد والتبشير والانذار بل الذي جاء

سبكه وعظاً وارشاداً وتبشيراً وإنذاراً وتنبيهاً وتذكيراً . ثم في سسياق إيراد القصص ، حيث تورد على الأعم الأغلب عقب التذكير والتنديد والتسلية والتطمين والموعظة وحكاية مواقف الكفار وعنادهم وحجاجهم أو بين يدي ذلك . ثم في تكرار القصص في سور عديدة بأساليب متنوعة ، وصيغ مختلفة بعض الشيء بسبب تنوع وتجدد المواقف النبوية دعوة وحجاجاً وتنديداً وبيانا ، وعظة وتذكيراً ، وإنذاراً وتبشيراً سنين طويلة ، وتجاه فئات مختلفة مما هو مبثوث في مختلف السور وبخاصة المكية ، وقي غنى عن التمثيل مع بروز القاسم المشترك الذي يجمع بين هذه الصيغ، وهو الأسلوب من جهة ، وقصد العظة والتذكير ، والمثل من جهة ، وكون ما جاء فيها مما ليس غريباً كلياً وجزئياً عن السامعين من جهة .

ويلفت نظر القارىء إلى آيات سورة الحج ٤١هـ٢ وآية سورة العنكبوت ٣٨ وآيات سورة الصافات ١٣٨ه١ التي أوردناها قبل ثم إلى آية سورة الانعام هذه:

(ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا واوذوا حتى اتاهم نصرنا ولا مبدل لكلمات الله ولقد جاءك من نبا الرسلين •) ٣٤ • حيث يبدو هذا الهدف صريحاً قاطعاً وماثلا أمامه ، وفي سورة يوسف هذه الآية بعد تفصيل قصة يوسسف وإخوته التي تخللها حكم ومواعظ ، وعبر عديدة:

(لقد كان في قصصهم عبرة لأولى الألبساب ما كان حديثاً يفترى ولكن تصديق الذي بين يديه وهدى ورحمة لقوم يؤمنون ٠)

حيث يبدو الهدف المذكور صريحاً وقاطعاً أيضاً . كما يبدو فيهادليل أو قرينة على النقطة الاولى أيضاً .

واما النقطة الثالثة ، اي : كون القصص من المتشابهات التي تحتمل وجوها عديدة للتأويل أو التي يعجز عقل الانسان عن إدراك سرها وتأويلها ، ويكون منواجب المسلم المحقق أن يكتفي بالقول (آمنا به كل من عند ربنا) قهي ماثلة في كثير من آيات القصص وصيفها المتنوعة التي لا يعيا عن لمحها المتوسطون في الثقافة فضلا عن الرفيعين فيها .

ومن الأمثلة البارزة على ذلك قصة خلق آدم ، فقد ذكرت آية

ألبقرة (٣٠) أن الله سبحانه أراد من خلقه أن يجعله خليفة في الارض ومع ذلك فإنه أسكنه الجنة هو وزوجته ولم يخرجهما منها إلى الارض إلا عقوبة على أكلهما من الشجرة الممنوعة كما جاء في آيات البقرة (٣٥-٣٧) والأعراف (١١-٢٧) وغيرها . وقد ذكرت بعض الآيات أن الله خلقه من تراب (٥٩ آل عمران) وبعضها أنه خلقه من طين (ص ٢٧) وبعضها أنه خلقه من صلصال كالفخار (الرحمن ١٤) وبعضها أنه خلقه من صلصال من حماً مسنون (الحجر ١٨) وخوطب في بعضها الناس جميعهم في معرض خلق الإنسان الأول (الأعراف ١١ والمؤمنون ١٢-١٥ والسجدة ٧-٩) وذكر في بعضها أن الملائكة راجعوا الله ، وجرى حوار بينه وبينهم في صدد خلق آدم ، وأن الله علم آدم الأسماء كلها ، وأمس الملائكة أن يسجدوا له ، فسجدوا إلا إبليس ، فطرده الله ، فطلبإنظاره ، فأنظره ، فآلي على نفسه أن يفوي ذرية آدم (البقرة ٣٠-٣٦ الأعراف فأنظره ، فآلي على نفسه أن يفوي ذرية آدم (البقرة ٣١-٣٦ الأعراف) .

فمما احتوته هذه الآيات ما يتحمل تأويله وجوها عديدة ، ومنسه ما لا بدرك عقل الانسان سره .

- 1 -

ومن الحكم المتبادرة في النقطة الأولى بخاصة أي : في كون قصص القرآن مما كان يعرفه السامعون أن المخاطبين ، يتأثرون بما احتوته الحادثة أو القصة التي تورد عليهم من موعظة أو مثل ، أو تذكير أو زجر وتنبيه ودعوة الى الاعتبار والارعواء والتأسي والتدبر في العاقبة . إذا كانت مما يعرفونه أو يسمعون عنه ، حتى ولو كان في نطاق هذه المعرفة والسماعضيق من حيث التفصيل ، أو عدد الاشخاص العارفين والسامعين . أما إذا لم يكن أحد يعرف ذلك فان الكلام لا يكون مستحكم الالزام والإفحام والتأثير والعبرة ، ولا سيما على مخاطبين كافرين بأصل الدعوة التي يراد التذكير بمواقف الغير والسابقين من مثلها ومصائرهم بسبب هذه المواقف ، أو جاهلين للحادثة التي يراد استخراج العبرة من سيرها وظروفها وعواقبها .

وملاحظة ذلك مع ملاحظة هدف القصص القرآنية ، وكونها لم ترد لذاتها أو للسرد التاريخي ، ومع ملاحظة أن كثيرا من عباراتها يدخل

في وصف المتشابهات التي تحتمل وجوها عديدة للتاويل أو التي يعجز عقل الانسان عن سرها وتأويلها مما شرحناه آنفا ضروري بل واجب على من حسنت نيته من الناظرين في القرآن والراغبين في فهم مداه ، ومن شأن ذلك أن يعصمه من الاستغراق في ماهيات ووقائع ما احتوته القصص التي لم ترد لذاتها ، وأن يغنيه عن التكلف والتجوز والتمحل في التخريج والتأويل والتوفيق ، وأن ينجيه من الحيرة أو التساؤل في صدد تلك الماهيات والوقائع ، وأن يجعله يبقي القرآن في نطاق قدسيته وهدفه من التذكير بالمعروف والارشاد والموعظة والعبرة . ولا يخرج به إلى ساحة البحث في الوقائع ، وما يكون من طبيعته من الأخذ والرد والنقاش والجدل والتشكيك على غير طائل ولا ضرورة . ولا سيما انها ليست من المحكمات والأسس الدينية ، وإنما هي كما قلنا من الوسائل التدعيمية والمتشابهات التي لا ضرورة دينية للاحاطة بوقائعها وماهياتها ومداها ، ولا للتوسع والتزيد فيها في سياق التفسير .

وإذا كان غير واحد من المفسرينالمطولين قد تورطوا في ذلك ، وأوردوا بيانات كثيرة على هامشها ، شابها كثير من الخيال والإغراب والتكلف حتى شغل ذلك الحيز الاكبر من كتبهم ، وصارت القصص نتيجة لذلك قديماً وحديثاً شاغلة الأذهان الناس والمسلمين ، وكادت أن تغطي على أهداف القرآن ومحكماته ، وصارت مثار جدل بسبيل إثباتها وإنكارها وتعليلها ، واستكشاف الحقائق ، والأحداث التاريخية منها حتى تعبرض القرآن للجدل والنقاش بسببها ، فإن القرآن لا يتحمل مسؤوليته ، وإن كان ذلك يدل على أن بيئة النبي صلى الله عليه وسلم كانت تتداول كثيرا من الروايات المتصلة بهذه القصص ، وبالتالي يؤيد ما قلناه من أن أهل هذه البيئة كانوا يعرفون ، ويتداولون الشيء الكثير عنها . وفي القرآن الدليل الناصع القاطع على أن ذلك ليس من أهداف قصصه ، وأن أهداف قصصه هي ما ذكرناه من العظة والعبرة والانذار والتبشير والتسلية والتطمين على ما نبهنا عليه آنفاً ، وعلى ما يستطيع أن يلمحه كل ناظر في القرآن ، ويظل الوقوف منها عندما اقتضت حكمة التنزيل إيحاؤه منها بالأسلوب الذي أوحى به هو الحق الأولى بالقول والتقرير . مسع واجب التنبيه على أن آيات القصص جاءت بأسلوب يجعل ما احتوته من هذه

- 108 -

الأغراض غير قاصر على سامعي القرآن الأول مسرة ، بل شساملا وعاماً ومطلقا على الأعم الأغلب لتكون كذلك بالنسبة للاجيال الانسانية التالية الى ما شاء الله ليجدوا فيها العبرة والعظة والتلقين والتوجيه والتشريع والطمأنينة ، وهو الأسلوب الذي تميز به القرآن ، ورشسحه للخلود والشمول .

ويجنح بعض العلماء والمفسرين إلى القول أو الظن بأن النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن يعلم شيئاً من القصص القرآنية التي كان يوحى بها إليه قبل نزولها ، بل وإلى القول إن جميع معارف النبي صلى الله عليه وسلم ومكتسباته هي من الوحي وحسب ، ولسنا نرى هذا وجيها لا من وجهة نظر الوحي القرآني ، ولا من وجهة نظر النبوة ، ولا من وجهة نظر الوقائع والحقائق ، فالنبي كان يعيش قبل نزول الوحي عليه في بيئة فيها كتابيون يروون مافي كتبهم من قصص ويتداولونها ، وهناك روايات تذكر أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يسمع منهم مافي كتبهم . وفي القرآن إشارة ما إلى ذلك حيث كان المشركون يعرفون اتصاله بهم فنسسبوا ما يقوله إلى تعليمهم ، وقد تضمنتها آية سورة النحل هذه :

(ولقد نعلم انهم يقولوا إنها يعلمه بشر لسان الذي يلحدون إليه اعجمي" وهذا لسان عربي" مبين ٠) ١٠٣

وآية الفرقان هذه:

(وقال الذين كفروا إن هذا إلا إفك افتراه واعانه عليه قوم آخرون فقد حاؤا ظلماً وزوراً ٠) }

والآيات تنفي التعليم والاعانة دون الاتصال ، ولم يكن المشركون يقولون ذلك لو لم يروا اتصاله بهم . وهو ما أيدته روايات عديدة في كتب السيرة والتفسير مع ذكر أسماءلأفراد من أهل الكتاب كانوا في مكة(١) .

⁽۱) اطلع الدكتور محمد أديب الصالح الاستاذ في كلية الشريعة الاسلامية السورية ورئيس تجرير مجلة «حضارة الاسلام» الدمشقية على المخطوطة ، فنبه على أن كلامنا قسد يستغله ذوو القلوب المريضة ، وتمنى عدم فتح الباب لهم ، ونقول أولا : إن ذوي القلوب المريضة من ملحدين ومبشرين لا يجهلون ما ورد في كتب التفسير والسيرة ، ولا تغوتهم مافي القرآن من إشارات ، وثانيا : أنه ليس في كلامنا وفي ما أوردناه من روايات مسايستطيعون أن يستغلوه بحق وصدق في صدد صحة نبوة النبي صلى الله عليه وسلم ، وصحة الوحي القرآني ، وإذا فعلوا فيكون منهم تمحلا متهافتا ، وهم يغعلون سواء أكتبناه

وكأن أهل بيئة النبي صلى الله عليه وسلم برحلون إلى البلادالمجاورة للجزيرة التي كانت بيئات متحضرة وكتابية على الأغلب مثل العراق والشيام ومصر والحشية وحنوب الحزيرة ، وسيمعون من أهلها مختلف الأنباء والأخبار الحاضرة والفابرة ، ويرون فيها مختلف المشاهد الحاضرة والفابرة ، وقد أشير إلى ذلك في بعض آيات قرآنية أوردناها قبل ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم نفسه قد قام ببعض الرحلات في شبابه إلى هذه البلاد ، وسمع ورأى وشاهد ، ورواة العربيروون مايتناقله الأجيال من أخبار وأحداث وقصص عربية ، فليس من المعقول ولا من الطبيعي أن يقال: إن النبي صلى الله عليه وسلم ، كان يجهل هذه القصص كلياً أو جزئياً . وفي ما ذكرناه في صدد قصة يونس دليل بالنسبة للنبي صلى الله عليه وسلم خاصة في الرقم (٦) من شواهد النقطة الأولى ، ومعسر فة النبي صلى الله عليه وسلم لهذه القصص قبل نزول القرآن الكريم لا يمكن أن تتعارض مع وحى الله القرآني بها ، ولا مع نبوة النبي صلى الله عليه وسلم ، لأن الوحى القرآني بالقصص قد استهدف كما قلنا: التمثيل والتذكير والانذار والموعظة والتسلية والتثبيت ولم يستهدف التاريخ والأخبار والسرد والتعريف.

ويتبادر لنا أن ذلك القول أتى من عدم النفوذ إلى مرمى وهدف الوحي بهذه القصص عن حسن نية وليس من تعارض قط بين وحي ما اقتضت

أم لم تكتب رغم ما يكون في ما يغملونه من تمحل وتهافت . وقد رأينا من الحق والاولى أن يبقى جميع ماكتبناه لاننا أردنا أن نضع الامر في صدده في نصابه الحق وأن يكون فيه را وإفحام لكل متمحل متواقع ، وترجوالله أن يكون قد الهمنا الصواب ، وحققنا ما اردنا ، ونتعلم هذا من كتاب الله الكريم ، فهو يسجل كل ما صدر عن الكفار والجاحدين ، صن العرب وغير العرب ، وكتابيين وغير كتابيين في صدد القرآن ، وفي شخص النبي صلسي الله عليه وسئل من تخرضات وأقوال وتهم وسخريةوتحد وتكذيب ونسبة الافتراءوالحنوس والسحر والكهانة والشعر والاقتباس من الاساطير السابقة والتعلم من الغير والاستعانة بهم بدون أي تخرج ، ويرد عليها الردود القوية القارعة المفحمة الملزمة مما مرت شواهده قبل، بلاد الحق الذي يدفع الباطل فاذا هو زاهق ، ولان كتاب الله هو العزيسز الذي لا بأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ، ولان الله اصطفى رسوله ليكون رحمة للعالمين . .

حكمة التنزيل ايحاؤه منها بالأسلوب الذي اوحيت به وبين ما يمكن ويصح ان يكون النبي صلى الله عليه وسلم قد عرفه منها قبل نزول الوحي بما نزل منها . ولقد كان في بيئة النبي صلى الله عليه وسلم تقاليد دينية ، واجتماعية متنوعة ، وكان يجري فيها أحداث متنوعة شساهد النبي بعضها ، وسمع بعضها ، وعاش بعضها ، ولقد ذكر القرآن كثيرا من ذلك ، وليس من احد يدعي او يصح أن يدعي أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن يعرف ذلك قبل بعثته ، وهذا وذاك من باب واحد .

وواضح أن هذا ليس بمخل بقدر النبي صلى الله عليه وسلم وعظمته التي إنما كانت تقوم في الحقيقة على ما امتاز به من عظمة الخلق وقوة العقل ، وصفاء النفس ، وكبر القلب ، وعمق الايمان والاستفراق بالله . ولقد قرر القرآن طبيعة النبي صلى الله عليه وسلم البشرية مما أوردنا نصوصه في مناسبات سابقة ، وهذا متصل بهذه الطبيعة التي من البديهي جدا أن لا تتناقض مع معرفة النبي صلى الله عليه وسلم ما كان متداولا فييئته أو في أي بيئة ونحلة تيسر له الاتصال بأهلها من أقوال وأفكار وأخبار وعقائد وتقاليد وظروف وأحداث حاضرة وغابرة ، بل إن من البديهي جدا أن يكون عارفاً ملماً بكل ذلك غير غافل عنه ، وأن هذا هو المعقول الذي لا يصح في العقل غيره • واننا لنشيعر بالدهشة مما أبداه ويبديه بعض العلماء المسلمين من حرص على توكيد كون النبي صلى الله عليه وسلم لم نكن له معارف مكتسبة . مما لا يتسبق مع المنطق والعقل والبداهة توهماً بأن في هذا مأخذا ما على كون ما بلغه النبي صلى الله عليه وسلم من القرآن الذي فيه الأخبار والقصص السابقة أتى من هذه المعارف ، ونرى في هذا التوهم خطأ أصلياً في فهم معنى ومدى الرسالة النبوية التي هي هداية وارشاد ودعوة والتي لا يعهد بمهمتها العظمي إلا لن يكون أهلا لها في عقله وخلقه وروحه وإيمانه ووعيه وعدم غفلته عما يدور في المجتمع الذي بعث إليه كما ذكرت آية الأنعام :

(الله أعلم حيث يجعل رسالته م) ١٢٤

كما أنه آت فيما يتبادر لنا من عدم ملاحظة كون القرآن نوعمين متميزين أسساً ووسائل .

ومما يورده بعضهم آيات سورة العنككبوت هذه:

(وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذا لارتاب

المطلون ، بل هو آيات بيئات في صدور الذين اوتوا العلم وما يجحد بآياتنا إلا الظالون ،) ٨٤ و ٩٩

التى فيها دلالة على أمية النبي صلى الله عليه وسلم حيث يظنون على ما يبدو أن اكتساب المعارف والاطلاع على ما عند الناس من أخبار وأفكار ، إنما هو حصر على القارىء الكاتب ، وليس هذا صحيحاً دائماً . كما أنه ناشيء من قياس الغائب بالحاضر ، وهو قياس مع الفارق أيضاً ، والآيات والله أعلم بسبيل تقرير كون الدعوة التي يدعو إليها النبي صلى الله عليه وسلم ، وما يبلغه في صددها إنما هو وحى رباني غير مقتبس من كتاب ، وبسبيل تنبيه المشركين الى أنه لا يصح أن يكون عندهم شك في ذلك لأنهم يعرفون أنه لم يكن يقرأ ويكتب ، وأنهم إذا جحدوا آيات الله ألتي يبلغهم إياها النبي صلى الله عليه وسلم الذي اختصه الله بمهمته وبيناته ، فيكونون ظالمين مكابرين ، وأمية المرء لم تكن في وقت من الاوقات مانعة من أن يختزن كثيرا من المعارف والصور والروايات ، والنصوص الطويلة سماعاً ومشاهدة . وهناك من يفوق في ذلك غير الأميين ، وهذا بالاضافة إلى أن الأمية في الزمن القديم ، وفي بيئة النبي كانت هي الفالبة ، ولم يكن هذا ليمنع نبهاء هذه البيئة مين اختزان المعارف والصور والروايات ، والنصوص المحلية والعالمية التي كانوا يشاهدونهاويسمعونها في بيئتهم ، وخارج بيئتهم .

ومما يورد أيضاً للتدليل على أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن ذا نشاط وحركة وتطلع ما قبل نزول الوحي عليه هذه الآيات:

١ - (قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا أدراكم به فقد لبثت فيكم
 عمراً من قبله أفلا تعقلون ٠) يونس: ١٦

٢ - (وما كنت ترجو أن يلقى إليك الكتاب إلا رحمة من ربك ٠)
 القصص : ٨٦

 والآيات قد تفيد شيئاً من ذلك ، ولكنها لا يمكن أن تفيد أن النبي كان غافلا عما يجري ويروى ويتداول في بيئته من أخبار وأحداث وصور ومشاهد حاضرة وغابرة .

- ٣ -

ويشترك الملحدون ، والمبشرون الحاقدون معاً في غمز النبي صلى الله عليه وسلم والقرآن بسبب ما بين بعض القصص القرآنية والأسفار والكتب التي وصلت إلينا والتي كانت على الأغلب متداولة في زمن النبى صلى الله عليه وسلم بين أيدي أهل العلم والكتاب من تطابق ما ، ويقولون: إنها مقتبسة منها ، ولقد قال كفار العرب ذلك في مواجهة النبي صلى الله عليه وسلم ، وحكاه القرآن عنهم بدون أي حرج مؤكدا أن الله الحكيم الذي يعلم السر هو الذي أوحى به وأنزله ، كما ترى في آيات سورة الفرقان هاده:

(وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلا • قل أنزله الذي يعلم السر في السماوات والأرض إنه كان غفوراً رحيماً(١) •) ه و ٦

ونقول رداً على الفامزين المحدثين: إن ما بين القصص القرآنية والأسفار والكتب القديمة من تطابق ليس من شأنه أن يطعن بصحة وحيها الالهي ، لأنها لم تجىء للسرد التاريخي ، وإنما للعظة والعبرة والتذكير ، وليس من تعارض بين هذا وذاك ،بل إن ذلك من الحكمة المتبادرة من إيرادها في القرآن كذلك على ما شرحناه قبل من حيث إن السامعين يتأثرون بما يعرفون . فليس من محل ولا معنى للفمز والنقد كما هيو واضح ، بل إن في الغمز والنقد دليلا على غفلة الفامزين والناقدين عن مدىوهدف الوحي القرآني بالقصص. ولقد غمزوا النبي صلى الله عليه وسلم مدىوهدف الوحي القرآني بالقصص. ولقد غمزوا النبي صلى الله عليه وسلم

⁽۱) حكت آيات أخرى مثل هذا الزعم للكفار وردت عليه ، وقد أوردناه في المسل الاول ، وقد فسر المفسرون كلمة (اكتتبها) بمعنى (استكتبها) لأنه لم يكسن يكتب ، وكلمة (تملى عليه) لأنه لم يكن يقرأ ، وهذا وذاك صحيح وقد قال الكفار ذلك لأنهم يعرفون أنسه لا يقرأ ولايكتب، وهذه الآية أقوى دلالة على أمية النبي من آية الهنكبوت .

والقرآن كذلك ، لأن بعض القصص التي ذكرت في القرآن ووردت أو ورد ذكر أصحابها في الأسفار والكتب التي وصلت إلينا جاءت متباينة زبادة ونقصاً ومشاهد مع ما ورد في القرآن . ومن ذلك مثلا تسخير الجن والريح والطير لسليمان والجبال والطير والحديد لداود، وقصص إبراهيم مع قومه وملكه ، وجزئيات كثيرة في قصص آدم ونوح ويوسف وموسسى وفرعون وبني إسرائيل ويونس وأيوب الغ . وقالوا إن النبي خلط واخطأ فيها ، أو اخترع ما ليس واردا منها في الأسفار والكتب . وهذا القول متهافت والمتمعن فيما جاء في الصيغ القرآنية لا يجد له ضرورة فنية ولا اسلوبية _ ونقول ذلك من قبل المساجلة _ حتى بخترعه النبي صلى الله عليه وسلم ، ويزيد عليه و ينتقص منه ، ولا سبتطيع أحد أن بدعي بصدق أن الأسفار والكتب المتداولة اليوم هي كل ما كان في ايدى أهل العملم والكتاب والأمم الأخرى في زمن النبي وقبله ، وفي اسفار العهد القديم التي وصلت إلينا أسماء أسفار عديدة من جملتها سفر التوراة شريعة موسي لم تصل إلينا . وفي الأناحيل المتداولة اليوم ، وفي الأسفار الملحقة بالأناجيل التي تنعت جميعها باسم (العهد الجديد) ذكر لانجيل عيسى ، ولم يصل إلينا ، وهناك روايات عن اناجيل عديدة اخرى لم تصل إلينا وبين نصوص الأسفار التي وصلت البنا من مجموعتي العهد القديم والعهدد الجددد تضارب وتنساقض وزيسادة ونقص واختلاف مشاهد حيث نفيد هذا أن الذبن كتبوها قد استقوها من مصادر مختلفة ضاعت أو بادت ، ولقد اكتشف في مفارة في جهة البحر الميتأوراق من سفر أشعيا قال الدارسون : إن بينها وبين ما هو متداول معروف من هذا السفر تبايناً . وهذا يعنى أنه كان هناك نسخ عديدة للسهفر الراحد بينها تناقض وتباين ، وكل هذا ما يصح القياس عليه ، وفي القرآن آيات تذكر أن أهل الكتاب كانوا يخفون كثيرا مما في أيديهم ، منها آيسة سورة المائدة هذه:

(يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيرا مما كنتم تخفون من الكتاب ويعفو عن كثير قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين ١٥ م

ومنها آية سورة الأنعام هذه:

وما قدروا الله حق قدره إذ قالوا ما انزل الله على بشر من شيء قل من انزل الكتابالذيجاء به موسى نوراً وهدى للناس تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيراً ٠) ٩١

وفي سورة النمل هذه الآيات:

(إن هذا القرآن يقص على بني إسرائيل أكثر الذي هم فيه يختلفون. وإنه لهدى ورحمة للمؤمنين .) ٧٦ و ٧٧

حيث تفيد أن القرآن قد جاء بما هو الحق والصدق والصحيح . وفي سورة المائدة هذه الآية:

(وانزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه ٠) ٨٤

حيث تفيد أن القرآن متطابق في الأسس والأهداف مع كتب الله السمابقة ، وأنه ضابط لما هو الصحيح من وحي الله ، ومصحح لما يمكن أن يكون وقع في هذه الكتب من تحريف ورقيب عليها .

ولقد كانت هذه الآيات ، وآيات القصص القرآنية تتلى علنا ، ويسمعها أهل الكتاب ولا يمكن أن يكون ما جاء فيها جزافا ، وغير وارد في اسفار وقراطيس في أيدي أناس أو غير مروي على ألسنة أناس ، ثمضاع أو نسي ، ولقد آمن كثيرون منهم قدروا على التغلب على أنانياتهم وأهوائهم ، وأعلنوا صدق القرآن على ما أوردنا شواهده القرآنية قبل ، وليس هناك أية رواية فيها إنكار أهل الكتاب لشيء مما ورد في قصص القرآن ، ولقد حكى القرآن بدون حرج نسبة الكفار إلى النبي صلى الله عليه بافتراء القرآن وكذبه ورد عليهم ، فلو كان صدر شيء من ذلك من أهل الكتاب لحكاه ورده عليهم .

وفي كل هذا حجة لاقناع من يبغي الحق ، ولا يكون موقفه موقف المكابر العنيد الذي جعل إلهه هواه .

- 8 -

ونحن نعرف أن هناك ما يمكن إيراده على النقطة الأولى ، وهي كون القصص مماكان معروفا من النبي صلى الله عليه وسلم والسامعين ، حيث ورد في القرآن آبات قد ببدو أنها تناقض ذلك كما ترى فيما يلى :

١ - (ذلك من انباء الفيب نوحيه إليك وما كنت لديهم إذ يلقون

اقلامهم أيهم يكفـل مريـم وما كنت لديهـم إذ يختصمون(١) ٠) آل عمران: ٤٤

٢ - (تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك
 من قبل هذا فاصبر إن العاقبة للمتقبن (٣) .) هود : ٩٤

٣ ـ (ذلك من أنباء الفيب نوحيه إليك وما كنت لديهم إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون (٢) •) يوسف : ١٠٢

ونقول في صدد ذلك: إن قصتي نوح ويوسف عليهما السلام قد وردتا في سفر التكوين أول أسفار العهد القديم المتداول اليوم ، والذي نعتقد أنه كان متداولا في بيئة النبي صلى الله عليه وسلم ، وجاءتا قريبتين جدا مما وردتا في القرآن ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم ، وأهل بيئته متصلين بالكتابيين ويعرفون أخبار ما عندهم ، وما في كتبهم على ما تفيده آيات عديدة أوردناها قبل ، فليس مما يصح فرضه أن النبي صلى الله عليه وسلم والعرب السامعين أو بعضهم لم يكونوا يعرفون هاتين القصتين .

ولقد أشير إلى نوح وموقف قومه من رسالته إشارات خاطفة في سور مبكرة في النزول بأسلوب يلهم أن قصتهم مما كان معروفاً متداولا من قبل سامعي القرآن مثل سورة النجم (الآية ١٢) وسورة ق (الآية ١٢) وسورة القمر (الآيات ٩-١٥) وسورة ص (الآية ١٢).

ولقد ذكر في سورة نوح أسماء أصنام قوم نوح (ود وسواع ويغوث ويعوق ونسر) وذكرت الروايات أن بعض قبائل عربية في زمن النبي صلى الله عليه وقبله كانوا يعبدون هذه الاصنام ، ويعرفون ويقولون : إنها أصنام قوم نوح ، ولقد وردت قصة نوح مفصلة بعض الشيء في سور

 ⁽۱) هذه الآية من سياق الآيات التي حكت نثر أم مريم مافي بطنها ، وكفالة زكر ساة لمريم وبشارة زكريا يحيي وعناية الله بمريم .

⁽٢) هذه الآية جاءت عقب قصة نوح عليه السلام .

⁽٣) هذه الآية جاءت عقب تفصيل قصة يوسف واخوته .

ترتيبها سابق لسورة هود في النزول مثل سور الأعراف ويونس والقمر ، وليس فيها تنبيه مثل التنبيه الذي احتوته آية سورة هود ، ووردت مفصلة أيضاً في سورة الشعراء والصافات ونسوح والانبياء والمؤمنون والعنكبوت خالية من مثل هذا التنبيه ، وفي أول قصة يوسف في سورة يوسف هذه الآية :

(لقد كان في يوسف وإخوته آيات للسائلين •) ٧

وهذا النص يفيد أن من السامعين العرب من كان يسمع بقصة يوسف ، وأنهم طابوا من النبي تفصيلا لذلك ، فأوحى الله إليه بالقصة كما جاءت في سورة يوسف ، ومتطابقة كثيراً مع ما جاءت في سفرالتكوين المتداول اليوم مع تباين في بعض الجزئيات ، ولا نرى هذا بتناقض أو يتعارض مع احتمال أن يكون النبي صلى الله عليه وسلم يعرف تفصيل هذه القصة في سفر التكوين أو نسخه المختلفة المتعددة التي يمكن أن يكون بينها تباين ، ولم يصل إلينا منها إلا النص المتداول ، وقصة بشارة الملائكة لمريم بعيسى عليهما السلام واردة في الإصحاح الأول من انجيل لوقا المتداول اليوم بما يقرب لما ورد من ذلك في سورتي مريم وآلعمران ، وفي الإصحاح خبر حبل امرأة زكريا بيحيى وهي في شيخوختها بأمر الله وقدرته ، ووصفت بأنها نسيبة مريم ، وهذا يعني أن حياة مريم قبل ولادتها لعيسى ونذر أمها بمافي بطنها ، وكفالة زكريا لها ، والاختلاف على كفالتها ، والاقتراع على ذلك بما عبر عنه القرآن (يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم) كل ذلك مما يمكن أن يكون متداولا في أوساط النصاري في. البيئة النبوية ، ومما يمكن أن يكون قد سمعه وعرفه كلياً أو جزئياً النبي صلى الله عليه وسلم وقومه .

ولقد قال المفسر الخازن تعليقاً على آية سورة هود: إن قصة نوح مشهورة ، وإنه ليس مما يحتمل أن لا تكون معروفة ، وإنه يجب صرف الآية إلى قصد عدم معرفة النبي وقومه جميع تفصيلاتها ، وهذا قول وجيه ، مع إضافة شيء عليه ، وهو عدم معرفة النبي وقومه جميع التفصيلات التي جاءت في سورة هود بخاصة ، لأن مثل ذلك التنبيه لم يرد في سياق القصة في السور الآخرى .

ويصح أن يشمل هذا القول ما جاء في سورة يوسف من تفصيلات في قصة يوسف وإخوته ، وما جاء في سورة آل عمران في قصة مريم أيضاً عيث تكون حكمة التنزيل اقتضت الايحاء بما كان النبي صلى الله عليه وسلم وقومه لا يعرفونه من تفصيل القصص الثلاث ، وننبه على أن هذا اليس من شأنه أن ينفي أن تكون هذه التفصيلات واردة في قراطيسس أو روايات كان يتداولها أهل الكتاب والله أعلم .

وهناك آية أخرى قد تساق أيضاً وهي آية سورة يوسف هذه :

(نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآنوإن كنت من قبله لن الغافلين ٠) ٣

وإزاء ما ذكرناه وشرحناه من حقائق ووقائع لا مناص من تأويل الآية بتأويل لا يتناقض مع ذلك أيضا ، فيقال والله أعلم بتأويله : إن القصد هـو التنبيه على أن النبي صلى الله عليه وسلم كان غافلا عن حقيقة تلقي وحي الله القرآني ، أو عن أمور كثيرة من قصص السابقين .

- 0 -

ويتظارف بعض الأدباء ، ومنهم مسلمون ، فيطلقون على أسلوب القصص القرآنية نعت (الفن القصصي) في القرآن ، ولاندري ماذا يقصدون من ذلك ، فاذا كانوا يعبرون بهذا الوصف عن توهم كون القصص القرآنية حبكت بالخيال والتزويق والافتعال كما هو شأن القصص ، ففي ذلك تجوز وسوء أدب ، لأن القصص القرآنية منزهة من كل ذلك . فقد كانت كما قلنا معروفة مروية متداولة ، فأوحى الله بها بالأسلوب والفحوى اللذين أوحيت بهما لتحقيق هدف الموعظة والتذكير والتمثيل والعبرة والالزام والافحام والانذار والتبشير ، وقد يكون من مقاصدهم بذلك النعت التنويه بروعة الأسلوب الفني الادائي الذي جاءت عليه هذه القصص وما فيها الكلامية في القصص القرآنية ليستا أمراً متميزاً عن روعة الأسلوب والصور الكلامية في سائر مواضيع القرآن وآياته وفصوله ، فكل هذا بارز في كل مواضيع القرآن الاخرى سواء اكانت امثالا أم آيات في مشاهد الكون والخلق ، أم في الخلاق والاجتماع،

أم في الجدل والحجاج ، أم في الانذار والتبشير ، ففي كل ذلك كما في فصول القصص من الصور الكلامية الرائعة والأسلوب الأخاذ ما هو نافذ إلى أعماق القلوب والعقول ، وكل ما جاء في القرآن من ذلك قد هدف إلى هدف وحقق الهدف الذي جاء من أجله .

-7-

هذا ، وقد يسأل سائل عما إذا كانت القصص القرآنية حقائق ووقائع تاريخية في جزئياتها وكلياتها . ومع أن بعض علماء المسلمين قالوا إنه ليس في قصص القرآن ما هو مستحيل عقلا ، أو ما ثبت قطعياً عدم وقوعه أو مما ليس محتملا أن يكون وقائع تاريخية حقيقية ، ومع مافي هذا القول. من سداد ، فاننا نرى الأولى والأفضل أن نكتفي ، ويكتفي المسلم معنا بالقول أن كل مافي القرآن وحي رباني وإنا (آمناً به كل من عند ربنـــا) مع القول أيضاً إنهذه القصص لم يوح بها لتقرر وقائع تاريخية ، وإن. الوقائع المذكورة فيها كانت معروفة عند سامعي القرآن ، أو واردة فسي. كتب وقراطيس ، أو متداولة في روايات شفوية في بيئة النبي صلى الله عليه وسلم ، فاقتضت حكمة التنزيل بأن توحى قرآناً بالأسلوب والفحوى اللذين أوحيت بهما ، وبتكرارها في سور متعددة ، وبصيغ متنوعة لتحقيق. الأهداف المستهدفة منها ، والتي نوهنا بها قبل ، وإنها من الوسائل. والمتشابهات التي لا ضرورة الى استقصاء حقائق جزئياتها ووقائع ما ورد فيها من أحداث ، أو المجادلة أو النقاش والأخذ والرد فيها ، وإن من. الواجب الديني ، بل مقتضى الحق والعقل الوقوف عند ما ذكره القرآن. منها دون تزيد وتكلف وتخمين .

ومن الجدير بالذكر والتذكير أن القرآن لا يحتوي استقصاء لحوادث القصص الواردة فيه ، ولم يكن ما احتواه منها سرداً تقريرياً لوقائعها ، حيث اكتفى بذكر ما اقتضت الحكمة ذكره بالأسلوب والفحوى اللذيان اقتضت هذه الحكمة ، ومناسبات السياق لتحقيق الهدف الذي جاءت من أجله من عظة وتذكير وتمثيل وإنذار وتبشير وتوضيح وتلقين . وهذا واضح ملموح لكل من يمعن النظر فيها ، ولو كان متوسط الثقافة ، وهو ضابط مهم يجب على الناظر في القرآن أن يلتزم به . وفي القرآن ظاهرة مهمة فيها توكيد لذلك واتساق معه ، وهي أن أسلوب القرآن في القصص وهدفه قد اتسقا مع ما وردفيه من ذكر الوقائع الجهادية والمواقف

القضائية والحجاجية وغيرها من أحداث السيرة النبوية ، بحيث ان الناظر في القرآن يجد أن ما ورد فيه من ذلك ، إنما ورد للعظة والتذكير والتنبيه والحث والتحذير والارشاد والتعليم والتسلية والتثبيت والتشريع ، وهذا ظاهر من كون المذكور في القرآن من ذلك لا يحتوي كل الصور والمشاهد والتفصيلات للمواقف والأحداث . وإنما احتوى ما اقتضت الحكمة ذكره منها لتحقيق المقاصد المذكورة . وفي هذا دليل على الانسجام في الأساليب القرآنية ومراميها ، والخروج عن هذا النطاق هو خروج عما يلهمه القرآن من نطاق مرسوم لقصصه ، وتعريض له كما قلنا للنقاش والجدل ، وإخراج له عن هدفه وهو الهدي والموعظة والذكرى ، وهو بعد ليس كتاب تاريخ ، ولا يجوز النظر إليه على هذا الاعتبار .

قصة آدم وإبليس

ونرى أن نشير في هذا السياق الى قصة آدم وإبليس ، وسجود الملائكة لآدم ، وتمرد إبليس الواردة في القرآن ، والتي كانت مما أكثر صادق جلال المعظم فيها إكثاراً فيه تعسف وتمحل ومماحكة وسوء ادب معاً(۱) ، فنقول : إن كل ما أوردناه في مدى وصدد القصص القرآنية وارد بتمامه في مدى وصدد هذه القصة ، وإنها لا تخرج عن خطوط ومظاهر القصص القرآنية الأخرى ، أي من ناحية كونها غير مجهولة من سامعيها قبل نزول القرآن ، ومن ناحية كونها واردة في القدران للعظة والعبرة والتذكير والتمثيل والتحذير والتنديد وحسب ، ثم من ناحية كونها من

⁽۱) ألتى صادق جلال العظم في النادي الثقافي العربي في بيروت في سنة ١٩٦٥ مسع محاضرة بعنوان مأساة إبليس ، وقد أورد نص المحاضرة في كتابه (نقد الفكر الديني) مسع بعض ردود جاءت إليه ، واستغرق ذلك نحو ثلث كتابه ، وقد كنا أرسلنا له ردا ، وقد نشرت المحاضرة والردود في أول الامر في مجلة النادي ، ومن عجيب أمر صادق العظيم أنه ناقش في كتابه وفي المجلة بعض الردود ، ولم يناقش ردنا ، ونعتقد أن ردنا كان مفحمة له ، ولم يجد منفذا منه للماحكة ، ولقد علق الدكتور برهان الدجائي رئيس النادي والمجلة على ردنا في كتاب أرسله البنا قائلا : (ان ردنا يقدم وجهة النظر الرصينية المتعمقة التي تحترم التراث ، وتؤمن به وتجله وتحاكم الامور في الوقت نفسه بميزان العقل والخبيرة البشرية والحكمة الراسخة) وردنا دار في نطاق شرحنا في المتن الذي يقرؤه قارىء الكتاب، ويلمح قوة الالزام فيه .

المتشابهات من جهة ، ومن ناحية كونها من الوسائل التدعيمية للدعوة النبوية من جهة أخرى .

ومن الدلائل الحاسمة على ذلك تكرر القصة مثل معظم القصص القرآنية حيث تكررت في القرآن بأساليب وصيغ مختلفة سبع مرات ، ستا منها في السور المكية ، وهي سورة الاعراف والحجر والإسراءوالكهف وطه وص ، ومرة في سورة البقرة المدنية ، وبينها وبين قصص الاقوام وأنبيائهم السابقين مماثلة من ناحية التكرار ، ومن ناحية الأسلوب والسياق ، حيث جاءت مقتضبة حينا ومسهية حينا ، وفي كل مرة جاءت في سياق التنديد بالكفار ومواقفهم وتمردهم كما كان ذلك شأن القصص الأخرى ، وقد ربطت بين موقف إبليس واستحقاقه لغضب الله بسبب تمرده ، وبين مواقفهم وتمردهم ، وأسلوبها وعظي ، وليس سردا قصصيا .

وهذا هو شأن القصص الأخرى في القرآن ، ولمح ذلك سهل على القارىء المتوسط ، والمصحف في متناول الجميع ، فلم نر حاجة إلى ايراد صيغ القصة .

وكلمة إبليس هي من جذر (أبلس) بمعنى يئس (١) ، وقد جاء هذا الجذر في آيات عديدة منها آية سورة الروم هذه:

(ويوم تقوم الساعة يبلس المجرمون 0) ١٣

وسورة الزخرف هذه :

(إن المجرمين في عذاب جهناً خالدون ٠ لا يفتر عنهم وهـم فيـه مبلسون ٠) ٤٧ و ٥٧

والكلمة نعت ذم ، ولا شك في أنها كانت مستعملة قبل نزول القرآن بهذا المعنى ، وبالتالي إن العرب كانوا يفهمون دلالتها ، وهي اليائس من رحمة الله ، وأنهم كانوا يعرفون أن إليس كان علماً على من يوسوس

⁽۱) بعضهم يقول: انها معربة من اليونانية (ديابلوس) ونحن نعتقد العكس أي: ان اليونانية مأخوذة من العربية وما دام في القرآن جغر فصيح لها فلا يصح أن يغرض أنها غيس عربية ، وصيغتها صيغة عربية وعلى كل حال فلا محل للمراء في أنها كانت مستعملة قبسل نزول القرآن في لسان العرب للدلالة على الشخصية التي تطلق عليها ، لأن القرآن نيزل بلسان عربى مين ٠٠٠

للناس ، ويفريهم بالكفر والمنكرات ، ويصرفهم عن الله والمكرمات ، وأنه مطرود ملعون من الله (١) . وقصة خلق آدم وزوجته وخروجهما من الجنة بإغراء الحية من قصص سفر التكوين أول أسفار العهد القديسم المتداول اليوم نسخة منه ، والذي نعتقد أنه كان متداولاً في بيئة النبي صلى ألله عليه وسلم ، وكان ما فيه من قصص معروفاً في أوساط هـذه البيئة ، وفي الاصحاح (٢٠) من سفر رؤيا القديس يوحنا من أسفار العهد الجديد المتداول اليوم ، والذي كان على ما نعتقد متداولاً في زمن النبي صلى الله عليه وسلم وبيئته أن الحية القديمة هي إبليس ، أي : أن أهل الكتاب كانوا يتداولون أن الذي أغرى آدم وزوجتــه ، وكان سبباً في طردهما من الجنة وهبوطهما إلى الأرض هو إبليس ، ويجوز أن يكونهذا وارداً في قراطيس وأسفار أخرى ، بل يجوز أن يكون وارداً في نسخة من نسخ سفر التكوين لم تصل إلينا ، وفي صيغة القصة في سورة الأعراف (الإصحاحان الثاني والثالث) تطابق غير يسير . وكل هذا يسوغ القول: إن سامعي القرآن من العرب ، كانوا بعر فون القصة قبل نزوله ، وإذاكان هناك نقاط لم ترد في القرآن ووردت في السفر أو لم ترد في السفر ووردت في القرآن فالذي نعتقده ، أن ما ورد في القرآن ، كان هو المتدااول ، أو كان متداولاً . وهكذا تكون القصة من ناحيتها كقصص القرآن جاءت للعظة والتذكير بأمر كان معروفاً من السامعين ، فكان ذلك من حكمة إبرادها حتى بتأثر بذلك سامعوا القرآن من العرب .

والمتمعن في صيغ القصة يجد العظة والتذكير والتحذير هو المقصود الرئيسي فيها ، ولقد وجه الخطاب في معظمها إلى الناس ، وإلى بني آدم بصورة عامة ، ومما استهدفته القصة كذلك تسلية النبسي صلى الله عليه وسلم والمسلمين ، فالذين لا يستجيبون إلى الدعوة هم ذوو النيات

⁽۱) كان معظم العرب مشركين يؤمنون بوجود الله ، ويشركون معه في العبادة والاتجاه آخرى هم على الاغلب الملائكة على اعتبار أنهم بنات الله ، وعلى سبيل الاستشفاع. بهم عنده والتقرب بهم اليه على ما شرحناه قبل وأوردنا شواهده .

الخبيثة ، والقلوب المريضة المنكرون المتعالون الذين يجب إبليس فيهم مجالا واستعداداً للوسوسة والإغراء ، ومصيرهم جميعاً النار ، والطريق مسدود أمام إبليس بالنسبةلذوي النيات الحسنة والرغبةالصادقة في الحق والهدى الذين يستجيبون إلى دعوة الله ، ورسالة رسوله ، وهذا مما تمثل فيما جاء في أكثر الصيغ ،

(قال ربّ بما أغويتني لأزينن لهم في الأرض ولأغوينهم أجمعين • الا عبادك منهم المخلصين • قال هذا صراط علي مستقيم • إن عبادي ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين • وإن جهنه لموعدهم أجمعين • لها سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم • إن المتقين في جنات وعيون • أدخلوها بسلام آمنين (١) الحجر : ٣٩ ـ ٢٤

ولعل مما يندمج في أهداف القصة وأسلوبها أمرين مهمين بالنسبة إلى عقائد العرب في الملائكة ، فقد كانوا يعتقدون أنهم بنات الله ، ويعبدونهم أو يشركونهم في الدعاء مع الله ليكونوا شفعاء لهم عنده ، وفي أذهانهم صورة فخمة عنهم ، فأريد بذلك أولا: توجيه العرب الذين للملائكة في أذهانهم هذه الصورة إلى الاحتذاء بهم في طاعة أمر الله ، واستجابة الدعوة التي دعاهم بها رسوله .

ثانيا: تفهيم العرب أن الملائكة الذين يعبد ونهم ويشركونهم مع الله ليسبوا إلا عبيداً له يسجدون بأمره لمن خلقه من طين استغراقاً في الخضوع له ، وأن من كان هذا شأنه ، لا يجوز اتخاذه إلها أو شريكاً مع الله ، واعتقاد القدرة فيه على النفع والضرر والمنح والمنع ، وفي القرآن آيات عديدة فيها حكاية تنصل الملائكة من الذين يعبدونهم ، وتقرير بخضوعهم لله وعبوديتهم له وحده كما ترى في هذه الآيات التي فيها في الوقت نفسه تنديد بالمشركين ، وإنذار بما سوف يكون من أمرهم يوم القيامة ، وكيف يتنصل منهم الملائكة بقصد حملهم على الارعواء:

⁽۱) جاء ذلك في الصيغ الأخرى أيضا . انظر آيات البقرة ٣٨ و ٣٩ والأعراف ١٦ _ ٢٧ >والاسراء ٢٠ ـ ٦٥ وص ٧١ ــ ٨٥

ا ـ (ولله يسجد مافي السماوات وما في الأرض من داتبة والملائكة
 وهم لا يستكبرون • يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون ما يؤمسرون •)
 النحل : ٩ ؟ و . ٥

٢ - (وقالوا اتخذ الرحمن ولداً سبحانه بل عباد مكرمون • لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون • يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يشفعون إلا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون • ومن يقل منهم إني إله من دونه فذلك نجزيه جهناً كذلك نجزي الظالمين •) الانبياء : ٢٥ - ٢٦

٣ ـ (ويوم يحشرهم وما يعبدون من دون الله فيقول أأنتم أضللتم عبادي هؤلاء أم هم ضلّوا السبيل . قالوا سبحانك ما كان ينبغي لنا أن نتخذ من دونك من أولياء ولكن متعتهم وآباءهم حتى نسوا الذكر وكانوا قوماً بوراً . فقد كذبوكم بما تقولون فماتستطيعون صرفاً ولا نصراً ومسن يظلم منكم نذقه عذاباً كبيراً .) الفرقان : ١٧ ـ ١٩

إ ويوم يحشرهم جميعاً ثم يقول للملائكة أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون • قالوا سبحانك أنت وليننا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون •) سبأ : . } و ١ }

ه ـ (وكم من ملك في السماوات لا تفني شفاعتهم شيئاً إلا من بعد أن يأذن الله لن يشاء ويرضى •) النجم : ٢٦

٦ - (یا ایها الذین آمنوا قوا انفسکم واهلیکم ناراً وقودها الناس والحجارة علیها ملائکة غلاظ شداد لا یعصون الله ما امرهم ویفعلون ما یؤمرون ٠) التحریم : ٦

كذلك فإن المتمعن في آيات صيغ القصة السبع يجد أنها تحتمل وجوها عديدة للتأويل ، وأن فيها ما لا يعلم تأويله إلا الله ، ولا يدرك سره العقل البشري ، وبكلمة أخرى يظهر له أنها من المتشابهات التي أوجب القرآن الوقوف منها عندما اقتضت حكمة التنزيل إيحاءه منها بالأسلوب الذي جاءت عليه لتحقيق الهدف الذي استهدفته دون تورط في التخمين

والتزيد والتكلف والاستنتاج ، واستكناه الماهيات ، والاستنباط الموضوعي على غير طائل ولا ضرورة من دين وعلم . بحيث يكون الخروج عن هذا النطاق خروجاً عن نطاق الضابط القرآني ، والهدف القرآني ، ودخولا في متاهات التأويل التي حذر القرآن ورسول الله منه .

وإذا كان المفسرون قد أوردوا بحسن نية بيانات كثيرة على هامش صيغ القصة في صدد خلق آدم وزوجته ، والجنة والملائكة ، وإبليس وهويته وذريته وطرده ، وخروج آدم وزوجته من الجنة وما كان في الكون قبلهما من خلق ، وما جرى من حوار بين الله والملائكة ، وبينهم وبين إبليس ، وبينهم وبين آدم الخ الخ شيبت بكثير من الإغراب والخيال والمبالغة كما فعلوا بحسن نية أيضاً مثل ذلك على هامش القصص القرآنية والمبالغة كما فعلوا بحسن نية أيضاً مثل ذلك على هامش القصص القرآنية الأخرى ، فإن كتاب الله ورسوله لا يتحملان مسؤوليته ، وإن كان فيهدلالة على أن هذه القصة كانت متداولة مع كثير من الحواشي والزوائد في عصر النبي صلى الله عليه وسلم وبيئته .

والجواب الذي أوردناه في بحث القصص القرآنية على سؤال قد يرد عما إذا كانت القصص حقائق ووقائع يورد هنا أيضاً ، فكل ما جاء في القرآن من هذه القصة وحي رباني ، وإننا نقول وينبغي على كل مسلم أن يقول : (آمنا به كلّ من عند ربنا) مع القول : إن القصة مما كان معروفا عند السامعين ، وإن ما ورد في القرآن في صددها وبصيغها المتعددة ، قد استهدف في الدرجة الأولى تدعيم الرسالة المحمدية والعبرة والعظة ،وإنه من المتشابهات التي يجب الوقوف منها عندما اقتضت حكمة التنزيل إيحاءه بالأسلوب الذي جاء به لتحقيق الهدف الذي جاء من أجله، والذي شرحنا ما هو الملموح منه دون تزيد ولا تكلف لاضرورة لهما ولا طائل من ورائهما ، وليس من ضرورة دينية لاستكناه كنهه الذي حصر الله علم ورائهما ، وليس من ضرورة دينية لاستكناه كنهه الذي حصر الله علم تأويله في نفسه كما جاء في آية سورة آل عمران .

ولقد احتوت محاضرة صادق العظم التي أشرنا إليها قبل ذلك ، والتي جعلتنا نستطرد إلى ذكر هذه القصة كثيراً من التمحل والتعسف والسفسطة عن عمد وقصد دون اعتبار بما هو واضح من صيغ القصة من أهداف العظة والعبرة.

ومن محصل ما قاله: إن إبليس الذي كان كبير الملائكة (١) ، قــد. وجد نفسه أمام أمر وواجب ، فالله يأمره بالسجود لغيره ، والله أوجب

(١) لم يرد في القرآن أن ابليس كان كبير الملائكة ، وقد يكون بعض المفسرين أوردوا ذلك ، ولكن ليس هناك حديث نبوي وثيق يؤيده ، وهو تخميني واجتهادي من القائلين ، وقد يكونون استنبطوه من كون الآيات تذكر أن أمر الله بالسجود كان للملائكة فقط ، غير أن في القرآن تقريرا صريحا لهوية ابليس ، وكونه من الجن كما جاء في صيف...ة سورة. الكهف : (وإذ قلنا للملاتكة اسجدوا لادم فسجدوا إلا ابليس كان من الجن ففسق عن أموا ربه افتتخنونه ونديته أولياء من دوني وهم لكم عدو بئس للظالين بدلا . .) ولقد روي عن ابن عباس أن الجن هؤلاء طائفة من الملائكة غير أن الرواية غير وثيقة وغير مقبولة ،ونستبعد. أن يكون ابن عباس قال ذلك ، لأن في القرآن آية جمعت الملائكة والجن كجنسين مختلفين، كما جاء في آيات سورة سبأ ٣٠ و ٣١ التي اوردناها قبل قليل ، وفي القرآن آيات تذكــر أن الله خلق الجان من نار ، منها آبات سورة الحجر هذه : (ولقد خلقنا الإنسان منصلصال. من حما مسئون . والجان خلقناه من قبل من نار السموم) ٢٦و٧٧ و َيات سورةالرحمن هذه (ولقدخلق الانسان من صلصال كالفخار وخلق الجان من مارج من نار .) ؟ اوه اثم فيه حكاية لقول الليس . أنه خلق من نار بينما خلق آدم من طين كما جاء في آية سورة الاعراف هذه . (أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين .)١٣ وتكرر ذلك في آية سورة ص ٧٦ اما لماذا اعتبر ابليس نفسه مأمورا بالسجود مع أنه من غير الملائكة الموجه اليهمالامر ، فهذا من المتشابهات . التي يوقف منها عندما وقف عندها القرآن فضلا عن أن آيات جميع الصيغ هيي ميين. المتشابهات ، ومع ذلك يمكن القول : أن ذكر الملائكة فقط هو من قبيل التخصيص مسع ارادة التعميم ، وهذا أسلوب من أساليب القرآن ، ومن الامثلة عليه آية سورة طه هذه: (وأمر اهلك بالصلاة واصطبر عليها .) ١٣٢ ، والكلام موجه في السياق الى النبي صلى الله عليه وسلم وليس معقو لاأن يكون مقصود الآية أن يكون أمر النبي صلى الله عليه وسلم بالصلاة لإهله فقط ، وهوا لمأمور بأن يأمر جميع الناس بالصلاة، ويمكن ابراد أمثلة كثيرة، هذا وفي حين أن قول صادق العظم (أن ابليس كبير الملائكة) يقتضي أن يكون من رأيه أنه مــن الملائكة ، فأنه نزولا على تقرير القرآن قال في مكان آخر : أن معدن ابليس الناري هو غير معدن الملائكة ، فكان ذلك سبب اختلاف موقفه عن موقفهم! وفي حين أن العظم يوهم في مناقشته للقصــة. موضوعيا أنه مؤمن بها ٤ فانه يعلن في مكان آخر عدم ايمانه بها وكونها أسطورة وحسب ، وهذا من عجيب مفارقاته ٠٠٠٠

ولقد حكى القرآن سجود أبوي يوسف وإخوته ليوسف في سورة يوسف (ورفع أبويه على العرش وخروا له سجداً وقاليا أبت هذا تأويل رؤياى من قبل قد جعلها ربى حقاً ٠) ١٠٠

ولا يمكن لأي كان أن يزعم أن سجودهم ليوسف كان سجود عبادة ، وتعامى العظم كذلك عما في القرآن من قول الله له إنه في عدم سجوده متكبر مستعل كما جاء في صيفة سورة الأعراف:

(قال فاهبط منها فما يكون لك أن تتكبر فيها فاخرج إنك من الصاغرين ٠) ١٣ وكما جاء في صيفة سورة ض

و قال يا إبليس ما منعك ان تسجد لما خلقت بيديءً استكبرت ام كنت من العالين .) ٧٥

ولم يحك القرآن أن إبليس أعتذر بأنه لا يجوز أن يسجد لفير الله ،

ولكنه حكى قوله جواباً على السؤال الوارد في صيغة سورة ص (قال أنا" خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين ٠) تـم تعامى عما قرره القرآن. من اعتبار الله سبحانه إبليس بعدم سجودة متمرداً عليه ، واستحقاقه من أجل ذلك الطرد واللعنة المخلدة ، والنار مع من يتبعه كما جاء في صيفة -الأعراف (قال اخرج منها مذؤماً مدحوراً لمن تبعك منهم لأملان جهنم منكم. **اجمعين •) ١٨ ، وفي صيغة الحجر (قال فاخرج منها فإنك رجيم •** وإن" عليك اللعنة إلى يوم الدين •) ٢٤ و ٢٥ ، وفي صيفة سورة ص(قال فاخرج منها فإنك رجيم . وإن عليك لعنتي إلى يوم الدين .) ٧٧ و ٨٨ و (قال فالحق والحق أقول • لأملأنجهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين • •) ٨٤ و ٨٥، وهو ملزم بهذا كما قلنا إلزاماً لافكاك له منه ، لأنه بنطلق من العبارة القرآنية للقصة التي لم ترد بعباراتها وأسلوبها ومداها في غير القرآن ، وتعامى صادق العظم كذلك تعامياً عجيباً عن أن القرآن يدور جملة وتفصيلاً في الدرجة الأولى على الدعوة إلى عبادة الله وحده ، ومحاربة كل أنواع الشرك ، وعبادة غير الله ، والسجود لغير الله بأي. صورة وتأويل وعمل ، وعن أن الله يتنزه ، والحالة هذه عـن أن يأمــر الملائكة بالسبجود لآدم سجود عبادة ، وتعامى عن كون إطاعة الملائكة لأمــر الله بالسجود لآدم سجود عبادة تجعلهم مشركين ، وهمم الذين ينزههم القرآن عن ذلك ، ويقرر أنهم دائموا العبادة والتسبيح والتقديس لله وحده، وتعامى عن كونه بدعواه يقف موقفا فيه كل السخف إذ يحمل إلليس أشد حرصاً على التمسك بواجب توحيد الله من الله نفسه ، ويحعله مؤمناً موحداً ضحى بنفسه ببطولة مأساوية ـ على حد تعبير سخيف لهـ فى سبيل عقيد ته رغما عن نصوص القرآن التى تصف إبليس بالكافر المتكبر المتمرد المتعالى على الله وأمره المستحق بذلك لغضب الله ولعنته والخلود في ناره ، وتفافل أو غفل عما انطوى في القصة في صيفها المتكررة وسياق هذه الصيغ من أهداف العبرة والتذكير والموعظة التي تبدو للناظر بدون حاجة إلى نباهة كبيرة ، وكونها هي المقصودة الجوهرية من قصة يعرفها السامعون ، ويعرفون مداها قبل نزول القرآن ، وعن كون آيات الصيغ

إذا ما عرضت كلها في نظرة واحدة شاملة من المتشابهات التي تتحمل وجوها عديدة للتأويل ، والتي فيها ما لايدرك تأويله عقل الانسان ، وليست من المحكمات ...

ويقتبس صادق العظم اقوالا لبعض المفسرين والمؤلفين المسلمين عن إبليس وتمرده ، ومحاورات مفروضة وتخيلية بينه وبين الله ، وبينه وبين موسى ، وبينه وبين بعض المؤلفين ، ويقارن بين موقف إبليس وآدم ، وقصة إبليس وابتلاء إبراهيم بذبح ابنه ، وبين هذه القصص ، وبين بعض قصص فيها مواقف محرجة ، أو مآس متناقضة . ولكن كل هذا جزاف لا يتحمل القرآن مسؤوليته ، ومما قاله في صدد ذلك حتى لكأنه يناقش قصة يعتقد بها أنه ليس معتقداً بها أصلا : يتكون جوهر الكبرياء المأساوية من رفض البطل لأن يبقى سلبياً في وجه ما يعتبره تحدياً لواجبه ومنزلته وكرامته حتى لو كان يعلم أن هذا التحدي هو جزء من مصيره وأن كبرياءه سينتهي به إلى الدمار واليأس والموت ، وهكذا انتهى أوديب (بطل قصة شكسبير) وهكذا انتهت انتيجونا (بطلة قصة أخرى) ، وهكذا انتهى إبليس

أما آدم فلم يعرف هذا النوع من الكبرياء على الإطلاق ، ولو كان مقدراً له أن يكون شخصية مأساوية لما قال (ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكو تن من الخاسرين :) الأعراف : ٢٣ حيث نستنتج اذن أن كبرياء إبليس لم تكن ناتجة عن عجر فة فارغة ، ولا عن تطاول على معبوده ، بل كانت كبرياء مأساوية دفعته لأن يلجأ إلى الله من قضاء الله عليه ، ولم يغير إبليس موقفه من ربه حتى بعد أن أصبح طريداً ولعينا) . وأقل ما يوصف به هذا الكلام بالنسبة لقصة آدم وإبليس إزاء الله تعالى هو هراء وكلام فارغ مادام في القرآن الذي ينطلق العظم من نصوصه ذلك الحسم الصريح الذي يخرج إبليس به من نطاق زعم المأساة والتضحية بالنفس ، وبطولة العقيدة وكرامة الواجب . والعظم يبدىء ويعيد في موضوع المشيئة والإرادة الربانية ، وكون إبليس غير مستطيع الخروجمن

نطاقهما ، فكان في ذلك مأساته أيضاً على حد زعم وتعبير سخيف آخر له. (لأن الله لو شاء لإبليس ـ وهذا من أقوال العظم ـ أن يسجد لآدم لسجد ، ولو شاء للملائكة أن لايسجدوا لما سجدوا ، ولو شاء لآدم أن لا يقع في إغراء إبليس لما وقع ، ولكنه لم يشأ أن لا يقع آدم في الإغراء ، وشاء أن يقع فوقع ، ولم يشأ أن يسجد إبليس فلم يسجد في حين أنه لم يشأ أن يعصي الملائكة فلم يعصوا ، وهكذا ذهب إبليس ضحية تناقض الله تعالى وتنزه عن ذلك ـ الذي أمره بشيء أو أراد منه شيئاً ولم يشأ أن يفعله ، فلم يستطع أن يفعله بطبيعة الحال) . ولم يكتف بهذا الكلام الجدلي يفعله ، فلم يستطع أن يفعله بطبيعة الحال) . ولم يكتف بهذا الكلام الجدلي السفسطي ، بل أتبعه بتعبير بذيء متهافت حيث قال (إن إبليس واجه الرب وهو يناقض نفسه بصورة مباشرة مفضوحة ـ كبرت كلمة تخرج منه الرب وهو يناقض نفسه بصورة مباشرة مفضوحة ـ كبرت كلمة تخرج منه حوده أعظم تقديس للذات الإلهية ، وأكبر مثل على التمسك بحقيقة التوحيد . . .) .

وتعامى وهو ينفث هذا الهراء والبذاءة عما في القرآن من تقريرات محكمة بأن الله أوجد في خلقه العقلاء قابلية التمييز بين الخير والشر ، والهدى والضلال ، والحق والباطل ، والطاعة والعصيان ، وقابلية الاختيار بين ذلك ، ورتب عليهم نتائج تمييزهم واختيارهم مما تمثل في آيات كثيرة مبثوثة في مختلف سور القرآن ، وهذه الآيات تفيد أن ذلك مطلق لجميع خلق الله العاقلين بما فيهم الملائكة وإبليس والجن ، وتغافل عن كون الأمر قد وجه للملائكة وإبليس ضمنا ، وعاقبه الله على تمرده ، لأنه لم يسجد ، وأن الملائكة اختاروا الطاعة ، وأن إبليس تكبر وعصى ، وأن ذلك كان باختياره ، فاستحق لعنة الله وناره ، ولا يصح أن يستخرج من كون الله لو شاء أن يستجد إبليس لآدم لسجد ، وما استطاع أن يمتنع أن الله لم يشأ ذلك مادام قد أمر به ، والتأويل الأوجه هو أن الله لم يشأ أن يقسر إبليس على السجود بفرض مشيئته بذلك عليه فرضا ، بل تركههو والملائكة لاختيارهم ، فاستجاب الملائكة باختيارهم طاعة وإذعانيا ، وعصى هو باختياره ، كاستجاب الملائكة باختيارهم طاعة وإذعانيا ، وعصى هو باختياره تكبرا وانفة ، ومن تقريرات القرآن المحكمة أن الله تعالى لايكلف

نفساً إلا وسعها ، فلا يصح أن يفرض أن الله امرهم بالسجود إلا مع فرض أنهم قادرون على فعله باختيارهم ، وقد غفل العظم عن آيات قرآنية عديدة فيها تأييد لذلك منها هذه الآيات :

١ - (ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعاً افائت تكرهالناس
 حتى يكونوا مؤمنين ٠) يونس : ٩٩ .

٢ - (أفلم ييأس الذين آمنوا أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعاً ٠) الرعد : ٣١

٣ - (ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها ولكن حق القول منيلاً ملأن جهناً من الجنة والناس اجمعين ٠) السجدة : ١٣

مما يعني أن الله تركهم لاختيارهم ، ولم يشأ أن يقسرهم ويجبرهم حتى بنال كل منهم جزاءه وفق اختياره ، وفي القرآن آبات حكت احتجاج الكفار المشركين بمثل الحجة التي يسوقها العظم ، وردت عليهم بما فيه حسم لهذه النقطة أيضاً مما غفل عنه العظم كذلك . كما ترى في هذه الآسات:

ا - (سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا إن تتبعون إلا الظن وإن أنتم إلا تخرصون . قل فلله الحجة البالغة فلو شاء لهداكم أجمعين ٠) الأنمام : ١٤٨ و ١٤٩ قل فلله الحجة البالغة فلو شاء لهداكم أجمعين ٠) الأنمام : ١٤٨ و ١٤٩

٢ - (وقال الذين أشركوا لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء نحن ولا آباؤنا ولا حرمنا من دونه من شيء كذلك فعل الذين من قبلهم فهل على الرسل إلا البلاغ المبين ٠) النحل : ٣٥

٣ - (وقالوا لو شاء الرحمن ما عبدناهم مالهم بذلك من علم إن هم إلا يخرصون ٠) الزخرف: ٢٠

وفي القرآن آيات أخرى يمكن أن تساق في هذا المساق كما ترى فيما يسلسي:

۱ ــ (اتبع ما اوحي إليك من ربك لا إله إلا هو واعرض عن المشركين و ولو شاء الله ما اشركوا وما جملناك عليهم حفيظاً وما انت عليهم بوكيل ١٠ الانمام : ١٠٦ و ١٠٠٧

٢ - (وكذلك جعلنا لكل نبي" عدوا سياطين الإنس والجن يوحي بعضهم إلى بعض 'زخرف القول غرورا ولو شاء ربك مافعلوه فنرهم وما يفترون . ولتصفى إليه افئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة وليرضوه وليقترفوا ما هم مقترفون .) الانعام : ١١٢ - ١١٤

حيث تنطوي على تقرير كون الله قادراً على منعهم لو شاء ولكنه تركهم لاختيارهم . ويتحجج صادق العظم فيما في آيات سورتي الاعراف والحجر من حكاية لقول إبليس خطاباً لله تعالى:

ا _ (قال فيما اغويتني لاقعدن لهم صراطك المستقيم • ثم لاتينهم من بين ايديهم ومن خلفهم وعن ايمانهم وعن شمائلهم ولا تجد اكثرهم شاكرين •) الأعراف : ١٦ و ١٧

٢ ـ (قال رب بما اغويتني لأزينن لهـم في الأرض والأغوينهم. الحجر : ٣٩

لتسبويغ كون ما وقع على إبليس كان من إغواء الله ، تنزه الله عسن ذلك ، والعبارة هي حكاية لقول إبليس ، وليس فيها إقرار لهذا القول ، وقد جاء بعد هذه الآيات الآيات التالية :

١ - (قال اخرج منها منؤماً مدحوراً لن تبعك منهم لأملان جهناً منكم اجمعين ٠) الأعراف : ١٨

٢ - (قال هذا صراط علي مستقيم ، إن عبادي ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبصك من الغاوين ، وإن جهنسم لوعدهم اجمعين ،) الحجر : . ٤ - ٢ }

وكلام إبليس المحكي من نوع ما تحجج به المشركون ، وحكته آيات سور الانعام والنحل والزخرف ، وقعد رد" القرآن عليهم ، ولم يقرهم عليسه .

وقد تساق آیات قرآنیة قد تفید أن الناس لا یشاؤون إلا ما شاء الله کما تری فیما یلی:

ا ـ (کلا إنه تذکرة ، فهن شاء ذکره ، وما يذکرون إلا ان يشساء الله هو أهل التقوى وأهل المففرة ،) المدثر : $3 \circ - 7 \circ$

٢ ـ (إن هذه تذكرة فهن شاء اتخذ إلى ربه سبيلاً • وما تشاؤون إلا أن يشاء الله إن الله كان عليماً حكيماً •) الإنسان : ٢٩ و ٣٠

 Υ – (إن هو إلا ذكر للعالمين • لمن شاء منكـم أن يستقيـم • وما تشاؤون إلا أن يشاء الله ربّ العالمين •) التكوير : Υ – Υ

غير أن هناك آيات تنسب المشيئة إلى الإنسان مطلقاً بدون استدراك كما ترى فيما يلى :

١ ــ (وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفسر ٠)
 الكهف : ٢٩

٢ - (إن هذه تذكرة فهن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا ٠) المزمل : ١٩
 ٣ - (كلا والقمر ٠ والليسل إذ ادبر ٠ والصبح إذا أسفر ٠ إنها لإحدى الكبر ٠ نذيراً للبشر ٠ لن شاء منكم أن يتقدم أو يتأخر ٠ كل نفس بما كسبت رهيئة ٠) المدثر : ٣٣ - ٣٨

إنها تذكرة • فمن شاء ذكره • في صحف مكرمة • مرفوعة مطهرة • بايدي سفرة • كرام بررة • قتل الإنسان ما اكفره •) عبس ٢ مطهرة • بايدي سفرة • كرام بررة • قتل الإنسان ما اكفره •) عبس ٢ ا - ١١

حيث يصح القول إن تنوع الأساليب مما اقتضته حكمة التنزيل والسياق ، ولقد جاء بعد آيات سورة الإنسان ٢٩ و ٣٠ هذه الآية :

(يدخل من يشاء في رحمته والظالين أعد لهم عذابا اليما .)

حيث ينطوي فيها تقرير كون الذين لا يتخذون إلى ربهم سبيلاً هم الظالمون وحسب ، وفي الآية الاخيرة (٥٦) من سورة المدثر شيء من هذا المعنى ، فينبغي أن يعتبر هذا ضابطاً مزيلاً لإشكال ذلك التسوع، ومن

الجدير بالذكر أنه فضلا عما في آيات الكهف ٢٩ والمزمل ٢٩ والمدثر ٢٣ -٣٨ وعبس ١١ ــ ١٧ من نسبة المشيئة إلى الانسان بدون استدراك ، فإن المتمعن في سياق آيات المدثر ٤٥ ـ ٥٦ والإنسان ٢٩ و ٣٠ ، والتكويسر ٢٧ - ٢٩ التي فيها استدراك ، بل وان المتمعن في كل سياق قرآني بصورة عامة للمح أن القرآن لنسب الأفعال إلى أصحابها ، وترتب نتائجها عليهم حسبها ، وأنه يأمر الناس بالاستجابة إلى دعوة رسول الله ، وبالإيمان بالله وحده والعمل الصالح ، وتقوى الله ، والتزام أوامره ، واحتناب نواهيه ، وينهاهم عن الكفر والشرك والمنكرات والموبقات ، ويبشر المستجيبين ، ويندر المتمردين ، فلا يصح مع هذه الظاهرة القرآنية العامة المنبئة في كل سور القرآن ، والمتسقة مع الحقيقة المحكمة الكبرى في إرسال الله الرسل للناس لدعوتهم وإنذارهم وتبشيرهم ، وفي أنه لايكلف نفساً إلا وسعها ، وفي أنه يعلم أن الاستجابة ، وعدم الاستجابة من قابليات الناس التي أودعها فيهم أن يفرض الله تعالى ما يتعارض مع حكمته وعلمه، ومع أوامره ونواهيه وتكاليفه وإنذاره وتبشيره ووعده ووعيده أو يشاء منع استجابة الناس للعوة رسوله ، واهتدائهم بهدى قرآنيه والتزام أوامره ، واجتناب نواهيه ، ويكون مافي تلك الآيات القليلة من استدراك لم يكن في آيات مماثلة من نوع المتشابهات أو الأسلوبيات وليس من نوع التقريريات المحكمات ، ومما يؤيد هذا آيات سورة الأنعام ١٤٨ و ١٤٩ والنحل ٣٥ والزخرف ٢٠ التي أوردناها قبل قليل التبي تحكي احتجاج المشركين بأنهم لو شاء الله ما أشركوا ، ولا حرموا من شيء ، وما عبدوا غير الله ، وترد عليهم وتكذبهم وتنذرهم ، فلو كان شركهم وتحريمهم وعبادتهم بمشيئة الله سبحانه لما كان هذا الرد والتكذيب والإنذار وفسى سورة الزمر آية مهمة في هذا الباب وهي:

(إن تكفروا فإن الله غني عنكم ولا يرضى لعباده الكفر وإن تشكروا يرضه لكم ولا تزروازرة وزر اخرى ثم إلى ربكم مرجعكم فينبئكم بما كنتم تعملون إنه عليم بذات الصدور ،) ٧

ويتنزه الله سبحانه عن أن يشاء مالايرضاه ، فإذا ماجاء في آية منا ماقد يبدو فيه تعارض ، فلا يصح أن يعتبر ذلك ناقضاً للظاهرة القرآنية. الفالبة .

وفي سورة ابراهيم آية مهمة في هذا الباب وهي: (يثبت الله الذين، آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ويضل الله الظالمين ويفعل الله ما يشاء •) ٢٧ ونص الشطر الأكبر الأول في الآية مفسر لمدى الجملة الأخيرة منها ، فالله يفعل ما يشاء حقا ، ولكنه يرتب ذلك حسب سلوك وكسب الناس ، فالذين آمنوا وحسنت رغباتهم وإخلاصهم يثبتهم بالقول الثابت والذين ظلموا فأشركوا وفسقوا واقترفوا المنكرات يضلهم ولا يوفقهم ، وهكذا لا يبقى في العبارة القرآنية إشكال ، وفي القرآن آيات عديدة من بابها. سوف نوردها ، وننبه على مداها في نبذة آتية .

وقد يسأل صادق العظم وأمثاله للماحكة ، وقد يسأل مسلم للتعلم، عما إذا كان يصح أن يقع من الناس مالايشاء الله ، والجواب على هذا أن. الله قد فطر الناس على قابلية التمييز والاختيار ، وهذه هي مشيئته الأصلية ، فالناس إذا استعملوا قابلياتهم في التمييز والاختيار ، يكونون. قد فعلوا ذلك بمشيئة الله الأصلية ، وبهذا يكون التوفيق ، ولا يبقى محل ولا حاجة إلى ذلك السؤال .

ويقف العظم عندما جاء في بعض صيغ القصة من أمر خلق آدم من. طين ، ونفخ الروح فيه ، ويورد أقوالاً لمفسرين لا تخرج عن كونها تخمينات واجتهادات شخصية ، لا يتحمل القرآن مسؤوليتها ، ويحاول أن يستخرج من ذلك تقريرات قرآنية لبدء خلق الإنسان الأول مباشرة ليبرز ما فيها من مباينة لما عرف من حقائق أو نظريات علمية وفنية أخرى . في حين أن المتمعن في الصيغ جميعها إذا ما استعرضها في سلسلة واحدة يجدها مختلفة حسب مقاماتها ، ويجدها مما تتحمل تأويلات عديدة ، وليست بسبيل تقريرات محددة عن الخلق ، والخطاب فيها موجه إلى السامعين بما يتسق مع ما يعرفونه من القصة ، ومع مافي أذهانهم ومشاهداتهم ومعارفهم عن الخلق والتكوين ، ونواميس الله فيهما ، ويلمح بكل قوة قصد

التذكير والعظة والإنذار ، وبيان عظمة الله وقدرته أي قصد تدعيم الدعوة وحسب ، وهو اسلوب القرآن وهدفه في القصص ، وفيما جاء فيه من آيات عن خلق الكون ومشاهده ونواميسه ، ويظهر كل هذا بوضوحتام حينما يقرأ القارىء سياق الصيغ وآيات الكون ومشاهده .

ولقد سبق آيات صيفة البقرة للقصة مثلاً هذه الآيات :

(وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح ونقدس لك قال إني أعلم ملا تعلمون وعلم آدمالأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبؤني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين ، قالوا سبحانك لاعلم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم ، قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال الم افي اعلم إني اعلم غيب السماوات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون ، ٢٠ – ٣٣

حيث انطوى فيها بيان هدف حكمة الله في اختصاص آدم وبنيسه بالعقل والعلم والسلطان في الأرض ، اما الحوار ، وتعليم آدم الأسماء كلها، فكل ذلك من المتشابهات التي يأمر القرآن بعدم التسورط في تخمينها واستكناهها ، والتي لاضرورة دينية إلى التوقف عندها ، ويكفي أن يستشف منها تلك الحكمة .

وقد سبق صيفة سورة الأعراف مثلاً هذه الآيات :

(ولقد مكناكم في الأرض وجعلنا لكم فيها معايش قليلاً ما تشكرون. ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم ١٠ و ١١ و ١١

حيث يبدو أن هدف تنبيه بني آدم إلى نعمة الله عليهم هو الرئيسي في القصة وسياقها ، وفي كل صيغة من الصيغ يبدو هدف العبرة والعظة والتنبيه هو الرئيسي حتى الصيغ التي فيها خلق الإنسان الأول من طين في سياق القصة لم تكن تقصد تقرير ماهية هذا الخلق وكيفيته ، وإنماهي بالدرجة الأولى بقصد التنبيه والعظة كما يبدو واضحاً حينما يقرأ القارىء هذه الصيغ وما قبلها وما بعدها .

ومن الجدير بالذكر أن في القرآن آيات فيها إشارات إلى خلق الإنسان من طين بدون ذكر آدم حيث يبدو من هذا أن ذكر خلق آدم من طين في سياق القصة لم يكن هدفها الجوهري ، ويبدو من هذه الآيات أيضا أن الهدف الرئيسي هو التنب والعظة كما ترى في آيات سورة المؤمنون التي سبقها آيات فيها تنويه بالمؤمنين الصالحين وتبشير لهم ولحقها آيات فيها تذكير بنعمة الله على بنى آدم السامعين .

(ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين . ثم جعلناه نطفة في قرار مكين . ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاماً فكسونا العظام لحماً ثم انشاناه خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين . ثم إنكم بعد ذلك لميتون . ثم إنكم يوم القيامة تبعثون .) ١٢ - ١٢

حيث يصح القول: إن الآيات تذكر السامعين بما يعرفونه من مراحل خلق الإنسان كوسيلة لتذكيرهم وإنذارهم ، وهذا ملموح في آيات مماثلة جاءت في سورة السجدة وهي:

(ألم تنزيل الكتاب لاريب فيه من رب العالمين ، أم يقولون افتراه بل هو الحق من ربك لتنذر قوماً ما أتاهم من نذير من قبلك لعلهم يهتدون، الله الذي خلق السماوات والأرض وما بينهما في سسنة أيام ثم اسستوى على العرش مالكم من دونه من ولي ولا شفيع أفلا تتذكرون ، يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج إليه في يوم كان مقداره ألف سسنة مها تعندون ، ذلك عالم الفيب والشهادة العزيز الرحيم ، الذي أحسن كل شيء خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين ، ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين ، ثم سواه ونفخ فيه من روحه وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلا ما تشكرون ،) ١ – ٩

وكل هذا يوجب على من حسنت نيته ، ولم يردالماحكة والتمحل ولو كان ملحداً أن يلتزم بما حدده القرآن والنبي من ضوابط ، وهي عدم التورط والتمحل في تأويل الآيات المتشابهات والتزيد في صددها ، لأن ذلك لم يكن من مقاصدها ومراميها التي هي العظة والتمثيل والعبرة والتنبيه والتذكير .

ويستطرد صادق العظم إلى مافي القرآن من إشارات إلى إغراءات إلىسب وتزيينه للناس بإذن الله وما يترتب على ذلك ، ويذكر معه الشيطان المرادف له (۱) ، ويحاول أن يجعل ذلك من المسائل القرآنية الكبرى ، ويصورها على أنها شغلت الحيز الأكبر في عقائه المسلمين وأعمالهم وحركاتهم ونشاطهم ، وأن يبرزمافي ذلك حسب زعمه من ثغرات وتناقض وتعارض ، ولا يتورع عن إساءة الأدب نحو الله تعالى فيقول في بعض مواضع كتابه : (إن الله قد سلط إلميس والشيطان على الإنسان ، وأمره

(١) القرآن يرادف بين إبليس والشيطان حتى يبدو الواحد بديلا عن الآخر على ما تفيده آيات عديدة منها آيات قصة آدم وإبليس في البقرة : (وإذ قلنا للملائكة اسجدوا الادم فسجدوا إلا إبليس أبي واستكبر وكان من الكافرين . وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منهارغدا حيث شئتما ولا تقرباهذه الشبجرة فتكونامن الظالمين فأزلهما الشبيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه ٠٠) ومثل ذلك في آيات القصة في سورة الأعراف حيث جاءت هذه الآية بعلم ذكر تمرد إبليس عن السجود ، (فوسوس لهما الشيطان ليبدي لهما ما وورى عنهما من سوآتهما) ثم هذه الآية : (يا بني آدم لا يفتننكم الشبيطان كما أخرج أبويكم من الجنة ٠٠) ـ وكلمة الشبيطان في اللغة العربية بمعنى : العاتي الباغي ، وبالتالي أنها نعت ذم ، ولا شك في أن العرب كانوا يفهمون دلالتها هذه قبل نزول القرآن ، ولقد تكرر ذكر الشبيطان كثيراً في القرآن في صدد بيان تزيينه للناس الشهوات والكفر والانحراف وإغوائهم وإضلالهم مما يسوغ القول: إن ذلك أيضاً مما كان مستقرآ عنه في أذهان السامعين ، وفي سورة الصافات هذه الآيات : (أذلك خير 'نزلا أم شبجرة الزقوم . إنا جعلناها فتنة للظالمين . إنها شبجرة تخرج في أصل الجحيم . طلعها كأنه رؤوس الشياطين . .) حيث يفيد هذا أن أهل بيئة النبي صلى الله عليه وسلم كانوا يتصورون الشيطان في صورة رهيبة ومنظر مخيف ، وبالتالي حيث يؤيد هذا ما قلناه من أن فكرة الشبيطان ودوره الاغرائي كرديف لإبليس مما كان مستقراً في أذهان سامعي القرآن قبل نزوله ، وهذا ما يفسر ما جاء في القرآن من كثرة الآيات التي فيها ذكر للشيطان ، فالتنزيل القرآني متصل من ناحية ما بما كانت عليه بيئة النبي صلى الله عليه وسلم على ما شرحناه في نبذة سابقة ، ونبهنا على وجوب ملاحظة ذلك ، لأن ذلك يعصم الناظر في القرآن من التورط في التخمين والتزيد .

بالإيمان به ، وعدم إطاعة الشيطان في حين قدر عليه الوقوع في شبكته ، فلم يكن له مناص من ذلك ، فذهب بدوره ضحية تناقض الله ومكره ، كبرت كلمة تخرج من فيه . هذا في حين أن هذه المسألة أنضاً من المسائل المتشابهة في القرآن التي تتحمل آياتها تأويلات عديدة والتي قد لا يدرك مداها عقل الإنسان ، والتي لا يجوز أن تفطى على ما في القرآن من محكمات يوضع بها الأمر في نصابه الحق ، وفيها في الوقت نفسه تدعيه للدعوة النبوية ، وإذا كان حقاً في القرآن آيات فيها ذكر لتسلط إبليس والشيطان، بل ولتسليطهما من الله فإن في سياق هذه الآيات ما يفيد بجزم أن ذلك هو بالنسبة للمنحرفين الآثمين الكافرين الفاسقين دون عباد الله الصالحين المؤمنين المستقيمين ، فضلاً عما فيه من آيات فيها تحذير من اتباع الشيطان وآيات فيها حكاية تنصل الشيطان من الذين يغويهم بسبيل التحدير والتنبه أيضاً ، ولا يصح أن يكون هذا إلا مع فرض جازم بأن الله تعالى يعلم أنهم قادرون على الحذر والنجاة منه ، ولا يصح أن يفرض أن الله يقول هذا ثم يجعل الشيطان قادراً على نقضه ، وفيما يلى آيات فيها كل ماذكرناه بحيث يظهر فيها الحق واضحاً ، ويظهر كون زعم العظم جزافاً متهافقاً . وقد أكثرنا من الآيات لأن العظم كمــا قلتها يحاول ان يصور هذه المسألة من المسائل القرآنية والإسلامية الكبرى التي فيها ثفرات ومآخذ:

ا س (يا أيها الناس كلوا مما في الأرض حلالا طيباً ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين . إنما يأمركم بالسوء والفحشاء وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون .) البقرة : ١٦٨ و ١٦٩

٢ - (إن الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان إنما استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا ولقد عفا الله عنههم إنه غفرو حليم .)
 آل عمران: ١٥٥

٣ - (إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه فلا تخافوهم وخافون إن
 كنتم مؤمنين ٠) آل عمران : ١٧٥

٤ ـ (يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالاً بميداً •) النساء : ٦٠

٥ – (الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت فقاتلوا أولياء الشيطان إن كيد الشيطان كان ضعيفا ٠)
 النساء: ٧٦

7 - إن يدعون من دونه إلا إناثاً وإن يدعون إلا شيطاناً مريداً ، لعنه الله وقال لاتخذن من عبادك نصيباً مفروضاً ، ولأضلنتهم ولأمنينتهم ولامرتهم فليبتكن آذان الأنعام ولآمرتهم فليغيرن خلق الله ومسن يتخذ الشيطان ولياً من دون الله فقد خسر خسراناً مبيناً ، يعدهم ويمنيهم وما يعدهم الشيطان إلا غروراً ، اولئك مأواهم جهنم ولا يجدون عنها محيصاً ، والذين آمنوا وعملوا الصالحات سندخلهم جنات تجري مسن تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً وعد الله حقاً ومن أصدق من الله قيلاً ،) النساء: ١١٧ - ١٢٢

٧ ــ (إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والمسدكم عــن ذكر الله وعـن الصلاة فهل أنتم منتهون ٠)
 المائدة: ٩١.

٨ - (يا بني آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوء آتهما إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون ٠) الأعراف: ٢٧

٩ ـ (وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه سميع عليم ٠
 إن الذين أتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون ٠
 وإخوانهم يمدونهم في الغي ثم لا يقصرون ٠) الأعراف : ٢٠٠ - ٢٠٠

ا ـ (وقال الشيطان لما قضي الأمر إن الله وعدكم وعد الحـق ووعدتكم فأخلفتكم وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم

لي فلا تلوموني ولوموا أنفسكم ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخسي إني كفرت بما أشركتمون من قبل إن الظالمين لهم عذاب أليم • وادخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها بإذن ربهم تحيتهم فيها سلام •) ابراهيم : ٢٢ و ٢٣

11 - (قال ربّ بما أغويتني لأزينن لهسم في الأرض ولأغوينهم أجمعين • إلا عبادك منهم المخلصين • قال هذا صراط على مستقيم • إن عبادي ليس عليهم سلطان إلا من اتبعك من الفاوين • وإن جهنسم لمؤعدهم أجمعين •) الحجر : ٣٩ - ١ }

17 - (تالله لقد أرسلنا إلى أمم من قبلك فز"ين لهم الشيطان أعمالهم فهو وليتُهم اليوم ولهم عذاب اليم . وما أنزلنا عليك الكتاب إلا لتبين لهم الذي اختلفوا فيه وهدى ورحمة لقوم يؤمنون .) النحل : ٢٣ و ٦٤

۱۳ - (إن المبنرين كانوا إخوان الشياطين وكان الشيطان لربه كفوراً ٠) الإسراء : ٧٢

14 - (قال اذهب فمن تبعك منهمفإن جهنم جزاؤكم جزاء موفوراً واستفزز من استطعت منهم بصوتك وأجلب عليهم بخيلك ورجالك وشاركهم في الأموال والأولاد وعدهم وما يعدهم الشيطان إلا غروراً وإن عبادي ليس لك عليهم سلطان وكفي بربك وكيلاً و) الاسراء: ٣٠ - ٥٠

10 - (وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني وهملكم عدو بئس للظالمين بدلاً .) الكهف : . . .

17 - (فوربك لنحشر "نهم والشياطين ثم لنحضر "نهم حول جهنـــم جثيئاً ٠) مريم : ٦٨

17 ـ (الم ترانا ارسلنا الشياطين على الكافريــن تؤزّهم أزّا فلا تعجل عليهم إنما نعد لهم عداً ٠) مريم : ٨٣ و ٨٤

۱۸ ـ (وقل رب اعوذ بك من همزات الشياطين ، واعوذ بك رب ان يحضرون ،) المؤمنون : ۹۷ و ۹۸

19 - (يا ايها الذين آمنوا لاتتبعوا خطوات الشيطان ومن يتبع خطوات الشيطان فإنه يامر بالفحشاء والمنكر ولولا فضلالله عليكمورحمته مازكى منكم من أحداً أبداً ولكن الله يزكي من يشاء والله سميع عليم ٠) النور: ٢١

٢٠ ــ (لقد أضلني عن الذكر بعد إذ جاءني وكان الشيطان للانسان خدولا ٠) الفرقان : ٢٩

۲۱ ـ (هل انبئكم على من تنزل الشياطين . تنزل على كل افاك أثيم . يلقون السمع واكثرهم كاذبون .) الشعراء : ۲۲۱ و ۲۲۲

۲۲ ـ (وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل تتبع ما وجدنا عليه آباءنا أو لو كان الشيطان يدعوهم إلى عذاب السعير •) لقمان : ٢١

٢٣ ــ (ولقد صدق عليهم إبليس ظنته فاتبعوه إلا فريقاً من المؤمنين .
 وما كان له عليهم من سلطان إلا لنعلم من يؤمن بالآخرة ممن هو منها في
 شك وربك على كل شيء حفيظ .) سبأ : ٢٠ و ٢١

٢٤ ـ (إن الشيطان لكم عدو" فاتخذوه عدواً إنما يدعو حزيه ليكونوا من أصحاب السعير ٠) فاطر : ٦

70 - (الم اعهد إليكم يا بني آدم ألا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين . وأن اعبدوني هذا صراط مستقيم . ولقد أضل منكم جبلا كثيراً افلم تكونوا تعقلون .) يس : . ٦ - ٦٣

٢٦ ـ (ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطاناً فهو له قرين ٠
 وإنهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون ٠ حتى إذا جاءنا قال
 ياليت بينى وبينك بعند الشرقين فبئس القرين ٠) الزخر ف : ٣٦ ـ٣٨

۲۷ ــ (إن الذين ارتدوا على ادبارهم من بعد ما تبتين لهــم الهدى الشيطان سول لهم واملى لهم ٠) محمد : ٢٥

۲۸ - (استحوذ عليهم الشيطان فانساهم ذكر الله أولئك حزب الشيطان ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون ٠) المجادلة: ١٩

٢٩ ـ (كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر فلما كفر قال إني بريء
 منك إني أخاف الله رب العالمين • فكان عاقبتهما أنهما في النار خالدين فيها
 وذلك جزاء الظالمين •) الحشر : ١٦ و ١٧

وقد تقصدنا إيراد الآيات على كثرتها لتكون ماثلة أمام القارىءلتفهم مدى السألة على ضوء شروحنا الآتية ، وليس ما أوردناه هو كل مافي القرآن من ذلك ، حيث ورد فيه آيات كثيرة أخرى من بابها .

وواضح منها أن الشيطان الذي هو رديف إبليس كان يشغل في أذهان السامعين حيراً كبيراً على اعتبار أنه مزين للشهوات منفر منفو، وصلة التنزيل القرآني بالبيئة النبوية وثيقة ، وملاحظة هذا ضرورية وواجبة لفهم مدى الآيات القرآنية كما أن ملاحظة كون ماجاء في الآيات في صدد دور الشيطان الذي له ذلك الحيز في اذهان السامعين هو بسبيل التحذير والتنبيه ، بل وكونه قد هدف إلى إزالة الظن المستقر في اذهان الناس بتأثير الشيطان عليهم تأثيراً فعالا ، وتهوين دوره ، وتطمين المؤمنين الناس بخاصة بأنهم محصنون من ذلك _ وكل هذا مما تضمنته الآيات _ واجبة وضرورية أيضاً وحينئذ يصبح إبقاء المسألة في هذا النطاق لازما واجزافاً وفي غير محله .

ولقد كان للشيطان ودوره حيئر في اذهان الكتابيين وغيرهم من غير العرب في زمن النبي صلى الله عليه وسلم وقبله ، وفي غير بيئته أيضاً ، ولقد امتد أثر ذلك وما يزال ، فيكون التلقين القرآني في كل ما تقدم إنسانياً أيضاً ، وهذا من معجزات وشمول القرآن .

ولقد ذكر في إحدى آيات سورة يوسف النفس الامارة بالسوء (وما ابرىء نفسي إن النفس لامارة بالسوء •) ٥٣ وفي إحدى آيات سورة القيامة النفساللوامة : (لا اقسم بيوم القيامة ولا اقسم بالنفساللوامة) او٢ وكل منها يعني مايتفاعل في النفس الإنسانية من وساوس وحوافز ودوافع ورواسب وتجاذب ، ولقد يتبادر إلى بعض الاذهان أن دور الشيطان المذكور في القرآن هو رمز لذلك بتمبير كان هو الوارد القائم في اذهان الناس إذ ذاك ، غير أن من الاولى أن يقول المسلم (آمنا به كل من عند ربنا) مع واجب الوقوف عند ذلك ، واستشفاف الحكمة منه ، والحكمة الملموحة هي ما شرحناه ، ونعتقد أن في ذلك كفاية ومقنعا ووضعاً للأمر في نصابه الحق بالنسبة لمن حسنت نيته ، وعزف عس الماحكة والماراة .

والعظم وهو يثير هذه المسألة يغفل أولاً عن ضابط قرآني مهم متصل بهدفه التحذيري المتمثل في تقرير كون المؤمنين الصالحين المتقين المخلصين خارجين عن نطاق سلطان إبليس ورديف الشيطان ، وكون المنحر فين والمشركين والفاسقين والظالمين والمجرمين هم الذين يستجيبون إلى وساوسه ، ويقعون في حبائله ، وبعبارة اخرى إن القرآن قد اصطنع السلوب المقارنة لتطمين الصالحين المؤمنين المتقين ، ودمنغ المنحر فين الآثمين الكافرين بأنهم أتباع الشياطين ، وهذا يستتبع دمغهم بالانحراف موضوعيا دينا وخلقا ، فصاروا إخوان الشياطين ومن حزبهم ، وصار الشياطين أولياءهم من دون الله ، ويغفل عما هو ظاهر من هدف الآيات التدهيمي للدعوة ، وإنذار الكفسار والمجرمين ، وتطمين المؤمنين المتقين وتبشيرهم ، ونفي خوف تأثير وساوس الشيطان منهم ، وبالتالي تخليصهم

من عقدته التي كانت عقدة إنسانية عامة ، ويغفل عن كون سياق الآيات صريح الدلالة على أن كفر الناس وضلالهم ، وتسلط إبليس ورديف الشيطان ، أو تسليطه كان نتيجة خبث طواياهم وتعمدهم الانحراف ، وإصرارهم عليه . ويغفل عما في القرآن من حقيقة كبرى متمثلة في إرسال الله الرسل لدعوة الناس ، وبيان الطريق القويم لهم ، وانذارهم وتبشيرهم وهدايتهم ، ومتمثلة كذلك في آيات محكمة كثيرة أخرى متسقة مع هذه الحقيقة أو مؤكدة لها بأن الله أودع في الناس قابلية التمييز والاختيار ، فصاروا مسؤولين عما يغعلونه ويختارونه مثل هذه الآيات :

1 - (إنا خلقنا الإنسان من نطفة امشاج نبتليه فجعلناه سميعة بصيراً • إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً • إنا اعتدنا للكافرين سلاسل واغلالا وسعيراً • إنالأبرار يشربون من كاس كان مزاجها كافورا •) الإنسان : ٢ - ٥

 $\gamma = (1 - 1)$ الم تجعل له عينين γ ولساناً وشفتين γ وهديناه النجديسن γ

٣ ــ (ونفس وما ستّواها ، فالهمها فجورها وتقواها ، قد أفلح مسن زكاها ، وقد خاب من دستّاها ،) الشمس : ٧ ــ ١٠

ويغفل عما في القرآن من آيات محكمة تقرر أن الله قد خلق الناس اليبتليهم (يختبرهم) أيهم أحسن عملا كما جاء في الآيات التالية:

١ - (وهو الذي جعلكم خلائف الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم فيما آتاكم إن ربك سريع العقاب وإنه لغفور رحيم ٠)
 الإنعام : ١٦٥

٢ ــ (وهو الذي خلق السماوات والارض في ستة ايام وكان عرشه
 على الماء ليبلوكم ايكم أحسن عملاً •) هود : ٧

٣ ـ (إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا ٠) الكهف : ٧

؟ - (الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم ايكم أحسن عملا) اللك: ٢ .

فازاء هذه التقريرات المحكمة لايصح أن يوقف إزاء بعض عبارات قابلة لتأويلات عديدة ليستخرج منها ما يناقض قابلية الإنسان التي ودعها الله فيه للتمييز والاختيار ، ومع ذلك فإن من يقرأ سياق هذه العبارات يجد أن الأفعال فيه تنسب إلى الناس على اعتبار أنها كسبهم وصنعهم ، وترتب النتائج عليهم وفقها كما ذكرنا قبل . وهذا فضلا عما في القرآ من مئات الآيات التي تذكر مباشرة الناس لأفعالهم وكسبهم وصنعهم لها ، وترتب النتائج عليهم وفق ذلك .

وبعد فإذا كان يحلو لصادق العظم أن يعلن إلحاده ، وعدم إيمانه بالله والنبي والقرآن ، وأن يقول: إنه أورد ما أورده في كتابه (نقد الفكر الديني) على سبيل الدراسة ، ونقد الفكر الديني عند المسلمين وحسب ، فإنه ملزم _ ونقول هذا لكل ملحد على شاكلته _ ما دام ستند في دراسته ونقده إلى القرآن ، وهو الدكتور في الفلسفة والمفروض فيه صدق الرغبة في البحث والتحرى والتروى والاستنتاج الصادق ، وعدم المجاز فةوالمفامرة، وإلقاء الكلام على عواهنه ، وعدم الماحكة اللفظية أن تكون أكثر تروياً وأناة ، وأقل سخفا وبذاءة ، وأن ستوعب القرآن من كــل حوانيه ، ويربط بعضه ببعض ، ويفسر بعضه ببعض ، وأن لا يعمد كما يفعل سخفاء المشرين إلى الماحكات الكلامية بقصد إظهار التناقض ، والثغرات في القرآن وعقائد المسلمين ، وفي أسس الدين الإسلامي ، ولو فعل ذلك حقاً وصدقاً ورغبة في الحق ودون قصد للمماحكة والتمحل ، لتبين له الحق في صدد القرآن ، ولما سجل ما سجله على تفسيه من التعسف والمجازفة والسخف وسوء الأدب حتى ولا الإلحاد . وإلحاده لا سبوغ له أخلاقيا وعلميا ذلك التعسف والمجازفة والتمحل ، وعدم استيعاب القرآن، واعتباره كلا متكاملا يتمم بعضه بعضا ، ويفسر بعضه بعضا ، ويوضع بعضه بعضاً ويقرر أن فيه نوعين متميزين من الآبات هما آبات محكمات ها أ الكتاب وأخر متشابهات _ وهن اللاتي تتعدد وجوه تأويلها ، ويعيا فهمها وتأويلها على العقول أو بعضها _ ويقرر أن الذي يقف عند المتشابه دون المحكم ، ويتبعه هو الذي في قلبه زيغ ، ويقصد الفتنة في سوء التأويل ، والعلم والفلسفة اللذان يجب الاتسام بهما يوجبان عليه ذلك من حيث إنه أمام مدونة أو وثيقة بقطع النظر عن تقديس مئات الملايين لها من واجب أن يكون في بحثها و فحصها أمينا متروياً ملماً لجميع جوانبها ، ملتزماً بما وضعته من ضوابط .

ولصادق العظم مواقف تعسفية وتمحلات عديدة أخرى في صدد بعض العبارات القرآنية سوف تلم بها ، ونضع الأمر فيها في نصابه الحق في مناسبة آتية .

سادساً: الملائكة في القوآن

مما يجب ملاحظته أن ما ورد في القرآن في صدد الملائكة لم يكن هـو الآخر غريباً على السامعين حيث كان في أذهانهم صور متنوعة عنه أولا . وأنه من وسائل التدعيم للدعوة وأهدافها ثانياً .

وأنه من المتشابهات التي يجب التزام الضابط القرآني في النظر إليها والوقوف منها عندما اقتضت حكمة التنزيل إيحاءه بالأسلوب الذي أوحيت به لتحقيق الهدف الذي استهدفته ثالثاً شأن القصص القرآنيية .

وهذا بقطع النظر عن أن عقيدة وجود عناصر خفية خيرة يرجيبرها ومساعدتها ولها عند الإله الأعظم حظوة ، وتقوم بتبليغ وتنفيذ أوآمره ، ويتقرب إليها للاستشفاع بها ، وطلب العون منها كانت قدراً مشتركا بين العرب المشركين وغيرهم من الملل والنحل والأجناس الأخرى من كتابية وغير كتابية ممتدة الجذور إلى أمد سحيق في القدم ووارد خبرها في الأسفار والنقوش . والملائكة جمع (ملك) وهي من جذر (الك) العربي بمعنى أرسل على ما يذكره المفسرون واللغويون ، والكلمة والحالة هذه بمعنى رسول ورسل ، وما دام القرآن نزل بلسان عربي مبين ، فيكون العرب قد استعملوا هذه الكلمة قبل نزول القرآن في معنى كون الملائكة ببلغون دسالات

الله تعالى ، ويقومون بخدماتهم ويشفعون لديه وهذا مما كان في أذهانهم عنهم على ما يستفاد من النصوص القرآنية .

والبعض يقول: إنها عبرانية دخيلة على العربية ، ويمكن أن يورد على هذا أن العبرانية والعربية من أصل واحد والتشارك بين اللغتين في الأسماء والأفعال والمصادر واسع جداً ، وليس من الضروري أن تكون الكلمة دخيلة إلا إذا فقد من العربية ما يمكن أن يكون أصلا لها ، وما دام هناك جدر عربي فصيح لها ، فالأوجه أن تعتبر عربية فصحى ، وعلى كل حال فإنها كانت عند نزول القرآن جزءاً من اللسان العربي .

ولقد ورد في القرآن في صدد الملائكة آيات كثيرة في معرض الحوار أو بيان عقيدة العرب فيهم . منها الأمثلة التالية :

١ - (وقالوا لولا أنزل عليه ملك ولو أنزلنا ملكاً لقضي الأمسر ثسم
 لا ينظرون ٠) الأنعام : ٨

٣ - (ذلك مما أوحى إليك ربك من الحكمة ولا تجعل مع الله إلها آخر فتلقى في جهنم ملوماً مدحوراً أفاصفاكم ربكم بالبنين واتخذ مسن الملائكة إناثاً إنكم لتقولون قولا عظيماً (١) ٠) الإسراء ٢٩ و ٠٠

٤ - (قل ادعوا الذين زعمتم من دونه فلا يملكون كشف الفشر
 عنكم ولا تحويلاً ، أولئك الذين يدعون يبتقون إلى ربهم الوسيلة أيهم

⁽۱) كانوا يعتقدون أن الملائكة بنات الله ويتعبدون لهم استشفاعا بهم لديه فتصدت الآيات لتبكيتهم ، فهم يفضلون البنين على البنات ثم ينسبون الى الله مالا يشتهون لانفسهم مع أنه من المقتضى أن يكون له الافضل الاحسن ٠٠

اقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه إن عذاب ربك كان محذوراً (١) .) الإسراء: ٥٦ و ٥٧

ه - (يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفداً . ونسوق المجرمين إلى جهنم ورداً . لا يملكون الشفاعة إلا من اتخذ عند الرحمن عهداً . وقالوا اتخذ الرحمن ولدا . لقد جئتم شيئاً إذاً (٢) .) مريم : ٥٥ - ٨٩

٦ - (يومئذ لا تنفع الشفاعة إلا من أذن له الرحمن ورضيله قولا.)
 طه : ١.٩

٧ - (وقالوا اتخذ الرحمن ولداً سبحانه بل عباد مكرمــون ٠ لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون ٠ يعلم ما بين أيديهم وما خلفهـم ولا يشفعون إلا لمن ارتضى وهم من خشبته مشفقون ٠ ومن يقل منهم إنـي إله من دونه فذلك نجزيه جهنم كذلك نجزي الظالمين ٠) الانبياء : ٢٦ـ٢٩

 Λ – (وقالوا ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيراً \bullet) الفرقان : \vee

٩ ـ (وقال الذين لا يرجون لقاءنا لولا أنزل علينا الملائكة او نسرى ربنا لقد استكبروا في انفسهم وعتوا عتواً كبيراً . يسوم يسرون الملائكة

⁽۱) الاشارة في الآيات هي الى الملائكة ، فهم الذين كان العرب يرجونهم كيشف الضر عنهم والشفاعة لهم مع أنهم هم أنفسهم - أي الملائكة - يتحرون الوسائل الى رضا الله، ويرجون رحمته ويخافون عذابه ، وهذا على سبيل التحدي للكفار العرب الذيان كانوا يشركون الملائكة في الدعاء والعبادة ، ويرجون شفاعتهم ونفعهم لهم .

⁽٢) كان المشركون يتعبدون الملائكة على سبيل الاستشفاع ، فالآية الاولى تؤذنهم بأن الشفاعة هي لمن يتخذ عند الله العهد ، أما الثانية فالولد فيها يعني عقيدة العصرب بأن الملائكة بنات الله ، وكلهة الولد تشمل الذكر والانثى .

لا بشرى يومئذ للمجرمين ويقولون حجرا محجورا)(١) الفرقان: ٢٢٥٢١ ففي هذه الآيات وأمثالها ما يفيد أن سامعي القرآن من العرب أهل بيئة النبى صلى الله عليه وسلم كانوا يعتقدون بوجود الملائكة ، وأنهم عند الله وبناته ، وينزلهم لتأييد من يريد ، وذوو حظوة لديه ، وأنهم كانوا يشركونهم معه في العبادة والدعاء بقصد الاستشفاع لديه ، وفيها تقريس لعبودية الملائكة لله وكونهم يعرفون حدهم ، ولا يجرؤون على دعوى المشاركة مع الله في الألوهية ، ويخافون منه ، ولا يستطيعون أن يشفعوا إلا لمن يرضى الله عنه ويأذن ، ولا يستطيعون أن يمنعوا عن أحد ضرآ ، أو يجلبوا له نفعاً خلافاً لما يريده الله من ذلك ، ويوم القيامـــة ســوف يتنصلون من الذين كانسوا يعبدونهم ويكذبونهم ، ويعلنون أن وليهم الله وحسب ، ولا يمكن أن يكونوا قد رضوا بذلك . وكل هذا مما يؤيد ما قلناه من أن موضوع الملائكة لم يكن غرباً على أذهان السامعين ، وأنهم من صلب عقائدهم ، وأن مما هدف إليه القرآن بذكرهم هو تدعيم الدعوة التي كان ركنها الأول تقرير وحدانية الله تعالى بدون ولد ولا شريك ولا معين ٤ وتقرير استحقاقه وحده للعبادة والخضوع والدعاء ، وتدعيم لنبوةالرسول الذي كلف بمهمة هذه الدعوة.

وفي القرآن آيات كثيرة أخرى ذكر فيها الملائكة في غير معرض الحوار مع المشركين وعقائدهم كما ترى فيما يلى:

ا ـ (وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبت بحمدك ونقدس لك قال إني أعلم مالا تعلمون ، وعليم آدم الأسماء كليها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبؤني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين ، قالوا سبحانك لاعلم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم ، قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إني أعلم غيب السماؤات والأدض واعلم ما

⁽۱) هذه الآیات لیست کل ما ورد فی القرآن حیث یوجد فیه آیات کثیرة آخری مسن بابها . اقرأ اذا شئت آیات سورة سبأ ۲۲ و ۲۳ و ۱۱ و۲۲ والصافات ۱۱۹ و۱۵۰ والزمر ۳و٤ و۲۸ والزخرف ۱۹ و ۲۰ والنجم ۱۹ – ۲۸

۲ - (قل من كان عدواً لجبريل فإنه نزله على قلبك بإذن اللهمصدقاً لما بين يديه وهدى وبشرى للمؤمنين ، من كان عدو"اً لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال فإن الله عدواً للكافرين ،) البقرة : ۹۷ و ۸۸

٣ - (ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمفرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبته ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين في الباسساء والضراء وحين الباس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون .) البقرة: ١٧٧١

١ (فنادته اللائكة وهو قائم يصلّي في المحراب أن الله يبشرك بيحيى ٠) آل عمران : ٣٩

٥ ـ (وإذ قالت الملائكة يا مريم إن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين ٠) آل عمران : ٢ }

٦ - (إذ تقول للمؤمنين الن يكفيكم أن يمد كم ربكم بثلاثة آلاف مسن الملائكة منثر كين • بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين • وما جعله الله إلا بشرى لكم ولتطمئن قلوبكم به وما النصر إلا مسن عنسد الله العزيسز الحكيسم •) آل عمران: ١٢٤ - ١٢١

٧ - (إن الذين تو"فاهم الملائكة ظالمي انفسهم قالوا فيم كنتم قالوا
 كنا مستضعفين في الأرض قالوا الم تكنأرض الله واسعة فتهاجروا فيها ٠)
 النسساء : ٩٧

٨ - (ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليـوم الآخـر فقد ضل ضلالاً بعيداً ٠) النساء : ١٣٦

9 - (لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله ولا الملائكة المقربون ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر فسيحشرهم إليه جميعاً ، فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله وأماً الذين استنكففوا واستكبروا فيعذبهم عذاباً اليماً ولا يجدون لهم من دون اللهولياً ولا نصيراً ،) النساء : ١٧٢ و ١٧٣

10 - (ولو ترى إذ الظالون في غمرات الموت والملائكة باسطوا أيديهم اخرجوا أنفسكم اليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تقولون على الله غير الحق وكنتم عن آياته تستكبرون ٠) الانعام : ٩٣

۱۱ ــ (إذ تستفيثون ربكم فاستجاب لكم أنني ممد كم بالف مسن الملائكة مردفين ، وما جعله الله إلا بشرى ولتطمن به قلوبكم وما النصر إلا من عند الله إن الله عزيز حكيم ،) الأنفال : ٩ و ١٠

۱۲ – (ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم وذوقوا عذاب الحريق ٠) الأنفال : . ٥

17 - (ويسبنخ الرعد بحمده والملائكة من خيفته ،) الرعد: ١٣ - ١٤ - (يُنزّل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده أن أنذروا أنه لا إله إلا أنا فاتقون (١) ،) النحل: ٢

فهـذه الآيات التي لهـا أمشال كثيرة أخرى من بابها متساوقة مع المجموعة الأولىي وأمثالها حيث يلمع فيها كذلك مايفيد أن للملائكة حيراً كبيراً في أذهان سامعي القرآن الأولين ،

⁽۱) هناك آيات كثيرة أخرى من باب ماتقدم فاكتفينا بها أوردناه . اقرأ اذا شئيه آيات سورة الاعراف ٢٦ـ٩) ، والانفال ١٢وه ١ ، والتوبة ٢٦ ، والنحيل ١٣٩٤} و٥٠ ، والحج ٥٧و٧١ ، ومريم ٦٤ ، والاحزاب ٥٥ و ٥٦ ، وفاطر ١ ، والزمر ٧١ _ ٥٧ ، وغافر ٧ و ٥٠ وفصلت ٢٩ و ٣٨ ، والزخرف ٨٠ ،وق ١٦ و١٧ ، والتحريم ٦ والنبأ ٣٨ والمدثر ٢٦ _ ٣١ ، وعبس ١٣ _ ١٦ ، والتكوير ١٩ _ ٣٢ والعلق ١٧ _ ١٩

وأنها بسبيل تدعيم الرسالة القرآنية النبوية ، ويبدو هذا واضحا فيما قررته من أن الملائكة الذين لهم في أذهان السامعين تلك الصورة الفخمة يعرفون حدهم من الله ، ويقفون عنده ، ويعترفون بعبوديتهم له ، ويسبحونه ويقدسونه ، ويحملون عرشه ، ويخافون عذابه ، ويرجون رحمته ، وينفذون أوامره ، ولا يعصونه قط ، وهم رسله إلى أنبيائه يتنزلون عليهم بكتب الله وتبليفاته ، ويصلون على النبي صلى الله عليه وسلم مع الله ، ويستغفرون للمؤمنين ، ويصلون عليهم ، ويؤيدونهم بأمر الله بالحرب والأخطار، وهم رقباء على الناس يحصون أعمالهم ويسجلونها، وهم يتنزلون بعذاب الله على الظالمين والكافرين ، ويتلقون هؤلاء عند و فاتهم، وفي القيامة بالشدة والعنف والتثريب واللوم في حين يتلقون المؤمنين بالترحيب والبشرى ، وهم خزنة الجنة والنار .

وهكذا تكون الآيات الواردة في القرآن في صدد الملائكة على اختلاف مقاماتها تفيد من ناحية أنهم كانوا يشغلون في أذهان سامعي القرآن حيزآ كبيراً ، وتهدف من ناحية أخرى إلى تدعيم الرسالة القرآنية النبوية ، وتكون الصورة الفخمة للملائكة في أذهان السامعين من مرتكزات هدا التدعيم . ويلمح الناظر المتمعن فيها من ناحية ثالثة أنها من حيث فحواها وصيغها من المتشابهات التي تتحمل وجوها عديدة للتأويل ، يعي عن تأويل بعضها عقول الناس، وإن من الواجب التزام الضابط القرآني إزاءها، فيقف عندما اقتضت حكمة التنزيل إيحاءه بالأسلوب الذي جاء لتحقيق الهدف دون تزيد ولا تكلف .

ومن المسائل المهمة التي يحسن التنبيه عليها والتنبه لها أن الآيات وهي ترتكز في التدعيم على الصورة الفخمة التي في أذهان السامعين للملائكة قد تضمنت ما من شأنه إزالة الظن بأنهم قادرون على النفع والضرر للناس ، وتقدير كون الله وحده هو كاشف السوء ، ومانح الرحمة والناصر الحقيقي للمؤمنين وكونه وحده الذي يجب التوكل والاعتماد عليه ، وإن الله إذا أخبر النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين بتأييده إياهم بالملائكة ،

فإنما يفعل ذلك للبشرى والتطمين. ولقد احتوى القرآن آيات كثيرة قررت إحاطة علم الله بكل شيء ، وإحصائه كل شيء ، وقدرته على كل شيء : وتصريفه كل شيء ، ورقابته على كل شيء ، وكونه اقرب الى خلقه من كل شيء . بحيث يكون في ذلك تقرير مباشر لاستفناء الله عن المعين والمساعد أيضاً . وهذا مما يمكن أن يساق أيضاً في تأييد كون الآيات قد هدفت إلى إزالة الظن بقدرة الملائكة على النفع والضرر للناس ، وبطلان وسخافة عبادتهم ، وإشراكهم مع الله في الدعاء

وملاحظة كل ذلك واجبة وضرورية ، لأنها تعصم الناظر في القرآن من التورط في الدخول في متاهات استكناه الماهيات والتأويلات على غير طائل ولا ضرورة .

ولقد أوحب القرآن حقاً الإيمان بالملائكة ، وحعل الكفر بهم مروقاً من الإيمان وضلالاً ، ومن حق الذي يؤمن بعظيم قدرة الله وعظيم حكمته أن يؤمن بما أخبر الله يوجوده ، ومهمته من هذا الخلق ، ويكون ذلك غير خارج عن نطاق قدرة الله وحكمته ، ولو لم بدرك مداه عقل الإنسان الذي يعييه ادراك كثير من قوى الكون ونواميسه مع وجوب الوقوف من أمر ماهيتهم ، وكيفية خدماتهم لله عز وجل ومداها وحكمتها عند ما وقف عنده القرآن بدون تزيد ولا تخمين ، والتسليم به تبعاً لواجب التسليم والايمان بما في القرآن والقول (آمنا به كل من عند ربنا) ومع وجوب ملاحظة أن القرآن وهو يذكر الملائكة بما يذكر ، ويتحدث عنهم بما يتحدث، إنما يذكر ولتحدث عن مخلوقات وكائناتكان العرب لعتقدون بها بما يقارب ما جاء عنهم ، وهذه مسألة مهمة ، لأن الكلام عما هو معروف ومعترف به هو أقوى أثراً ونفوذاً . ومع واجب استشفاف الحكمة الربانية فيه، والتي نرجو أن يكون منها ما شرحناه ، ونبهنا عليه هنا ، وفي سياق شرح قصـة آدم وإبليس وسجود الملائكة بأمر الله من قبل . وإذا كان بعض المفسرين والباحثين الإسلاميين تزيدوا في سياق تأويل وتفسير الآيات التي ذكر فيها الملائكة، وفي صدد استكناه ماهياتهم وخدماتهم فلانتحمل القرآن مسؤوليته، وإن كان يدل على كثرة ماكان يتداول عنهم في زمن النبي صلى الله عليه وسلم

وبيئته . فالله تعالى الذي أنزل القرآن قد أنزل ما اقتضت حكمته إيحاءه في هذا الأمر المفيب غير المدرك من عقول البشر لتحقيق ما استهدفه من هدف ، ولو اقتضت حكمته مزيداً من بيان لأنزله . وما يسوقه المتزيدون والمستكنهون غير وثيق السند إلى رسول الله الذي هو المرجع الوحيد الإنساني الذي له حق الإيضاح والبيان ، فيكون تجاوز هذا النطاق تجاوزاً على حكمة الله بدون طائل ولا ضرورة . ونحن نرى في محاولة بعض الباحثين المعاصرين من المسلمين لتأويل ماهيات الملائكة ووجودهم على ضوء النظريات الكونية الحديثة تكلفاً ، ولا تتسبق مع فحوى ومدى الآيات وليس لها طائل ولا ضرورة أيضا .

وكل ماتقدم يساق للملحدين بتمامه ، ونعتقد أنه يسد عليهم باب التمحيل والتنطيع .

ونحن نعرف أن ملحمدي العرب الذين يتظاهرون بالحرص على أن يكون العرب أقوياء أعزاء متقدمين آخذين بأسباب الحضارة والعلم غير متخلفين عن هذه الأسباب ، وغير مقصرين فيها يعزون ما عليه العرب من تخلف ، وما يقع عليهم من نكسات إلى الإيمانبالملائكة وغيرهم من المغيبات، ويزعمون أن ذلك يشل قواهم ويعطلها . ولقد كذب هذا الزعم تاريخ المسلمين الأولين الذي كان إيمانهم بالملائكة والمغيبات أشد من إيمان مسلمي اليوم بالاضافة إلى إيمانهم بالله ورسوله وقرآنه ، والتزامهم بكل ما جاء في كتاب الله وسنة رسوله حيث كان ذلك مانحاً لهم القوة المعنوية الهائلة التي ضمنت لهم النصر المبين في المعارك التي خاضوها مع قوى تفوقهم عدداً وعدة وحضارة ، كما أنه لم يكن مانعاً لهم من أن يجولوا تلك الجولات الواسعة الموفقة التي لاتزال آثارها قائمة ومدوية في كل ميادين العلم والفكر والفن والحكم والحضارة والفلسفة والتشريع والاجتماع والبحث والتدوين والاستكشاف والاختراع مما اعترف به ونوه به جمهور من علماء الغرب وباحثيهم في أزمان وأمكنة مختلفة .

وهذا الإيمان لم يكن في أصل الدين بديلا عن العلم والعمل والإعداد والاستعداد والجهاد والثبات والمرابطة والتخطيط والتدبير والتصميم

في كل شيء وبكل الوسائل . ففي القرآن تقريرات حاسمة صريحة ومحكمة في كل ذلك مبثوثة في مختلف السور بأساليب ومناسبات مختلفة يستطيع المتصفح للقرآن أن يقع عليها بسهولة لكثرتها بحيث يغني هذا عن التمثيل، ولقد قرن القرآن بين الإيمان وعمل الصالحات في كل أو جل الآيات ، وكلمة (الصالحات) عامة تشمل كل أمر إطلاقاً ، ولقد جعل الله استخلاف المؤمنين وتمكينهم في الارض رهنا بذلك كما جاء في آية سورة النور هذه : (وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليسخلفتهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من خوفهم أمناً يعبدونني لايشركون بي شيئاً ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون ،) فيكون الإيمان بتأييد الله وملائكته بعد هذا مانحاً لقوة معنوية لايستهين بأثرها في أي موقف إلا الحمقى والمكابرون .

وإذا كان من أحد ينتظر من الله والملائكة النصر وهو لا يعمل ولا يعلم ، ولا يستعد ولا يعد ، ولا ينفق ولا يدبر ، ولا يستنفذ الأسبباب والوسائل ، فليس من القرآن والاسلام في شيء ولا يتحملان مسؤوليته ، وفي كتاب صادق العظم انتقاد ساخر لطلب بعض الحكام العرب النصر والتأبيد وانتظارهما من الله بعد نكسة حزيران (١٩٦٧) فالانتقاد يكون في محله إذا كانذلك بدون عزم على الإعداد والاستعداد والتدبير والتصميم، وتلافى الأخطاء والتقصير وسد الثفرات ، ولكن الوقائع لا تفيد ذلك ، فالحملة التي ينتقدهاالعظم صادرة من الرئيس المففور له جمال عبد الناصر في برقية للملك حسين عقب الهزيمة بقصد بث الصبر والجلد والأمل. وقد حلت بالعرب المحنة المفجعة ، ولقد بدأ الرئيس الراحل بعد ذلك قوي الصمود ، صلب العود مصمماً على الإعداد والاستعداد وعلى التغيير الذي يتلافي به التقصير والنقص ، وسار هو والمتضامنون معه قدماً بكل قوة ونشاط في الاستعداد والاعداد للمعركة دون كلل ولا ملل حتى أمكن بناء جيش قوي في مدة قصيرة قياسية مما يشبه المعجزة ، وصار يقف إزاء التحدي بمثله عدة وعددا وفنا وعلما وبادر الى شن حرب الاستنزاف التي ازعجت الاعداء أشد الازعاج مع الاستمرار في البناء والتغيير ، والإعداد مما كان يبشر بأحسن النتائج ، ومع رفض بات وحازم للاستسلام

والرضوخ ، وتصميم قاطع على تحقيق الكرامة، واسترداد الأرض العربية، وضمان حقوق الشعب العربي الفلسطيني كاملة في أرضه المفتصبة فيكون الانتقاد ، والتعامي عن ما تم من تغيير وتحسين وجهد ظلما وجنفا وبقصد التشكيك والتهديم ، وليس هذا مما يتسق مع العلم والأخلاق والوطنية، والحرص على المصلحة العربية العامة مما يتشدق به صادق العظم ...

سابعاً: الجن في القرآن

كذلك مما يجب ملاحظته أن ماورد في القرآن في صددالجن لم يكن هو الآخر غريباً على السامعين حيث كان في أذهانهم صور متنوعة عنه أولاً ، وأنه من وسائل التدعيم للدعوة وأهدافها ثانياً ، وأنه من المتشابهات التي يجب التزام الضابط القرآني في النظر إليها ، والوقوف منها عندما اقتضت حكمة التنزيل إيحاءه بالأسلوب الذي أوحيت به لتحقيق الهدف الذي استهدفته ثالثاً بشأن القصص وشأن الملائكة .

وهذا أيضاً بقطع النظر عن عقيدة وجود عناصر خفية شريرة ذات قدرة فائقة يخشى شرها وأذاها ، ويتعوذ منها بالتزلف والقرابين كانت قدرا مشتركا بين العرب والمشركين وسائر الملل والنحل والأجناس الأخرى من كتابية وغير كتابية ممتدة الجذور إلى أمد سحيق في القدم ووارداً خبرها في الأسفار والنقوش شأن الملائكة .

وكلمة الجن وبعض متشابهاتها أو تفرعاتها اللفظية مثل جَن وجنين تنطوي على معنى الاستتار والخفاء في اللغة العربية ، وهذا يسوغ القول: إن معنى الخفي غير المرئي بالنسبة إلى الجني مما كان مستقرأ ومفهوما في أذهان العرب بالإضافة إلى ما في هذه الأذهان من الصور المتنوعة عن الجن .

وهذه آيات قرآنية توضح وتفيد ما في أذهان المشركين العرب من تلك الصور:

١ - (قل أتدعوا من دون الله مالا ينفعنا ولا يضرنا ونرد" على أعقابنا

بعد إذ هدانا الله كالذي استهوته الشياطين في الأرض حيثران له أصحاب يدعونه إلى الهدى وأمرنا لنسلم لرب العالمين(١) .) ٧

٢ - (وجعلوا لله شركاء الجن وخلقهم وخرقوا له بنين وبنات بغير علم سبحانه و تعالى عما يصفون ٠) الأنمام : ١٠٠٠

٣ ـ (وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً شياطين الإنس والجن يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً ولو شاء دبك ما فعلوه فذرهم وما يفترون ٠) الانعام: ١١٢

٣ - (ويوم يحشرهم جهيعاً يامعشر الجن قد استكثرتم من الإنس وقال أولياؤهم من الإنس ربنا استمتع بعضنا ببعض وبلغنا أجلنا الذي أجلت لنا قال النار مثواكم خالدين فيها إلا ما شاء إن ربك حكيم عليم وكذلك نوتي بعض الظالمين بعضاً بما كانوا يكسبون عا معشر الجن والإنس ألم يأتكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي ويندرونكم لقاء يومكم هذا قالوا شهدنا على أنفسنا وغرتهم الحياة الدنيا وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين . ذلك أن لهم يكن ربك مهلك القرى بظلم وأهلهها غافلون .)

٤ – (قال ادخلوا في أمم قد خلت من قبلكم من الجن والإنس في النار كلما دخلت أمة لمنت أختها .) الأعراف : ٣٨

⁽١) الشياطين في الآية كناية عن عتاة الجن حيث كان العرب يعتقدون أن عتاة الجن يخطفون من يقدرون عليه من الانس في الوديان والبراري الموحشة .

⁽٢) الآية بسبيل الاشارة الى النظام الاجتماعي الذي أقام الله المجتمع الانساني عليه. فكلما أتى نبي انبرى له العتاة من الانس والجن للتشويش عليه ومناوأته ، لانه يدعو الى الله والصلاح وهذا ما لا يتسق مع مآربهم ، والله قادر على منعهم ، ولكنه ترك الامسرليجري على نظامه حتى يحق الحق على المجرمين .

ه ـ (وحفظناها من كل شيطان رجيم(۱) إلا مـن استرق السمع فاتبعه شهاب مبين ٠) الحجر : ١٧ و ١٨

٦ ـ (قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن
 لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً ٠) الإسراء : ٨٨

V = (ولسليمان الربح عاصفة تجري بأمره إلى الأرض التي باركنا فيها وكنا بكل شيء عالمين \cdot ومن الشياطين \cdot من يغوصون له ويعملون عملاً دون ذلك وكنا لهم حافظين \cdot) الأنبياء \cdot \cdot \wedge \wedge \wedge

٨ - (ولسليمان الربح غدو ها شهر ورواحها شهر وأسلنا له عين القيطر ومن الجن من يعمل بين يدينه بإذن ربه ومن يزغ منهم عن أمرنا نذقه من عذاب السعير . يعملون له مايشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات إعملوا آل داود شكراً وقليل من عبادي الشكور . فلما قضينا عليه الموت مادلهم على موته إلا دابة الأرض تأكل منسأته فلما خر تبينت الجن أن لو كانوا يعلمون الفيب مالبثوا في العنداب المهين .) سبأ : ١٢ - ١٤

٧ - (ويوم يحشرهم جميعاً ثم يقول للملائكة أهولاء إياكم كانوا يعبدون . قالوا سبحانك أنت ولينا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن اكثرهم بهم مؤمنون .) سبأ : . } و ١ }

٨ - (إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب وحفظاً من كل شيطان مارد والايستمعون إلى الملا الأعلى وينقتدفون من كل جانب وحوراً ولهم عداب واصب والا من خطف الخطفة فاتبعه شهاب ثاقب فاستفتهم أهم أشد خلقاً أم من خلقنا إنا خلقناهم من طين لازب(٢) .) الصافات:

⁽١و٢) الشبيطان والشبياطين في الآينين تعني شبياطين الجن على ضوء الآيات الاخرى ٠

⁽٣) الآية الاخيرة بسبيل افحام الكفار . فالله القادر على ذلك الخلق العظيم في أذهانهم هو قادر عليهم من باب اولى . .

٩ ـ (وجعلوا بينه وبين الجنة نسباً ولقد علمت الجنة إنهم
 لحضرون . سبحان الله عما يصفون .)(١) الصافات : ١٥٨ و ١٥٩

ا ولقد فتنا سليمان والقينا على كرسيه جسداً ثم أناب وقال رب اغفر لي وهب لي ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدي إنكانت الوهاب فسخرنا له الريح تجري بامره رخاء حيث اصاب والشيايطين(٢) كل بناء ونواص و آخرين مقرنين في الأصفاد و) ص : ٣٤ – ٣٨

11 ـ (وإذ صرفنا إليك نفرا من الجن يستمعون القرآن فلما حضروه قالوا انصتوا فلما قضي ولوا إلى قومهم منذرين . قالوا يا قومنا إنا سمعنا كتاباً انزل من بعد موسى مصدقاً لما بين يديه يهدي إلى الحق وإلى طريق مستقيم . يا قومنا أجيبوا داعي الله وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم ويجركم من عذاب أليم . ومن لا يحب داعي الله فليس بمعجنز في الارض وليس له من دونه أولياء أولئك في ضلال مبين ،) الأحقاف :

17 ـ (خلق الانسان من صلصال كالفخار . وخلق الجان من مارج من نار .) الرحمن : ١٤ و ١٥

17 ـ (سنفرغ لكم أيها الثقلان . فبأي آلاء ربكما تكذبان . يا معشر الجن والانس إن استطعتم أن تنفذوا من اقطار السماوات والارض فانفذوا لا تنفذون إلا بسلطان . فبأي آلاء ربكما تكذبان . يرسل عليكما شواظ من نار ونحاس فلا تنتصران . فبأي آلاء ربكما تكذبان .) الرحمن : ٣١ ـ ٣٦

١٤ ـ (قل أوحى إلى أنه استمع نفر من الجن فقالوا إنـا سمعنا

 ⁽٢) مها روي أن العرب كانوا يتخيلون أن الله أصهر للجن ، فكان نتاج ذلك الملائكة ٠٠
 ويصبح أن يكون قصد الآية الاشاوة الى عبادتهم للجن إشراكا لهم مع الله ٠

⁽١) الشياطين في الآية كناية عن الجن بدلالة آيات سبأ ١٢-١٤ .

قرآناً عجباً . يهدي الى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا احداً . وانه تعالى جد ربنا ما اتخذ صاحبة ولا ولداً . وانه كان يقول سفيهنا على الله شططاً . وانا ظننا أن لن تقول الانس والجن على الله كذباً . وانه كان رجال من الانس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقاً . وانهم ظنوا كما ظننتم أن لن يبعت الله أحداً . وانا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرساً شديداً وشهباً . وانا كنا نقعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجد له شهاباً رصداً . وانا لا ندري أشر أريد بمن في الارض أم أراد بهم ربهم رشداً . وأنا منا الصالحون ومنا دون ذلك كنا طرائق قدداً . وأنا ظننا) ١ (أن لن نعجز الله في الارض ولن نعجزه هرباً . وأنا لما سمعنا الهدى آمنا به فمن يؤمن بربه فلا يخاف بخساً ولارهقاً . وأنا منا المسلمون ومنا القاسطون فمن أسلم فأولئك تحروا رشداً . وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطباً . وأن لو على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقاً . لنفتنهم فيه ومن يعرض عن ذكر دبه يسلكه عذاباً صعداً (٢) الجن : ١ – ١٧

وفي الآيات تأييد لما قلناه منأن ذكر الجن لم يكن غريباً على السامعين حيث تضمنت ما يفيد أنهم كانوا يشغلون حيزاً في أذهانهم ، وكان منهم من يعوذون بهم ، ويشركونهم مع الله في العبادة تزلفاً وخوفاً . وكان منهم من يعتقد أن الجن والانس يستمتع بعضهم ببعض ، وأن بين الله والجن نسباً . وكان منهم من يعتقد أن عتاة الجن يخطفون من يستفردون به من الانس في البراري والوديان الموحشة بالاستهواء ، فيدعونه فيسلبون بدعوتهم إياه الارادة ويتبعهم . ونعتقد الى هذا أن ما جاء عنهم في آيات سورة سبأ والصافات والجن من تسخير الجن لسليمان وأعمالهم الخارقة ، وتعذيب سليمان لهم وسجنه إياهم ، ومن استراق شياطينهم العتاة السمع من السماء ، ورشقهم بالشهب مما كان يتداوله أهل بيئة النبي صلى الله عليه وسلم قبل نزول القرآن ، وصيفة الآيات تلهم ذلك مما يتبادر

⁽١) ظننا هنا بمعنى أيقنا وقد جاءت الكلمة بهذا المعنى في آيات عديدة .

⁽٢) الآيتان الاخيرتان تعقيب رباني على ما قبلهما كما هو المتبادر .

كذلك في الآيات ما يفيد ما قلناه من أنها هدفت ألى تدعيم الرسالة القرآنية النبوية . فالجن العتاة ذوو الاعمال العظيمة عاجزون عن الاتيان بمثل القرآن ، وهذا التدعيم ملموح كذلك بقوة في آية سورة الصافات (١١)، وفيما حكته آيات سورتي الأحقاف وألجن من استماع الجن للقرآن وإيمانهم به ، فهؤلاء الذين لهم في أذهان العرب صورة رهيبة لم يلبشوا حينما سمعوا القرآن أن تبينوا الحق ويذعنوا ويؤمنوا على اختلاف عقائدهم ومذاهبهم حيث قد يلمح فيها ما يفيد أن بعضهم كان يدين بالموسوية ، ويعضهم بالنصرانية ، ويلمح في بعض الآيات أنها بسبيل إزالة ظن علمهم بالفيب وقدرتهم على النفع والضر ، وتمردهم على الله ، وتقرير كونهم غير معجزين له ، وفي هذا أيضاً ما فيه من الهدف التدعيمي .

وقد يتبادر الى هذا أن ما ورد عن الجن الذين منهم إبليس والشيطان المرادف له (۱) من صور بغيضة وحملات على المشركين والكفار في سياقها متصل بما في أذهان العرب عنهم ، وبسبيل تقرير كون الانحراف عنالحق والمكابرة فيه ، والاستفراق في الكفر والخبائث والآثام ، والانصراف عن دعوة الله هو من تلقيناتهم ووساوسهم ، ومظهر من مظاهر الانحسراف نحوهم ، وبسبيل التحذير من الاندماغ بهم لما في ذلك من مهانة ومسبة . ومن هنا يأتي الكلام قويا ملزما ولاذعا ، ويتصل بهدف التدعيم أيضا .

⁽۱) في آية الكيف عده (وإذ قلنا للهلائكة اسجدوا لادم فسجدوا إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه . .) دليل قرآني على أن إبليس من الجن كما أن عدا الدليل قائم فيشارك إبليس والجن في كونهم مخلوقين من النار كما ذكر في آية سورة(الرحمن (١٥) وكما حكى عن لسان إبليس ذلك في آيات عديدة من صيغ قصته على ما نبهنا عليه قبل ويلحظ هذا التشارك في تمبير (الجنة) في سورة الناس (الذي يوسوس في صدور الناس من الجنة والناس .) فالمتبادر أن تمبير (الجنة) قد قصد به إبليس والشيطان رديفه لانهم هم اللين يوسوسون في صدور الناس حسب بناء القرآن . ومع ذلك فقد عبر عنها بهذا التعبير حيث يكون في ذلك مزجبين الجن وإبليس والشيطان كأن الجميع شيء واحد ، ويؤدون مهمة واحدة أو يرمزون الى شيء واحد .

واما كون الآيات من المتشابهات التي تحتمل وجوها عديدة للتأويل او التي يعيى تأويلها على العقل الانساني فهو واضح يستطيع كل قارىء أن يلمحه ، وقد تكون صيفة و فحوى بعض الآيات إيجابية تقريرية في صدد ماهية الجن النارية ، واستراقهم السمع ، ورميهم بالشسهب وقيامهم بالاعمال الخارقة ، واحتمال رؤيتهم وحبسهم حيناً ، غير أن ذلك لايخرجها عن نطاق المتشابهات . ومن الجدير بالذكر أن فحوى آيات الحادثين المهمين المتصلين بالسيرة النبوية المحكيين في سورتي الاحقاف والجن يفيد بصورة قاطعة أن النبي صلى الله عليه وسلم لم ير الجن ولم يسمعهم ، وأن علمه بسماعهم للقرآن منه وإيمانهم به قد تم عن طريق الوحي القرآني وحسب ، وفي سورة الأعراف أية تفيد أيضاً أن إبليس والشييطان المرادف له وقبيليهما يرون الناس من حيث لا يرونهم ، وهي :

(يابني آدم لا يفتننكم الشيطان (١) كما اخرج ابويكم من الجنة ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوآتهما إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون ٠) ٢٧

وكل هذا مهم ومؤكد بكون الآيات من المتشابهات.

وكل هذا مما يجبعلى الناظر في القرآن ملاحظته لأنه يجعله يستشف حكمة التنزيل فيما جاء عن الجن ويلمح صلة الآيات بالبيئة النبوية وذهنيتها ، وما فيها من تدعيم للدعوة النبوية ، ويقف عند ذلك ولا يتورط في متاهات التأويل والماهيات ، وكما قلنا في صدد الملائكة ، نقول في صدد المجن : إن وجودهم في نطاق قدرة الله وإن لم يدرك العقل الانساني مداه ، وإن الايمان بما جاء تقريريا وإيجابيا عنهم في القرآن واجب مع الاكتفاء بالقول : (آمنا به كل من عند ربنا) ومع واجب استشفاف الحكمة منه أولا ، والوقوف عندما اقتضت حكمة التنزيل الوقوف عنده دون تزيد ثانيا ، وملاحظة أن القرآن وهو يذكر الجن بما يذكر ، ويتحدث عنهم بما يتحدث ، إنما يذكر ويتحدث عن مخلوقات وكائنات يعتقد السامعون بوجودها بما يقارب ما جاء عنهم ثالثاً .

⁽١) الشيطان في الآية جاء بديلا لابليس في الآيات السابقة .

وهذه مسألة مهمة ، لأن الكلام عما هو معروف ومعترف به هو أقوى أثراً ونفوذاً ، وفي بعض الآيات ما يمكن أن يستشف منه أنها بسبيل تهوين شأن الجن وقدرتهمون فوذهم ، وبسبيل إبراز عجزهم ، وهذا أمر مهم في بابه ، حيث يكون القرآن قد هدف فيما هدف إليه الى تخليص الانسان من عقدة الخوف منهم .

وإذا كان بعض المفسرين قد تزيدوا في إيراد البيانات عن ماهيات المجن، وكيفياتهم وحركاتهم فإن القرآن لا يتحمل مسؤوليته ، وإن كان يدل على أن الكلام عنهم كان كثيرا في زمن النبي صلى الله عليه وسلم وبيئته ، وليس فيما أوردوه ما هو وثيق السند الى رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي هو المرجع الوحيد صاحب الحق في البيان والايضاح عن المفيات ، ولو اقتضت حكمة التنزيل مزيدا من البيان لنزل ، فيكون في تجاوز نطاق القرآن تجاوز على حكمة الله بدون ضرورة ولا طائل ،

وننبه هنا الى ما نبهنا عليه في بحث الملائكة من اننا نرى في محاولة تأويل ماهيات الجن على ضوء بعض النظريات الكونية الحديثة تكلفاً لا طائل من ورائه ، وهو في الوقت نفسه لا يتسق مع مدى و فحوى الآيات القرآنية وكل هذا يساق للملحدين أيضاً ، ونعتقد أن فيه سدا لكل تمحل وتنطع .

وإذا كان على المسلم ومن حقه ان يؤمن بما جاء في القرآن في صدد الجن في نطاق شروحنا السابقة فليس في ذلك ما قد يزعمه الملحدون مسن شيل لقواه كما أنه ليس فيه ما يصرفه عن واجبه في التزام محكمات القرآن التي فيها ضمان صلاحه وكرامته وتقدمه وحريته وانطلاقه الى ابعل الآماد . ومن يبدو منه خلاف ذلك فليس من القرآن والاسلام في شيء ، ولا يتحملان مسؤوليته . ونذكر هنا بما قلناه قبل من أن القرآن في بعض آياته قد هدف فيما هدف إليه الى تخليص الانسان من عقدة الخوف من الجن . .

ثامناً : مشاهد الكون ونواميسه في القرآن

مما يجب على الناظر في القرآن ملاحظته أن ما ورد فيه من آيات فيها إشارات الى مشاهد الكون وخلقه ونواميسيه ، قد استهدفت لفت نظر السامعين الى عظمة الله تعالى ، وسعة ملكوته وبديع صنعه وإتقانه وتقديره ، وشامل إحاطته وقدرته وتدبيره ، يقصد تأييد هدف رئيسى من أهداف الدعوة وهو توكيد وجوب وجود الله تعالى ، واتصافه بأكمل الصفات ، وتنزهه عن الشوائب واستغنائه عن الولد والشريك والنصير والمساعد ووحدانيته وانفراده في الألوهية والربوبية ، واستحقاقه وحده للخضوع والعبادة والاتجاه والدعاء ومطلق تصرفه ، وشمول علمه وإحاطته بكل شيء دق أو عظم ، وحكمته السامية في خلق الكون على اسس النواميس التي شاءت هذه الحكمة أن تقوم عليها ، ثم بقصد بث هيبة الله تعالى في قلوب السامعين ، وحفزهم على الاستجابة الى دعوة رسوله ، والانصياع لأوامره ونواهيه ، والتزام حدوده ، وبقصد البرهنة على قدرته على خلق الناس مرة أخرى يوم القيامة ، وبتعبير إجمالي آخر قد استهدف العظة والارشاد والتنبيه والتلقين والتدعيم والتأييد دون قصد تقرير نظريات الكون وماهياته ، وأطوار الخلق والتكوين ونواميس الوجود من الناحية العلمية والفنية مما يبدو واضحاً في جميع آيات المشاهد الكونية ، وحتى الآيات التي فيها بيان لبعض مراحل الخلق والتكوين لم يقصد فيها تقرير هذه المراحل لذاتها كما يتضح للمتمعن فيها ، وانما قصد

وحكمة ذلك واضحة . فالقرآن دعوة الله الى الناس كافة على تفاوت مداركهم وأذهانهم ومراكزهم ونحلهم . وقصد الموعظة والارشاد والتنبيه والهداية والبيان هو القدر المشترك بين كافة الناس بالنسبة الى هده الدعوة من جهة ، وهو الأصل في القرآن ، والمتسق مع طبيعته ومداه من جهة أخرى ، بحيث يمتد الى كل دور ومكان ، وتجاه أعلم العلماء ، وأبسط البسطاء . كما أن شواهده قائمة في اساليب الآيات سواء أكانذلك

توكيد تلك الاهداف والقاصد التدعيمية.

في كيفية التعبير والسباق ام في تنوعهما ، ام في التكرار في المناسبات والمواقف المتجددة مما هو مبثوث في مختلف السور وبخاصة المكية منها التي اقتصرت دون المدنية على الأعم الأغلب على الدعوة الى الله ، والايمان باليوم الآخر ، ومحاربة الشرك والانحراف ، والى مكارم الأخلاق عامة .

والذي يتمعن في هذه الآيات يجدها على الأعم الأغلب تبدأ بتنبيه الناس الى مشاهد كون الله ، وتنتهي بتنبيههم الى ما في ذلك من آيات لمن يعقل ويفكر ويسمع ويتقي ويتدبر ويعلم، ويجد في سياقها السابق عليها أو اللاحق بها تنديدا بالكافرين المكابرين الذين يغفلون عن آيات الله في كونه ويمارون فيها ، ويمارون بالتالي بوجوده أو وحدانيته وشمول قدرته واستحقاقه وحده للعبادة والخضوع والاتجاه ، واستغنائه عن الشريك والولد والمساعد ، ويجدها في الوقت نفسه تخاطب السامعين بما يقع تحت أبصارهم وممارستهم ومتناول معارفهم ، وفهمهم ومداركهم وهذا مهم جدا في بابه .

وهذه بعض الأمثلة:

1 - (يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين مسن قبلكم لعلكم تتقون ، الذي جعل لكم الارض فراشاً والسماء بناء وانزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم فلا تجعلوا لله أنداداً وانتسم تعلمون ،) البقرة : ٢١ و ٢٢(١)

٢ ـ وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم • إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما انزل الله من السماء من ماء فاحيا به الارض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السلماء والارض لآيات لقوم يعقلون(٢) •) البقرة : ١٦٤

⁽١) جاءت هذه الآيات بعد حملة على الكافرين والمنافقين .

⁽٢) جاء بعد هذه الآيات تنديد بمن يتخذ أندادا من دون الله ، وإنذار شديد لهم ،

٣ ـ الحمد لله الذي خلق السماوات والارض وجعل الظلمات والنور ثم الذين كفروا بربهم يعدلون • هو الذي خلقكم من طين ثم قضى أجلاً واجل مسمعًى عنده ثم انتم تمترون • وهو الله في السماوات وفي الارض يعلم سركم وجهركم ويعلم ما تكسبون(١) •) الانعام: ١-٣

إن الله فالق الحب والنوى يخرج الحي من الميت ومخرج الميت من الحي ذلكم الله فانى تؤفكون • فالق الإصباح وجعل الليل سكناً والشمس والقمر حسبانا ذلك تقدير العزيز العليم • وهـو الذي جعـل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر قد فصلنا الآيات لقـوم يعلمون • وهو الذي أنشأكم من نفس واحدة فمستقر ومستودع قـد فصلنا الآيات لقوم يفقهون • • وهو الذي أنزل من السماء ماء فأخرجنا به فصلنا الآيات لقوم يفقهون • • وهو الذي أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شيء فأخرجنا منه خضراً نخرج منه حباً متراكباً ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات من أعناب والزيتون والرمـان مشتبهاً وغير متشابه انظروا الى ثمرة إذا أثمر وينعه إن في ذلكم لآيات لقـوم يؤمنون • وجعلوا لله شركاء الجن وخلقهم وخرقوا له بنين وبنات بغير علم سبحانه وتعالى عما يصفون (٢) •) الانعام : ٩٥ ـ ١٠٠

٥ - (إن ربكم الله الذي خلق السماوات والارض في ستة أيام ثم استوى على العرش يغشي الليل النهار يطلبه حثيثاً والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره الاله الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين • ادعوا ربكم تضرعاً وخفية إنه لا يحب المعتدين • ولا تفسدوا في الارض بعد إصلاحها وادعوه خوفاً وطمعاً إن رحمة الله قريب من المحسنين • وهو الذي يرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته حتى إذا أقلت سيحاباً ثقالا سقناه لبلد ميت فانزلنا به الماء فاخرجنا به من كل الثمرات كذلك نخرج الموتى لعلكم تذكرون • والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه والذي خبث لا

^{· (}١) جاء بعد الآيات حملة على المكذبين الممترين ·

⁽٢) قبل الآيات أيضا جملة على المكذبين والكافرين والظالمين والمشركين والذار لهم ٠

يخرج إلا نكداً كذلك نصرف الآيات لقوم يشكرون ٠) الاعراف : ٥٤ - ٥٨

7 — (اكان للناس عجباً ان اوحينا الى رجل منهم ان انذر الناس وبشر الذين آمنوا ان لهم قدم صدق عند ربهمقال الكافرون إن هذا لساحر مبين ، إن ربكم الله الذي خلق السماوات والارض في ستة ايام ثم استوى على العرش يدبر الامر ما من شفيع الا من بعد إذنه ذلكم الله ربكم فاعبدوه افلا تذكرون ، إليه مرجعكم جميعاً وعد الله حقاً إنه يبدؤ الخلق ثم يعيده ليجزي الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالقسط والذين كفروا لهم شراب من حميم وعذاب اليم بما كانوا يكفرون ، هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نوراً وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ما خلق الله ذلك إلا بالحق يفصل الآيات لقوم يعلمون ، إن في اختلاف الليل والنهاد وما خلق الله في السماوات والارض لآيات لقوم يتقون ، إن الذين لا يرجون لقاءنا ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها والذين هم عن آياتنا غافلون ، أولئك مأواهم النار بما كانوا يكسبون ، إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم بايمانهم تجري من تحتهم الانهار في جنات النعيم ،)

وهذه أمثلة مما فيه مراحل التكوين:

١ - (أولم ير الذين كفروا أن السماوات والارضكانتارتقاً ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شيء حي أفلا يؤمنون ، وجعلنا في الأرض رواسي أن تميد بهم وجعلنا فيها فجاجاً سبلا لعلهم يهتدون ،) الأنبياء : ٣٠ و ٣١

٢ ــ (یا ایها الناس إن كنتم في ریب من البعث فإنا خلقناكم مـن
 تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضفة مخلقة وغیر مخلقة لنبین لكم
 ونقر في الأرحام مانشاء إلى أجل مسمى ثم نخرجكم طفلاً ثـــم لتبلغوا

اشدكم ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد إلى ارذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئاً وترى الأرض هامدة فإذا انزلنا عليها الماء اهتزت وربتوانبتت من كل زوج بهيج \cdot ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحيي الموتى وأنه على كل شيء قدير \cdot وأن الساعة آتية لاريب فيها وأن الله يبعث من في القبور \cdot الحج : \circ \circ \circ

٢ – (قل أئنكم لتكفرون بالذي خلق الارض في يومين وتجعلون له أنداداً ذلك رب العالمين و وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقد ر فيها بقواتها في أربعة أيام سواء للسائلين و ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها والأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين و فقضاهان سبع سماوات في يومين وأوحى في كل سماء امرها وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظاً ذلك تقدير العزيز العليم فإن اعرضوا فقل اندرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد و ثمود إذ جاءتهم الرسل من بين أيديهم ومن خلفهم ألا تعبدوا إلا الله قالوا لو شاء الله الأنزل ملائكة فإنا بما أرسلتم به كافرون (١٠)) فصلت : ٩- ١٤

ولعل" في تعبير الأوتاد عن الجبال والسقف المبني عن السماء والفراش والبساط والذلول عن الأرض والمصابيح المضيئة التي زينت بها السماء عن الكواكب وجريان الشمس ، ومنازل القمر والسراج الوهاج

للاولى والمصباح المنير للثاني وفي ذكر إنزال الماء مسسن السماء وتسيير السحاب ، وتصريف الرياح ، وإرسال البرق والرعد والصواعق ، وإنبات مختلف الزروع والأشجار ، وتسخير الدواب والأنعام وتسيير الفلك في البحار والأنهار وتسخيرها ، وتصوير الأرض كمركز للكون والإنسان كقطب للأرض ، وتسخير كل ما في السماوات والأرض له ، وإسباغ الله عليه نعمه الظاهرة والباطنة ، وتسويته إياه بيده ونفخه فيه من روحه الخ الخ تساوقاً واضحاً ومفهوماً مع مشاهد مختلف فئات الناس الذين يوجه إليهم الكلام ومدركاتهم وبتعبير آخر: إن القرآن خاطب السامعين بما يفيد أنهم يعرفون مدى ما يتلى عليهم ويذكرون به ، ويلفت نظرهم إليه مشاهدة أو ممارسة أو معرفة أو بما يتسق مع مافي أذهانهم إجمالاً من صور ومعارف من ممارساتهم ومشاهداتهم ومسموعاتهم حيث يكون فسي ذلك ما فتئنا ننبه عليه من أن الخطاب بما يعرفه ويفهمه السامع يكون أقوى أثراً في نفسه ، وأكثر تحقيقاً للهدف المستهدف منه ، وحيث يكون في أسلوب الآيات وفحواها دلالات على ما استهدف منها من الأهداف التي ذكرناها . مع التنبيه على أنها يصح عليها صفة المتشابهات أيضاً لأنها تتحمل تأويلات عديدة ، ومنها ما قد يعيى عقل الإنسان عن إدراك ماهيته ومداه وتأويله ، ويلوح منها أن التقريب والتمثيل من أهدافها .

وملاحظة كل هذا واجبة وضرورية لكل من ينظر في القرآن ، حيث تجعله يقف من الفصول والآيات الواردة في صدد هذا الموضوع عند الحد الذي وقفت عنده ، وبالأسلوب والفحوى الذيب جاءت عليهما لتحقيق الأهداف المذكورة التي استهدفتها ، وتعصمه من التكلف والتجوز والتخمين والتزيد ، ومحاولة تطبيق أو استخراج النظريات العلمية والفنية في حقائق الكون والتكوين، ونواميسهما وأطوارهما، والتمحل والتوفيق والتطبيق في ذلك ممايخرج القرآن عن نطاق هدفه من الوعظ والارشاد، ولفت النظر، وبث الهيبة والإشعار بعظمة الله ، والتزام حدوده إلى مجال البحث ، وتعريض قدسيته بطبيعة هذا المجال إلى الجدل والنقاش والتعارض والأخذ والرد على غير طائل ولا ضرورة ، ولا تساوق مع هدف القرآن وطبيعته .

وبالإضافة إلى هذا الذي يتسق مع الهسدف والمضمون ، والمدى القرآني ، فإن لملاحظة ذلك فائدة عظيمة لذاتها من حيث إنها تجعل المسلم غير مقيد بنظريات كونية وفنية معينة بوهم انها مستندة إلى القرآن ومستخرجة منه مع مافي هذا دائماً من تمحل ، وتبقيه حراً طليقاً في ساحات العلوم والفنون ونظرياتها وتطوراتها وتطبيعاتها ، ولا سيما ان النظريات العلمية والفنية دائمة التطور ، واحيانا كثيرة متحولة متبدلة ، فلا يختلط عليه الأمر في سيره العلمي ، وبحثه الفكري ، ويكون كل ما يجب عليه أن يظل من ذلك في حدود الأسس والأهداف والمبادىء ، والمثل الإسلامية العليا ، وفي نطاق أركان الإيمان العامة التي قررها القرآن . وحيث يظل قصد القرآن ومداه ومفهومه سليماً في جميع الأدوار، يخاطب بآياته وفصوله مختلف الفئات في مختلف الأزمنة ، فتثير فيهم الإجلال والهيبة والإذعان والخشوع . سواء أكانوا علماء أم بسطاء ، لأنه يخاطب عقولهم وقلوبهم معاً ، وهو قصد القرآن الجوهرى من دون ريب .

وفي هذا الذي نرجو ان يكون الحق والسداد رد على الملحدين إذا ما أرادوا التعسف وفهم الآيات فهما خاطئًا ،وإبرازها على ان فيها تقريرات محددة لإظهار ما بين ذلك وبين الحقائق العلمية والفنية من تباين ، وبالتالي لإظهار الثفرات في القرآن ، وتهوين مداه ، كما فيه تنبيه للذين يؤخذون بهذا التعسف والفهم الخاطىء من المؤمنين بنية حسنة ويقولون بضرورة فصل الدين عن العلم حتى لا يتصادمان ، في حين أنه لا تصادم حقيقي بينهما وبخاصة بالنسبة للدين الاسلامي على ما ذكرناه في مناسبة سابقة ،

وإذا كان المفسرون قديماً وحديثاً اكثروا من البيانات والتفصيلات على هامش الآيات القرآنية ، فإن جلّها بل كلها اجتهادات وتخمينات وأقوال ، ولا تخلو من مفارقات ومبالغات وتناقضات ، وإذا كان كتاب وباحثون مسلمون قديماً وحديثاً تجاوزوا النطاق الصحيح لمدى الآيات القرآنية ، وحاولوا أن يستخرجوا منها نظريات واسساً علمية وفنية ، أو يو فقوا بين ما ظنوه في القرآن من ذلك وبين ما عرفت حقائقه العسلمية مؤخراً بحسن نية ، وبقصد إظهار معجزة القرآنبابراز أمور لم تكن معروفة قبل وعرفت بعد تقدم العلوم ، وتطورها وحسب زعمهم رغم ما يكون في محاولاتهم من تمحل وتجوز وتعسف في الفهه والتوفيسق والتطبيق

والاستنتاج بل ومن سذاجة في تصيد العبارات ، وتحميلها مالا تحتمل ، ومن تجاوز للوقائع والظروف والروايات الموضحة لنزول الآيات وهدفها ولسياقها الذي فيه توضيح لهدفها ومداها ، حتى لقد وصل الأمر إلى أن يستخرج أحد الباحثين من آيات سورة الذاريات هذه :

(والسماء بنيناها بايد وإنا لموسعون) نظريسة النسبية (لانشتاين) ونظرية أخرى سماها (انتشار الكون) وأن يقول: إن أصحاب رسول اللسه صلى الله عليه وسلم لم يعرفوا وجه لإعجاز الكوني في الآيات ، لأنهم لم يطلعوا على حضارة وعلوم القرن العشرين (١) ، فبقيت معجزة غير مفهومة إلى عصرنا الحاضر ، فالعلم قرر النظرية في القرن العشريسن في حين أن القرآن قررها قبل . . ١٤ سنة ، وقد ظل المسلمون يتلونها ، وتكون جزءاً من عقيدتهم دون أن يعرفوا ما فيها من إعجاز كوني إلى هذا القرن (٢) ، نقول: إذا كان المفسرون والباحثون فعلوا هذا ، فالقرآن والإسلام لا يتحملان مسؤوليته ، وتظل فصول القرآن وأهدافها بكل إشراقها وقوتها وإفحامها ومداها لكل فئة وفي كل زمن .

ولقد اتكا الملحدون في مهاجمة القرآن وإبراز التناقض فيه إلى مثل هذه التخمينات والمحاولات والتمحلات ، وتصيد العبارات بقصد التوفيق

⁽١) ان الباحث لم يذكر رسول الله ، واكتفى بذكر أصحابه تأديا وتحرجا وحسب .

⁽٢) انظر كتاب الانسان بين العلم والدين لشوقي ابي خليل ص ٣٦ و ٣٧ وفي هسذا الكتاب الكثير العجيب من هذا النوع والباحث وهو يقول مسا يقول في صدد آية الذاريات مثلا ، يتفافل عن ما بعدها من آيات فيها خطاب للسامعين وتنبيه لهم الى ما ذكرته من آيات الله المائلة امامهم ، وفي اتفسهم لعلهم يتذكرون وينيبون الى الله ولا يدعون مع الله الهسسا آخر كما ترى : (والارض فرشناها فنعم الماهدون ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون. ففروا الى الله اني لكم منه نذير مبين . ولا تجعلوا مع الله إلها آخر اني لكم منه نذير مبين . ولا تجعلوا مع الله إلها آخر اني لكم منه نذير مبين . ولا يفهمون ولا يفطن الى ان الله سبحانه يتنزه عن تذكير السامعين الاولين للقرآن بالمور لا يفهمون مدداهسا . . .

والتعليق ، وفي كتاب صادق العظم (١) نماذج من ذلك _ ولكن القرآن كما قلنا لا يتحمل مسؤولية ذلك أولا ، وليس هو ضرورياً لإثبات إعجاز كتاب الله والتدليل على ما في كون الله ونواميسه من إتقان وإبداع وعلى وحوب وحود الله ووحدانيته ثانياً .

وليس القرآن في حاحة إلى ذلك ثالثاً ، فدلائل اعجاز كتاب الله وكونه وحياً ربانياً بارزة ظاهرة في كل فصل من فصوله لمن رزق حسن النيـة والضمير والذوق ، ولم يتعمد المكابرة والعناد ، ودلائل إلداع الكون ونواميسه ، ووجوب وجود خالق مدبر له حكيم قادر عليم خبير ازلى أبدى ملموحة لكل ذي نظر وعقل وإذعان في مشاهد الكون دقيقها وجليلها . وليس القرآن بعد كتاب فن وطبيعة و فلك وبيولو حيا وكيمياء وفيزياء وهندسة حتى يخشى المسلمون أن نطعن فيه الأغيار ، لأنه لم يحتو تقريرات علمية ونظرية في ذلك . وبعض الباحشين يرفعون في محاولاتهم وتمحلاتهم شعار آية فصلت هذه: (سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبيّن لهم أنه الحق") ليؤيدوا أن حقائق نواميس كون الله ظهرت بعد عصر النبوة ، وفي ظلال تقدم العلم والفن ، وإن في الآية إخباراً ربانياً إعجازياً لذلك ، مع أن الآية هي في مقام التنديد والإنذار لجاحدى القرآن من سامعيه الأولين من أهل بيئة النبي صلى الله عليه وسلم من الوجهة القرآنية مما تقوم الآية التالية عليه دليلاً حاسماً ، وهذا نصها (ألا إنهم في مرية من لقاء ربيم ألا إنه بكل شسىء محيط ٠٠) وهذه الآية ليست الوحيدة في معناها ومداها ومقامها ، فهناك آيات مماثلة لها منها آية سورة النمل هـذه: (وقل الحمد لله سيريكم آياته فتعرفونها وما ربك بغافل عما تعملون ٠) وآية سورة غافر هذه: (هو الذي يريكم آياته وينزل لكم من السماء رزقاً وما يتذكر إلا من ينيب ٠) غير منتبهين كما قلنا إلى ما يكون في تطبيقات هذا الشعار من تكلف وتمحل وتعريض للقرآن للأخذ والرد ، وإخراج له عن مدى مهمته العظمى التي هي هداية الناس ،

⁽۱) هو مؤلف كتاب (نقد الفكر الديني) وقد كتب الكاتب كتاب «القرآن والملحدون» بمناسبة صدور ذلك الكتاب ...

وأخرأجهم من الظلمات إلى النور ، وبيان الاسباب والوسائــــل الضامنة لسعادتهم وصلاحهم وأمنهم ونجاتهم في الدنيا والآخرة .

والملحدون لايقفون عند حد الاتكاء إلى محاولات وتمحلات الكتاب المسلمين في التماس النظريات العلمية والكونية من القرآن ، بل يتمحلون بما يتوهمونه في العبارات القرآنية في صدد نواميس الكون ومشاهده من تنوع في العبارات ، وتوهم التباين فيها مما في كتاب العظم نماذج منه النسيا .

وفيما ذكرناه من كون الآيات في هذا الموضوع هي من المتشابهات ، ومن كون ما ورد في القرآن منها لم يرد بسبيل تقريرات فنية ، وإنما للتنبيه والعبرة جواب على هذا التمحل ، كما أن المتمعن في الآيات التي يوردونها والمتنبه لسياقها ، والمقارن بينها عن حسن نية يجد لكل إشكال جواباً شافياً يزول به وهم التباين .

تاسعاً: الحياة الأخروية في القرآن •

مما يجب ملاحظته أن ما ورد في القرآن عن الحيساة الأخروية ومشاهدها وصورها وأهوالها ونعيمها وعذابها هو ما ينطبق عليه وصف المتشابهات لتحمله التأويلات المتعددة ، ولأن فيه ما لا يدرك سره ومداه إلا ألله تعالى وأنه استهدف فيما استهدفه إثارة الخوف والرهبة في نفوس الضالين حتى يرعووا ويستقيموا ،وبث الاغتباط والطمأنينة في نفوس المؤمنين الصالحين المتقين حتى يشبتوا في الطريق الذي اهتدوا إليه وساروا في ساروا

وكل ذلك واضح ملموح بكل قوة في الآيات القرآنية ، وهذه بعض الأمثلية :

١ - (ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه

ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله ذلك هو الفضل الكبير ، جنات عدن يدخلونها ينحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤا ولباسهم فيها حرير ، وقالوا الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور ، الذي أحلنا دار القامة من فضله لا يمسنا فيها نصب ولا يمسنا فيها لغوب والذين كفروا لهم نار جهنم لايقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها كذلك نجزي كل كفور ، وهم يصطرخون فيها ربنا أخرجنا نعمل صالحاً غير الذي كنا نعمل أو لم نعمر كم ما يتذكر فيه من تذكر وجاء كم النذير فذوقوا فما للظالمن من نصير) ، ، فاطر: ٣٢ ـ ٣٧

٣ ــ (ونفخ في الصور فصعق من في السماوات ومن في الأرض إلا منشاء الله ثمنفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون وأشرقت الأرض بنور ربها ووضع الكتاب وجيىء بالنبيين والشهداء وقضي بينهم بالحق وهم لا يظلمون • ووفيت كل نفس ما عملت وهو أعلم بما يفعلون • وسيق الذين

كفروا إلى جهنم زمراً حتى إذا جاؤوها فتحت ابوابها وقال لهم خزنتها الم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم آيات ربكم وينذرونكم لقاء يومكم هذا قالوا بلى ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين . قيل ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فبئس مثوى المتكبرين ، وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمراً حتى إذا جاؤوها وفتحت ابوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين . وقالوا الحمد لله الذي صدقنا وعده وأورثنا الأرض نتوا من الجنة حيث نشاء فنعم اجر العاملين ،) الزمر : ١٨٨ – ٧٤

إن شجرة الزقوم ، طعام الأثيم ، كالمهل يغلي في البطون ،
 كغلي الحميم ، خذوه فاعتلوه إلى سواء الجحيم ، ثم صبو ا فوق راسه من عذاب الحميم ، ذف إنك انت العزيز الكريم ، إن هــذا مــا كنتم به تمترون ، إن المتقين في مقام امين ، في جنات وعيون ، يلبسون مــن سندس واستبرق متقابلين ، كذلك وزوجناهم بحورعــين ، يدعون فيها بكل فاكهة آمنين ،) الدخان : ٣٤ ــ ٥٥

وامثال هذه الآيات كثيرة مبثوثة في مختلف السور . فلا ضرورة للإكثـــار .

وحكمة ذلك واضحة ، فالقصد القرآئي في اصله هو دعوة الناس إلى الله وطريق الحق والخير والعدل والسلام والصلاح ، وتحذيرهم من الكفر والشرك والضلال والبغي والإثم ، وإنذارهم وتبشيرهم بالحياة الاخروية التي يو في فيها كل منهم بما فعل من خير وشر بما يستحقه .

وهناك آيات عديدة فيها توكيد صريح لذلك القصد كما ترى في الامثلة التالية:

۱ - (وكذلك انزلناه قرآنا عربياً وصرفنا فيه من الوعيد لعلهم يتقون او يُحدث لهم ذكراً ٠) طه: ١١٣

٢ ـ (لهم من فوقهم 'ظلل من النار ومن تحتهم 'ظلل ذلك يخوف الله به عباده ياعباد فاتقون ، والذين اجتنبوا الطاغوت ان يعبدوها وانابوا إلى

الله لهم البشرى فبشر عباد ، الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه اولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولوا الألباب ،) الزمر : ١٦ - ١٨

٣ – (يا عبادي الذين أسرفوا على انفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يففر الذنوب جميعاً إنه هو الففور الرحيم • وانيبوا إلى دبكم وأسلموا له من قبل أن يأتيكم العذاب ثم لاتنصرون • واتبعوا أحسن ما انزل إليكم من قبل أن يأتيكم العذاب بغتة وانتم لاتشعرون • أن تقول نفس ياحسرتي على ما فرطت في جنب الله وإن كنت لمن الساخريسن • أو تقول لو أن الله هداني لكنت من المتقين • أو تقول حين ترى العذاب لو أن لي كرة فاكون من المحسنين • بلى قد جاءتك آياتي فكذبت بها واستكبرت وكنت من الكافرين • ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة الميس في جهنم مثوى للمتكبرين • وينجي الله الذين اتقوا بمقاذتهم لا يمسئهم السوء ولا هم يحزنون •) الزمر : ٣٥ – ١١

إلى الظالمين مشفقين مما كسبوا وهو واقع بهم والذين آمنوا وعملوا الصالحات في روضات الجنات لهم ما يشاؤون عند ربهم ذلك هو الفضل الكبير • ذلك الذي يبشر الله عباده الذين آمنوا وعملوا الصالحات قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربي (١) ومن يقترف حسنة نزد له فيها حسناً إن الله غفور شكور •) الشورى : ٢٢ و ٢٣

ويلحظ في الأمثال السابقة وامثالها الكثيرة جداً أن ما فيها من إندار وتبشير منسجم مع مفهومات السامعين ومألو فاتهم ، وحكمة هدا واضحة ، لأن ما يراد إثارته في نفوس الناس لا يتم إلا إذا جاء بالأوصاف التي يستطيعون أن يحسوها ويدركوا مداها إحساسا وإدراكا متصلين بتجاربهم ومشاهداتهم ومألو فاتهم بطبيعة الحال .

⁽۱) لا أريد منكم الآن أن تحترموا ما بيني وبينكم من قرابة ، أو كل ما أريده هـو أن آ أهديكم لما بيني وبينكم من مودة القربي التي تجعلني أحرص على ذلك .

فإذا ذكر في سياق مشاهد يوم الحساب ما فيه من صور مجالس القضاء والخصوم والشهود والاتهام والمحاورات الدفاعية ، وكتب الأعمال، ففي ذلك صور دنيوية مألوفة للسامع يستطيع إدراك مداها والتأثر بها ، وإذا ذكر أن الجبال تتفتت وتصبح كالهباء والعهن المنفوش ، وأن الأرض تحمل وتدك ، وأن السماء تتفطر وتتشقق ، وأن الكواكب تنتثر وتنكدر وتنطفىء ، وأن البحار تتفجر ، وأن العشار تتعطل ، وأن الوحوش تحشر ، وأن القمر يخسف والشمس تكسف ، وأن الولدان يصيرون شيبا .

ففي ذلك صور هول لا يمكن للسامع إلا أن يتأثر بها ، ويدرك مداها ، ولا سيما ما يكون من تبدل مشاهد الكون الماثلة عظمتها في ذهنه . وإذا ذكر في أوصاف النعيم ما ذكر من جنات وعيون وسرر وفرش ومجالس شراب انبقة ، وظلال وارفة ، وقطوف دانية ، وولدان كاللؤلؤ المكنون ، يطوفون بالأباريق الفضية والزجاجية البراقة الشفافة ، والخمر الممزوج بالكافور والزنجيبيل ، والفواكه الكثيرة ، ولحوم الطير ، وصحاف الذهب والفضة ، وثياب الحرير ، وحلى اللؤلؤ والذهب والفضية ، والحورالعين كالبيض المكنون ، وكالياقوت والمرجان . الخ الخ مما جاء في الآيات التي أوردناها ، وكثير مما لم نورده ، فلا يمكن إلا أن يتأثر بهـــا السامعون ، ويفهموا مداها ، وتتوق نفوسهم إليها ، لانها منتهى ما تصبوا إليه النفوس والعرب بخاصة من نعيم وهناء وحبور ، يعرفون صورها في الدنيا معرفة مشاهدة أو ممارسة أو سماع . وإذا ذكر في أوصاف العذاب ما ذكر من نار حامية شديدة شرارها كقطع الحطب الضخمة ، ولهيبها كالجبال ، لا ماء فيها إلا الحار الشديد الحرارة (الحميم) ، ولا ظل فيها يحجب الحرارة ، ويكون الظل كوهج النار وهو ما وصف باليحموم ، ولا هواء فيها إلا الريح السموم ، ولا شراب فيها إلا الفسلين والفساق والصديد ، ولا طعام فيها إلا الزقوم والضريع مما ورد في الآيات التي أوردناها ، وكثير مما لم نورده ، فإن السيامعين والعرب بخاصة لا يمكن إلا أن يتأثروا بها ، ويفهموا مداها ، لأنها منتهى ما تهلع له قلوبهم ، وتكرهـه نفوسهم ممـا هو من المشاهدات والمعاني الدنيوية المألوفة والمتصورة عندهم .

وقد اختصصنا السامع العربي بالذكر ، لأن كثيراً من الأوصاف والألفاظ مما يحمل الدلالة على الحياة العربية ومألوفات وممارسات ومشاهدات البيئة العربية ، وهذا في حد" ذاته قرينة قوية قائمة على ما نقرره .

ولعل في تنوع الأوصاف والصور والمشاهد القرآنيــة عــن الآخرة ونعيمها وعذابها وهولها قرينة أو دليلاً على صواب ما نقرره أيضاً . فالجبال مثلاً في جملة قرآنية تسير سير السحاب ، وفي أخرى تنسف نسفاً ، وفي اخرى كثيب مهيل ، وفي اخرى كالعهن المنفوش ، وفي اخرى كالهباء المنثور ، والسماء في جملة قرآنية تفتح أبواباً ، وفي أخرى تتشقق أو تنفطر ، والنجوم في جملة تنتشر ، وفي جملة تنطمس ، والشمس في جملة تتكور ، وفي أخرى تجمع مع القمر ، وبينما السماء تتبدل نواميسها ومشاهدها مستقلة عن الأرض في جملة ، والأرض تدك مستقلة عن السماء في جملة ، تذكر جملة أخرى أن الأرض والسماء تحملان وتدكان معاً دكتَه واحدة، وجملة اخرى تذكر أن الأرض تتبدل غير الأرض والسماوات تتبدل غير السماوات الخ الخ . وفي حين تذكير جمل أن الكافرين يدافعون عن انفسهم ، ويتاح لهم إيراد أعذارهم ، ويجري حوار بينهم وبين الملائكة وبينهم وبين الله وبينهم بعضهم مع بعض ، تذكر جمل أخرى أنهم لاينطقون ولا يؤذن لهم فيعتذرون ولا يتساءاون، ولا يستعتبون، وفي حين تذكر جملة أنه ينفخ في الصور تذكر جملة أنه ينقر في الناقور، وفي حين تذكر جملة أن ليس للكافرين طعام إلا من ضريع ، تذكر جملة أن ليس لهم طعام إلا الغسلين ، وجملة أن ليس لهم طعام إلا الزقوم ، وهذا في حين تذكر جمل أخرى أنهم يعذبون في النار أشد عذاب ، وكلما نضحت جلودهم بدلوا بجلود غيرها ، وفي حين تذكر جملة أنهم يحشرون وقد كشنف عنهم الفطاء ، وأصبح بصرهم حديداً ، تذكر جملة أخرى أنهم يحشرون عمياً ، ويسألون الله عن ذلك مع أنهم كانوا في الدنيا مبصرين . .

هذا بالإضافة إلى تنوع أوصاف النعيم حيث يكون بعضها خشناً يتسق مع الحياة المألوفة ويكون بعضها غاية في الأناقة والفخامة مع اتصال بمعاني ومشاهد الدنيا ، وهذا عدا التنوع في جزئيات أخرى حيث تكون الصحف والأكواب في بعضها من فضة ، وفي بعضها من ذهب ، وحيث تكون الحلي ذهبية في جملة ، وفضية في أخرى ، ولولؤية في ثالثة ، وحيث تشبه الحور العين في جملة بالياقوت والمرجان ، وفي أخرى بالبيض المكنون أي : اللؤلؤ . . .

وقد يتبادر أن هذا التنوع متصل بتنوع مواقف السيسرة والدعوة ومراحلها المتجددة . وحالات المخاطبين المعنيين بها المتنوعة ، ويجمع بينه على كل حال قاسم مشترك ، أو المظهران الرئيسيان لأسلوب هذه الالفاظ، وهما قصد الإنذار والتبشير والترهيب والترغيب من جهة ، وكون الأوصاف جميعها من مألوفات السامعين من جهة أخرى . وهذا كله بارز بكل قوة في الآيات القرآنية .

ومع تقرير كون الإيمان باليوم الآخر وحسابه وثوابه وعقابه واجباً، وكونه ركنا من أركان العقيدة الإسلامية ، وكون حكمة الله في ذلك قائمة في قصد توفية الناس أعمالهم ، إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر" ، وفسى تقرير القرآن بأن الله تعالى لم يخلق الناس عبثاً وسلى ، وأن الناس سيرجعون إليه بعد الموت في حياة أخرى ، فإن ملاحظة ما قدمناه ، أي : كون أوصاف الحياة الأخروية في القرآن من المتشابهات التي تحتمل وجوها عديدة للتأويل ، أو التي يعيى العقل الإنساني عن إدراك تأويلها وسرها ، وكونها هدفت فيما هدفت إليه إلى الإنذار والتيشير والترهيب والترغيب ٤ وكونها مستمدة من مألو فات الناس الدنيوية ضرورية وجوهرية ٤ لأن من شأنها أن تجعل الناظر في القرآن يتجنب الاستغراق في الجدل حول مشاهد الحياة الأخروية وصورها ، ويعتصم من التورط والتكلف والتزيد في صدد ما يقوم في سبيل الماهيات والحقائق والكيفيات لذاتها، ويتذكر أن هدف القرآن فيما جاء في التعابير والأوصـــاف هو العظة والتنبيه ، وإيقاظ الضمائر ليرعوي الضال عن ضلاله ، ويثبت المهتدي ، في طريقه بأسلوب يتسبق مع متناول إحساس المخاطبين وتجاربهم ومشاهداتهم ومداركهم ومألو فاتهم ، ويثير فيهم الرهبة من العاقبة .

ويتذكر كذلك أن ماهية هذه الحياة وحقيقتها مغيبتان لا يستطاع فهم شيء عنها إلا بالأوصاف الدنيوية ، وأن حكمة الله اقتضت وصفها بهذه الأوصاف على سبيل التقريب والتمثيل .

واذا كانت الحياة الأخروية ومشاهدها واوصافها وصورها المتنوعة قد شغلت حيزاً كبيراً في القرآن ، حتى إن معظم سورة احتوت شيئا عنها بشكل ما ، فإن مرد ذلك على كونه من خصوصيات القرآن وإلى أن هذه الحياة من أقوى الدعائم القرآنية الإنذارية التبشيرية والترهيبية والترغيبية لأهداف القرآن ودعوته ، وأشدها تأثيراً وإثارة لأنها تمثل عالم ما بعد الموت الذي لايكاد يخلو إنسان في أي دور من استشعار بالرهبة منه من جهة ، ومن العقائد الإيمانية الإسلامية من جهة ، ولأنها كانت من المواضيع الرئيسية أو بالأحرى أهم موضوع دار حوله الجدل بشدة واستمرار بين النبي صلى الله عليه وسلم وكفار العرب على ما نبهنا عليه في مناسبة سابقة ، ومما له صلة بظروف الدعوة النبوية من جهة .

وهذه آيات لها أمثلة كثيرة في إيجاب الإيمان باليوم الآخر ، وكونه من عقائد الاسلام الرئيسية:

ا - (ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوي القربى واليتامى والمساكين وابسن السبيل والسائلين وفي الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابريين في البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون.).. البقرة: ١٧٧

٢ - (يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله والكتباب الذي نز"ل على رسوله والكتاب الذي أنزل من قبل ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضل" ضلالاً بعيداً ٠) ٠ . النساء : ١٣٦

٣ - (قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حر"م

الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين اوتسوا الكتساب حتى يُعَطُوا الجزية عن يد وهم صاغرون ٠) التوبة : ٢٩

إ ـ (واما الذين كفروا وكذبوا بآياتنا ولقاء الآخسرة فأولئسك في العذاب محضرون ٠) الروم : ١٦

وهــذه آيات لها امثلة كثيرة في صدد إنكار الكفار للحياة الأخروية والبعث ومجادلتهم في ذلك والبرهنة على قدرة الله عليه، وهو ما اقتضت حكمة التنزيل إكثار الآيات في صدده:

١ - (وهو الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام وكان عرشه على الماء ليبلوكم ايكم أحسن عملاً ولئن قلت إنكم مبعوثون من بعد الموت ليقولنن الذين كفروا إن هذا إلا سحر" مبين ٠) هود : ٧

٢ - (واقسموا بالله جهد ايمانهم لا يبعث الله من يموت بلى وعداً عليه حقاً ولكن أكثر الناس لا يعلمون . ليبين لهمالذي يختلفون فيه وليعلم الذين كفروا انهم كانوا كاذبين . إنما قولنا لشيء إذا اردناه أن نقول له كن فيكون .) النحل : ٣٨ - ٤٠ .

٣ - (وقال الذين كفروا هل ندلكم على رجل ينبئكم إذا مز قتم كل ممزق إنكم لفي خلق جديد ، افترى على الله كذبا أم به جنة بل الذين لا يؤمنون بالآخرة في العذاب والضلال البعيد ، أفلم يروا الى مابين أيديهم وما خلفهم من السماء والأرض إن نشأ نخسف بهم الأرض أو نسقط عليهم كسفاً من السماء إن في ذلك لآية لكل عبد منيب ،) سبأ : ٧ - ٩

٤ ـ (وضرب لنا مثلاً ونسي خلقه قال من يحيي العظام وهي رميم •
 قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم • الذي جعل لكم
 من الشجر الأخضر ناراً فإذا أنتم منه توقدون • أوليس الذي خلق السماوات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى وهو الخلاق العليم •
 إنها أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون • فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء وإليه ترجعون •) يس : ٧٧ – ٨٣

٥ ــ (زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا قسل بلى وربي لتبعثن ثم
 لتنبؤن بما عملتم وذلك على الله يسير ٠) التفابن : ٧

وهذه آيات لها أمثلة كثيرة في صندد تقرير أن عدم الإيمان بالآخرة مما يجرىء الانسان على الانحراف والاجرام:

١ ــ (إلهكم إله واحد فالذين لا يؤمنون بالآخرة قلوبهم منكرة وهم
 مستكبرون ٠) النحل : ٢٢

Y = (9) الذيت Y = (9) المؤمنون Y = (9) المؤمنون Y = (9)

٣ ــ (إن الذين لا يؤمنون بالآخرة زينا لهم أعمالهم فهم يعمهون • أولئك الذين لهم سوء العذاب وهــم في الآخرة هــم الأخسرون(١) •)
 النمل : ٤ و ٥

وهذه آيات لها أمثلة كثيرة في صدد تقرير أن الله لم يخلق الناس والكون عبثاً وباطلاً ولا بد من أنهم راجعون إليه بعد الموت ليوفوا أعمالهم، وأنه لايصح أن يكون المفسدون والفجار والصالحون والأبرار سواء مما قد يكون في الدنيا ، فاقتضت حكمة الله أن يكون بعث بعد الموتاتوفى كل نفس ماكسبت حقاً وعدلاً:

١ - (أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون • فتعالى الله الله إله إلا هو رب العرش الكريم •) المؤمنون : ١١٦و١١٥

٢ ـ (وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلاً ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات

⁽۱) عبارة الآية الاولى اسلوبية بمعنى أن الذين لايؤمنون بالآخرة يستحسنون كل ما يعملون مهما كان فيه اثم وجرم ، لانهم مطمئنون بعدم المحاسبة عليه ، وقد أنذرتهم الآية الثانية بالحساب والعذاب ، وفيها قرينة بل دليل على اسلوبيته الاولى ، لان الله يتنزه عن تزيين السوء للناس ثم يعذبهم عليه .

كالمسدين في الأرض أم نجعل المتقين كالفجار • كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولوا الألباب •) ص : ٢٧ ـ ٢٩

٣ ـ (لخلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس ولكن اكثر الناس لا يعلمون ، وما يستوي الأعمى والبصير والذين آمنوا وعملوا الصالحات ولا المسيء قليلاً ماتتذكرون ، إن الساعة لآتية لا ريب فيها ولكن أكثر الناس لا يؤمنون ،) غافر : ٧٥ ـ ٥٩

إ - (وما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما لاعبين ، ماخلقناهما إلا بالحق ولكن اكثرهم لايعلمون ، إن يوم الفصل ميقاتهم أجمعين ، يوم لا يغني مولى عن مولى شيئاً ولا هم ينصرون ، إلا من رحم الله إنه هو العزيز الرحيم ،) الدخان : ٣٨ - ٢٤

٥ ـ (أيحسب الإنسان أن يترك سدى ً • ألم يك نطفة من مني يمنى • ثم كان علقة فخلق فسوى • فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى • أليس ذلك بقادر على أن يحيى الموتى •) القيامة : ٣٦ ـ • ؟

وهذه أمثلة لها أمثال كثيرة جداً بالوعد والوعيد الأخروي إطلاقاً:

١ - (وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فاتوا بسورة من مثله وادعوا شهداء نم من دون الله إن كنتم صادقين . فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين . وبشر الذين أمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجري من تحتها الأنهار) . القرة : ٢٣ - ٢٥

٢ ـ (إليه مرجعكم جميعاً وعد الله حقاً إنه يبدؤ الخلق ثم يعيده ليجزي الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالقسط والذين كفروا لهم شراب من حميم وعذاب اليم بما كانوا يكفرون ٠) يونس : }

٣ - (الر كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير • ألا تعبدوا إلا الله إنني لكم منه نذير وبشير • وأن استغفروا دبكم ثم توبوا إليه يمتعكم متاعاً حسناً إلى أجل مسمى ويؤت كل ذي فضل فضله وإن تولوا فإني أخاف عليكم عذاب يوم كبير • إلى الله مرجعكم وهو على كل شيء قدير •) هود : ١ - ٤

أ ـ (فأندرتكمناراً تلظى ، لايصلاها إلا الاشقى ، الذيكذب وتولى، وسيجنبها الاتقى ، الذي يؤتي ماله يتزكى ، وما لأحد عنده من نعمة تجزى إلا ابتفاء وجه ربه الأعلى ، ولسوف يرضى ،) الليل : ١٤ - ٢١ .

ه ـ (إذا زلزلت الأرض زلزالها ، وأخرجت الأرض أثقالها ، وقال الانسان مالها ، يومئذ تحدث أخبارها ، بأن ربك أوحى لها ، يومئذ يصدر الناس أشتاتاً ، ليروا أعمالهم ، فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ،) سورة الزلزلة

ويجب أن نستدرك أمراً ، فإن ماقلناه من أن أوصاف المشاهسة الأخروية منسجمة مع مألو فات الدنيا مما ينطوي فيه حكمة قصد التأثير في السامعين ترغيبا وترهيباً ، ومن أن هذه الأوصاف متنوعة ، لايعني أن تلك المشاهد في انسجامها مع مألو فات الدنيا ، وفي تنوعها غير واردة في الآخرة ، فإن الآيات القرآنية ، تفيد أن الناس في الآخرة سيكونون في حالة جسمانية مشابهة لحالتهم في الدنيا ، فلا غرو أن تكون أسباب ومظاهر حياتهم الأخروية مشابهة لأسباب ومظاهر حياتهم الدنيوية ، وفي سورة البقرة آية قد يكون فيها قرينة على ذلك وهي :

(وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجري من تحتها الأنهار كلما رزقوا منها من ثمرة رزقاً قالوا هذا الذي رزقنا من قبل وأتوا به متشابها ولهم فيها أزواج مطهرة وهم فيها خالدون) ٢٥٠

وتنوع الأوصاف على اختلافها يمكن أن تكون في الآخرة حسب حالات الناس ، وتنوع المواقف الحسابية أيضاً ، وفي سورة الواقعة مايمكن أن يكون قرينة على ذلك في سياق وصف منازل المقربين ومنازل أهل اليمين ، فقد جاء في وصف الأولى:

(والسابقون السابقون أولئك المقربون ، في جنات النعيم ، ثلبة من الأولين ، وقليل من الآخرين ، على سرر موضونة ، متكئين عليها متقابلين ، يطوف عليهم ولدان مخلدون ، بأكواب وأباريق وكأس من معين ، لا يصدعون عنها ولا ينزفون ، وفاكهة مما يتخيرون ، ولحم طير مما يشتهون ، وحور عين ، كأمثال اللؤلؤ المكنون ، جزاء بماكانوا يعملون، لا يسمعون فيها لغوا ولا تأثيماً ، إلا قيلاً سلاما ،) الواقعة : ١٠ - ٢٦

وقد جاء بعدها في وصف منازل أهل اليمين

(وأصحاب اليمين ، ما أصحاب اليمين ، في سدر مخضود ، وطلّح منضود ، وظل ممدود ، وماء مسكوب ، وفاكهة كثيرة ، لامقطوعة ولا ممنوعة ، وفرش مرفوعة ، إنا انشاناهن انشاء ، فجعلناهن ابكاراً ، عرباً أتراباً ، لأصحاب اليمين ، ثلة من الأولين ، وثلة من الآخرين ،) الواقعة : ٢٧ ـ . }

وعلى المسلم على كل حال أن يؤمن بكل ماجاء في القرآن ويقول (آمنا به كل من عند ربنا) وما ادركه عقله فهمه ، وما لم يدركه يكل تأويله إلى الله تعالى مع محاولة استشفاف حكمته التي يمكن للمتوسطين فضلا عن النيرين والعلماء استشفافها ، والتي نرجو أن يكون ماشرحناه هو هذه الحكمة أو من وجوهها .

والملحدون ينكرون هذه الحياة ، ويتخذون الإيمان بها وسيلة للطعن والتجريح في الأديان وفي الدين الاسلامي بخاصة الذي انفرد كتابه الكريم بتفصيلها ، ومنهم من يتمحك بما جاء في آياتها من اوصاف ومشاهد وما في بعض هذه الأوصاف والمشاهد من تباين وتناقض ظاهريين .

لذلك نرى أن نتكلم في أصل المسألة أولاً ، فنقول: إن الآيات القرآنية احتوت بياناً للأهداف والمقاصد ، يمكن تلخيصها بأن الله تعالى لا يمكن أن يكون خلق الكون عبثاً ، وأن حياة الانسان الذي شاء أن يكون أكمل مخلوقاته الأرضية عقلاً ومنفردا وحده بالتكليف لا يمكن أن تكون قاصرة على الزمن القصير الذي يحياه في الدنيا ، وأنه لا بد من أن يكون لها تتمة أفضل وأكمل وأدوم يسود فيها أهل الإيمان والحق والعدل والخير ، ويتنعمون بالنعيم والسعادة والطمأنينة التامة ، وينخذل فيها أهل الجحود والباطل والظلم والشر والعدوان ، ويذوقون العذاب بما صنعوا ، وأنه لايتسق مع عدل الله أن يفلت الشرير مما يرتكبه من الآثام التي كثيراً ماينجو من عواقبها في الدنيا ومن عقاب جحوده لخالقه ، وما أسبغه عليه من نعم ، وأن يذهب عمل المؤمن الصالح وما يفعله من خير وعدل وحق كثيراً ما لإينال عليه مكافأة وجزاء في الدنيا هدراً وهباء ، وأن

يكون الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالجاحدين لله المفسدين في الأرض ، وأن يكون المتقون كالفجار ، وأن حكمة الله اقتضت من أجل تلك التتمة المسماة بالحياة الأخروية ، يرجع فيها الناس الى ربهم ، ويكافأ فيها المؤمن المحسن ، ويعاقب فيها الجاحد الآثم الباغي .

والمؤمن بالله الذي ينعم النظر في مشاهد الكون ونواميسه ، ويلمس فيها مايذهب بلبه ، ويملك عليه مشاعره من العظمة والاتقان والنظام البديع المعجز واجد كل الطمأنينة والحق في هذه المقاصد والأهداف ، وواجد أن الحياة الأخروية ، ليست مما يخرج عن نطاق قدرة الله مبدع هذا الكون ومدبره ، ولا عن حكمته السامية ، ولا عن نطاق التصور العقلي في الوقت نفسه ، ولقد أورد القرآن بدون أي تحرج اعتراضات الجاحدين لهذه الحياة ورد عليها ، ولا تخرج عما يورده الملحدون ، بحيث يكون الرد القرآني رداً عليهم وكفي .

ومن المتبادر بالاضافة إلى ماتقدم أن فكرة الحياة الأخروية وثوابها وعقابها تنطوي على الحافزعلى الخير ، والوازعين الإثم ، فالذين لايخافون الآخرة وحسابها ، ولا يعتقدون بها قلما يأبهون للحق والخير في شتى مجالاتهما ، ويندفعون فيها اندفاعاً ذاتياً وجدانياً دون انتظار مقابلة أو جزاء في الدنيا مادياً أم معنوياً ، وقلما يتورعون عن الإثم والمنكرات والغواحش والبغي والعدوان إذا ماتيقنوا من النجاة من العقوبة المادية والأدبية ، وأمنوا منها في الدنيا ، وفي ذلك أي : في ذلك الحافز والوازع اللذين ينطويان في فكرة الحياة الأخروية مافيه من صلاح الإنسانية وخيرها في الدنيا على مختلف المستويات ، وفي القرآن آيات عديدة تتضمن تقرير ذلك صراحة وضمناً كما ترى فيما بلى:

١ ــ (فالذين لا يؤمنون بالآخرة قلوبهم منكرة وهم مستكبرون .) النحل : ٢٢

٢ - (إن الذين هم من خشية ربهم مشفقون • والذين هم بآيات ربهم يؤمنون • والذين هم بربهم لا يشركون والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون • أولئك يسارعون في الخيرات وهم لهـــا سابقـون •) المؤمنون : ٥٧ - ٦١

وهذا يعني فيما يعنيه أن إيمان المؤمن بالآخرة، يجعله يتحمل المكارة، ويصبر على الشدائد، ويقدم على التضحية بماله ونفسه في سبيل الله والحق دون أن يهتم كثيرا لما قد يصيبه أو يناله من جزاء دنيوي أو نكران أو حرمان دنيوي، لأنه يعتقد أنه سوف يستوفي جزاءه على أوفى مايكون في ذلك اليوم أكثر بكثير من غير المؤمنين بها، وعلى أي مستوى، وهسذا ماتضمئته آبات الليل:

(فاندرتكم تاراً تلظى ، لايصلاها إلا الأشقى ، الذي كذب وتولى ، وسيجنبها الأتقى ، الذي يؤتي ماله يتزكى ، وما لأحد عنده من نعمة تجزى ، إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى ، ولسوف يرضى ،) ١٤ - ٢١

وكل من يتمعن في آيات القرآن في الحياة الأخروية لا يمكن إلا أن يلمح فيها من القدوة والنفوذ والحرارة مايبث في النفس كل اليقين بصدق وعد الله بها وقدرته عليها ، وحكمته السامية فيها .

ونحن نعرف أن الملحدين يقولون فيما يقولون: إنه ليس لفكرة الحياة الاخروية التأثير الخلقي العميق ، لانها سبب خارجي أو نظري ليس من كيان النفس ، وأعماق الضمير ، وإن أقل صدمة لهذا السبب تجعل ما أوجده من الحافز والوازع عدماً . وإن تربية الناس تربية خلقية عميقة نافذة هي التي تستطيع أن تكون الحافز والوازع الذاتيين ، وينسى القائلون _ ونقول هذا من قبيل المساجلة _ أن الأمل في هذه التربية وشمولها خيال مستحيل التحقيق بالنسبة لجمهور الناس ، وإنه إذا أمكن أن يتحقق في أناس ، فإنهم من الندرة والقلة في الدرجة التي لايكون أي أثر أيجابي محسوس بالنسبة للجمهور ، بل إن هناك ظروفاً اجتماعية أي أثر أيجابي محسوس بالنسبة للجمهور ، بل إن هناك ظروفاً اجتماعية تحت حكم الفرائز والوازع في هذه الطبقة القليلة النادرة ، وتصبح تحد حكم الفرائز والطبائع البهيمية ، بل نستطيع أن نقول : إن الذين يترددون في اقتراف البغي وعمل الإثم والمنكر أو الذين يفعلون الخير ذاتيا من هذه القلة النادرة يندفعون الى ذلك بحافز من عقلهم الباطن المؤمس بالآخرة وحسابها . . .

وْهَذَّا إلى أَن الكثرة العظمى من المجتمع لا يمكن أن يستغني عن حأفَّر ووازع مؤثرين ، وما اضطرار السلطات الحاكمة والهيئات الاجتماعية إلى وضع القوانين والحدود والتقاليد إلا مظهر من مظاهر هذه الحاجـة ، وتثبيت لها ، ولم يقل أحد: إنه ليس من حاجة إلى هذه القوانين والحدود والتقاليد لمنع الناس من الشذوذ والبغي والإثم والجريمة ، وحفزهم على الاستقامة ، والتزام الحق والانصاف والعمل الصالح النافع ، وإن هذا وذاك يمكن تحققه ذاتياً في يوم ما . وما دامت التجربة قد أثبتت أن كثيراً من الناس ، بل معظم الناس ينزعون إلى التفلت من القوانين والتقاليد والقيود والحدود ، ومعاكستها بشتى الأساليب تحقيقاً لمنافعهم وأهوائهم الخاصة حينما يأمنون المفبة ، ولا يقبلون على الخير لذاته ، ولا يستقيمون على طريق الحق ، ويلتزمون به إذا أمنوا اللوم والمهانة والحرج والخطر والجزاء الخاص او العام والرسمي او غير الرسمي ، فان الحاجة تظل ماسة إلى حافز ووازع أقوى تأثيراً وأعمق أثراً في النفوس من القوانين والتقاليد يجعلان المرء رقيباً على نفسه ولو لم يكن عليه رقيب ، وتحملانه على الرهبة من الإثم والأذي والشذوذ ، والرغبة في المعروف والخير والاستقامة في حال سره وعلنه ، وفي أعماق نفسه. والإيمان بالآخرةوثوابها وعقابها هو الذي يستطيع أن يسد هذه الحاجة . وإذا كان كثير من المؤمنين بالآخرة ينزعون أيضاً إلى الإثم والشر والأذى والعدوان ، ولا يندفعون إلى الخير ، ويلتزمون الحق ، فان غير المؤمنين أكثر نزوعاً إلى التفلت من وازع الضمير ، ووازع الرهبة من القوانين والتقاليد ، إذا ما أمنوا ضررها المادي والأدبى ، لأن أثراً ما من إيمان المؤمنين والخوف من الحساب الأخروي يظل في هؤلاء قد يو قفهم في لحظة ما ، ويجعلهم يندمون ويثوبون ويصلحون ، بينما لايكون في الجاحدين أثر من شيء ، ماداموا مستطيعين التفلت من العقوبة المانعة الرادعة أدبية كانت ام معنوية والفوز بالمنفعة الذاتية.

ويمكن أن يضاف إلى هذا أمر خطير آخر ، وهو ماتكون عليه قلوب ونفوس الجاحدين من فراغ ويأس وحيرة وقلق وتساؤل لا جواب عليه

عندهم من أمر هذه الحياة التي يحيونها بدون غاية ومدى بدءاً وسيرة ونهاية ، ثم من رغبة جامحة في استنفاد كل جهد في سبيل الاستمتاع بالحياة بأية وسيلة ممكنة ، ومهما كان فيها إثم وعدوان وفجود ، لانها كل مالهم . في حين أن المؤمنين بالله واليوم الآخر تكون قلوبهم مطمئنة بحكمة الله السامية في خلقهم وحياتهم وسيرتهم ومماتهم ، وبعبارة أخرى: إن الإيمان بالآخرة يذهب الخوف من الموت من الناس ، ويهبهم الشجاعة والاقدام ، وعمل الخير للخير والتغلب على الشح ، ويبعدهم عن اليأس والتهور لاستنفاد كل مايستطيعون من متع وشهوات مهما كان فيها إثم وعدوان . . . ويملأ نفوسهم أملاً بتتمة أفضل وأسعد لكل ذلك ، لأن ما عند الله خير وابقى ، وهذا ما أشارت اليه آيات عديدة منها آيات سورة النحل ههده:

(ما عندكم ينفذ وما عند الله باق ولنجزين الذيسن صبروا أجرهم بأحسن ماكانوا يعملون(١) ٠) ٩٦ و ٩٧

ولقد قلنا: إننا نقول هذا من قبيل المساجلة وحسب ، والا فإن فكرة الآخرة متصلة اشد الاتصال بفكرة الإيمان بالله وعظمته وعدله وقدرته وحكمته ، وتقرير كتابه الصريح القاطع ، ثم هي متصلة بما في أعماق النفس البشرية من فكرة الدين ، وبما تثيره عظمة الكون وبدائعه ونواميسه في هذه النفس من يقين عميق ذاتي لوجوب واجب الوجود وعظمته وحكمته

⁽¹⁾ قرآنا ونحن نكتب هذا مقالا في اهـرام الجمعـة ١٩٧٠/١٢/١٨ ليوسف ادريس بعنوان (اكتشاف قارة) من جملة مافيه مقارنة بين فكرة الموت والخلود فــي مصر والشرق العربي وآسيا البوذية فيه تناقضات وغفلة عجببة من شخص مثله ، وقــد وصف حالــة الهلع التي يشعر بها المصري والعربي من الموت ، لان الحياة الدنيا كل ماله في ذهنه ويريد أن يستنفد كل متعها وشهواتها في حين أن البوذي في حالة مطمئنة بالخلود باسلوب ما . والوصف ينطبق على حالة الملحد دون المؤمن المسلم الذي يهبه إيهانه ، واسلامه طمأنينة أوفى من طمأنينة البوذي وغيره كما هو الواضح مها قدمناه ، وهذا ما غفل عنه او جهله الكاتب ،

وعدله ، واستحالة أن يكون قد خلق ماخلق من اكوان ومخلوقات عبثاً ، لا يكاد يستطيع أحد أن يتفلت منها حتى الذين يظنون أنهم استطاعوا التفلت منها في وقت الرخاء والسعة حيث أنهم لا يشعرون إلا وهم تحت تأثيرها حينما تلم بهم النائبات ، وتحدق بهم أخطار .

ويقمز الأغبار الدبن الاسلامي بالجنات الأخروبة التي وعد بها معتنقوه زاعمين أن ذلك بثير فيهم الأنانية والطمع ، ويجعلهم لايفعلون الصالحات الا رغبة في الأجر الشخصى وانه يخرج الحياة الاخروية من نطاقها الروحاني . أما إثارة الانانية والطمع ، فالبداهة تقضى بأن تكون الحياة الأخروبة قاضية عليها ، لأن الإنسان الذي يؤمن بانه إذا آمين واتقى وعمل الصالحات واصل إلى اعلى ماتصبو إليه نفسه من لذة ونعيم في الحياة الأخرى يستطيع أن يوطن النفس على التضحيات المتنوعة وعلى القناعة والغيرية وأعمال البر ، دون أن ينتظر جزاءاً مادياً معجلا في الدنيا ، وأما النطاق الروحاني ، فان القرآن قد جرى فيما يقرره في كل شيءمع طبائع الأمور وغرائز الانسان وتطلعاته مع الحرص على حعلها معتدلة خيرة غير عدوانيــة ولا آثمة . والدين الاسلامي من أجل ذلك صح أن يكون دين الخلود والانسانية العام ، وما جاء في القرآن من صفات الحنات ونعيمها قد حرى في هذا النطاق . على أنه لم يقصر على ما سوف يتمتع به المؤمن الصالح في الحياة الأخروبة على الجنات واللذائذ الجسمانية بل ذكر أيضاً ما سوف يناله من رضوان الله الأكبر مما هو متسق كذلك مع طبائع الأمور من حيث إن الله يعلم أن هناك من يجد في هذا طمأنينة نفسه وقرة عينه . وهكذا احتوى القرآن ما يرضى المطالب الجسمانية والمثالية معا كما ترى في آية سورة آل عمر أن هذه.

فل أؤنبئكم بخير من ذلكم للذين اتقوا عند ربهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وأزواج مطهرة ورضوان من الله والله بصير بالعباد .)

وآية التوبة هذه

(وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ومساكن طيبة في جنات عدن ورضوان من الله اكبر ذلك هو الفوز العظيم ٠) ٧٢

وننبه على جملة (ورضوان من الله أكبر) حيث يمكن أن يكون قد قصد بها تنويه أكثر برضوان الله الأكبر .

والملحدون العرب يركزون على ناحية من أمر هذه الحياة بالنسبة للعرب الذين اكثريتهم الساحقة مسلمون مؤمنون بها ، وهي أنها تجعلهم ينغضون أيديهم من الحياة ، ويعتبرون أنفسهم عابري سبيل فيها ، وقد يكون هذا من واقع الحال الذي لايتحمل القرآن والإسلام مسؤوليته ، فكل ما في القرآن حتى العبادات من صلاة وصيام وحج ووضوء وتيمم هادف إلى صلاح الانسان في الحياة الدنيا وحتى الحياة الأخروية نفسها قد انظوت على هذا الهدف فيه ، مما أوردنا عليه الشواهد سابقاً ، وصلاح الانسان في الدنيا أمر عام يشمل كل شيء سياسيا واجتماعياً وعلمياً وسلوكياً واستعداداً وإعداداً وسعياً وجهداً الخ ألخ .

ولقد وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا كما جاء في الآية (٥٥) من سورة النور ، والصالحات التي قرنت بالإيمان في هذه الآية وغيرها تشمل كل شيء يجعل المسلمين صالحين لهذه الخلافة من علم وعمل وقوة وعزة وكرامة ، وتقدم في كل مجالات الحياة ، وكل هذا هو عماد النجاح للاستخلاف في الأرض والتمكن فيها ، ولا يصح أن يكون الله قد رشحهم لذلك ، ويرضى منهم أن ينفضوا أيديهم منه بطبيعة الحال ، ولقد توقع الله منهم أن يكونوا عند هذا حينما هتف بهم .

(ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون ، ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعدما جاءهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم ،) آل عمران : ١٠٤ و ١٠٥

ورشحهم ليكونوا خير أمة أخرجت للناس إذا هم استجابوا لهذا الهتاف.

كنتم خير امة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله •) آل عمران : 110

وتو قع منهم أن يفعلوا ذلك حقا . (الذين إن مكناهم في الارض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ٠٠٠) الحج : ١٤

والمعروف هو كل ما فيه خير ونفع ومصلحة وعزة وكرامية وعدل وحق واستقامة وصلاح ، والمنكر هو كل أضداد ذلك ، وقيد جعلهم الله وسطاً ليكونوا شهداء على الناس (سورة البقرة : ١٤٢) أي حاملي مشعل الهداية للناس الخيرين العادلين المستقيمين على الحق الذين برئوا مين الإفراط والتفريط والغلو والتقصير ، ولقيد استنكر الله تحريم طيباتيه وزينة الحياة الدنيا ، وهتف بالمسلمين بأنها من حقهم مثل غيرهم في الدنيا مع اختصاصهم بها في الآخرة .

(قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون ٠) الاعراف : ٣٢

ويضاف الى هذا ماسجله المسلمون من معالم الحضارة الباذخة في كل المجالات التي فيه الدلالة على استيعابهم لمدى تعاليم القرآن وتطبيقهم لها مما أداهم إلى الضرب بأوسع السهام في مختلف شؤون الحياة ، ومما فيه تكذيب لذلك الزعم .

ومع ذلك فإن واقع المسلمين لايفيد ذلك ، فهم منشغلون في الدنيا حسب ماتتحمله اذهانهم وافهامهم وظروفهم ، وإذا كان فيهم أو في أكثرهم همم فاترة ، فان ذلك هو نتيجة لفتور اذهانهم وضيق افقهم ، وسبوء فهمهم لتعاليم وأهداف مدى الرسالة الاسلامية ، وهذا من إثر الذهر الطويل الذي عاشوا في ظله وظلمه وظلماته وجهله وجهالاته ، ولا يتجمل القرآن مسؤوليته ، وليس له بعد صفة الاستمرار . وهناك طوائف كثيرة من المسلمين أخذوا يتخلصون منه ، وفي كل ماتقدم ما يسمد على الملحدين باب التمحل والتنطع فيما نعتقد .

وكلمة أخيرة في صدد ما يتمحك به الملحدون فيما جاء في القرآن من أوصاف ومشاهد ، وما قد يكون فيها من تباين وتناقض ظاهرين . فنقول : إن الآيات القرآنية في مشاهد الآخرة هي من المتشابهات التي تتحمل

وجوها عديدة ، ولا يتمحك بها إلا ذوو القلوب المريضة الزائفة على ما شرحناه قسل .

ولقد نبهنا مع ذلك إلى ماينطوي فيها من حكم وعبر ، ومن ذلك إثارة الخوف والندم في نفوس الكفار ، وكون مرد التنوع هو تنوع الواقف والفئات في الدنيا والآخرة ، والناظر في الآيات وسياقها والمقارن بينها عن حسن نية يجد لكل إشكال لفظي أو تعبيري جواباً شافياً من ذلك مما نبهنا عليه في تفسيرنا الحديث .

عاشراً: صفات الله عز وجل وافعاله وأسماؤه في القرآن

في القرآن آيات كثيرة تنسب إلى الله عز وجل اليد واليمين والقبضة والوجه والاستواء بمعنى الجلوس ، وبمعنى الصعود ، والمجيء ، والطي باليد ، والاخذ باليد والقطع ، والنفخ من روحه في خلقه ، والعروج إلى السماء ، والنزول والكتابة والتجلي على بعض خلقه وإشراق نوره ، وتذكر أنه في السماء ، وأنه فوق شيء ما ، أو مع شيء ما ، أو عند شيء ما ، أو يقف عنده خلقه أو هو معهم اين ما كانوا أو ثم وجهه اين ما يتولوا . وفيها اسسماء لله يشسترك فيها البشسر بحواسهم وأفعالهم وصفاتهم كالسمع والبصر والعلم والحكمة والتدبير والقبض والبسط الخ الخ . كما ترى فيما يلي:

١ ــ (هو الذي خلق لكم مافي الأرض جميعاً ثم استوى الى السماء
 فسواهن سبع سماوات وهو بكل شيء عليم ٠) البقرة : ٢٩

٢ ـ (ولله المشرق والمفرب فأينما تولوا فثم وجه الله إن الله واسع عليم ٠) البقرة : ١١٥

٣ ــ (إن ربكم الله الذي خلق السماوات والارض في ستة ايام ثم
 استوى على العرش •) الأعراف : ٥٥

إ - (ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه قال رب أرني أنظر إليك قال لن تراني ولكن انظر الى الجبل فإن استقر مكانه فسوف تراني فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا وخر موسى صعقاً فلما أفاق قال سبحانك تبت إليك وانا أول المؤمنين • قال ياموسى إني اصطفيتك على الناس برسالاتي وبكلامي فخذ ما آتيتك وكن من الشاكرين • وكتبنا له في الألواح من كل شيء موعظة وتفصيلاً لكل شيء •) الأعراف : ١٤٣ - ١٤٦

٤ - (يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون مايؤمرون ٠) النحل : ٥٠ - (والتي أحصنت فرجها فنفخنا فيها من روحنا وجعلناها وابنها آية للعالمن ٠) الانساء : ١٩

٦ - (يوم نطوي السماء كطي السجل للكتب كما بدأنا أول خلق نعيده وعداً علينا إنا كنا فاعلين ٠) الانبياء : ١٠٤

٧ ـ (والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريم الحساب ٠٠) النور : ٣٩

٨ - (وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسماوات مطويات بيمينه سبحانه وتعالى عما يشركون . ونفخ في الصور فصعق من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون . وأشرقت الأرض بنور ربها ووضع الكتاب وجيء بالنبين والشهداء وقضي بينهم بالحق وهم لا يظلمون) الزمر : ٦٧ - ٦٩

١٠ - (وترى الملائكة حافين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم
 وقضي بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين(١) ٠) الزمر : ٥٥

١١ - (وجاء ربك والملك صفاً صفاً ٥٠) الفجر: 22

والمتبادر بكل قوة أن هذه التعابير أسلوبية مما اعتادالبشر أن يفهموا بها المعاني المرادة بكلماتها ، وأنها بالنسبة الى الله عز وجل هي متشابهات تتحمل تأويلات عديدة ، ومنها مالايدرك العقل البشري تأويله ومداه ، وإن كان يستطيع أن يستشف منها أنها بقصد بيان شمول ملك الله وقدرته وعلمه وإحاطته ، وبقصد الاشارة إلى ذاته الإلهية وحسب ، لأن عكس ذلك يعني نسبة الحلول والجسمانية والعضوية إلى الله عز وجل ، وهذا من سمات الحدوث التي يجب تنزيهه عنها .

⁽۱) في القرآن غير هذه الآيات آيات كشيرة مبثوثة في مختلف السور المكية والمدنية فيها ما اردنا التنبيه عليه في هذه النبلة . وقد اكتفينا بما اوردناه لان فيه الدلالة التي أردنا ابرازها . اقرأ اذا شئت أيضاً آيات سورة فصلت 9-11 و 7 و الفتح . ۱ و 7 و الحديد 3 ، والمجادلة 7 والملك 17-11 والحاقة 17-11 و 17-11 والمحارج 17 و 18-11 و 18-11

ولقد ورد في آية سورة الانعام (١٠٢) جملة (لاتدركه الأبصار) وفي آية سورة الشورى (١١) جملة (ليس كمثله شييء) فهذه الجمل وأمثالها الكثيرة يصح أن تكون ضوابط حاسمة في صدد الذات الإلهية السامية من اسماء وأفعال وصفات أخرى قد توهم مماثلةلاسماء وصفات وأفعال البشر أيضاً حيث يصح أن يقال: إنها جاءت على سبيل التقريب والتمثيل ، فالله سميع ، ولكن ليس كمثل سمعه شيء ، والله بصير ، ولكن ليس كمثل بصره شيء ، والله متكلم وليس كمثل تكلمه شيء ، وهو وكن ليس كمثل تكلمه شيء ، وهو حيم وصبور وقابض وباسط ، وليس كمثل حياته وعلمه وإرادته وقوته وحكمته وصبره وقبضه وبسطه شيء ، ولا تستطيع أبصار البشر وأسماعهم فهم وإدراك كنه شيء منه ، مع وجوب إيمانهم بوجوب وجود وحمال صفاته ، لأن دلائل ذلك ماثلة في كل شيء في الكون . (١)

وفي القرآن آيات فيها تنبيه على أن كلمافي الكون يسبح الله ويسجله، ولو لم يستطع الناس أن يفهموا كنه ذلك ، وأنه نور السماوات والأرض مع تنبيهه في المثل الذي ضربه لذلك بأن نوره ذاتي أو مضيء بذاته كما ترى في الآيات التالية:

ا ـ ويسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء وهم يجادلون في الله وهو شديد المحال ٠) الرعد: ١٣

٢ ـ (ولله يستجد من في السماوات والأرض طوعاً وكرها وظلالهم
 بالفدو" والآصال ٠) الرعد: ١٥

٣ ـ (تسبح له السماوات السبع والأرض ومن فيهن وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لاتفقهون تسبيحهم إنه كان حليماً غفوراً ٠)
 الاسراء: ٤٤

إلم تر أن الله يستجد له من في السسماوات ومسن في الأدض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب وكثير من الناس وكثير حق عليه العذاب ومن يهن الله فماله منمكرم إن الله يفعل مايشاء ٠)
 الحسج: ١٨

⁽١) ننبه على أن للسلف الاسلامي الاول مذهبا لعله اسلم المذاهب وهو تلقي ما جاء في القرآن من العبارات كما هي والقول (آمنا به كل من عند ربنا) وإيكال المراد منها الى الله وعدم الخوض في تأويلها .

٥ - (الله نور السماوات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح في زجاجة الزجاجة كأنها كوكب دري يوقد من شجرة مباركة زيتونة لاشرقية ولا غربية يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار نور على نور يهدي الله لنوره من يشاء ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل شيء عليه ٥) النور: ٣٥

٦ - (ألم تر أن الله يسبح له من في السهاوات والأرض والطير صافات كل قد علم صلاته وتسبيحه والله عليم بما يفعلون • ولله ملك السهاوات والأرض وإلى الله المصير •) النور : ١١ و ٢٢

فكل هذا أساليب خطابية بلغة البشر الذين يوجه إليهم الكلام للتنبيه على كمال صفات الله ووجوده وإحاطته وقدرته وخضوع كل شيء له دون دخول في الماهيات والكنهيات ، ومن الواجب الوقوف عند ذلك .

وقد يقتضي هذا البحث كلمة في صدد صفة الله (المتكلم) لأن هذه الصفة متصلة عند أهل المذاهب الكلامية الإسلامية بأمر واقعي ، وهو كلام الله القرآني . والذي يتبادر لنا أن أهل هذه المذاهب قد شفلوا أنفسهم بمالا يتحمله الأمر ، وتاهوا في متاهات كنه الله بسبيل التوفيق بين صفة الله (المتكلم) التي يجب أن تكون كذاته أزلية أبدية غير حادثة ، حتى أدى الأمر إلى محنة مريرة دامية مما عرف بمحنة خلق القرآن (۱) وعدمه في القرن الثالث الهجري مما لا ضرورة دينية له ، ولا طائل منه ، فتعبير (كلام الله) في سورة التوبة هذه :

⁽۱) هــذه المحنة نجمت في عهـد الخليفة العباسي المأمون ، وكان أهـل المـذهب الني عرف بالمعتزلة ، والذين يسمهون أنفسهم بأهـل العدل والتوحيد ، أقوياء الكلمـة عليه ، وكانوا يقولون فيما يقولون : ان صفات الله وأسماءه ذاتية ، فهو عالم بذاته ، متكلم بذاته ، سميع بذاته الخ. وكانوا يقولون : ان القرآن مخلوق ، لانه منفك عن ذات الله ومعبر عن أمور حادثة ، فلا يصح أن يكونذات الله، وكان أهل مذهب السنة بزعامة الامام أحمد ابن حنبل يقولون : ان الله عالم بعلم ، ومتكلم بكلام ، وسميع يسمع الخ. وأن القرآن كلام الله غير مخلوق ، وأراد المأمون بتأثير المعتزلة أن يغرض هذا المذهب ، فصار يطارد زعماء مذهب السنة ويضطهدهم لارغامهم وارغام ابعيهم الذين كانوا أكثرية سواد الشعب على القول بمذهبهم ، وأدى الامر الى تعذيب وسجن وضرب واضطهاد وسفك دم ، واستمرت المحنة نحو بهذهبهم ، وأدى وقت في زمن المتوكل على الله .

(وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام (١) الله ثم أبلغه مأمنه ذلك بأنهم قوم لايعلمون •) ٦ هو كناية عن القرآن . ويجب الوقوف عند ذلك .

والمتمعن في الآيات القرآنية التي وردت فيها تلك التعابير والأسماء والصفات مضموناً أو اسلوباً أو سياقاً يجدها قد استهدفت من جههة تقرير معاني القوة والإحاطة والشمول والقدرة والوجود الدائم الشامل ، والحكمة البالفة لله تعالى ، ومن جههة أخرى تقريس أحسن الأسماء والصفات الدالة على أكمل الحالات ، وأتم المعاني اللائقة بالذات الإلهية بما تتسع له لفة البشر التي نزل القرآن بها . ولعل تنوع التعابير مما يقوم قرينة قوية على صحة ما نقرره ، والمتبادر دائماً منها هو تدعيم الدعوة الى ألله وحده ، وكونه المستحق وحده للعبادة والدعاء والاتجاه .

وملاحظة كل ذلك مهمة وضرورية جداً ، لأن من شأنها ان تعصم الناظر في القرآن من الاستغراق والتورط في التكلف والتخمين والتجوز في الماهيات من جهة ، ومن أي توهم بحسية الـذات الإلهية وحلولها وجسمانيتها ومشابهتها لأي من الخلق من جهة ، ومن التورط في الجدل الكلامي في صددها على غير طائل ولا ضرورة له من جهة ، وتجعله يقف من هذه التعابير والأسماء والصفات عند الحد الذي وقف عنده القرآن

⁽۱) هناك آيات أخرى فيها تعابير كلام الله وكلمة الله وكلمات الله ، ولكن فحواها وسياقها لا تعنى انها كتابة عن القرآن مثل آية البقرة هذه : (افتطمعون ان يؤمنوا لكم وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون) ٧٥ فهي على ماهر المتبادر في صدد بني اسرائيل وتاريخهم القديم ، ومثل آية الانعام هذه : (ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا ولا مبدل لكلمات الله .) ٣٤ التي تعني حكم الله ، وهذا المعنى وارد بالنسبة لآية سورة الانعام هذه : (وتمت كلمة ربك صدقا وعدلا ..) الله ، وهذا المعنى وارد بالنسبة لآية سورة الانعام هذه : (وتمت كلمة ربك صدقا وعدلا ..) ١١٥ ومثل آية سورة الكمات دبي لنفذ البحر قبلان تنفذ كلمات دبي ...) ١٩٠ التي تعني آيات الله في كونه ، ومثل آية سورة الفتح هذه : (سيقول المخلفون إذا انطلقتم الى مغانم لتأخذوها ذرونا نتبعكم يريدون أن يبدلوا كلام الله قل لن تتبعونا كذلكم قال الله من قبل ..) ١٥ التي تعني أمر الله وحكمه ..

لتحقيق الهدف الملموح منه مع استشفاف هذا الهدف الذي نرجو أن يكون ما ذكرناه ودون تزيد ولا تكلف ولا تمحل .

على أن الناظر في أساليب القرآن المتنوعة في هذا الصدد يجدها كما هو الشأن في غيرها من مشاهد كون وحياة أخروية وقصص وجين وملائكة من نوع (أسلوب الحكيم) الذي لا يدخل في نقاش وجدلوتقريرات كلامية ، ويتسبق مع طبائع الأمور من حيث إنه المخاطب به أناس متفاوتون متنوعون في ذهنياتهم وثقافاتهم وظروفهم ، والمهم الجوهري من أمرهـم هو دعوتهم الى الله وحده ، ثم إلى الخير والصلاح وإصلاحهم وتوحيههم إلى أحسن الوجهات ، وتقريب الأمور والمعاني الى عقولهم وأذهانهم ومداركهم بأساليب سائفة منسجمة مع مداركهم ، واعطاء كل موضوع في كل موضع ما يتحمله لتدعيم هذه الدعوة وتأبيدها وحعلها مؤثرة نافذة. وفي ذلك من دون ريب تعليم للطريقة الفضلي التي يجب فهم التعابير والأساليب القرآنية بها ، وتحصين من الوقوع فيما يقع فيه المسلمون وغيرهم ومن علماء وغير علماء من خطأ حينما بحاولون تحاوز هذه الطريقة والدخول في متاهات التخمينات والتأويلات والحاولات الكلامية التي لا جدوى منها ولا ضرورة لها . ولقد وقع كثير من المسلمين في ذلك ، فأدى إلى ما أدى إليه من مجادلات ومهاترات كلامية ، وإلى نشوء العديد من المذاهب والفرق الذي أدخل الوهن على الإسلام والمسلمين.

وقد يتفرع عن هذا مسألة يحسن الإلمام بها ، لأنها مما تثير الحيرة والإشكال ، فإن في القرآن آيات يفيد ظاهرها أن الله أراد في موقف من مواقف خلقه أن يعلم أموراً لم يكن يعلمها مثل هذه الآيات :

١ - (وما جعلنا القبلة التي كنت عليها إلا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه ٠٠) البقرة : ١٤٣

٢ - (إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله وتلك الأيام نداولها بين الناس وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء والله لا يحب الظالمين وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين وأم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين و) آل عمران: ١٤٥ - ١٤٢

٣ ـ (وما أصابكم يوم التقى الجمعان فبإذن الله وليعلم المؤمنين .
 وليعلم الذين نافقوا وقيل لهم تعالوا قاتلوا في سبيلالله اوادفعوا قالوا لو نعلم قتالا لا تبعناكم هم للكفر يومئذ أقرب منهم للايمان .) آل عمران :
 ١٦٦ و ١٦٧

إ ـ (يا أيها الذين آمنوا ليبلونكم الله بشيء من الصيد تناله أيديكم ورماحكم ليعلم الله من يخافه بالفيب فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب الله .) المائدة : ٩٤

٥ - (ثم بعثناهـم لنعلم اي الحزبـين احصى لما لبثوا أمداً ٠)
 الكهـف: ١٢

٦ (ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذينصدقواوليعلمن الكاذبين ٠) العنكبوت : ٣

٧ - (ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو اخباركم .) محمد : ٣١

٨ - (لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتابوالميـزانليقوم
 الناس بالقسط وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس وليعلم الله
 من ينصره ورسله بالفيب إن الله قوي عزيز ٠) الحديد ٢٥

٩ - (ليعلم أن قد أبلفوا رسالات ربهم وأحاط بما لديهم وأحصى كل شيء عدداً) الجن : ٢٨

ويقف بعض الناظرين في القرآن مستشكلين إزاء هذه الآيات . والوجه الحق في ذلك هو أن الآيات من المتشابهات التي تتحمل وجوها عديدة للتأويل ، وأن في القرآن آيات فيها حسم لعلم الله لكل شيء كائن ويكون قبل وقوعه ، وغائب وحاضر ، وخفي وظاهر مما يسوغ القول : إنها هي المحكمة ، لأن ذلك هو المتسق مع وجوب صفات الكمال لله تعالى، ويسوغ القول : إن الآيات التي نحن في صددها هي من المتشابهات ، وإن الحكم

في الأمر ينبغي أن يكون للمحكمات ، وهذه طائفة من ألآيات التي فيها حسم لكمال صفات الله وعلمه ، والتي يجب أن يكون لها الحكم فسي الأمر:

١ ــ (فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إني أعلم غيب السماوات
 والأرض وأعلم ما تنذون وما كنتم تكتمون ٠) البقرة : ٣٣

آ ـ (قل إن تخفوا ما في صدوركم أو تبدوه يعلمه الله ويعلم ما في السماوات وما في الأرض والله على كل شيء قدير ١٠) آل عمران : ٢٩

٣ - (إن الله كان بكل شيء عليهاً ٠) النساء: ٣٢

إلى الرسول إلا البلاغ والله يعلم ما تبدون وما تكتمون ٠)
 المائدة: ٩٩

ه - (أليس الله بأعلم بالشاكرين ٠) الأنعام: ٥٣

7 - (100 lim) يعلم ماتحمل كل أنثى وما تغيض الأرحام وما تزداد وكل شيء عنده بمقدار 0 - 100 lim الغيب والشهادة الكبير المتعال 0 - 100 lim السر" القول ومن جهر به ومن هـو مستخف بالليـل وسارب بالنهـاد 0 - 100 lim الرعـد 0 - 100 lim

٧ ــ (إنما إلهكم الله الذي لا إله إلا هو وسع كــل شــيء علماً ٠)
 طـــه : ٨٨

٨ ــ (إن تبدوا شيئاً أو تخفوه فإن الله كان بكل شيء عليماً ٠)
 الأحزاب: ٥٥

٩ - (قل بلى وربي لتأتينكم عالم الفيب لايعزب عنه مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض ولا أصفر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين ٠)
 ســـا : ٣

١٠ ـ (فلا يحزنك قولهم إنا نعلم ما يسرون وما يعلنون ٠) يس ٢٦٠

11 ـ (ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب إلّيه من حبل الوريد ٠) ق : ١٦

17 _ (وأنا أعلم بها أخفيتم وما أعلنتم ومن يفعله منكم فقد ضـل سواء السبيل •) المتحنة : ١

١٣ - (يعلم مافي السماوات والأرض ويعلم ما تسرون وما تعلنون والله عليم بذات الصدور (١) •) التفاين : }

ولقد قال بعض أصحاب المذاهب الكلامية استناداً إلى تلك العبارات إن الله تعالى لا يعلم حدوث الحوادث إلا عند وقوعها ، إلا أن معظم أصحاب المنداهب وجمهور علماء المسلمين وأئمتهم ومفسريهم ردوا ذلك بالدلائل القرآنية الكثيرة القطعية ، وبالدلائل العقلية والمنطقية على ازلية علم الله ، وإحاطته بكل ما كان ويكون وهو الحق والصواب اللذين تؤيدهما النصوص الآنفة ، وقد أو لوا العبارات تأويلات متسقة مع هذه الدلائل ، ومن التأويلات السديدة أن الله تعالى أراد بذلك إظهار المواقف المرادعلمها للناس ، وتمييز المؤمنين من المنافقين أمام الناس ، أو إظهار حقيقة الأمر علم رؤية ومشاهدة بعد أن كانت علم غيب ، حتى يترتب على أصحاب المواقف ما يستحقونه من عقاب وثواب من حيث إن ذلك إنما يترتب على محذوفاً مقدراً وهو ليعلم أولياء الله ، وليعلم عباد الله ، وليعلم الناس محذوفاً مقدراً وهو ليعلم أولياء الله ، وليعلم عباد الله ، وليعلم الناس السخ

حادي عشر تنبيهات على أخطاء أخرى يقع فيها الناظرون فيالقرآن

إن كثيراً من الناظرين في القرآن من مسلمين وغير مسلمين يقعون في أخطاء حينما يحاولون استخراج حكم ما ، أو فهم ما من آية دون أن ينتبهوا إلى سياق الآية الذي كثيراً ما يكون فيه دلالة على مداها تفهم به فهما صحيحاً ، أو استدراك ، أو تتمة ، أو توضيح لما يبدو من عبارتها من إشكال ، أو دون أن ينتبهوا إلى آيات أخرى في السورة أو في سور أخرى فيها كذلك استدراك أو تتمة أو توضيح أو تعديل أو نسخ ، أو تخصيص بعد تعميم أو تقييد بعد إطلاق ، وبالتالي دون أن ينتبهوا الى تخصيص بعد تعميم أو تقييد بعد إطلاق ، وبالتالي دون أن ينتبهوا الى أن القرآن كل متكامل يفسر بعضه بعضاً ، ويجب أن يفهم بعضه من بعض ،

⁽۱) هناك آيات كثيرة أخرى من باب هذه الآيات ، فاكتفينا بما أوردناه لان فيه الدلالية الكافية .

وأن يرجع بعضه إلى بعض بحيث يقال بجزم وقوة: إن الانتباه إلى ذلك يؤدي إلى ظهور الحق والصواب والحكمة الربانية ، والانسجام بين نصوص القرآن ، ويزيل ما يمكن أن يثير من وهم التعارض والتناقض ، وانسداد الباب على سوء الفهم والتأويل ، والحكم على مدى القرآن ، أو سوء الأدب مع منزله سبحانه وتعالى ، ومع المنزل عليه صلى الله عليه وسلم ، وبحيث يقال بجزم وقوة: إنه ليس في القرآن إشكال لا يزول بآية أوسياق، وليس فيه تعارض وتناقض إذا ما ربط بعضه ببعض ، وفسر بعضه ببعض ، وأرجع بعضه إلى بعض ، ونظر فيه ككل متكامل ، وهذا من معجزاته العظمى الخالدة .

ولقد جاء في سورة النساء هذه الآية: (أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً) ٨٢ وفي سورة فصلت هذه الآية (لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد)٢٤ والآيتان تتضمنان هذه الحقيقة تقريراً حاسماً.

وقد يقع بعض المسلمين في شيء من ذلك عن غفلة وحسن نية اولكن الملحدين والمبشرين يقعون في ذلك عن عمد وسوء نية اوللماحكة وإبراز الثغرات اوكثيراً ما يكون ذلك منهم بسبب عدم فهم للعبارة القرآنية فضلا عن سياقها وعما في غيرهامن توضيح وتتمة واستدراك ولقد نبهنا على كثير من أخطاء المبشرين في كتابنا الذي كتبناه في الرد عليهم اونشر قبل هذا . وفي كتاب صادق العظم «نقد الفكر الديني» نماذج من ذلك نبهنا على بعضها اووضعنا الأمر فيها في نصابه الحق فيما نرجو في مناسبات سابقة اوسوف ننبه على بعضها في هذه النبذة اونضع الأمر في نصابه الحق إن شاء الله .

ولقد أشرنا إلى مايتمحك به الملحدون من تبايت ظاهري في بعض العبارات القرآنية في صدد الخلق والتكوين والقصص ، ونبهنا إلى خطئهم في أخذ كل شيء من ذلك لحدته وإلى أن اوهامهم تزول لو نظروا إلى سياق الآيات ، أو قارنوا بينها وبين مثيلاتها ، أو في مواضيعها من آيات أخرى . وهذه طائفة أخرى من المواضيع والأمثلة:

(۱) ـ ففي بعض آيات تنسب الهداية والضلال اطلاقاً إلى الله تعالى ومشيئته بحيث يظن المتسرع أن الله قد قدر على أناس الضلال ، وعلى اناس الهدى اعتباطاً وجزافاً ، فلا حيلة لهم في ذلك ولا جدوى لاجتهادهم وكسبهم من خير وشر ، وحدر ومفامرة وتقوى وفجور وفسق وبحيث يسوغ المماحكون والمتمحلون لأنفسهم أن ينسبوا إلى الله عز وجل التناقض والتباين والظلم .

ففي سورة الأنعام هذه الآيات:

١ ــ (والذين كذبوا بآياتنا صم وبكم في الظلمات من يشأ الله يضلله
 ومن يشأ يجعله على صراط مستقيم ٠) ٣٩

٢ - (فهن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسسلام ومسن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنها يصعد في السماء كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون ٠) ١٢٥

وفي سورة الأعراف هذه الآيات:

١ _ (من يهد الله فهو المهتدي ومن يضلل فأولئك هم الخاسرون٠) ١٧٨٠

٢ ـ (من يضلل الله فلا هادي لهويذرهم فيطفيانهم يعمهون ٠) ١٨٦
 وفي سورة النحل هذه الآيات :

ا ـ (ولقد بعثنا في كل أمة رسولا ً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت فمنهم من هدى الله ومنهم من حتقت عليه الضلالة فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين . إن تحرص على هداهم فإن الله لايهدي من يضل وما لهم من ناصرين .) ٣٦ و ٣٧

٢ ـ (ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن يضل من يشاء ويهدي
 من يشاء ولتسألن عما كنتم تعملون ٠) النحل ٩٣

وفي سور فاطر والشورى والمدثر هذه الآيات

١ ـ (افمن ز"ين له سوء عمله فرآه حسناً فإن الله يضل من يشاء
 ويهدي من يشاء فلا تذهب نفسك عليهم حسرات ٠) فاطر : ٨

٢ ــ (ومن يضلل الله فماله من ولي من بعده وترى الظالمين لما رأوا
 العذاب يقولون هل إلى مرد من سبيل ٠) الشورى ٤٤

٣ ـ (كذلك يضل الله من يشاء ويهدي من يشاء وما يعلم جنود ربك إلا هو وما هي إلا ذكري للبشر ٠) المدثر : ٣١

هذا في حين أن في سياق هذه الآيات وما قبلها وما بعدها ، بل في صلب بعضها ما يزيل الوهم والإشكال . فآية الأنعام (٣٩) بسبيل وصف شدة تصميم المكذبين على عدم سماع الحق وقوله . وقد جاء في السياق السابق لها هذه الآية : (إنها يستجيب الذين يسمعون ١٠٠) أي الذين حسنت رغباتهم في استماع الحق ، كما أن فيه وصفاً لمواقف المكذبين ، وحكاية لندمهم في الآخرة ، وتسلية للنبي صلى الله عليه وسلم ، ونسبة موقف الضلال إليهم بحيث تكون عبارة الآية أسلوبية ، وليست تقريرية ، وبحيث يظهر من السياق كون الضلال إنما كان لموقف الضالين ، وليس مما حتمه الله عليهم اعتباطاً وجزافاً ، تعالى وتنزه عن ذلك . وفي صلب مما حتمه الله عليهم اعتباطاً وجزافاً ، تعالى وتنزه عن ذلك . وفي صلب قبلها شرح لمواقف الكفار وفكرهم ، بحيث يبدو أن ضلالهم وعدم هداهم هما نتيجة سوء نياتهم ، وعدم رغبتهم في الحق أي : كسبهم ، وأن العبارة أسلوبية ، وليست تقريرية .

وفي سياق آيات الأعراف تنديد بالكذبين والجاحدين ، أي :الفريق الذي خبثت طويته ، وصمم على الانحراف والضلال ، فصار ضلاله باختياره ، وكسبه ، وتكون صيغة الآية اسلوبية لا تقريرية ويحسن أن يقرأ السياق ١٧٤ – ١٧٧ و ١٧٩ – ١٨٥ فهو قوي الدلالة على ذلك . وسياق آية النحل (٣٦ و ٣٧) يدور حول المستكبرين الماكرين والمتقين ، وينسب لكل منهم كسب موقفه ، ويرتب على كل منهم الثواب والعقاب حسب كسبه كما يبدو بارزا في الآيات (٢٦ – ٣٥) وفي صلب الآية (٣٦) نعت لهم بالمكذبين ، وفي النعت تعليل قطعي ، وتقريس كون ضلالهم من نعت لهم بالمكذبين ، وفي النعت تعليل قطعي ، وتقريس كون ضلالهم من كسبهم ، وفي صلب الآية (٩٣) من سورة النحل إيذان رباني بأنهم سوف يسألون عما عملوا بحيث يتضمن ذلك تقرير كون ضلال الضالين ، واهتداء يسألون عما عملوا بحيث يتضمن ذلك تقرير كون ضلال الضالين ، واهتداء وهذا فضلا عن أن السياق قبل الآية وبعدها بنسب أفعال الناس إليهم ،

وَيَحَذُرُهُمْ وَيَنْذُرُهُمْ وَيَبْشُرُهُمْ ، وَيُرْتَبُ نَتَائِجُ مُواْقَفُهُمْ وَفَقَ أَعْمَالُهُمْ كَمَـا هُو بَارِزُ فِي الآيات (٨٩ ــ ٩٢ و ١٤ ــ ٩٧) .

وبالإضافة إلى ذلك ، فإن في القرآن آيات يمكن أن يكون فيها ضوابط حاسمة لهذه المسألة .

من ذلك آيات سورة البقرة هذه:

(يضل به كثيراً ويهدي به كثيراً وما يضل به إلا الفاسقين ، الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثا قه ويقطعون ما أمر الله بـــه أن يوصــل ويفسدون في الأرض أولئك هم الخاسرون) ٢٦ و ٢٧

حيث يتضمن كون الضلال انما حق على الذين انحر فوا وفسقوا وعصوا ، وتمكن الخبث وسوء القصد والطوية فيهم . ومن ذلك آيات سورة الأعراف هذه:

⁽۱) في القرآن آيات أخرى من باب الآيات التي أوردناها ، وفي سياق كل منها وفي صلب بعضها ما يزيل الإشكال ، وقسد اكتفينا بالامثلة التي أوردناها لان فيها غنى ، ويمكن أن يقاس عليها .

(وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله امرنا بها قل إن الله لا يأمر بالفحشاء اتقولون على الله مالا تعلمون • قل أمر ربي بالقسط وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد وادعوه مخلصين لسه الدين كما بداكم تعودون • فريقاً هدى وفريقاً حق عليهم الضلالة إنهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله ويحسبون أنهم مهتدون •) ٢٨ ـ ٣٠

وفيها تقرير كون الضلال حق عليهم ، لانهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله وهم يفعلون الفواحش ، وينسبونها الى أوامر الله وشرائعه ، وينزه الله نفسه عن الأمر بالفحشاء . ويقرر أنه انمايامر بالقسط ، والصلاة له وحده ، فيكون ضلال الضالين من كسبهم ونتيجة له ، ومن ذلك آيات سورة الرعد هذه :

(ويقول الذين كفروا لولا أنزل عليه آية من ربه قل أن الله يضل من يشاء ويهدي اليه من أناب ، الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب ، الذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم وحسن مآب ،) ٢٧ - ٢٩

وفيها تقرر كون الله انما يهدي اليه من اناب إليه واذعن ، اي : من رغب في الحق والهدى ، وقبل هذه الآيات سياق طويل فيه تنويه بالمتقين وأعمالهم الصالحة ، ومنازلهم عند الله ، وتنديد بالمجرمين وأعمالهم السيئة ، ونكالهم عند الله بأسلوب فيه نسبة كل عمل لاصحابه ، وترتيب النتائج عليهم وفقه وهو الآيات (١٨ – ٢٥) وفي التنويه الذي احتوت الآيات (٢٨ و ٢٩) بالمؤمنين توكيد بأن الذين أنابوا الى الله هم المؤمنون الذين رغبوا بالحق ، واطمأنت قلوبهم به فحق لهم الهدى الرباني . ومن ذلك آية سورة يس هذه : (إنما تنذر من اتبع الذكر وخشي الرحمن بالغيب فبشره بمغفرة وأجر كريم ،) ١١ ، التي تتضمن تقدير كون أصحاب النيات الحسنة ، والرغبات الصادقة هم الذين يستجيبون لدعوة الرسول وانذاره . ومثلها آيات في نفس السورة وهي : (وما علمناه الشعر وما ينبغي له إن هو إلا ذكر وقرآن مبين ، لينذر من كان حيئا ويحق القول على الكافرين ، ،) ٦٩ و ٧٠

وفيها زيادة توضيحية بأن القول إنما يحق على من تعمد الكفر والحجود ، ومثلها آلة سورة الانعام هذه:

(إنما يستجيب الذين يسمعون •) ٢٦ ، وآية سورة يونس هذه : (كذلك حقَّت كلمة ربك على الذين فسقوا أنهم لايؤمنون) 29 وآية سورة الأحقاف هذه: (فاصبر كها صبر اولوا العزم من الرسل ولا تستعجل لهم كانهم يوم يرون مايوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار بلاغ فهل يهلك إلا القوم الفاسقون •) ٢٥ وآية سورة غافر هذه (وكذلك حقَّت كلمة ربك على الذين كفروا أنهم أصحاب النار ١٠٠ ٢ ويضاف الى هذه الآيات الآيات المديدة التي فيها مقاطع (إنالله لايهدي القوم الكافرين) و (الخائنين) و (الظالمين) و (الفاسقين) مما يتضمن تقرير كون الكفر والخيانة والظلم والفسيق قد تحقق منهم فلم يستحقوا نتيجة لذلك عناية الله . وآيةسورة ابراهيم هذه: (يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ويضل الله الظالين ويفعل الله ما يشاء ٠٠) ٢٧ مهمة في بابها فهي صريحة بأن الذين يشاء الله أن يثبتهم هم الذين أخلصوا وآمنوا ، وأنالذين يشاء أن يضلهم هم الذين ظلموا فأشركوا وارتكبوا الفواحش... ونقطة أخرى مهمة ممكن أن نشار إليها في هذا المساق ، فهناك آيات تقرر أن الله لو شاء لما ضل الناس مثل آية سورة يونس هذه : (ولو شاء ربك لآمن من فيالأرض كلهم جميعاً افانت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين •)٩٩ وآية الأنمام هذه: (قل فلله الحجة البالفة فلو شاء لهداكم أجمعين ١١٩(٠٠ وآية الرعد هذه: (أفلم يياس الذين آمنوا أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعاً ٠٠) ٣١ وآية السجدة هذه: (ولوشئنا لآتينا كلنفس هداها ١٣(٠٠ الم

فلا يصح أن تؤول هذه الآيات وأمثالها أن الله منع الناس من الهدى ، وإنما الوجه في تأويلها أن الله قادر على قسرهم على الهدى ، ولكن حكمته اقتضت أن يتركوا لتمييزهم واختيارهم اللذين منحهما الله لهم ، وفي كل آية من هذه الآيات وأمثالها وفي سياقها ما فيه تأييد لذلك ، وتقرير لكون موقف الضلال وعدم الهدى إنما كان بكسب اصحابه ، ولقد كذب الله المشركين حيثما احتجوا بقولهم :

الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من الشيء كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا قل هل عندكم من علم

فتخرجوه لنا إن تتبعون إلا الظن وإن انتم إلا تخرصون ٠٠) الانعام ١٤٨ (وقال الذين أشركوا لو شاء الله ماعبدنا من دونه من شيء نحن ولا آباؤنا ولا حرمنا من دونه من شيء كذلك فعل الذين من قبلهم فهل على الرسل إلا البلاغ المبين ٠٠) النحل: ٣٥ وفي سورة الزمر هذه الآية: (إن تكفروا فإن الله غني عنكم ولا يرضى لعباده الكفر وإن تشكروا يرضه لكم ٠) الله عن أن يشاء مالا الرباني تقتضي أن يكون شاء لمن أضلهم الكفر ، وتنزه الله عن أن يشاء مالا يرضاه .. هذا فضلا عما في الآية من نسبة الكفر والشكر لمن يكفر ويشكر ، أي : تقرير كون الماكر أو الكافر هو كاسب شكره أو كفره باختياره .

(٢) – إن كثيراً من الناس يوردون جملة (والله خلقكم وما تعملون) في آية سورة الصافات (٩٦) للتدليل على أن الله تعالى قد خلق الناس وأعمالهم ، فليس لهم حيلة ولا أثر من كسب واجتهاد ، وصارت حجة لبعض المذاهب الكلامية الإسلامية التي تقرر أن الله هو خالق أفعال العباد دون ما أثر لاختيارهم وكسبهم . في حين أن هذه الجملة ليست تقريراً ربانياً لهذا المهنى ، وإنما هي من جملة حكاية كلام ابراهيم عليه السلام لقومه بسبيل التنديد بهم وإفحامهم . والقول لهم إن مادة الأصنام التي تنحتونها وتعبدونها هي من خلق الله مثلكم كما ترى في هذا السياق منواغ عليهم ضرباً باليمين ، فاقبلوا إليه يزفون ، قال أتعبدونماتلكم لاتنطقون، فراغ عليهم ضرباً باليمين ، فاقبلوا إليه يزفون ، قال أتعبدونماتنحتون، والله خلقكم وما تعملون ، قالوا ابنوا له بنياناً فالقوه في الجحيم ، فأدادوا به كيداً فجعلناهم الأسفلين ،) ، ٩ - ٨٨ ولو لوحظ السياق جميعه لما كان من محل ولا معنى لاقتطاع هذه الآية وحدها من السلسلة ، وتلقيها كتقرير رباني مباشر بخلق الله لأعمال الناس .

(٣) ـ ولقد احتوى القرآن حقاً آيات كثيرة تنسب الى الله ما يفعله الناسمن أفعال كأنههو الذي شاء لهم أن يفعلوها، فصاروا مجبرين على فعلها، أو آيات تنيط هدى الناس ونشاطهم ومكتسباتهم إلى الله ومصائرهم بمشيئته ، فلا يقع منهم إلا ما شاء من ذلك ، غير أن في القرآن آيات

كثيرة تنسب إلى الناس كل ما يفعلونه من أفعال ، ويكتسبونه من مكتسبات ، ويصيرون إليه من مصائر ، ويسيرون فيه من طرق الهدى والضلال والاستقامة والانحراف ، وتقدر لهم المشيئة الذاتية بما يختارون ويكتسبون ، وترتب عليهم نتائج ذلك في الدنيا والآخرة مما هو مبثوث في مختلف السور ، ويستطيع كل ناظر في القرآن أن يلمحه بسهولة وكثيرون يقعون في حيرة لما يوهمه ذلك من تباين وتناقض . .

ولقد شغل هذا الأمر الافكار في صدر الإسلام أيضاً ، وظل وما يزال يشغلها ، وأدى إلى نشوء المذاهب الإسلامية الكلامية . حيث ذهب فريق الى أنه لايجوز أن يقال : إن الانسان خالق أفعال نفسه ، لأن الله خالق كل شيء ، وإن مثل ذلك القول يستتبع القول : إن الانسان يفعل مالم يكن الله أراده وشاءه وهذا محال ، وإن الناس والحالة هذه مجبورون على أفعالهم ، وهو ما عرف بالمذهب الجبري أو الجهمي أو الإرجاء ، أي: إيكال مصائر الناس لله دون أفعالهم ، لانهم فعلوها مجبرين ، فإن شاء على ما فيه انحراف ، وإن شاء عفا عنهم . . وحيث ذهب فريق إلى أن الانسان هو خالق أفعاله ، وأنه ليس مجبوراً عليها من الله تعالى ، وأنه يتحمل مسؤوليتها وهو ما عرف بالمذهب القدري ، والمعتزلة والخوارج والشيعة على هذا المذهب أيضاً ، وتوسط فريق ، فقال : إنه وإن كان لايصع أن يقال : إن الانسان خالق أفعال نفسه ، لأن الله خالق وإن كان لايصع أن يقال : إن الانسان خالق أفعال نفسه ، لأن الله خالق أفعاله بذلك ، وقد دعم كل فريق مذهبه بآيات من القرآن .

ولقد ترجع عندنا من تمحيص هذه المسألة ان للسياسة دخلا غير يسير في نشوء هذه المذاهب في عهد الدولة الأموية ، فقد انقسم علماء المسلمين في هذا الظرف إزاء الاحداث الدامية بين اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأدت إلى استشهاد عثمان رضي الله عنه ، ثم إلى حرب الجمل وصفين ، وقيام الدولة الأموية الوراثية إلى جماعتين : جماعة تعتبر ما وقع من صنع الناس ، وتتهم من تتهمه وتسوغ الخروج عليه ، ثم على الدولة الأموية وإسقاطها . وكان من هؤلاء الجماعات التي

عرفت بالخوارج وبالشيعة ثم بالمعتزلة فيما بعد ، وإلى جماعة تعتبر ما وقع من مشيئة الله في الحقيقة يجب الوقوف عنده ، وعدم الخوض فيه ، ثم تطورت المجادلات والمناقشات ، فتبلورت تلك المذاهب .

وإذا كان حقاً في القرآن آيات متعارضة في مداها وظاهرها في هـذه المسألة وتثير الحيرة كما قلنا حيث يفيد بعضها ان الله هو خالق أفعال الناس ، ولا يقع منهم شيء إلا بمشيئته وإرادته ويفيد بعضها ان الانسان هو كاسب أفعاله ، وأن ما يفعله إنما يفعله بتمييزه واختياره ، وتقعمسؤوليته عليه نتيجة لذلك ، فإن مقارنة الآيات ، وربط بعضها ببعض يؤدي إلى زوال وهم التعارض والتباين ، بحيث يصح أن يقال : إن الأساليب تنوعت حسب ما اقتضته حكمة التنزيل ، غير أن مدى الآيات في النتيجة غير متعارض ، لانها جميعها كلام الله الذي لايصح أن يكون فيه تعارض ولا اختلاف ، وقد نبه القرآن إلى ذلك في آية سورة النساء هذه : (افلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيهاختلافاً عثيراً ١٠٠) ٨٢ وفي آية سورة فصلت هذه : (لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ١٠٠) ٢

وفي النبذة الأولى من هذه الفقرة شرح لناحية من هذه المسألة فيه وضع للأمر في نصابه الحق فيما نرجو .

ونريد هذا الأمر هنا شرحاً فنقول: إن هناك أولا حقيقة كبرى يجب أن يجعلها الناظر في القرآن نصب عينيه ، وهي ضابط حاسم في الأمر ، ونعني بها إرسال الله رسله لإنذار الناس وتبشيرهم ، وتبليغ وعده ووعيده لهم حسب مواقفهم منرسالات رسله استجابة وجحوداً ، وطاعة وعصياناً ، وتقوى و فجوراً . والقرآن يدور في نطاق ذلك ، فلا يمكن أن يتسبق لذلك حكمة إلا مع كون الله تعالى قد قضى أن يكون في خلقه العقلاء المكلفين قابلية التمييز والاجتهاد والاختيار والكسب والاستجابة وعدم الاستجابة ، والاهتداء وعدم الاهتداء ، واقتراف الآثام وتجنبها ، والطاعة والعصيان لأوامره ونواهيه ، ورتب على كل منهم نتيجة اجتهاده واختياره وكسبه وموقفه ، وفي القرآن ثانياً آيات عديدة يصح أن تكون ضوابط

محكمة لاتتحمل رباً ولا تعدداً في التأويل لتأييد ذلك مثل الآيات التالية التي لها أمثال كثيرة:

- ا _ (لايكلفالله نفساً إلا وسعها لها ماكسبت وعليها مااكتسبت ٠٠). النقرة : ٢٨٦
- ۲ (فاستجاب لهم ربهم اني لاأضيع عمل عامل منكم منذكر أوأنثى.
 بعضكم من بعض ٠٠) آل عمران: ١٩٥
- ٣ ـ (ولا تكسب كل نفس إلا عليها ولا تزر وازرة وزر أخرى ثم إلى
 ربكم مرجعكم فينبئكم بها كنتم فيه تختلفون ٠٠) الأنعام : ١٦٤
- إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون ٠٠) التوبة : ١٠٥
- ٥ (قل يا أيها الناس قد جاءكم الحق من ربكم فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها وما أنا عليكم بوكيل ٠٠)
 يونس : ١٠٨
- 7 (من اهتدی فإنها یهتدی لنفسه ومن ضل فإنها یضل علیها ولا تزر وازرة وزر أخری وما كنا معنبین حتی نبعث رساولا 6 (الاسراء : 6 (
- ∨ _ (وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ٠٠).
 الكهف : ٢٩
- ۸ (إن تكفروا فإن الله غني: عنكم ولا يرضى لعباده السكفر وإن تشكروا يرضه لكم ولا تزر وازرةوزر اخرى ثم إلى ربكم مرجعكم فينبئكم بما كنتم تعملون إنه عليم بذات الصدور ٠٠) الزمر : ٧
- ٩ _ (اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لاظلم اليوم إن الله سريع الحساب ٠٠) غافر : ٧١
- ١٠ _ (من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها وما ربك بظللم. العمد ١٠) فصلت : ٦٦
 - ١١ _ (كل أمرىء بما كسب رهين ٠٠) الطور: ٢١

١٢ - (إنا خلقنا الانسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعاً بصيراً • إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً • إنا أعتدنا للكافرين سلاسل وأغلالا وسعيراً • إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافوراً •) الإنسان : ٢ - ٥

١٣ – (ألم نجعل له عينين ، ولساناً وشفتين ، وهديناه النجدين ، فلا اقتحم العقبة ، وما أدراك ما العقبة ، فك رقبة ، أو إطعام في يوم ذي مسغبة ، يتيماً ذا مقربة ، أو مسكيناً ذا متربة ، ثم كان من الذين آمنوا وتواصو ا بالمرحمة ، أولئك أصحاب الميمنة ، والذين كفروا بآياتنا هم أصحاب المشأمة ، عليهم نار مؤصدة ،) البلد : ٨ – ٢

١٤ ـ (ونفس وما سو"اها . فألهمها فجورها وتقواها . قد أفليح
 من زكاها . وقد خاب من دستاها . .) الشمس : ٧ ـ . ١٠

۱٥ ـ (يومئذ يصدر الناس أشتاتاً ليئر وا أعمالهم ٠ فمن يعمل مثقال ذر"ة شراً يره ٠٠) الزلزلة : ٦-٨

وفي القرآن مئات الآيات التي فيها دعوة إلى التفكير والتدبر والتذكر والتعقل والسمع ، وتنديد بالذين لايتفكرون ولا يتدبرون ولا يتذكرون ، ولا يعقلونولا يسمعون ، وتنويه بمن يتفكر ويتدبر ويتذكر ويعقلويسمع. وحكاية لما يفعله الناس ولما يجب أن يفعلوه في كل شأن من شؤون الدنيا والحياة ، وترتيب للنتائج عليهم وفق ذلك مما فيه تأبيد لذلك أنضاً .

وفيه إلى هذا آيات عديدة تذكر أن الله تعالى خلق الناس ليبلوهم أيهم أحسن عملا ، وأن الله يأمرهم أن يستبقوا إلى الخيرات كما ترى فيما يلى :

ا ولو شاء الله لجعلكم المة واحدة ولكن ليبلوكم فيما آتاكم فاستبقوا الخيرات إلى الله مرجعكم جميعاً فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون ٠٠)
 المائدة : ٨٤

٢ ــ (وهو الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام وكان عرشه على الماء ليبلوكم أيكم أحسن عملاً ٠٠) هود : ٧

٣ _ (إنا جهلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا ٠٠) الكهف : ٧

} _ (الذيخلق الموتوالحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملاً ١٠٠) الملك: ٢

ولا مناص والحالة هذه من أن يقال: إن الآيات الموهمة خلاف ذلك هي اسلوبية وليست تقريرية ، ومن المتشابهات التي تتحمل وجوها للتأويل ، وإن من الواجب تأويلها على ضوء تلك الحقيقة ، وهذه الضوابط والتقريرات المحكمة .

ومع ذلك فإن المتمعن يجد في سياق أو صلب كل آية من الآيات الموهمة خلاف ذلك ما يزيل الوهم ، ويتسق مع تلك الحقيقة وهذه الضوابط .

ففي سورة البقرة مثلا هذه الآيات :

(إن الذين كفروا سواء عليهم أاندرتهم أم لم تندرهم لايؤمنون • ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم علناب عظيم • •) ٦ و ٧

فقد توهم الآيات في الظاهر أن عدم إيمان الكفار هو نتيجة ختم الله على قلوبهم وسمعهم وجعله على بصرهم غشاوة . ولكن الذي يتمعن فيها ويقرأ ما قبلها وما بعدها يجد أن الله تعالى قد عزا لكل فئة أعمالها ، ورتب على ذلك النتائج التي تستحقها ، فيكون التأويل الأوجه للآيات انها أسلوبية بسبيل تصوير شدة تصميم الكافرين على الكفر ، ويلحظ أن الآية (٧) قد ختمت بالتقرير بأن لهم عذاباً عظيماً . ولا يصح أن يكون الله قد رتب على هذه الفئة ذلك إلا لانهم كفروا باختيارهم ، وأصروا على الكفر ، ومن الجدير بالذكر أن هذه الآيات نزلت في بدء العهد المدني ، وأن كثيراً من الكفار الذين عنتهم قد آمنوا ، وتفانوا في دين الله وطاعة رسوله كما هو معروف يقيناً ، فتكون الآيات في الوقت نفسه تسجيلا لموقف قد تبدل فيما بعد .

وفي سورة الأنعام هذه الآيات :

(ومنهم من يستمع إليك وجعلنا على قلوبهم اكنة أنيفقهوه وفي آذانهم

وقراً وإن يروا كل آية لايؤمنوا بها حتى إذا جاؤوك يجادلونك يقول الذين كفروا إن هذا إلا اساطير الأولين وهم ينهون عنه وينأون عنه وإن يهلكون إلا أنفسهم وما يشعرون ولو ترى إذ وقفوا على النار فقالوا ياليتنا نرد ولا نكن بآيات ربنا ونكون من المؤمنين وبل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل ولو رد وا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون ٥٠) ٢٥ ـ ٢٨

فالآية الأولى توهم أن الله منعهم من أن يفقهوا ويسمعوا ، ولكن. السياق احتوى توضيحاً يزيل ذلك الوهم ، ويبرز أن موقفهم كان. باختيارهم وتصميمهم ، وبالتالي احتوى ما فيه تسويغاً للقول بأن الآية اسلوبية بسبيل التعبير عن شدة تصاممهم وإصرارهم على التكذيب، والجدال بالباطل .

وفي سورة الأنعام هذه الآية:

(ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شيء. قبلا ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله ولكن اكثرهم يجهلون ٠٠) ١١١

وتوهم الآية أن إيمانهم منوط بمشيئة الله وحسب ، في حين أن في السياق السابق واللاحق حملة على الكفار لموقفهم الجحودي ، ونسبة ذلك إليهم وإنذار ووعيد لهم . بحيث تكون هي الأخرى أسلوبية لبيان شدة تصميمهم على عدم الإيمان مهما أظهر الله لهم من آيات ومعجزات . وهذا السياق يبدأ من الآية (٩١) وينتهي بالآية (١١٧) . ومثل هذا يقال في آلة سورة الكهف هذه :

(ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه فأعرض عنها ونسي ما قدمت يداه. إنا جعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقرأ وإن تدعهم إلى الهدى فلن يهتدوا إذا أبدأ ٠٠) ٧٥

وسياق هذه الآية السابق واللاحق مثل سياق آية الانعام فيه حملة على الكفار لموقفهم الجحودي ونسبة ذلك إليهم وإندار ووعيد لهم ، ويبدأ هو الآخر من الآية (٢٦) وينتهي بالآية (٥٩) بل في الاية نفسها عدا سياقها السابق واللاحق ما يزيل الوهم حيث تتضمن تقرير كونهم ذكروا بآيات ربهم ، فاختاروا الإعراض والانصراف عنها فكانوا ظالمين .. ومثل هذا يقال في آيات سورة يس هذه:

(لقد حق القول على اكثرهم فهم لا يؤمنون ، إنا جعلنا في اعناقهم اغلالا فهي إلى الأذقان فهم مقمحون ، وجعلنا من بين أيديهم سدا ومن خلفهم سداً فاغشيناهم فهم لايبصرون ، وسواء عليهم أأندرتهم أم لسم تنذرهم لايؤمنون ، إنها تنذر من اتبع الـذكر وخشي الرحمن بالفيب فبشره بمغفرة وأجر كريم ، إنا نحن نحيي الموتى ونكتب ماقدموا وآثارهم وكل شيء احصيناه في إمام مبين ، ، ،) ٧ - ١٢

فالآيات تفسر بعضها بما يزيل أي وهم تباين وتعارض ، وقد جاء في خاتمتها تقرير بأن الناس سوف يحاسبون على ما قدمت أيديهم ، أي : ما كسبوه باختيارهم ، وهذا فضلاً عن اطراد ما قلناه في صدد آيات البقرة من أن هذه الآيات بل ومثلها آيات الكهف والأنعام تسجل موقفاً قد تبدل فيما بعد .

وليرجع القارىء إلى ما أوردناه في سياق قصة آدم وإبليس من توضيح في صدد ما في القرآن من تقرير لمشيئة الله ، ومدى ذلك ، فهو متصل من ناحية بهذا البحث ، ومن شأنه أن يزيد شرحنا وضوحاً وتأييداً.

وبعد إن هذه المسألة مسألة عقيدية بحتة ، ليس من شأنها أن تمنع الانسان من أي نشاط عملي وعقلي في كل مجالات الحياة ، فمادام الانسان من أي نشاط عملي وعقلي في كل مجالات الحياة ، فمادام الانسان حيا ، فهو متحرك وعامل مهما كانت عقيدته في الدافع لحركته ، والمسألة ليست إسلامية فقط ، فهي مسألة فكرية مشتركة بين مختلف أهل الملل والنحل أيضا . وفي صدد صلتها بالاسلام ، فالمرجع هو القرآن أولا ، وحكمة إرسال الله الرسل ثانيا ، والقرآن المحكم في جانب كون الله تعالى قد أوجد في الانسان قابلية التمييز والاختيار بين ما يعرض له من أمور متعارضة حيث إنه ينسب إليه أعماله ، ويرتب عليها النتائج وفق ذلك ، وما قد يكون فيه من آيات موهمة لخلاف ذلك ، ففي صلبها أو سياقها ما يزيل الوهم فضلا عما في القرآن من آيات محكمة ، وضوابط حاسمة مما أوردناه قبل قليل . والقرآن بين أيدي الناس ، وحكمة إرسال الرسل في هذا الجانب وقد قرر محكم القرآن أن الله لايكلف

نفسأ إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ، والله تعالى يتنزه عن تكليف الناس بما ليس في وسعهم الاستجابة له ، ومحاسبة الناس على غير ما اكتسبوه باختيارهم ، وقد طلب منهم أن يؤمنوا بالله ورسوله ، ويعملوا الصالحات ، ويجتنبوا الموبقات ، ووعدهم وأوعدهم ، وبشرهم وأنذرهم وقال لهم :

(من عمل صالحاً فلنفسه ومناساء فعليها وما ربك بظلام للعبيد .) فصلت : ٦٦

وقد يكون قول بعض أهل المذاهب (إن الانسان خالق أفعال نفسه) مما يثير ، ومما أثار الجدل في الصدر الاسلامي الاول ، لأن ذلك يستتبع أن يقال : إن الانسان يفعل مالا يريده الله .. والخلق هو مختص بالله . (ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل شيء فاعبدوه وهو على كل

ر دلام الله ربائم لا إله إلا هو حالق كل شيء فاعبدوه وهو على كــل شيء وكيل ٠٠٠) الأنعام : ١٠٢

وقد أقام الله الحجة على المشركين في ذلك في آية سورة النحل هذه: (أفمن يخلق كمن لايخلق أفلا تذكرون ٠٠) ١٧

وليس من ضرورة إلى استعمال هذا التعبير ، ويكفي أن يقال : إن الله قد أودع في الناس قابلية التمييز والاختيار ، وجعلهم مكلفين بناء على ذلك ، فهم يميزون ويختارون بهذه القابلية المودعة فيهم ، وبذلك يوضع الأمر في نصابه الحق .

ولقد تعرض صادق العظم لهذه المسألة بأساليب مختلفة ومواضع عديدة من كتابه (نقد الفكر الديني) ومن أقواله: (إن نظرية الكسب فاسدة ، وهي نوع من البهلوانيات الفكرية ، والألاعيب الكلامية كالتي لجأ إليها البعض لطمس معالم الخيار الحاسم الذي يوجب على المفكر أن يكون فيه بين موقفين متعارضين هما التسيير والتخيير ، والجبرية والقدرية ، أو بين كون العبد خالقاً لأفعاله ، وبين كون الله خالقاً لأفعال العباد ، وبعبارة أخرى : إن نظرية الكسب ليست إلا محاولة لتزييف التضارب القائم بين هاتين النظريتين للخروج بأي ثمن من مأزق صعب يحتم على الانسان إذا واجهه بصدق وأمانة أن يتخذ موقفاً محدداً

واضحاً من طرفي هذا التناقض بين فكرتي التسيير والتخيير) ونظن أن فيما قدمناه وضعاً للأمر في نصابه الحق ، ولا يبقى للعظم محل للتمحل والتنطع بالنسبة لنصوص القرآن وما عدا ذلك فالاسلام والقرآن لايتحملان مسؤوليته .

3 - في سورة القمر هذه الآية: (إنا كل شيء خلقناه بقعر) وقد فسرها بعض المفسرين بأنها تعني ما هو معروف من عقيدة (القضاء والقدر) ولقد أوردها صادق العظم في كتابه على هذا التفسير ليحمل على اثر هذه العقيدة في المسلمين بزعمه ، لأن الملحدين يعتبرونها مما يشل قوى الانسان ، ويحمله على الاستسلام والرضا بما يقع منه وعليه وقبل كل شيء نقول: إن استنباط عقيدة (القضاء والقدر) من هذه الآية غير سليم ، فالعبارة القرآنية هنا بسبيل تقرير كون الله خلق كل شيء بحساب وتقدير . وهذا المعنى ملموح في آيات كثيرة منها ما يلي :

١ ــ (فالق الإصباح وجعل الليل سكناً والشمس والقمر حسباناً
 ذلك تقدير العزيز العليم ٠٠) الإنعام : ٩٦

۲ _ (الله يعلم ما تحمل كل انثى وما تغيض الأرحام وما تزداد وكل شيء عنده بمقدار •) الرعد : ٨

٣ _ (وإن من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقيدر معلوم ٠)
 الحجر : ٢١

إلى المؤمنون: ١٨ وأنزلنا من السماء ماء بقدر فأسكناه في الأرض ، المؤمنون: ١٨ ومع ذلك فإن في القرآن والأحاديث مايستند إليه أصحاب المذاهب الكلامية الإسلامية ، ويجعلهم يقررون أن الاسلام يعترف بعقيدة (القضاء والقساد) .

ومدى (القضاء والقدر) هو مايقع من الانسان أو يقع عليه مما كان مغيباً عنه قبل وقوعه ، ومدى (عقيدة القضاء والقدر) هو أن مايقع على الإنسان أو يقع منه هو من قضاء الله وتقديره الأزلي الذي لاراد" له ولا حيلة فيه والذي لابد من وقوعه .

ومع تقرير واجب المسلم بأن يؤمن بما جاء في كتاب الله ، وبما ثبت من أحاديث رسول الله من نصوص فيها تقريرات عقائدية من هذا الباب وغيرها ، فإنه يتبادر أن هذا الأمر يتحمل توضيحاً وكلاماً ، فقد انتهينا في البحث السابق إلى القول: إن محكم القرآن وضوابطه في جانب كون الإنسان كاسباً لأفعاله ومواقفه مختاراً لها بقوة القابلية التي أودعها الله فيه ، وأنه ليس مجبوراً عليها ، ولا يصح والحالة هذه أن يقال: إنها مقدرة عليه من الأزل ولا حيلة له فيها ، وأنها لابد من أن تقع منهأوعليه ، لأن ذلك يتعارض مع تلك الضوابط والمحكمات ، وإذا كان في القرآن والأحاديث ما فيه خلاف لذلك بالنسبة لافعال الإنسان ، فتكون من المتشابهات التي تتحمل وجوها أخرى للتأويل ، ويجب تأويلها على ضوء المحكمات والضوابط القرآنية . وقد يكون الأصح والحق أن يقال والله المحكمات والضوابط القرآنية . وقد يكون الأصح والحق أن يقال والله ولا يكون قدرها من الأزل ، فالفرق واضح ، فالله يعلم من الأزل ان فلانا قلانا سوف يكون موقفه من أمر ما ، أو دعوة ما ، أو عمل ما على وجه ما بقوة قابلية التمييز والاختيار التي أودعها فيه .

وفي سورة الحديد آية يمكن الاستئناس بها على ذلك ، وإن تكن في صدد ما يقع على الأرض والناس من مصائب ليست من أفعالهم . وهــى :

(ما اصاب من مصيبة في الأرض ولا في انفسكم إلا في كتاب من قبل ان نبرأها إن ذلك على الله يسير ٠٠) ٢٢

وكلمة «كتاب » جاءت في آيات كثيرة بمعنى علم الله تعالى كما ترى فيما يلي:

ا ــ (وعنده مفاتح الغيب لايعلمها إلا هو ويعلم ما في البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبئة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين .) الأنعام : ٥٩

ر وما تكون في شان وما تتلو منه من قرآن ولا تعملون من عمـل $^{\prime}$ إلا كنا عليكم شهوداً إذ تفيضون فيه وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة في

الأرض ولا في السماء ولا أصفر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين ٠٠) . يونس : ٦١

٣ _ (وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها كل في كتاب مبين (١) ٠) هود : ٦

وآية الحديد تذكر مسألة أخرى ، وهي أن ما يقع على الناسوالأرض من مصائب ليست من كسبهم ، وتقرر أن الله يعلمها قبل وقوعها ، ولقد حاء بعد هذه الآية هاتان الآيتان :

(لكيلا تأسوا على مافاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم والله لايحب كل مختال فخور ، الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ومن يتو"ل فإن الله هو الغنى الحميد ١٠٠) ٢٢ و ٢٤

حيث تفيد أن الله سبحانه إنها اقتضت حكمته أن يخبر الناس بما أخبرهم به في الآية السابقة حتى لايحزنوا إذا فاتهم مايسرهم ، أو ساءهم ما وقع عليهم ، ولا يفرحوا ولا يبطروا إذا وقع لهم ما يسرهم . وقعد استطردت الآية (٢٣) إلى إعلان كون الله لايحب المختال الفخور ، أي : الذي يفرح ويبطر أو يختال ويتفاخر بما وقع له من خير وحظ ، وجاء في الآية (٢٤) توضيح آخر بما يفيد أن ذلك قد يجر الى البخل بما نالهم من خير وأمر الناس بالبخل أيضاً ، وانتهت الآية بإنذار من يفعل ذلك . وفي الشيطر الأول من الآية (٢٣) ما يفيد أنه قصد بها التثبيت والتسليبة بل وهذا ما يسوغ القول أن الآية (٢٢) نفسها بسبيل ذلك أكثر من كونها بسبيل التقرير .

وهناك آيات اخرى في هذه المسألة أيضاً ، منها آية سورة التفابن هـنه :

(ما أصاب من مصيبة إلا بإذن الله ومن يؤمن بالله يهد قلبه والله بكل شيء عليه من ١١(

⁽۱) هناك آيات عديدة أخرى من هذا الباب مثل آيات الاسراء (۸۸) والرعد (٤١) وطه (٢٠) والحج (٧٠) والنمل (٧٥) وسبأ (٣) وفاطر (١١) والنبأ (٢٩) .

وفي الآية قصد التسلية واضح أيضاً أكثر من قصد التقرير ، مع تقرير كون مايصيب الناس هو بإذن الله وعلمه ... ومنها آية سورة الشورى هذه:

(وما أصابكم من مصيبة فبها كسبت أيديكم ويعفوعن كثير ٠٠) ٣٠

والآية تعزو مايصيب الناس من مصائب إلى أخطائهم ، وتربط المصائب بأسباب تقع من الناس ، وتقرر أن هذه الأخطاء تستدعي أكثر مما يقع عليهم ، ولكن الله يتسامح ويعفو عن كثير مما يقع منهم .

وفي الآية التي تلي هذه الآية تتمة وهي:

(ومسا أنتم بمعجزين في الأرض وما لسكم من دون الله من ولي" ولا نصير ١٠) ٣١

حيث توضع أن المقصود بالخطاب هم الكافرون ، ولعل الآيتين نزلتا في موقف حجاج بين النبي صلى الله عليه وسلم والكفار في صدد مايصيبهم مصائب . ومنها آيات سورة النساء هذه:

(ألم تر إلى الذين قيل لهم كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة فلما كتب عليهم القتال إذا فريق منهم يخشون الناس كخشيبة الله أو أشد خشية وقالوا ربنا لم كتبت علينا القتال لولا أخرتناإلى أجلقريبقل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى ولا تظلمون فتيلاً ، أين ما تكونوا عدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة وإن تصبهم حسنة يقولوا هذه من عند الله وإن تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك قل كل من عند الله فما لهؤلاء القوم لايكادون يفقهون حديثاً ، ما أصابك من حسنة فمن ألله وما أصابك من سيئة فمن نفسك وأرسلناك للناس رسولاً وكفى بالله شهيداً ، من يطع الرسول فقد أطاع الله ومن تولى فما أرسلناك عليهم حفيظاً ،) ٧٧ - ٨٠

والآيات بسبيل التنديد في موقف لفريق من المسلمين هم على الأرجح منافقون ، حيث كانوا يعزون ما يصيبهم من مصائب للنبي صلى الله عليه وسلم ودعوته ، وما ينالهم من خير إلى الله وحده لئلا يبدو أن الدعوة النبوية قد عادت عليهم بالخير والبركة، وقد أظهروا الجزع الأنهم كتب عليهم القتال بعد فترة من الزمن اكتفى فيها منهم بالإيمان بالله ورسوله وإقامة الصلاة القتال بعد فترة من الزمن اكتفى فيها منهم بالإيمان بالله ورسوله وإقامة الصلاة

وإيتاء الزكاة ، فندت الآيات بهم ، وردت عليهم بالأسلوب والفحوى اللذين اقتضتهما حكمة التنزيل ، والآيات هي بسبيل موقف جدلي. للمنافقين ، ومع ذلك فقد تضمنت فيما تضمنته تقرير كون ماقد يقع على الناس من مصائب واخطار هو بسبب اخطائهم وتصرفاتهم . . . ومن ذلك آبات سورة التوبة هذه:

(إن تصبك حسنة تسؤهم وإن تصبك مصيبة يقولوا قد اخذنا أمرنا من قبل ويتولوا وهم فرحون . قل لن يصيبنا إلا ماكتب الله لنا هو مولانا وعلى الله فليتوكل المؤمنون . .) ٥ و ١٥

والآيات بسبيل موقف جدلي للمنافقين أيضاً . وقد تضمنت الرد عليهم والتنديد بهم مع تسلية النبي صلى الله عليه وسلم وتطمينه ، وقد تكون جملة (إلا ما كتب الله لنا) أقوى ما تضمنته آيات القرآن في تقرير كون مايصيب الناس بغير كسبهم هو مكتوبعليهم ، غير أن قصد التطمين والتثبيت والتسلية هو الابرز الأقوى .

ومهما يكن من امر فمسألة (القضاء والقدر) هي كالمسألة السابقة. عقيدية نظرية ، وهي ليست إسلامية فقط ، بل قدر مشترك عند جميع الملل والنحل ، ومثقفين وغير مثقفين ، بل وملحدين أيضاً من حيث إن هناك كلاماً يساق في صدد مسألة كون الناس مسيرين أو مخيرين وتأثرهم فيما يفعلون ، ويقع عليهم بظروفهم وبيئاتهم ونشأتهم وتربيتهم ووراثاتهم وظروف غيرهم ونشاطاتهم المعاكسة الخ ، وأنهم ليسوا مخيرين في الحقيقة في كثير مما يفعلون أو يقع عليهم ، ولكن ليس من شأن ذلك مع ذلك أن يمنع أحداً من العمل والنشاط في مختلف المجالات مهما كانت عقيدته فيها ، لأن نتائج ذلك العمل والنشاط مغيبة لاتعرف إلا بعد ظهورها ، ثم يستمر الانسان في العمل والنشاط ، لأن ذلك من طبيعة الحياة .

والقدر إلى هذا وفي نطاق مداه النظري هو الذي وقع وتم بقطع النظر عما كان قبله وما يكون بعده ، وهو عرضة للتبدل دائماً ، فقد يصيب الانسان مالاً ، أو يقع في إفلاس ، وقد تقع منه جريمة ، أو يكون صالحاً

مستقيماً في وقت ما . وكل هذا عرضة للتبدل نتيجة لاستمرار الانسان على النشاط ما دام حياً ، وهكذا تتسلسل المسألة فلا يبقى للقدر ذلك المعنى المحتم الجامد الراسخ في الأذهان من الوجهة النظرية أيضاً .

والقول والحالة هذه: إن عقيدة (القضاء والقدر) تشل قوى الإنسان ، وتجعله يستسلم للواقع مجاف للحقيقة والواقع ، فليس من إنسان وقع عليه شيء أو وقع منه فعل إلا استمر بعده في العمل والنشاط دون توقف .

وبالنسبة للمسلم فإن فيما تقدم ما يضع الأمر في نصابه . ومع ذلك حتى لو كانت هذه العقيدة مستحكمة عند المسلم بالنسبة لما يقع عليه من مصائب ، أو يقع منه من أفعال بقطع النظر عما كان قبل ذلك ويكون بعده ، فإن المسلم الذي يعتقد ذلك ، يقدم على جسيم الأمور غير هياب ولا وجل ، لأنه معتقد أنه لن يصيبه إلا ما كتب له ، ولن يغني عنه حذر من قدر كما يقول المثل ، وهذا هو التحليل المبدئي لأثر هذه العقيدة في المسلمين ، والذي كان يحركهم في الصدر الإسلامي ، ويجعلهم يقدمون على المخاطر والمصاعب ، وينجزون ما يكاد يكون من المعجزات في مختلف شؤون الحياة ومجالاتها .

ولقد اقتضت حكمة الله أن يزودهم بتطمين وتثبيت قرآنيين ، فجاء بعد آيات التوبة المذكورة هذه الآية :

(قل هل تربصون بنا إلا إحمدى الحسنيين ونحن نتربص بكم أن يصيبكم الله بعذاب من عنده أو بأيدينافتربصوا إنا معكم متربصون ١٠٠٠٥٠ وجاء في سورة البقرة هذه الآيات:

(يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة إن الله مع الصابرين، ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله اموات بل أحياء ولكن لاتشعرون ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون ولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة واولئك هم المهتدون،) ١٥٧-١٥٧

وفي هذا رد" مبدئي وعملي على من يتمحل من الملحدين في صدد أثر هذه العقيدة في المسلمين ، ويريد هدم الإسلام من أجلها ، ساءفألهم ، وخاب أملهم ، ورد" الله كيدهم إلى نحورهم .

وقد يكون واقع المسلمين يوحي ذلك ، ولكنه واقع له أسباب أخرى غير الاسلام وعقائده السليمة الصافية مما لايمكن أن يكابر فيه إلا أحمق. ٥ ـ ولصادق العظم مواقف تعسفية في صدد آيات قرآنية عديدة أساء تأويلها وفهمها ومداها ، وأساء الأدب في مناسبتها ، وقصد بذلك المماحكة والتمحل ، وإظهار نقائض القرآن وانتقاد الفكر الديني الإسلامي عبر ذلك كما كان شأنه وقصده فيما سماه مأساة إبليس ، وقد رأينا أن نلم بها لانها قد تمثل رأي غيره من أمثاله الملحدين أيضاً ، وقد يكون في بعضها إشكال لذوي النيات الحسنة من مسلمين وغير مسلمين ، فيكون الإلمام بها ، ووضع الأمر في نصابه الحق في صددها إن شاء الله مفيداً لهم مع ما يكون في ذلك من رد على المحدين ، وإظهار مافي تمحلاتهم ومماحكاتهم من ضعف وغثاثة وقصد سيء .

آ) من ذلك أية سورة الإسراء هذه:

(وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميراً •) ١٦

وقد أورد العظم هذه الآية في البحث الذي سماه مأساة إبليس في كتابه (نقد الفكر الديني) وقال بالحرف في تفسيرها: (إن الله قد شاء تدمير القرية . . بمحض مشيئته ، ولكن لئلا يكون للعباد عليه حجة فيما شاء لجأ إلى المكر ، فأمر مترفيها أن يفسقوا فيها حتى يبدو للجميع وكأن القرية استحقت ذلك التدمير ، بينما الحقيقة غير ذلك . وهذا من مكر الله)!!

كبرت كلمة تخرج من فيه ، لايقولها إلا شخص فقد المنطق والذوق. والعقل والأدب معا .

ولو أوتي شيئاً من ذلك حقاً ، لكان قبل كل شيء لاحظ أن الله يقتضي أن يكون في غنى عن إقامة حجة كاذبة لعباده فيها مكر وخلاع مما هو محض هراء ، ثم كان انتبه إلى الآيات التي قبل هذه الآية وبعدها فرأى فيها مايمنعه من هذا الهراء أيضاً ، فقد جاء قبلها هذه الآيات :

(وكلَّ إنسان الزمناه طائره في عنقه ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً ، إقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً ، من اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ومن ضلَّ فإنما يضل عليها ولا تزر وازرة وزر أخرى وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً ،) ١٣ ـ ١٥

وجاء بعدها هذه الآبات:

(وكم أهلكنا من القرون من بعد نوح وكفى بربك بذنوب عباده خبيراً بصيراً • من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموماً مدحوراً • ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكوراً • •) ١٧ سـ ١٩

فهل يقول ذلك الهراء عاقل ولو كان ملحداً في تأويل آية جاء قبلها وبعدها هذه الآيات التي تقول بلسان الله: إن الله لايعذب أحداً حتى يبعث إليهم رسولا ينذرهم ويبشرهم ، ويبين لهم الطريق ، فإذا ماجحدوا وانحرفوا حق عليهم العذاب ، وأنه لايحمل ذنب أحد على غيره ، وأن الله لايهلك الناس إلا بذنوبهم ، وأن من آمن واتقى شكر الله سعيه . . . وشيء من التروي وحسن الفهم والذوق يظهر أن عبارة الآية على ضوء ما قبلها وبعدها أسلوبية أريد بها تقرير ناموس اجتماعي عام ، وهو أن الأمم والمدن إذا ما ساد عليهم الفساق وحكموهم ، ورضوا هم بذلك كان في ذلك دمارهم . وجملة (فحق عليها القول) في الآية مؤيدة لهذا التأويل، فلا يصح أن يفرض أنه حق عليها القول بالتدمير إلا مع القول إنها وقفت موقفاً منحرفاً مع أمرائها الفساق متجاوبة معهم راضية بفسقهم ، ولقد فسرها المفسرون بتفسيرات أخرى ولكنها في معنى كون التدمير جزاء عدلا من الله بسبب سيرة الأمراء الفاسقة ، ومن هذه التفاسير : (إن

الله يأمر الأمراء بأوامره ونواهيه ، فلا يعملون بها وينحرفون ، ويرضى أهل بلدهم بذلك فيستحقون التدمير) وفي هذا أيضا صواب وسداد . والآية من ناحية أخرى تتضمن تقرير مسؤولية الزعماء ، لأنهم عادة يطاعون ، فإذا كانوا فساقاً أثروا في قومهم ، وأوردوهم موارد الهلاك . . ولقد جاء في سورة هود هذه الآبة :

(وما كان ربك ليهلك القرى بظلم واهلها مصلحون ٠) ١١٧

حيث تقرر تنزه الله تعالى عن إهلاك قرية إذا كان اهلها صالحين ومصلحين ظلماً واعتباطاً ، وجاء في سورة القصص هذه الآية :

(وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث في أمها رسولاً يتلو عليهم آياتنا وما كنا مهلكي القرى إلا واهلها ظالمون ٠٠) ٥٩

وجاء في سورة الأنعام هذه الآية:

(ذلك أن لم يكن ربك مهلك القرى بظلم وأهلها غافلون •) 131

أي إن الله لا يهلك قرية غافلة لا يكون قد جاءها منه رسول يبين لها طريق الحق ، وبعبارة أخرى لايهلكها عن غفلة وجهل وحسب ، بل إذا انحر فت عن طريق الحق بعد أن يكون بينها لها رسله . وهذه الآية جاءت حجة على المنحر فين حيث حاء قبلها هذه الآبات :

(يا معشر الجن" والإنس الم ياتكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي وينذرونكم لقاء يومكم هذا قالوا شهدنا على انفسنا وغرتهم الحياة الدنيا وشهدوا على انفسهم أنهم كانوا كافرين ٠٠) الانعام: ١٣٠

وفي القرآن آيات عديدة اخرى تقرر كون الله عز وجل لايظلم احدآ ، وأن الناس هم الذين يظلمون انفسهم بما يفعلونه من سيئآت ، ويقفونه من مواقف الكفر والانحراف كما جاء في هذه الآيات التي لها أمثال أخرى:

١ - (إن الله لايظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أحراً عظمها) النساء: ٠)

- ۲۷۲ -

٢ - (ولو ترى إذ يتوفى السذين كفروا الملائسكة يضربون وجوههم وأدبارهم وذوقوا عذاب الحريق . ذلك بما قدمت أيديكم وأن الله ليس بظلام للعبيد .) الأنفال : ٥٠ و ١٥

٣ ـ (ذلك من أنباء القرى نقصه عليك منها قائم وحصيد . وما ظلمناهم ولكن ظلموا أنفسهم فما أغنت عنهم آلهتهم التي يدعون من دون الله من شيء لما جاء امر ربك وما زادوهم غير تتبيب .) هود : ١٠١و١٠٠

ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ويقولون ياويلتنا مال هذا الكتاب لايفادر صفيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضراً ولا يظلم ربك أحداً .) الكهف : ٩٤

 ٦ (ولا نكلف نفساً إلا وسعها ولدينا كتاب ينطق بالحق وهم لايظلمون ٠) المؤمنون : ٦٣

وفي سورة النساء آية ذات مفزى عظيم في هذا الباب وهي:

(ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم وكان الله شاكراً عليماً .) ١٤٧

فلا يصح لعاقل أن يفرض بعد كل هذا أن الآية في صدد تقرير أن الله شاء تدمير القرية بدون سبب من انحراف أهلها فضلاً عن أمرائها ، ويفسرها بالتفسير الهراء الذي فسرها به العظم . على أن المرء لا يحتاج إلى نباهة كبيرة ، ليلمح قصده الصريح في هذا التفسير وهو التجريح والتهوين مهما كان فيه سوء أدب ، وسوء فهم. ، وسوء تأويل ، وسوء ذوق . وهذا لا يتسق مع أبسط مبادىء الأخلاق والعلم والأمانة إلا إذا كان الإلحاد يجعل صاحبه كذلك ، ويابؤساً له وتعساً . . .

ب) ومن ذلك آية سورة آل عمران هذه:

(ولا يحسبن الذين كفروا انما نملي لهم خير" لأنفسهم إنما نملي لهم ليزدادوا إثماً ولهم عذاب مهين ٠) ١٧٨

وقد أورد العظم الآية في معرض إرازها كظاهرة من مظاهر مازعمه من مكر الله بعباده . تنزه وتعالى عن ذلك ، كما كان أمره في صدد الآية السابقة ، وقال : إن (إملاء الله لهم ليزدادوا إثما هو مكر من الله بهم) كبرت كلمة تخرج من فيه ، لايقولها إلا سيء الفوق والفهم والأدب والإملاء هو الامهال مع إدامة الحالة القائمة الحسنة ، ولقد كان زعماء الكفار يحسبون أن ما يتمتعون به من خير ومال وقوة هو حظوة من الله لهم ، ودليل على رضائه عنهم على ما تغيده آيات سورة المؤمنون هذه :

(أيحسبون أنما نمدهم به من مال وبنين ، نسارع لهم في النيرات بل لايشعرون ،) ٥٥ و ٥٦

وهذا الذي كان قائماً في أذهانهم تكررت حكايته في آيات قرآنيــة أخرى منها آية سورة سبأ هذه:

(وقالوا نحن أكثر أموالاً وأولاداً وما نحن بمعدَّيين •) ٣٥ وآيات سورة فصلت هذه:

(لايسام الإنسان من دعاء الخير وإن مسته الشرة فيؤس قنوط • ولئن اذقناه رحمة منا من بعد ضراء مسته ليقولن هذا لي وما اظنه الساعة قائمة ولئن رجعت إلى ربي إن لي عنده للحسنى فلننبئن الذين كفروا بما عملوا ولنذيقنهم من عذاب غليظ • وإذا انعمنا على الانسسان اعرض وناى بجانبه وإذا مسته الشر فذو دعاء عريض •) ٩٩ - ١٥

وآية سورة آل عمران التي نحن في صددها قد تضمنت بل هدفت تطمين المؤمنين ، وإندار الكافرين ، وفيما قبلها من السياق توضيح لذلك حيث جاء قبلها هذه الآيات :

(إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه فلا تخافوهم وخافون إن كنتـم مؤمنين . ولا يحزنك الذين يسارعون في الكفر انهم لن يضروا الله شيئاً يريد الله ألاً يجعل لهم حظاً في الآخرة ولهـم عذاب عظيم . إن الـذين. اشتروا الكفر بالإيمان لنيضروا الله شيئاً ولهم عذاباليم . . ١٧٥-١٧٧

وقد تضمنت الآية تنبيها بأنه لاينبغي أن يظن المؤمنون ولا الكفار أن إملاء الله للكفار ، أو إمهالهم ، أو ما يكونون فيه من سعة رزق ونعمة هو مظهر من مظاهر رضائه عنهم وإنما هـو مقتضى حكمتـه التي اقتضت تأخير عذابهم ، أو إفساح المهلة والفرصة لهم ، مما جاء صراحة في آيات أخرى منها آية سورة النحل هذه:

(ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم ما ترك عليها من دابئة ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى فإذا جاء أجلهم لايستأخرون ساعة ولا يستقدمون ٠) ٦٦ وآيات سورة الكهف هذه:

(وربك الغفور ذو الرحمة لو يؤاخذهم بما كسبوا لعجل لهم العذاب بل لهم موعد لن يجدوا من دونه موئلاً ، وتلك القرى أهلكناهم لما ظلموا وجعلنا لهلكهم موعداً ،) ٥٥ و ٥٩

وآية سورة فاطر هذه:

(ولم يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترث على ظهرها من دابة ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى فإذا جاء أجلهم فإن الله كان بعباده بصيراً ١٠)٥٤ أما عبارة (ليزدادوا إثماً) فهي بسبيل توكيد الانذار حيث قصد بها أن ذلك الإملاء الذي يحسبونه خيرا سوف يكون عليهم شرا ووبالاً ، لأنهم يزدادون خلاله إثما وانحرافاً ، فيكون ذلك سبباً في زيادة ما أعد لهم من عذاب وهوان . وهكذا يوضع هذا الأمر في نصابه الحق ، ويظهر تمحل صادق العظم الذي هو من نوع ما نبهنا عليه ، أي قصد التجريح والتهوين وإظهار النقائض والثغرات في القرآن، وفي مسائل ثانوية وجانبية واسلوبية كما يفعل سخفاء المبشرين . مهما كان في موقفه سوء أدب وذوق . مع أنه كما قلنا مفروض فيه الأناةوالتروي والأمانةوالاستيعاب، ونبح جماح الهوى . . وأبسط تفكير وترو في أي إنسان ولو كان ملحداً لايمكن إلا أن يجعله يستبعد كون الله يصح أن يريد للناس أن يزدادوا إثما اعتباطاً وجزافاً . والقرآنجميعه يدور على صلاح الانسان وسعادته ونجاحه وخيره في الدنيا والآخرة . وقد اقتضت حكمة الله إرسال الرسل للناس

ليبينوا لهم سبيل ذلك ، ويخرجوهم من الظلمات إلى النور ، ويهدوهم إلى صراط الله المستقيم . وقد أوردنا قبل قليل كثيراً من الآيات التي تقرر أن كل نفس بما كسبت رهينة لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ، وأن الله لانظلم أحداً ، وأنه لابرضى لعباده الكفر .

ت) وفي القرآن آيات أخرى ورد فيها عبارة (إملاء الله الكفار) ، ففي سورة القلم هاتان الآيتان :

(سنستدرجهم من حيث لايعلمون ، وأملي لهم إن كيدي متين ،) }} و ه}

وقد تكررت الآيتان حرفياً في سورة الأعراف وهما الآيتان (١٨٢ و ١٨٣) والتأويل الحق للآيات والله أعلم هو أنها الأخرى بسبيل إنذار الكفار ، وإنها صيفة أخرى تتضمن معنى آية سورة آل عمران (١٧٨) التي كانت موضوع الفقرة السابقة .

ولقد نسب صادق العظم إلى الله تعالى صغة الكيد في بعض مواضع من كتابه مستنداً إلى العبارة القرآنية في هذه الآيات وأمثالها . والكيد تدبير يقصدبه اذى الفير بأسلوب ملتو ، ونكرر ما قلناه قبل من أنه لو كان في العظم أدب وذوق وسلامة فهم ، لما نسب إلى الله الكيد لعباده اعتباطاً ، وهو يرى القرآن يدور على ما فيه سعادة الإنسان وخيره ، وإخراج الناس من الظلمات إلى النور ، وسياق آيات القلم والأعراف يؤيد ذلك التأويل ، ويظهر غثاثة موقف العظم ، وهذا سياق آيات سورة القلم:

(سلهم أيهم بذلك زعيم ، أم لهم شركاء فليأتوا بشركائهم إن كانوا صادقين ، يوم يكشف عن ساق ويدعون إلى السجود فلا يستطيعون ، خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة وقد كانوا يدعون إلى السجود وهم سالون ، فنرني ومن يكذب بهذا الحديث سنستدرجهم من حيث الايعلمون ، وأملى لهم إن كيدي متين ،) ، ٤ - ٥٤

وقد جاء بعد ذلك آيات فيها تثبيت للنبي صلى الله عليه وسلم تجاه موقفهم:

(فاصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب الحوت إذ نادى وهو مكظوم. .)،

وصاحب الحوت هو يونس عليه السلام ، وقد يئس من إيمان قومه فتركهم غاضباً على ماجاء ذلك في آيات سورة الصافات (١٣٩ – ١٤٨) وسورة الأنبياء (٨٦) وهذا سياق آيات سورة الأعراف .

(ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها وذروا الذين يلحدون في أسمائه سيجزون ما كانوا يعملون ، وممن خلقنا أمة يهدون بالحق وبه يعدلون ، والذين كذبوا بآياتنا سنستدرجهم من حيث لايعلمون ، وأملي لهم إن كيدي متين ، أو لم يتفكروا ما بصاحبهم من جنة إن هو إلا نذير مبين ، أو لم ينظروا في ملكوت السماوات والأرض وما خلق الله من شيء وأن عسى أن يكون قد اقترب أجلهم فبأي حديث بعده يؤمنون ، ،) ١٨٠

وقد وردت عبارات الكيد في آيات أخرى على سبيل المقابلة والمشاكلة منها هذه الآية في سورة الطور:

(أم يريدون كيداً فالذين كفروا هم الكيدون •) ٢٤

وهذه الآيات في سورة الطارق:

٤À

(إنهم يكيدون كيداً • وأكيد كيداً • فمهل الكافرين أمهلهمرويداً •)، ١٥ - ١٧

وفي سورة الأنفال هذه الآية:

(ذلكم وأن ً الله موهن ً كيد الكافرين .) ١٨ (

حيث يبرز فيها قصد كون كيد الله هو بمعنى إحباط كيد الكافرين. وفي سورة غافر هذه الآية:

(وما كيد الكافرين إلا في ضلال ٠٠) ٢٥

وفي كل ما تقدم يبدو مافي تمحل العظم ومماحكته من غثاثة وسوء. أدب وذوق .

ث) ولم يكتف صادق العظم بما تقدم بل وقف عند آيات أخرى,

لتوكيد تمحله ، وسوء فهمه وأدبه في نسبة المكر لله بعباده سبحانه وتعالى حيث أورد هذه الآبات:

١ _ (ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين ٠٠) آل عمران : ١٥

٢ ـ (وإذ يمكر بـك الذي كفـروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكر الله والله خير الماكرين ٠) الأنفال : ٣٠

٣ ــ (وإذا أذقنا الناس رحمة من بعد ضراء مستهم إذا لهم مكر في
 آياتنا قل الله أسرع مكراً إن رسلنا يكتبون ما تمكرون ٠) يونس ٢١٠

وفسر العظم (المكر) بأنه تدبير يكون فيه كيد وأذى وإظهار شيء وإضمار ضده بسبيل ذلك . والحق في هذه الآيات أنها أسلوبية لإبراز مكر الكفار والمجرمين ، وكون الله قادراً على إحباط مكرهم ، وأن العبارة فيها جاءت من قبيل المشاكلة في التخاطب ، وهي سائفة في الأساليب العربية وغير العربية ، ولا يمكن أن يستنتج منها ما استنتجه العظم بالنسبة إلى الله تعالى ، ولقد يلمح المرء مقاصد مريبة مؤذية ضده من شخص لآخر ، فيؤذنه بذلك ، وينذره بأنه قادر على مقابلة مكره بمكر مثله وإحباطه فلا يعني هذا أنه أراد أن يصف نفسه بالمكر ، وكل مايمكن أن يعنيه أنه أدرك مقصد الآخر وفهمه ، وأنه قادر على إحباطه ، ولا يصح لعاقل ذي روية واتزان وذوق ، ولو كان ملحداً أن يستنتج منها غير ذلك إلا إذا أراد الماحكة والتمحل ، وتحميل الكلام غير ما يحمل ، وهو ما يتعمده صادق العظم على رغم دكتوراه الفلسفية التي يتبجح بها والتي توجب عليه أن يكون أكثر روية وأناة وذوقاً وأدباً وأمانة .

وابسط ترو لايمكن إلا أن يجعل أي عاقل حسن النية يرى فيما يقوله العظم مناقضة صارخة لمقاصد القرآن الرامية إلى خير الإنسان والانسانية ، وصلاحها وسعادتها ، ويستهجن نسبة المكر لله بعباده ، ويرى فيها تحميلا للكلام غير ما يحمل عن قصد وسوء نية .

وما ذكرناه من مدى الآيات ظاهر من فحواها لذاتها ، ثم من سياق كل منها السابق واللاحق الذي يقرر أن الذين هم موضوع الإنذار الرباني قد استحقوا ذلك لمواقفهم الجحودية وانحرافاتهم الخلقية والدينيسة ،

ومقاصدهم الإجرامية . وليقرأ القارىء آيات سورة عمران (03 - 80) وآيات سورة الأنفال (03 - 80) وآيات سورة يونس (03 - 80) وفي سورة النمل آيات فيها شرح للمكر الذي مكره قوم صالح بنبيهم ، وإيذان بأن الله قابلهم على مكرهم بمكر مماثل ، فأحبط مكرهم ودمرهم ، وبعبارة أخرى فيها توضيح قرآني لمدى الكلمة ، وتوكيد لكونها بالنسبة إلى الله تعالى أسلوبية خطابية بقصد إبراز كون الله محيطا بمكر الماكرين وهي هذه :

(ولقد أرسلنا إلى ثمود أخاهم صالحاً أن اعبدوا الله فإذا هم فريقان يختصمون • قال يا قوم لم تستعجلون بالسيئة قبل الحسنة لولا تستغفرون الله لعلكم ترحمون • قالوا اطيرنا بك وبمن معك قال طائركم عند الله بل أنتم قوم تفتنون • وكان في المدينة تسعة رهط يفسدون في الأرض ولا يصلحون • قالوا تقاسموا بالله لنبيتنه وأهله ثم لنقولن لوليه ما شهدنا مهلك أهله وإنا لصادقون • ومكروا مكراً ومكرنا مكراً وهم لايشعرون • فانظر كيف كان عاقبة مكرهم أنا دمرناهم وقومهم أجمعين • فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا إن في ذلك لآية لقوم يعلمون • وأنجينا الذين أمنوا وكانوا يتقون •) النمل : ٥٥ – ٣٥

وفي الآيات دلالات صريحة وحاسمة على أن المكر هو من جانب الظالمين الكافرين المفامرين ، وأن التدمير إنما كان عليهم عقاباً عادلاً ، وقد نجى الله المتقين المؤمنين ، وأي كلام بعد هذا هو تمحل ، ومن نفس وقلب مريضين ، وهذه الدلائل قائمة في صلب وسياق النصوص السابقةأيضاً.

وفي سورة فاطر آية عبر فيها عن مقابلة مكر الماكرين من الله بعبارة أخرى وهي :

(من كان يريد العزة فلله العزة جميعاً إليه يصعد الكلم الطيبوالعمل الصالح يرفعه والذين يمكرون السيئات لهم عذاب شديد ومكر أولئك هو يبود ٠٠) ١٠

مما فيه توكيد لما قررناه من مقاصد الآيات .

ج) ويسوق العظم آية سورة البقرة هذه:

(الله يستهزيء بهم ويمدهم في طفيانهم يعمهون ٠٠) ١٥

لابراز ما اراده من ثفرات ونقائض قرآنية في زعم قصد الله سبحانه وتعالى الكيد والمكر بعباده .

والعبارة أسلوبية مثل العبارات السابقة ، وهي مثلها بسبيل المقابلة على موقف المنافقين الذي حكته الآية التي قبلها وهي : (وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزؤون ،)

فجاءت الآية التي أوردها العظم دون ما قبلها للقصد السيء الغث الذي قصده ، لتعقب على قولهم بالأسلوب الخطابي المألوف ، واخراجها من هذا النطاق تمحل متهافت .

ح) ويسوق العظم جملة (يخادعون الله وهو خادعهم) في سياق يحكي موقفاً للمنافقين ليزعم أن الخداع من صفات الله في القرآن ، كبرت كلمة تخرج من فيه ، والجملة مثل سابقتها أسلوب خطابي مألوف للتعقيب على موقف المنافقين على سبيل المقابلة والمشاكلة .

ولقد أورد العظم مماحكاته وتمحلاته في صدد النصوص التي أوردناها في الفقرات السابقة في سياق بحثه الذي سماه (مأساة إبليس)، وعقبعلى ذلك بقوله: (إذا كان الله صانع الاشياء كلها ، ومقدر الخير والشير على عباده ، فلماذا أراد للناس أن يعتقدوا أن إبليس هو سبب الشر والمعصية ولماذا شاء تحميله أوزار أولئك الذين خلقهم للشر ، وأجرى الشر على ايديهم ، وهل باستطاعتنا أن نعلل هذه المفارقة بردها الى إحدى الصفات الالهية المعروفة ، وأجاب على ذلك بقوله : أعتقد أن الصفه الالهية التي نبحث عنها للاجابة على هذه الاسئلة هي صفة المكر).

وما تقدم من شروح لقصة آدم وإبليس وأهدافها ، ومدى دور إبليس ، ومدى كسب الانسان لأفعاله يضع الامر في نصابه الحق فيما

نعتقد ، ويظهر تهافت هذا الكلام جملة ، وما تقدم من شروح في الفقرات السابقة بظهر تهافت تمحلاته ومماحكاته تفصيلا .

وتصل الفثاثة وسوء الأدب الى ادنى الدركات في صادق العظم إذ يقول أيضاً في سياق كلامه: إن صفات الله البارزة في القرآن هي (المكر والكيد والتخويف) لأنه يعمى عن أسماء الله وصفاته المبثوثة في القرآن التي تتضمن مقاصده السامية في خلقه البارة الرحيمة الرؤوفة ، وما يغدقه عليهم من رعاية وعناية ، والتي ينتفي بها أي معنى من معاني المكر والكيد والخداع من الله بعباده والتخويف الجزافي لهم مثل (الرحمن الرحيم القدوس السلام الففار الوهاب الرازق الرزاق الفتاح الحكم العدل الطيف الحليم الفور المجيب الواسع الحكيم الودود الحق الولي الحميد الناصر النصير المولى البر التواب العفو الرؤوف الرشيد الصبور) ولأنه الناصر النصير المولى البر التواب العفو الرؤوف رحيم ، وأنه رحيم يعمى عن آيات كثيرة يقرر الله فيها أنه بعباده رؤوف رحيم ، وأنه أمثال ودود ، وأنه غفور حليم شكور . كما ترى في الآيات التالية التي لها أمثال كثيرة :

ا ـ يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً ويحدركم الله نفسه والله رؤوف بالعباد.) آل عمران: ٣٠

٢ - (کتب ربکم على نفسه الرحمة أنه من عمل منکم سوءاً بجهالة ثم تاب من بعده وأصلح فأنه غفور رحيم ٠) الأنعام : ٥٥

٣ ـ (فإن كذبوك فقل ربكم ذو رحمة واسعة ولا يرد بأسه عن القوم المجرمين ٠) الأنعام : ١٤٧

- ٤ (ورحمتي وسعت كل شيء .) الأعراف: ١٥٥
- ٥ (ثم تاب عليهم إنه بهم رؤوف رحيم ٠) التوبة : ١١٧
- ٦ (واستغفروا ربكم ثم توبوا إليه إن ربـــي رحيم ودود ٠٠) هــود : ٩٠
 - ٧ (وإن ربك لدُّو مففرة للناس على ظلمهم) الرعد : ٦

أ وتحمل أثقالكم الى بلد لم تكونوا بالفيه إلا بشق الأنفس إن ربكم لرؤوف رحيم •) النحل : ٧

- ٩ ــ (وربك الففور ذو الرحمة لو يؤاخذهم بما كسبوا لعجل لهم العناب ٠٠) الكهف : ٥٨
 - ١٠ ـ (إن الله بالناس لرؤوف رحيم ٠٠) الحج : ٦٥
 - 11 ـ (ولولا فضل الله عليكم ورحمته وأن الله رؤوف رحيم ٠) النـور: ٢٠
 - ۱۲ ـ (ليوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله إنه غفور شكور ٠) فاطر: ٣٠
- 17 ـ (قل يا عبادي الذين أسرفوا على انفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم ٠) الزمر : ٥٣
- ١١ ــ (الذين يجتنبون كبائر الاثم والفواحش إلا اللمم إن ربك واسع المغفرة ٠٠) النجم : ٣٢
 - ١٥ (هو الذي ينزل على عبده آيات بينات ليخرجكم من الظلمات الى النور وإن الله بكم لرؤوف رحيم ٠) الحديد : ٩
 - 17 ــ (إن تقرضوا الله قرضاً حسناً يضاعفه لكم ويغفر لكم والله شكور حليم ٠٠) التفاين : ١٧
- ولقد وصف الله نفسه في القرآن بالعزيز ذي الانتقام ، إلا "أن الآيات التي جاء فيها هذا الوصف صريحة الدلالة على أن الانتقام الربائي هو ممارسة معاقبة المجرمين الآثمين على جرائمهم وآثامهم ، وليس جزافاً واعتباطاً كما ترى فيما يلى:
 - ١ ــ (إن الذين كفروا بآيات الله لهم عذاب شديد والله عزيز ذو
 انتقام ٠) آل عمران : }
 - ٢ ــ (عفا الله عما سلف ومن عاد فينتقم الله منه والله عزيز ذو
 انتقام ٠) المائدة : ٩٥
- ٣ ــ (فانتقمنا منهم فأغرقناهم في اليم بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلن ٠) الأعراف : ١٣٦
- إ ـ (وقد مكروا مكرهم وعند اللهمكرهم وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال . فلا تحسبن الله مخلف وعده رسله إن الله عزيز ذو انتقام .)
 ابراهيم : ٢٦ و ٧٤

ه ـ ومن أظلم ، ممن ذكر بآيات ربه ثم أغرض عنها إنا من المجرمين منتقمون ،) السجدة : ٢٣

٦ - (ولن ينفعكم اليوم إذ ظلمتم أنكم في العذاب مشتركون . افانت تسمع الصم أو تهدي العمي ومن كان في ضلال مبين ، فإما نذهبن بك فإنا منهم منتقمون .) الزخرف : ٣٩ - ١٤

وقد تعامى صادق العظم كذلك عما في القرآن من عشر ات الآيات التي فيها تبشير وتطمين وترغيب بالاضافة الى ما فيه من تلك الصفات والأسماء الإلهية البارة الرحيمة كما ترى فيما يلى مما له أمثال كثيرة:

١ - (وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجري من تحتها الأنهار ٠) البقرة : ٢٥

٢ - (وقيل للذين اتقوا ماذا أنزل ربكم قالوا خيراً للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة ولدار الآخرة خير ولنعم دار التقين . جنات عدن يدخلونها تجري من تحتها الأنهار لهم فيها ما يشاؤون كذلك يجزي الله المتقين . الذين تتوفاهم الملائكة طيبين يقولون سلام عليكم ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون .) النحل : ٣٠ - ٣٢

٣ ـ (قل يا عبادي الذين اسرفوا على انفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم •) الزمر : ٥٣

إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون . نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة ولكم فيها ما تشتهي أنفسكم ولكم فيها ما تدعون. نزلا من غفور رحيم . ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال إنني من المسلمين .) فصلت : ٣٠ - ٣٣

ه ـ (والذين آمنوا وعملوا الصالحات في روضات الجنات لهم ما يشاؤون عند ربهم ذلك هو الفضل الكبير . ذلك الذي يبشر الله عباده الذين آمنوا وعملوا الصالحات . .) الشورى : ٢٢ و ٢٣

ولقد كان من عظيم سعة رحمة الله وحكمته وعدله أن وعد عامل. الحسنة بأضعاف أجرها في حين قرر أن عامل السيئة لا يجزى إلا بمقدارها كما ترى في هذه الآبات:

١ _ (إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت، من لدنه أحراً عظيماً ٠٠) النساء : ٠٠

٢ ــ (من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى.
 إلا مثلها وهم لا يظلمون ٠) الأنعام : ١٦٠

٣ ـ (من جاء بالحسنة فله خير منها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى الذين عملوا السيئآت إلا ما كانوا يعملون ٠) القصص : ٨٤

والناظر في الآيات القرآنية يجد أن ما فيها من تنديد وإندار ، ووعيد وشدة وقسوة إنما هو ضد الكافرين الظالمين المنحر فين الصادين عن سبيل الله المرتكسين في الفواحش والآثام ، أو بسبيل التحذير من هذه الأفعال ، وإصلاح الانسان وتنبيهه ، والآيات في ذلك كثيرة جدا ومبثوثة في مختلف السور ، وهذه أمثلة منها:

١ - (إن الذين يكتمون ما أنزل الله من الكتاب ويشترون به ثمناً قليلا أولئك ماياكلون في بطونهم إلا النار ولا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم ٠) البقرة : ١٧٤

٢ - (ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ويشهد الله على مافي قلبه وهو ألد الخصام • وإذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد • وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة علائم فحسمه حهنم ولئس المهاد •) البقرة ٢٠٣ - ٢٠٦

٣ - (إن الذين كفروا وظلموا لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم طريقاً • إلا طريق جهنم خالدين فيها أبداً وكان ذلك على الله يسيراً •) النساء: ١٦٨ و ١٦٩

إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فساداً أن يُقتلبوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وارجلهم من خلافأو ينفوا من الأرض ذلك لهم خزي في الدنيا ولهم في الآخرة عــذاب عظيم ٠)
 المائمة: ٣٣

٥ ـ (والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أنيوصل ويفسدون في الارض أولئك لهم اللعنـة ولهم سـوء الدار ٠) الرعـد : ٢٥

٦ - واستفتحوا وخاب كل جبار عنيد ، من ورائه جهنم ويسقى من ماء صديد ، يتجرعه ولا يكاد يسيغه ويأتيه الموت من كل مكان وما هــو بميت ومن ورائه عذاب غليظ ،) ابراهيم : ١٥ - ١٧

٧ ــ (والذين لا يدعون مع الله إلها آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله بالحق ولا يزنون ومن يفعل ذلك يلق أثاماً . يضاعف له العذاب يــوم القيامة ويخلد فيه مهاناً .) الفرقان : ٦٨ و ٦٩

وكل ما تقدم يظهر تمحل صادق العظم ، وسوء استيعابه للقرآن ، وسوء فهمه وتأويله ، وسوء أدبه معا . ولقد أعماه كل هذا بالاضافة الى عماه الخاص إزاء مدى النصوص السابقة وسياقها عن الحقيقة القرآنية الكبرى التي تتمثل في أن القرآن ورسالة الرسول الذي أنزل عليه القرآن يدوران على صلاح ألانسان وسعادته وخيره ونجاته ، وحثه على التمسك بأسباب ذلك والتحذير والانذار لن يقصر فيه مما لا يصح معه أن يرد لعقل عاقل ذي ذوق وأدب وفهم ولو كان ملحداً أن يستنتج من بعض المبارات القرآنية أن الله تعالى يريد أو أراد لعباده الضلال والضرر والشر والهلك والانحراف ، وأنه يمكر بهم ويكيد لهم . تنزه وتعالى عن ذلك .

وفي القرآن ظاهرة مهمة في صدد ذلك ، عمي عنها العظم وهي ظاهرة فتح باب التوبة لكل كافر ومجرم ومنافق ، والرغبة في إتاحة الفرصة له لفتح صفحة جديدة ، وإصلاح نفسه وسلوكه إزاء الله والناس ، بحيث يكون ذلك الاستنتاج هراء ، وقلة ذوق وأدب أكثر منه أي شيء آخر ، وهذه طائفة من الآيات تمثل تلك الظاهرة البارة الرحيمة :

ا _ (إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار وان تجد لهم نصيراً . إلا الذين تابوا وأصلحوا واعتصموا بالله واخلصوا دينهم لله فأولئك مع المؤمنين وسوف يؤت الله المؤمنين اجراً عظيماً . ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم وكان الله شاكراً عليماً .) (١) النساء : ١٤٥ ـ ١٤٧

إنها جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فساداً أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وارجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض ذلك لهم خزي في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب عظيم • إلا الذين تابوا من قبل أن تقدروا عليهم فاعلموا أن الشغفور رحيم •) المألدة: ٣٤ و٣٤ من قبل أن تقدروا عليهم فاعلموا أن الشغفور رحيم •) المألدة: ٣٤ و٣٤ من قبل أن تقدروا عليهم فاعلموا أن الشغفور رحيم •) المألدة: ٣٤ و٣٤ و٣٤ من ألم المؤلفة الم

٣ – (فاذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كلّ مرصد فان تابوا واقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم إن الله غفور رحيم ، وإن أحد من المشركين استجادك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلف مأمنه ذلك بأنهم قوم لايعلمون ، كيف يكون للمشركين عهد عند الله وعند رسوله إلا الذين عاهدتم عند المسجد الحرام فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم إن الله يحب المتقين ، كيف وإن يظهروا عليكم لايرقبوا فيكم إلا ولاذمة يرضونكم بأفواههم وتأبى قلوبهم وأكثرهم فاسقون ، اشتروا بآيات الله ثمناً قليلا فصدوا عن سبيله إنهم ساء ما كانوا يعملون ، لايرقبون في مؤمن إلا ولاذمة وأولئك هم المعتدون ، فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فإخوانكم في الدين ونفصل الآيات لقوم يعلمون ،) التوبة : ٥ – ١١

إيحلفون بالله ما قيالوا ولقد قالوا كلمة الكفر وكفروا بعيد إسلامهم وهموا بما لم ينالوا وميا نقموا إلا أن أغناهم الله ورسوليه من فضله • فإن يتوبوا يك خيراً لهم وإن يتولوا يعذبهم الله عذاباً أليمياً في الدنيا والآخرة وما لهم في الأرض من ولي ولا نصير • •) التوبة : ٧٤ هي و (والذين لايدعون مع الله إلها آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق ولا يزنون ومن يفعل ذلك يلق أثاماً • يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهاناً • إلا من تاب وآمن وعمل عملا صالحاً فاولئك

⁽١) نلفت النظر الى روعة الآية الاخيرة ومداها البليغ .

يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفوراً رحيماً ٠) (١) الفرقان : ٧٠ – ٨٨

وفي القرآن آيات قد تدخل في باب ما تقدم ، وقد رأينا أن نورد نماذج منها ، ونعلق عليها بما نرجو أن يكون الحق والسداد ، ويزيلماقد يحيك في صدر أحد من وهم وتوهم في صددها:

آ) من ذلك جملة:

(وكذلك زينا لكل أمة عملهم . . .) الأنعام : 10.

وعلى ضوء المحكمات القرآنية التي شرحناها في صدد كسب الناس الاعمالهم وكونهم غير مقسورين عليها الامناص من تأويل الجملة بأنها تضمنت تقرير ناموس اجتماعي ، وهو استحسان الناس لما يفعلون ويكونون عليه من مواقف ، وتكون الجملة أسلوبية ، وليست تقريرية ، وقد يؤيد هذا تتمة الآية وهي :

(ثم إلى ربهم مرجعهم فينبئهم بما كانوا يعملون ٠)

حيث نسب فيها الأعمال إلى أصحابها ، فصاروا مسؤولين عنها أمام الله ليحاسبهم عليها حينما يرجعون إليه يوم القيامة . كما يؤيده أول الآسة وهي :

ت(ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبئوا الله عدوا بغير علم ٠) الأنعام : ١٠٨

حيث تقرر الجملة نسبة المدعاء من دون الله إلى من يفعل ذلك ، ويؤيده كذلك السياق السابق للآية وهو:

(قد جاءكم بصائر من ربكم فمن أبصر فلنفسه ومن عمي فعليها وما أنا عليكم بحفيظ و كذلك نصرف الآيات وليقولوا درست ولنبينه لقوم يعلمون و اتبع ما أوحي إليك من ربك لا إله إلا هو وأعرض عن المشركين ولو شاء الله ما أشركوا وما جعلناك عليهم حفيظاً وما أنت عليهمبوكيل والنعام : ١٠٣ ـ ١٠٧

حيث تقرر أن الناس أمام ما جاءهم من بصائر في خيار من الإبصار

⁽١) هناك آيات كثيرة أخرى في التوبة فاكتفينا بما تقدم ٠

والعمى ، وأن تبعة اختيارهم عائدة إليهم ، وأن الله لو شاء لما أشركوا ، ولكن حكمت اقتضت تركهم الختيارهم لتكون لهم ، وعليهم التبعة عدلا وحقاً .

ب) ومن هذا الباب آية سورة النمل هذه:

(إن الذين لا يؤمنون بالآخرة زينا لهم أعمالهم فهم يعمهون ٠) ؟
ويقال في صددها ما قلناه في صدد آية الأنعام السابقة ، والآية التي
بعدها تؤيد ذلك ، وهي:

(أولئك الذين لهُم سوء العذاب وهم في الآخرة هـم الأخسرون ·) النمل : ه

حيث تتضمن تقرير مسؤوليتهم عن عملهم وموقفهم ، وترتيب ما يقتضيه هذا الموقف والعمل من عقاب ، ولا يصح أن يكون هذا إلا بتأويل مماثل لتأويلنا لجملة سورة الأنعام ، والآيات التي قبلها تؤيد ذلك أيضاً وهي :

(تلك آيات القرآن وكتاب مبين ، هدى وبشرى للمؤمنين ، الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم يوقنون ،) النمل : ١-٣ حيث تضمنت نسبة الإيمان والصلاة والزكاة والإيقان بالآخرة للمؤمنين للذين يكون كتاب الله لهم هدى وبشرى خلافاً للذين لايؤمنون بالآخرة ..

ت) ومن ذلك آبة سورة الأنعام هذه:

(وكذلك جعلنا لكل نبي عدوم شياطين الإنس والجن يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً ولو شياء ربك ميا فعلوه فنرهم وميا يفترون ٠) ١١٢

وعلى ضوء المحكمات التي شرحناها في صدد كسب الناس الأعمالهم ومواقفهم تكون الآية أسلوبية ، وبسبيل تقرير ناموس اجتماعي أيضاً ، وهو أنه حينما يأتي نبي أو رسول قوماً ينبري له الطفاة والعتاة فيناوئونه ويكونون له أعداء . الأنه الا يصح أن يقال : إن الله قد حرض شياطين الإنس والجن على عداء رسوله ، والشطر الثاني من الآية يؤيد هذا التأويل بقوة، حيث تضمن وصفهم بالافتراء ، أي : نسبة الافتراء إليهم ، وتسليبة للنبي صلى الله عليه وسلم من جهة أخرى ، فعليه أن الايعبأ بموقفهم ،

ولو كان الله يريد قسرهم لما وقفوا هذا الموقف ، ولكن حكمته اقتضت تركهم لاختيارهم حتى يستحقوا ما يترتب عليه . والآية التي جاءت بعد هذه الآية تؤيد هذا التأويل أيضاً وهي :

(ولتصفى إليه أفئسة الذين لايؤمنون بالآخرة ليرضوه وليقترفوا ماهم مقترفون •) الأنعام: ١١٣

حيث احتوت تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم أيضاً ، فهذا الموقف لايقفه ولا يصغي إليه ويرضى به ويندمج فيه إلا الذين لايؤمنون بالآخرة، فليفعلوا ما اختاروا ، وليس من سبب لاغتمام النبي صلى الله عليه وسلم بذلك . وقد نسب كل ذلك إلى أصحابه ، ويستمرالسياق في تسلية النبي صلى الله عليه وسلم ، وتأييد موقفه ، حيث جاء بعد ذلك :

أففير الله أبتغي حكماً وهو الذي أنزل إليكم الكتاب مفصلا والذين آتيناهم الكتاب يعلمون أنه منزل من ربك بالحق فلا تكونن من المترين وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلا لامبدل لكلماته وهو السميع العليم وإن تطع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله إن يتبعون إلا الظن وإن هم إلا يخرصون وإن ربك هو أعلم من يضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين والنعام: ١١٤ - ١١٧

ث) ومن باب ذلك آية سورة الفرقان هذه:

(وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً من المجرمين وكفى بربك هادياً ونصيراً •) ٣١

وهذه الآية مثل آية الأنعام السابقة بسبيل الإشارة إلى ناموس اجتماعي هو مبادرة الطفاة بالعداء لرسل الله ، ولا يصح تأويلها بغيرذلك، لأن الله يتنزه عن أن يحرض أحداً على أنبيائه ، ويحرشهم بالعداء لهم ، وسياق الآية قبلها وبعدها مؤيد لذلك كما ترى فيما يلي:

(ويوم يعض الظالم على يديه يقول ياليتني اتخذت مع الرسول سبيلا ، ياويلتى ليتني لم أتخذ فلاناً خليلا ، لقد أضلني عن الذكر بعد إذ جاءني وكان الشيطان للانسان خذولا ، وقال الرسول يارب إن قومي اتخذوا هذا القرآن مهجوراً ، وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً من المجرمين

وكفى بربك هادياً ونصيراً • وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلا • ولا يأتونك بمشل إلا جئناك بالحق واحسن تفسيراً • الذين يحشرون على وجوههم إلى جهنم أولئك شر مكاناً وأضل سبيلا • •) ٢٧ - ٣٤

والسياق واضح بأنه في صدد مواقف الجاحدين للدعوة النبوية ، وتنديد بهم وإنذار لهم ، وتسلية للنبي صلى الله عليه وسلم في الوقت نفسه ...

ج) وقد يكون من هذا الباب عبارات فيها نسبة تسليط الله الشياطين على الناس كما ترى في هذه الآبات:

ا _ (إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون •) الأعراف : ٢٧ _ (الم تر أنا أرسلنا الشياطين على الكافرين تؤزهم أزاً) مريم : ٨٣ _ (وقيضنا لهم قرناء ، فزينوا لهم ما بين أيديهم وما خلفهم وحق عليهم القول في أمم قد خلت من قبلهم من الجن والإنسس إنهم كانوا خاسرين • •) فصلت : ٢٦

إ _ (ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطاناً فهو لهقرين ٠)
 الزخرف: ٣٦

والله تعالى يتنزه عن تسليط الشياطين على عباده اعتباطاً ، والمحكمات القرآنية تقرر أن لكل نفس ماكسبت وعليها ما اكتسبت ، ولا يظلم الله أحداً مما مرت نصوصه قبل بحيث يصح القول: إن العبارات أسلوبية، وليست تقريرية . وفي العبارات صراحة بأن الذين عنتهم منحرفون جاحدون أصلا ، بحيث يصح القول: إنها بمثابة توبيخ وتنديد وعقاب لهم ، وتنبيه للسامعين حتى يرعووا ويرتدعوا . ويزيد هذا توضيحاً وتوكيداً سياق العبارات . فقد جاء في سياق آية سورة الأعراف:

(يابني آدم لايفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوآتهما إنه يراكم هو وقبيله من حيث لاترونهم إنا جعلنا الشياطين أولياء للذينلايؤمنون وإذا فعلوا فاحشةقالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها قل إن الله لايأمر بالفحشاء أتقولون على الله مالا تعلمون وقل أمر ربى بالقسط وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد وادعوه

مخلصين له الدين كما بدأكم تعودون • فريقاً هدى وفريقاً حق عليهـم الضلالة إنهماتخذوا الشياطين أولياء مندون الله ويحسبونأنهممهتدون • ٢٧ ـ ٣٠ ـ ٣٠

وجاء في سياق آية سورة مريم:

(أفرأيت الذي كفر بآياتنا وقال لأوتين مالا وولداً . أطلع الغيب أم اتخذ عند الرحمن عهداً . كلا سنكتب مايقول ونمد له من العذاب مداً . ونرثه ما يقول ويأتينا فرداً . واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزاً . كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضداً . ألم تر أنا أرسلنا الشياطين على المكافرين تؤزهم أزاً . فملا تعجل عليهم إنما نعد لهم عداً .) (١) ٧٦ - ٨٤

٧ - ومن تمحلات صادق العظم قوله: (إن المسلمين المعاصرين ينسون ظروف حث القرآن على العلم واستعمال العقل ، وكون ذلك إنما هو لعلم الدين ، واستكشاف آلاء الله من الكون وحسب ، وإن المعرفة الدينية تختلف كل الاختلاف عن المعرفة العقلية والعلمية ، وإن معرفة المسلمين الأولين إنما كانت في المجال الديني ، وينسب إلى الفزالي قوله: إن المراد بالعلم في القرآن هو العلم الديني).

وهذه الأقوال مرسلة على عواهنها من نواح عديدة ، وناتجة عن عدم استيعاب العظم للقرآن وإغفاله إو غفلته عما كان من جولات المسلمين الأولين في مختلف مجالات العلوم العقلية والمادية المذهلة التي لايمكن أن يكون العظم لم يقرأ عنها ، فقد يكون في القرآن آيات معنى العلم فيها هو علم الدين ، ومدى الحث على استعمال العقل فيها هو لاستكثاف آلاء الله ، غير أن فيه آيات عديدة لايخفى كون العلم فيها ، والحث على استعمال العقل فيها ، والحث على استعمال العقل فيها ، والحث على استعمال العقل فيها هما في صدد شؤون الحياة الدنياعلى اختلاف أنواعها .

ففي سورة النساء هذه الآية:

(وَإِذَا جَاءَهُم أَمْر مِن الْأُمْنَاوِ الْحُوفِ أَذَاعُوا بِهُولُو ردُّوهُ إِلَى الرسول

⁽۱) ومثل هذا التوكيد والتوضيح في سياق آيتي فصلت والزخرف أيضاً فاقرأ آيات سورة فصلت ١٩ ــ ٢٩ وآيات سورة الزخرف ١٥ ــ ٥٥ وقد اكتفينا بما أوردناه لان فيه الكفاية للدلالــة .

وإلى أولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم •) ٨٣

وهذا الأمر هو في صدد الحرب وسياسة الحرب وظروفها ، والعلم به علم بشأن من شؤون الدنيا ، واستنباطه هو عمل عقلي وعلمي معاً ، وفي سورة الروم هذه الآية :

(ومن آياته خلق السماوات والأرض واختلاف السنتكم والوانكم إن في ذلك لآيات للعالمين •) ٢٢

والمتبادر أن العالمين (بكسر اللام) هم العالمون بسنن الخلق والاجتماع لأن هذا هو الذي يمكن أن يصح في مدى الآية ، فالعلماء في ذلك هم الذين يفهمون مدى هذه السنن في اختلاف الألوان والألسنة ، ومعنى هذا أن القرآن يفرض وجود علماء من هذا النوع ويطلب منهم استكشاف آلاء الله بعلمهم هذا ، ولكنه لايجعل هذا الاستكشاف هو عملهم وهدفهم وحسب ، ومعنى هذا كذلك أن القرآن يحث على مثل هذا العلم لذاته أيضاً ، والمسلمون مخاطبون بذلك بطبيعة الحال ، ومن هذا الباب آيات سورة فاطر هذه:

(ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفاً ألوانها ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود • ومنالناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك إنما يخشى الله من عباده العلماء إن الله عزيز غفور •) ٢٧ و ٢٨

فالمتبادر أن العلماء في الآية هم العلماء في سنن الخلق والكون والطبيعة الأرضية والسماوية الذين يستطيعون لمح أسرار الإبداعالرباني فيها أكثر من غيرهم فيمتلئون إيماناً وخشية ، وهذا ما يقع كل يوم من عظماء كثيرين في علوم الفلك والطب والكيمياء والحياة والحيوان والنبات والفسيولوجيا والبيولوجيا والذرة الخ الخ .

ونقول ما قلناه قبل: إن القرآن يفرض وجود مثل هؤلاء العلماء ، ولا يجعل عملهم وهدفهم هو استكشاف آلاء الله وحسب ، وفي التنويه القرآني بهم حث للمسلمين على أن يكون فيهم مثل هؤلاء العلماء للعلم ذاته أيضاً . وفي سورة العنكبوت هذه الآيات :

(مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل المنكبوت اتخذت بيتاً

وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون • إن الله يعلم ما يدعون. من دونه من شيء وهو العزيز الحكيم • وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون •) ١ } ـ ٣ }

والمثل المضروب هو من مشاهد الخلق الحيوانية فيكون المقصود. بالعلماء الذين يعقلون أمثال الله في القرآن هم علماء دنيويون ، وليسوا علماء دينيين ، وفي التنويه القرآني حث على أن يكون بين المسلمين علماء من هذا النوع . وفي سورة البقرة هذه الآية:

(وما انزل على الملكين ببابل هاروت وماروت وما يعلمان من أحد حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله ويتعلمون مايضرهم ولا ينفعهم ٠٠٠) ١٠٢

فالعلم والتعلم والتعليم في الآية في أمر دنيوي ، وليس في أمر ديني ،. وآيات سورة العلق هذه:

(إقرأ وربك الأكرم • الذي علم بالقلم • علم الانسان مالم يعلم • •).

عامة شاملة لشؤون الدين والدنيا معا كما هو المتبادر ، فيكون فيها حث للانسان ، وبالتالي للمسلم على التحقق بذلك .

هذا في صدد العلم ومعناه في القرآن ، وفي صدد العقل ورد في القرآن. آيات عديدة منها آيات سورة الحج هذه:

(فكأين من قرية أهلكناها وهي ظالمة فهي خاوية على عروشها وبئر معطلة وقصر مشيد ، أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فإنها لاتعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور ، ،) ه ؟ و ٢٦

فالمراد أن يعقله المخاطبون المند بهم ليس استكشاف آلاء الله ، وإنما استكشاف أحوال الأمم وأخبارها ومصائرها ، ومثل ذلك آية. سورة العنكبوت هذه:

(ولقد تركنا منها آية بينة لقوم يعقلون 00) 30

وآيات سورة الصافات هذه:

(وإن لوطاً لمن المرسلين ، إذ نجيناه وأهله أجمعين ، إلا عجوزاً في الفابرين ، ثم دمرنا الآخرين ، وإنكم لتمرون عليهم مصبحين ، وبالليل أفلا تعقلون ، ١٣٣ ـ ١٣٨

وفي سورة البقرة هذه الآية:

(الله الناس بالبر وتنسون انفسكم وانتم تتلون الكتاب افسلا تعقلون ٠) } }

وليست هذه الآية في صدد الحث على استكشاف آلاء الله ، وإنسا هي في صدد الحث على إدراك النقيصة الأخلاقية المندد بها ، ومثل ذلك آلة سورة آل عمران هذه:

لا يا أهل الكتاب لم تحاجون في إبراهيم وما أنزلت التوراة والانجيل إلا من بعده أفلا تعقلون •) ٦٥

وفي القرآن آيات عديدة من باب ما أوردناه في صدد العلم والعقال من التطويل إيرادها جميعها ، وكفى ما أوردناه ، فانه يكفي لإثبات عدم استيعاب صادق العظم ، وإرساله الكلام على عواهنه ، ويحسن أن ننبه على أمر هام في هذا الصدد ، فالقرآن أمر الناسوالمسلمين بأمور كثيرة في شؤون الدنيا من حرب وجهاد وإعداد واستعداد وزكاة ومعاهدات واستخلاف في الأرض ، وأمر بالمعروف ونهي عن المنكر ، وكتابة الديون ، والأعمال التجارية الخ الخ من مختلف الشؤون السياسية والاجتماعية والاقتصادية والمعاشية والفكرية ، والله يعلم أن القيام بذلك وممارسته والحالة هذه قد حث عبر ذلك على العلم ، واستعمال العقال في شؤون الحياة الدنيا .

وقد يكون قول صادق العظم: إن المعرفة الدينية تختلف عن المعرفة الدنيوية صحيحاً موضوعياً . غير أن المسلمين الأولين لم تقتصر معرفتهم على الناحية الدينية كما هو ثابت يقيناً حيث كان منهم العلماء في أمور الدنيا ، ومنهم من جمع بين ذلك ، وكل منهسم الدين والعلماء في أمور الدنيا ، ومنهم من جمع بين ذلك ، وكل منهسم جال في علمه جولات عظيمة آثارها مدونة في الكتب ، وقائمة في ممارسات الانسابية ، ولا يكابر في هذا إلا احمق ، وهؤلاء إنما كان ذلك منهم ، الأنهم

فهموا من القرآن أنه حث على العلم والعقل في شؤون الدنيا ، وفي شؤون الدين معا.

وما عزاه العظم إلى الغزالي لايتحمل القرآن والحالة هذه مسؤوليته، على أن للغزالي في (الإحياء) فصلا طويلا عن العلم ، قرر فيه أن طلب المسلمين لعلوم الدنيا من طب وهندسة وحساب وصناعة الخ فرض كفاية إذا لم يقم به جماعة منهم أثم جميعهم ، ولا يمكن أن يكون ذلك من الغزالي إلا وهو يعلم أن القرآن حث على علوم الدنيا والدين معاً ، وهذا يسيغ القول: إن صادق العظم لم يستوعب كل أقوال الغزالي أيضاً .

٨ - إن كثيراً من المسلمين يوردون الجملة القرآنية:
 (ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم •)

في آية سورة آل عمران (٧٢) على أنها أمر رباني للمسلمين ، مع أنها جزء من كلام فريق من أهل الكتاب يوصي به بعضهم بعضاً كما ترى فيما يلى:

(وقالت طائفة من أهل الكتاب آمنوا بالذي أنزل على الذين آمنوا وجه النهار وأكفروا آخره لعلهم يرجعون • ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم قل إن الهدى هدى الله أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم أو يحاجوكم عند ربكم قل إن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم • •) ٧٢ — ٧٢

وفي الآيات موقف تآمري يهودي ضد المسلمين والنبي صلى الله عليه وسلم حيث تواصوا على أن يتظاهروا بالإيمان ، ثم يعودوا فيكفروا ليشككوا المسلمين بالرسالة النبوية ، وحيث تواصوا أن لايركنوا إلا لبعضهم ، وأن لايطلعوا أحداً من المسلمين على ماعندهم من شواهد مصدقة لرسالة النبي صلى الله عليه وسلم حتى لايحاجوهم بها . وفي الجملتين : (قل إن الهدى هدى الله) و (قل إن الفضل بيد الله) أمر رباني للنبي صلى الله عليه وسلم فيه تعقيب على موقفهم التآمري وفضح لهم

اما المسلمون ، ففي القرآن آيات أخرى تنظم الحالة بينهم وبين غيرهم ، من أهمها وأحسمها ومحكمها آيات سورة الممتحنة هذه:

(عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم مودة والله قدير والله غفور رحيم • لاينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين واخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون •) (١) ٧ - ٩

٩ ــ إن كثيراً من الناس بأخذون جملة (وقاتلوا المشركين كافة) في آية سورة التوبة (٣٦) منفردة ، ويصفونها بأنها آية السيف ، ويقولون : إنها نسخت كل ما جاء في القرآن من عدم قتال غير المعتدين 6 وغير المقاتلين من المشركين ، وبذلك بنسفون آبات محكمة في هذا الصدد ، مع أن في الآبة فقرة أخرى مرتبطة بها أشد الارتباط ، ومحتوبة لتعليل رائع معقول متسق مع طبيعة الامر الذي تضمنته بقتال المشركين كافة وهي: (كما يقاتلونكم كافة) فلو لوحظ ذلك ولم تجزأ الآية لما كان محل لذلك التفسير والوصف والقول حيث ببدو واضحا انها في معرض حث المسلمين على قتال المشركين المحاربين مجتمعين وإلباً واحداً كما يقاتلونهم كذلك ، ولزال الاشكال الذي ينشأ عن هذا التفسير ، ويؤدى الى نسخ أحكام وآيات محكمة متسقة مع مبادىء القرآن ومثله السامية ، ومع طبائع الامور ووقائع السيرة النبوية المؤيدة بالآيات من جهة ، وبالأحادث من جهة أخرى ، ونعنى حصر القتال في الأعداء المقاتلين والمعتدين على الاسلام والمسلمين بأى شكل دون المشركين والكفار والمعاهدين الموفين بعدهم والمحايدين والمسالمين والعاجزين والنسباء والاطفال مما يقتضى قتالهم جميعاً حسب ذلك التفسير.

⁽۱) في آيات سورة : ١٩١ و ١٩٤ و ٢٥٦ ، وآل عمران ٢٨ ، والنساء ٨٨ – ١٩-٩٤، والمائدة ١٥ – ٨٨ ، والتوبه ١ – ١٦ – ٢٩ ، والمهتحنة ١ – ٣ ضوابط أخرى ، ونذكر بما ذكرناه قبل من أن القرآن قد جعل الدعوة الى الاسلام في نطاق الحكمة والموعظة الحسنة والعجدال بالتي هي أحسن ، وترك غير المسلمين وشأنهم في أديانهم !ذا ما كانوا مسالمين موادين للمسلمين كافين عنهم ألسنتهم وأيديهم ، وكل هذه ضوابط عامة أيضاً .

ويصفها بآية السيف ، ويذهب الى انها مثل هذه نسخت كل ما عداها ، وأوجبت قتال المشركين بدون استثناء الى أن يسلموا . وهي هذه : (فاذا انسلخ الأشه الحم فاقتاها الشكن حيث وحد تموهم

(فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخنوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم إن الله غفور رحيم ٠) ه

ومنهم من يستند في رأيه هذا إلى آيات سورة براءة الأولى هذه:
(براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين فسيحوا في الأرض أدبعة أشهر واعلموا أنكم غير معجزي الله وأن الله مخزي الكافرين واذان من الله ورسوله إلى الناس يوم الحج الأكبر أن الله بريء من المشركين ورسوله فإن تبتم فهو خير لكم وإن توليتم فاعلموا أنكم غير معجزي الله وبشر الذين كفروا بعذاب أليم ٠) ١ ـ ٣

في حين أنه جاء بعد هذه آية تستثني الذين بينهم وبين المسلمين عهد لم ينقضوه بأية صورة وهي:

(إلا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئاً ولم يظاهروا عليكم أحداً فأتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم إن الله يحب المتقين) .

ثم جاءت بعدها بقليل آية فيها استثناء آخر غير محدد بمدة وهي:

(كيف يكون للمشركين عهد عند الله وعند رسوله إلا الذين عاهدتم عند المسجد الحرام فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم إن الله يحب المتقين ٠) ٧

فلو لوحظ السياق جميعه من الآية الأولى إلى الآية الخامسة عشرة من السورة وهو مترابط منسجم لظهر القصد منه وهو أن البراءة هيمن المشركين الناكثين لعهدهم ، وإيجاب القتال هو بالنسبة لهؤلاء وحسب، ثم للمعتدين منهم بدءا دون غيرهم إذا كانوا كافين السنتهم وأيديهم عن الاسلام والمسلمين ولظهر التساوق التام بين التقريرات والمبادىءالقر آنية.

القرآن التي فيها تقرير كون الله أنزل القرآن على النبي صلى الله عليه

وسلم لينذر أم القرى ومن حولها كما جاء في آية سورة الأنعام هذه :

(وهذا كتاب أنزلناه مبارك مصدق الذي بين يديه ولتنذر أم القرى ومن حولها ٠٠) ٩٢

وآية سورة الشورى هذه:

(وكذلك أوحينا إليك قرآناً عربياً لتنذر أم القرى ومن حولها ٥٠٠٠٧ أو التي فيها خطاب لقوم النبي صلى الله عليه وسلم مثلهذهالآيات:

١ وهذا كتاب أنزلناه مبارك فانبعوه واتقوا لعلكم ترحمون • أن تقولوا إنماأنزل الكتاب على طائفتينمن قبلنا وإنكنا عن دراستهملغافلين •)
 الأنعام: ١٥٥ و ١٥٦

٢ (لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم
 بالؤمنين رؤوف رحيم ٠) التوبة : ١٢٨

٣ _ (فاستمسك بالذي أوحي إليك إنك على صراط مستقيم • وأنه
 لذكر لك ولقومك وسوف تسألون • •) الزخرف : ٣٦ و ٤٤

ه _ (فإنها يسرناه بلسانك لعلهم يتذكرون .) الدخان : ٥٨ أو التي فيها تنبيه إلى أن الله أنزل القرآن بلغة عربية وإنه حكم عربي مثل هذه الآبات :

- 1 _ (إنا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون) يوسف: ٢
 - ٢_ (وكذلك أنزلناه حكماً عربياً) الرعد: 37
- ٣ _ (وما أرسلنا من رسول إلا بلسانقومه ليبين لهم ٠) ابراهيم: ٤
- إ ولو نزلناه على بعض الأعجمين فقرأه عليهم ما كانوا به مؤمنين •) الشعراء: ١٩٩ و ٢٠٠
- ٥ (ولو جعلناه قرآناً اعجمیاً لقالوا لولا فصلت آیاته ۰۰)
 فصلت : }}
 - 7 = (1) جعلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون 1 الزخرف 7 = (1) الرخان 1 0 = (1) الدخان 1
- ۸ ــ (ومن قبله كتاب موسى إماماً ورحمة وهذا كتاب مصدق لساناً عربياً لينذر الذين ظلموا وبشرى للمحسنين) الأحقاف : ١٢

ويقولون: إن رسالة النبي محمد صلى الله عليه وسلم رسالة لأهل الحجاز أو للعرب وحسب .

والآيات التي يستندون إليها وردت في سياق حجاج وحوار بين النبي صلى الله عليه وسلم وقومه الذين كانوا أول المخاطبين بالقرآن والدعوة ، ولو استوعب القائلون ما في القرآن من نصوص أخرى وربطوا بعضه ببعض كما هو الحق والواجب على الناظر في القرآن كما نبهنا قبل من حيث إنه كل متكامل لوجدوا في سور كثيرة أخرى آيات كثيرة تذكر بأسلوب لايتحمل ريباً ولا تمحلاً ولا مكابرة أن هذه الرسالة عامة إنسانية للعالمين، ولأهل الكتاب وغيرهم وللعرب وغيرهم كما ترى في هذه الآيات مثلاً:

ا — (يابني إسرائيل اذكروا نعمتي التي انعمت عليكم وأوفوا بعهدي أوف بعهدكم وإياي فارهبون \cdot وآمنوا بما أنزلت مصدقاً لما معكم ولا تكونوا أول كافر به ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلاً وإياي فاتقون \cdot البقرة \cdot و \cdot و \cdot و ا

٢ - (يا هل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيراً مما كنتـم تخفون من الكتاب ويعفو عن كثير قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين .
 يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم .) المائدة : ١٥ و ١٦

٣ ـ (يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم على فترة من الرسل أن تقولوا ماجاءنا من بشير ولا نذير فقد جاءكم بشير ونذير والله على كل شيء قدير •) المائدة : ١٩

إلذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون • قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً الذي له ملك السماوات والأرض لا إله إلا هو يحيي ويميت فآمنوا بالله ورسوله له ملك السماوات والأرض لا إله إلا هو يحيي ويميت فآمنوا بالله ورسوله النبي الأمي الذين يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون •) الأعراف: النبي الأمي الذين يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون •) الأعراف:

٥ (تالله لقد ارسلنا إلى امم من قبلك فزين لهم الشيطان أعمالهم
 فهو وليهم اليوم ولهم عذاب اليم . وما انزلنا عليك الكتاب إلا لتبين لهم
 الذي اختلفوا فيه وهدى ورحمة لقوم يؤمنون .) النحل : ٦٣ و ٦٤

٦ _ (وما ارسلناك إلا رحمة للعالمين •) الأنبياء : ١٠٧

V = (V + V) الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً V = V الفرقان : V = V

ر وما أرسلناك إلا كافة للناس بشبيراً ونذيراً ولكن أكثر الناس λ لايعلمون λ سبأ λ

يضاف إلى هذا آيات سورة التوبة والفتح والصف التي تذكر أن الله الرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله مما يعني أن الله قد اقتضت حكمته أن يظهر هذا الدين على سائر الأديان ليكون دين الإنسانية العام ، وهذا يعني الشمول والعمومية وهي هذه:

ا _ (هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون •) التوبة : ٣٣

٢ _ (وهو الذي ارسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيداً •) الفتح : ٢٨

٣ _ (هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين
 كله ولو كره المشركون .) الصف : ٦

11 - إن بعض المسلمين يوردون جملة (مافرطنا في الكتاب من شيء) الواردة في آية سورة الأنعام هذه:

(وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أممامثالكممافرطنا في الكتاب من شيء ثم الى ربهم يحشرون ٠) ٣٨

ويفسرون كلمة (الكتاب) بالقرآن ويقولون : إن الآية تعني والحالة هذه أن القرآن احتوى كل شيء من شؤون الخلق والكون ، ويوردون آية النحل هذه :

(ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء ٠) ٨٩

سندا مؤيداً لقولهم . بل منهم من استند إلى الآيتين وحاول أن

يستخرج من آيات القرآن نظريات علمية وفلكية ، وهناك من غلا أكثر فحاول أن يستخرج من آيات القرآن وحروفه أسراراً مفيبة ، وتمسك الملحدون بأقوال هؤلاء فانبروا ينتقدون ويسخرون ويكذبون ، وفي كتاب صادق العظم (نقد الفكر الديني) نماذج من ذلك .

وقد يكون الانتقاد في محله موضوعياً ، ولكن القرآن لا يتحمل مسؤولية إساءة الفهم والتأويل ، والغلو في التخمين والتزيد ، وكلمة (الكتاب) في آية الانعام تعني علم الله المحيط بكل شيء بدلالة آيات أخرى كما تسرى فيما للى :

ا ــ (وعنده مفاتح الفيب لايعلمها إلا هو ويعلم ما في البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين .) الأنعام : ٥٩

٢ _ (وما يعزب عن ربك من مثقال ذر"ة في الأرض ولا في السماء ولا أصفر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين .) يونس : ٦١

 $\gamma = (600)$ من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها كل في كتاب مبين $\gamma = (600)$

٤ – (قال فما بال القرون الأولى • قال علمها عند ربي في كتابلايضل ربي ولا ينسى) طه : ١٥ و ٢٥

الم تعلم أن الله يعلم ما في السماء والأرض أن ذلك في كتاب أن ذلك على الله يسير ٠) الحج : ٧٠

ر والله خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم جعلكم أزواجاً وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره إلا في كتاب إن ذلك على الله يسير ٠٠) فاطر: ١١

٧ - (وكل شيء أحصياه كتاباً •) النبأ: ٢٩

والكتاب في الآيات رمز لعلم الله على الأسلوب المألوف عند البشر من أن ما يكون مكتوباً في كتاب لاينسى ولا يجهل ، ولو انتبه القائلون الى هذه الآيات وما فيها من مماثلة لآية الأنعام (٣٨) موضوع النبذة لما قالوا ما قالوه .

اما آية النحل (٨٩) فإنها بسبيل تقرير كون القرآن احتوى تبياناً لكل أمر ضروري من أمور الدين والدنيا وحسب بدليل حاسم هو أن القرآن سكت عن تفصيل كثير من هذه الأمور ، وسكت عن كيفيات الصلاة والزكاة والحج والحكم والقضاء والمسائل المالية ، وعن كثير من جزئيات المواريث والأطعمة والأشربة والملابس مما تكفلت ببيانه السنة النبوية ، وحتى لو سلمنا جدلا أن كلمة (الكتاب) في آية الأنعام تعني (القرآن) فبأن يجعل تأويلها بكونها أريد بها تقرير كون الله ما فرط في الكتاب من شيء مما هو ضروري للدين والدنيا هو الأولى المتسق مع هذا الدليل الحاسم .

ولا ننفرد بما نقول ، فإن اعلام المفسرين قديماً وحديثاً قرروه أيضاً مشل الطبسري وابن كثير والقرطبي والزمخشسري والبغوي والطبرسي والقاسمي ورشيد رضا وغيرهم ، وقد حمل الأخير بخاصة على مسن يزعم أن القرآن احتوى علوم الأكوان وقال : إن هذا لايقبله عقل ، ولا يهدي إليه نقل ، ولم يقل به احد من الصحابة ، ولا علماء التابعين ولا غيرهم من علماء السلف الصالحين .

11 - إن الملحدين يسوقون ما في القرآن من آيات فيها نعي على الدنيا ومتاعها ، وتزهيد بها ، ويقولون : إن الإسلام يأمر بنفض اليد من الحياة الدنيا ، والاستفراق في أمور الآخرة ، وإن هذا مؤد إلى الاستكانة والاستسلام والتخلف ، ويشيرون الى واقع المسلمين المتخلف حقاً كدليل على ما يقولون .

وهذا من سوء الفهم والتأويل ، وعدم استيعاب المدى القرآني ، والأسباب الأخرى التي أدت إلى تخلف المسلمين مما لا يتحمل القرآن مسؤوليته .

وفي سياق كل آية في القرآن من ذلك الباب حض على الجهاد والتضحية والإقدام والتقوى والمكرمات والأعمال الصالحة ، وبكلمة ثانية تدعيم للدعوة الاسلامية ، وعزة الاسلام والمسلمين وقوتهم وصلاحهم ، وتحذير من جعل حب الحياة والشهوات سبباً مانعاً للاقدام على بذل. النفس والنفيس في سبيل ذلك ، وفيما يلى أمثلة مؤيدة وموضحة :

ا _ (زين للناس حب" الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من النهب والفضة والخيل المسو"مة والإنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب . قل أؤنبئكم بخير من ذلكم للذين اتقوا عند ربهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وأزواجمطهرة ورضوان من الله والله بصير بالعباد . الذين يقولون ربنا إننا آمنا فاغفر لنا ذنوبنا وقنا عذاب النار . الصابرين والصادقين والقانتين والمنفقين والمستغفرين بالأسحار .) آل عمران : ١٤ ـ ١٧

٢ – (الم تر إلى الذين قيل لهم كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة فلما كتب عليهم القتال إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية وقالوا ربنا لم كتبت علينا القتال لولا أخرتنا الى أجل قريب قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى ولا تظلمون فتيلاً ٠٠)
 النساء: ٧٧

٣ (قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره والله لايهدي القوم الفاسقين ٠) التوبة : ٢٤

إ يا أيها الذين آمنوا مالكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الشائاقلتم اللى الأرض أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل • إلا تنفروا يعذبكم عذاباً اليماً ويستبدل قوماً غيركم ولا تضروه شيئاً والله على كل شيء قدير •) التوبة : ٨٨ و ٣٩

٥ (واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء انزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيماً تندوه الرياح وكان الله على كل شيء مقتدراً . المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثواباً وخير أملاً .) الكهف : ٥ و ٦ ؟ .

الله معكم ولين والله معكم ولين السلم وأنتم الأعلون والله معكم ولين يتركم أعمالكم . إنما الحياة الدنيا لعب ولهو وإن تؤمنوا وتتقوا يؤتكم أجوركم ولا يسالكم أموالكم . إن يسالكموها فيحفكم (١) تبخلوا ويخرج

⁽۱) لا يسألكم جميع أموالكم لانه يعلم أن ذلك صعب عليكم ولكنه يأمركم أن تنفقوا منها في سبيل الله .

اضفاتكم • ها أنتم هؤلاء تدعون لتنفقوا في سبيل الله فمنكم من يبخل ومن يبخل فإنما يبخل عن نفسه والله الفني وانتم الفقراء وإن تتولو يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم • •) محمد : ٣٥ – ٣٨ •

٧ – (إن المستدقين والصدقيات واقرضوا الله قرضاً حسناً يضاعف لهم ولهم أجر كريم ، والذين آمنوا بالله ورسله أولئك هم الصديقون والشهداء عند ربهم لهم أجرهم ونورهم والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب الجحيم ، إعلموا أنها الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفراً ثم يكون حطاماً وفي الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور ، سابقوا إلى مففرة من ربكم وجئة عرضها كعرض السماء والأرض أعدت للذين آمنوا بالله ورسله ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم الا في كتاب من قبل أن نبراها إن ذلك على الله يسير ، لمكيلا تأسوا على مما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم والله لا يحب كل مختال فخور ، الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ومن يتول فإن الله هو الفني الحميد ،) الحديد : ١٨ ـ ٢٤ .

ومدى التقوى التي حثت عليها بعض الآيات هو الحرص على التزام أوامر الله ، واجتناب نواهيه اتقاء لفضبه ، وأوامر الله ونواهيه شاملة لكل ما هو صالح وفيه صلاح للانسان من أمور الدنيا والدين .

وجملة (الباقيات الصالحات) في آية الكهف ذات مغزى عظيم حيث تنبه السامع إلى أن الذي يبقى أثره ونفعه للإنسان في الدنيا والآخرة هو الأعمال الصالحة ، وهذه تشمل كل ما هو خير ونافع من امور الدنيا والدين .

والأمر بالمسابقة إلى مغفرة الله ، يعني : الأمسر بالحرص على التزام أوامر الله ونواهيه الشاملة لكل ما هو صالح وصلاح للانسان من أمور الدنيا والدين .

ويففل الملحدون عما في القرآن من آيات كثيرة فيها إباحة للطيبات وزينة الحياة الدنيا والاستمتاع بها ، ومنها آية في سورة الأعراف ذات مغزى عظيم حيث تنكر تحريم ذلك وهي:

(قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون ٠) ٣٢

وتفيد الآية والله أعلم أن الله أباح للمؤمنين الزينة وطيبات الحياة مع الناس وفي الآخرة لهم خالصة وقد جاء بعدها بيان لما حرم الله .

فل إنما حرم ربي الفواحش ماظهر منها وما بطن والاثم والبغي بغير الحق وأن تشركوا بالله مالم ينزل به سلطاناً وأن تقولوا على الله مالاتعلمون ٠) ٣٣

ومن ذلك آية سورة الأعراف هذه:

(الذين يتبعون الرسول النبي الأميّ الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون •) ١٥٧ .

ومن ذلك آية سورة النور هذه:

(وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً يعبدونني لايشركون بي شيئاً ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون ٠) ٥٥

وهذا منتهى ما يمكن من توثيق رابطة المسلمين بالحياة الدنيا ، وشغلهم بها ، ومن ذلك آية سورة لقمان هذه:

(الم تروا أن الله سخر لكم ما في السماوات وما في الأرض وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة .) ٢٠

وفيها حث على الانتفاع بكل ما سخر الله ، وأسبغه من مظاهر الطبيعة والنعم ، ويغفلون إلى هذا عما في الآيات الواردة في صدد وجود الانسان في الحياة ، وخلافته لله في الأرض ، وأعماله وأخلاقه الشخصية والاجتماعية ، وتكريمه وعلاقته بالمجتمع والافراد . تلك العلاقة المتتابعة المتعددة النواحي التي تقتضي منه سعيا وجهدا وتفكيرا وعملا حيث لا يلبث الذين يمعنون فيها أن يمتلئوا بالحقيقة الكبرى ، وهي أن تعاليم القرآن تجعل هذه الخلافة والاعمال والأخلاق والعلاقة ، وبالتالي هذه الحياة موضوعا جوهريا من مواضيعها ، وتعتبر اصلاح الانسان في أخلاقه الشخصية والاجتماعية وإصلاح المجتمع الانساني ، وتوجيههما إلى الخير والكمال هدفا رئيسيا من أهدافها ، وتتخذ الحياة الاخروية وما فيها من حساب وثواب وعقاب وازعا للانسان يزعه عن الشر والاثم ، وحافزا يحفزه على الخير والبر والعدل والحيق والاحسان والتعاون والاصلاح بالاضافة إلى حقيقتها الايمانية ، وما في ذلك من حكمة ربانية في أن تكون هذه الحياة تتمة للحياة الدنيا يوفى فيها الناس جزاء أعمالهم في الدنيا خيراً كانت أم شراً .

ولقد سمع نفر من أصحاب رسول الله صلى عليه وسلم ثناء القرآن على القسيسين والرهبان في آية في سورة المائدة جاء فيها (ذلك بأن منهم قسيسين ورهباناً وأنهم لا يستكبرون •) ٨٢ فعزمواعلى الحدوحدوهم، وتحريم الطيبات على أنفسهم ، ومواصلة الصيام ، وقيام الليل ، فأنكر ذلك عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم كما جاء في حديث صحيح . حيث روي أنه قال لهم : « إنما هلك من كان قبلكم بالتشديد ، شددوا على أنفسهم فشدد الله عليهم ، وإني لأقوم وأنام ، وأصوم وأفطر ، وأنكح النساء ، فمن أخذ بسنتي فهو من أمتي ، ومن رغب عن سنتي فليس منى . » ثم أنكر القرآن ذلك في هذه الآيات :

(يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ولا تعتدوا إن الله لايحب المعتدين ، وكلوا مما رزقكم الله حلالاً طيباً واتقوا الله الذي انتم به مؤمنون ٠٠) ٨٧ - ٨٨

١٣ - في كتب التفسير روايات كثيرة تورد كأسباب لنزول آيات.

أو آية أو جزء من آية في سياق في حين أن السياق و فحواه لايتفقان مع الرواية كسبب للنزول ، أو قد لايتطابقان تطابقاً تاماً مع الرواية ، أو قد يلهمان أن الآيات أو الآية جزء الآية التي تروى الرواية كسبب لنزولها منسجمة انسجاماً تاماً في السياق الذي قبله أو الذي بعده ، وكل مايمكن فرضه في أمر الرواية في حال وثوقها وتطابقها مع فحوى ماذكر أنها نزلت بسببه أن تكون أوردت على سبيل الاستشهاد على حادث ما وقع بعد نزولها أو يكون الحادث قد وقع قبل نزولها بمدة ما ، فجاءت الاشارة إليه في السياق العام الذي أتت فيه الآيات أو الآية أو جزء الآية على سبيل التشريع أو التذكير أو التنديد أو التنبيه أو العظة الخ فالتبس الأمر على الراوي ، وظن أن الحادث هو سبب النزول .

فقد روي مثلاً عن أبي مسعود قوله: (كنا أمرنا بالصدقة ، فكنا نتحامل(١) ، فجاء أبو عقيل بنصف صاع ، وجاء إنسان باكثر منه . فقال المنافقون: إن الله لفني عن صدقة أبي عقيل ، وإن ما فعله الآخر ليس الارباء .) فنزلت آية التوبة هذه:

(الذين يلمزون المطوعين من المؤمنين في الصدقات والذين لايجدون إلا جهدهم فيسخرون منهم سخر الله منهم ولهم عذاب أليم ٠) ٧٩

فالرواية توهم أن الآية نزلت منفردة بسبب هذا الموقف ، مع أنها متصلة بسياق عام سابق ولاحق أشد الاتصال ، ومنسجمة فيه أقوى انسجام ، وهو سلسلة المواقف المنافقين ، وفيه قرائن تدل على أن الفصل الطويل الذي تقع فيه الآية والمؤلف من الآيات (٣٨ _ ٩١) من سورة التوبة نزل كله أو جله في أثناء غزوة تبوك وظروفها وسببها وبعد ذلك المشهد الساخر للمنافقين بمدة ما ، فأشير إليه كمثل من مواقفهم .

وروى البخاري عن أبن مسعود (أن رجلين من قريش وختناً لهما من ثقيف كانوا في بيت ، فقال بعضهم لبعض :أترون أن الله يسمع حديثنا ؟ قال بعضهم : يسمع بعضه . وقال بعضهم : لئن كان يسمع بعضه لقد يسمعه كله . فنزلت هذه الآية :

(وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم ولكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيراً مما تعملون ٠) فصلت : ٢٢

⁽١) أي : يحمل بعضنا لبعض بالأجرة ، وفي رواية : نحامل ، أي : نواجر أنفسنا في الحمسل .

مع أن الآية متصلة بسياق يحكي فيه محاورة في الآخرة بين الكفار ، وبين أعضاء أبدانهم التي شهدت عليهم أشد الاتصال ، وليس هناك أي تطابق بين مفهوم الرواية ، وعبارة الآية وهذا هو السياق .

(ويوم يحشر أعداء الله إلى النار فهم يوزعون • حتى إذا ماجاؤها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانسوا يعملون • وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا قالوا أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء وهو خلقكم أول مرة وإليه ترجعون • وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم ولكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيراً مما تعملون • وذلكم ظنكم الذي ظننتم بربكم أرداكم فاصبحتم من الخاسرين • 19.

والفصول الأولى من سورة النساء من مواريث وأنكحة مترابطة ومنسجمة ، والآية الأولى في السور بمثابة براعة استهلال لما تضمنته من هذه الفصول ، وروح آيات الفصول تلهم أنها وحدة تشريعية متسلسلة في حين أن هناك روايات تكاد تجعل لكل آية مناسبة نزول مستقلة ، وتوهم أنها نزلت منفردة بسببها . ويقال هذا كله في فصول سورة الحجرات أنضاً .

ولقد روى الشيخان والترمذي أن رجلاً من اليهود قال لعمر رضي الله عنه يا أمير المؤمنين لو علينا نزلت هذه الآية (اليوم أكملت لكمدينكم) لاتخذنا ذلك اليوم عيداً فقال عمر : إني أعلم أي يوم أنزلت هذه الآية ، إنها أنزلت يوم عرفة ، في يوم جمعة . والنبي صلى الله عليه وسلم لم يحج بعد الهجرة إلا حجة واحدة هي حجة الوداع في آخر سني حياته في حين أن هذه الجملة جزء من آية طويلة ، ثم جزء من سياق تكرد فيه كلمة اليوم كما ترى فيه !!.

(حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لفير الله به والمنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما أكل السبع الا ما ذكيتم وما ذبح على النصب وان تستقسموا بالأزلام ذلكم فسق اليوم يئس الذين كفروا دينكم فلا تخشوهم واخشوناليوم أكملت لكمدينكم وأتممت عليكم تعمتي ورضيت لكم الاسلام ديناً فمن اضطر في مخمصة غير متجانف

لإثم فان الله غفور رحيم . يسألونك ماذا أحل لهم قل أحل لكم الطيبات، وما علمتم من الجوارح مكلبين تعلمونهن مما علمكم الله فكلوا مما أمسكن عليكم واذكروا اسم الله عليه واتقوا الله إن الله سريع الحساب . اليوم أحل لكم الطيبات وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم وطعامكم حل لهم والمحصنات من المؤمنات والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم إذا أتيتموهن أجورهن محصنين غير سافحين ولا متخذي أخذان ومن يكفر بالايمان فقد حبط عمله وهو في الآخرة من الخاسرين .) المائدة : ٣ ـ ٥

بل إن المتمعن ليرى أن السياق متصل ببعضه من أول السورة ، ثم. بعد الآية الخامسة أيضا ، وفي فحوى الآيتين الأوليين من السورة قرينة قوية على أنهما نزلنا بعد صلح الحديبية وقبل فتح مكة ، فيكون هذا واردا بقوة بالنسبة لجميع السياق ، والمتبادر أن الجملة أسلوبية يراد بها والله أعلم إكمال الله عز وجل بالوحي القرآني مسألة محرمات الذبائح التي ذكرت في اول آيات المائدة (أحلت لكم بهيمة الأنعام إلا مايتلى عليكم) ... لأن ماجاء في الآية التي وردت فيها الجملة من تفصيل في أنواع الميتات التي ورد لايجوز أكلها ، وفي تحريم الاستقسام بالأزلام لم يرد قبل . لأن الذي ورد هو (تحريم الميتة إطلاقا) والدم ولحم الخنزير وما أهل لفير الله به ، كما جاء في آيات البقرة (١١٧) والأنعام (١١٥) والنحل على ذلك الجملة الواردة بعد ذلك وهي : (فمن اضطر في مخمصة غير متجانف ذلك الجملة الواردة بعد ذلك وهي : (فمن اضطر في مخمصة غير متجانف لأثم فان الله غفور رحيم) وقد جاءت تتمة للآية .

ولقد نزل بعد ظرف نزول هذه الآية تشريعات ووصايا كثيرة هامة. وجوهرية حيث يكون شمول عبارة (اليوم أكملت لكم دينكم) لجميع امور الدين غير وارد حينما نزلت في الظرف المذكور ، وكل مايمكن أن يكون أن النبي صلى الله عليه وسلم تلا الجملة في خطبة الوداع ، فالتبس الأمر على السامعين .

وهناك أمثلة كثيرة جداً منها مالايتطابق مع فحوى الآيات ، ومنها مايكون فيه قطع لسياق متصل منسجم ، وقد نبهنا عليها في تفسيرنا (التفسير الحديث) بقدر ما استطعنا .

18 ـ ويتناسب مع هذا مسألة أخرى ، وهي أن هناك آيات في سور يروى أنها مدنية ، وآيات في سور مدنية يروى أنها مكية في حين أن معظم هذه الروايات لايثبت على تمحيص لا من حيث الفحوى ، ولا من حيث السياق ، ولا من حيث ظرف النزول ، وقد نبهنا على ذلك في التفسير الحديث أيضاً .

وعدد الآيات المدنية في السور المكية حسب ماجاء في رؤوس سور المصحف المخطوط بخط مصطفى نظيف قذورى أوغلى المطبوع من قبل عبد الحميد أحمد حنفي ، والمصدق عليه بتاريخ ربيع الثاني (١٣٥٣) من قبل اللحنة المعينة بأمر الملك فؤاد هو (١٤٧) وعدد الآبات المكية في السور المدنية سبع (١) . وفي كتب التفسير روابات كثيرة . منها مايؤيد ماجاء في هذا المصحف ، ومنها ماينقص منه ومنها مايزيد عليه . ومعظم الروايات غير وثيقة ، وفحوى الآيات وسياقها شيران الشك القوى في صحتها ، وكل مايمكن حسب ترجيحنا أن يكون صحيحاً من الآيات المدنية في السور المكية هو آيات سورة الأعراف (١٦٣ ـ ١٧٠) في حق بني إسرائيــل . فقد سبقها سياق في تاريخ بني إسرائيل ومواقفهم ، فلما اقتضت حكمة التنزيل نزولها في المدينة على سبيل التشديد بمواقف بني اسرائيل إزاء الدعوة النبوية والتذكير بما كان من مواقف أسلافهم صار من المناسب وضعها في السياق . ثم الآيتان الاخيرتان من سورتي الشعراء والمزمل . فالآيات السابقة للآية الاخيرة من سورة الشعراء فيها ذم للشعراء ، فلما اقتضت حكمة التنزيل استثناء شعراء المسلمين الذبن طلب منهم مقابلة شعر المشركين الهجوى ضد المسلمين ، نزلت الآبة في المدينة لاستثنائهم فوضعت بعد تلك الآيات . والآيات الأولى من سورة المزمل احتوت أوامر للنبي صلى الله عليه وسلم بكثرة التهجد في الليل ، واستمر يقوم بما أمر

⁽۱) في سورة الحج آيات عديدة عليها طابع المهد المدني ، وآيات عديدة عليها طابع العهد المكي ، وبعض الروايات الساورة في سلك السور المدنية ، وبعضها تسلكها في سلك السور المكية ، وقد شرحنا ذلك في التفسير ، والآيات المكية في السور المدنية ، والآيات المكية في السور المكية التي ذكرنا عددها هي غير ما يحتمل ان يكون مكيا أو مدنيا في سورة الحج .

يه وتابعه في ذلك أصحابه الى العهد المدني . وقد اقتضت حكمة التنزيل التخفيف عن النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمين في هذا العهد ، فنزلت الأخيرة ، فالحقت بالسورة للمناسبة .

أما عدا ذلك فلا يثبت على تمحيص سواء من ناحية الفحوى أم من ناحية السياق فضلاً عن سند الروايات ، ويلمح في بعضها رائحة الهوى الحزبى ، ومثالاً على ذلك آيات سورة الشورى هذه:

(ذلك الذي يبشر الله عباده الذين آمنوا وعملوا الصالحات قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى ومن يقترف حسنة نزد له فيها حسناً إن الله غفور شكور ، أم يقولون افترى على الله كنباً فان يشأ الله يختم على قلبك ويمح الله الباطل ويحق الحق بكلماته إنه عليم بذات الصدور ، وهو الذي يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ويعلم ماتفعلون ،) ٢٣ - ٢٠٠٠

فهناك رواية في مصادر عديدة بأن هذه الآيات الثلاث مدنيات. وروى الطيرسي وهو مفسر شيعي في « مجمع البيان » نقلاً عن تفسير أبي حمزة الشمالي عن ابن عباس (ان الأنصار جاؤوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم يعد ان استحكم الاسلام في المدينة ، فقالوا له: إن تعرك الأمور فهذه أموالنا تحكم فيها في غير حرج ولا محظور عليك . . فنزلت الآية الأولى فقرأها عليهم ، وقالوا: تودون قرابتي من بعدي ، فخرجوا من عنده مسلمين ، فقال المنافقون: إن هذا لشيء افتراه في مجلسه أراد أن يذلنا لقرابته من بعده ، فأنزل الله الآية الثانية ، فتلاها عليهم ، فبكوا واشتد عليهم ، فأنزل الله الآية الثائية . هذا في حين أن الآيات الثلاث متصلة أوثق اتصال بما قبلها مابعدها نظماً وموضوعاً ، والسياق جميعه في صدد أوثق اتصال بما قبلها مابعدها نظماً وموضوعاً ، والسياق جميعه في صدد والتنويه بالمؤمنين بالمقابلة ، وكل ذلك ظروف مكية ، ويبدو اهذا واضحاً لكل من يقرأ السياق ، من أول سورة الشورى . وجملة (لا أسالكم عليه المشركين والزامهم مثل آية سورة الأنعام هذه :

(اولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده قل لا اسألكم عليه اجرآ إن هو ذكرى للعالمين ٠) ٩٠

وآية سورة يوسف هذه:

(وماتسالهم عليه من أجر إن هو إلا ذكر للعالمين ٠) ١٠٤

وآية سورة الفرقان هذه:

(قل ما اسألكم عليه من أجر إلا من شاءأن يتخذ إلى ربه سبيلاً ٠)٧٤ وآلة سورة سبأ هذه:

(قل ما سالتكم من أجر فهو لكم إن اجري إلا على الله وهو على كل شيء شهيد .) ٧٤

والرواية التي يروبها الطبرسي تناقض هذه النصوص القرآنية من جهة ولا تتسق مع علو شمان النبوة ، ومصدرها الرباني من جهة اخرى . وهي في الوقت نفسه غريبة ومتهافتة ، ويلمح فيها قصد التلفيق والتطبيق ، ولقد كان أكثر أقارب رسول الله صلى الله عليه وسلم في العهد المكي ، ومنهم عماه العباس وأبو لهب كفاراً ، ولم يكن علي وفاطمة رضى الله عنهما قد تزوجا ، وانجبا الحسن والحسين ، فلم يكن صرف الآبة الأولى إلى أقارب رسول الله صلى الله عليه وسلم وبخاصة أخصائه ممكناً إذا أخذت على حقيقة كونها مكبة ، فلفقت رواية مدنيتها بالصيغة الغربة المروبة ، ولفقت روابة أخرى عن أبن عباس في صدد الآية الأولى من الآيات الثلاث حيث روى انها نزلت في المدينة ، وأنها حينما " نزلت قالوا بارسول الله من هؤلاء الذين أمرنا الله بمودتهم فقال: هم على و فاطمة وولدهما . هذا في حين أن الطبري يروى عن ابن عباس أنه سئل عن الآية في حضرة ابن جبير فقال هذا: « القربي فيها ، قربي آل محمد » فقال ابن عباس: « عجلت . إن النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن بطن من قريش إلا كان له فيه قرابة ، فنزلت الآبة تذكر ذلك ، وتقول لقريش: إلا أن تصلوا القرابة التي بيني وبينكم » وقد روى هذه الرواية البخاري والترمذي أيضاً . ومقتضاها أن الآية مكية وهو الحق . ولقدروي الطبري أيضاً عن ابن عباس تأويلين آخرين جاء في أحدهما (كان لرسول الله قرابة في جميع قريش ، فلما كذبوه وأبوا أن ببايعوه قال ياقوم: إذا أبيتم أن

تبايعوني فاحفظوا قرابتي فيكم ، لا يكن غيركم من العرب أولى بحفظي منكم) وجاء في ثانيهما (قل لا أسألكم إلا أن لاتؤذوني لقرابة مابيني وبينكم فانكم قومي ، وأحق من أطاعني وأجابني) ومقتضى هذه الروايات أن الآية مكية كما هو وأضح وهو الحق مع إضافة كونها جزءاً من سياق طويل مترابط في صدد مواقف المشركين في مكة من الدعوة النبوية .

ونذكر مثالاً آخر ، فقد روي أن آيتي سورة الزمر هاتين :

(قل ياعبادي الذين أسرفوا على انفسهم لاتقنطوا من رحمة الله إن الله يففر الذنوب جميعاً إنه هو الففور الرحيم • وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له من قبل أن يأتيكم العذاب ثم لاتنصرون •) ٥٣ ـ ٤ •

مدنيتان . وروى المفسرونأن أولاهما نزلت في حق وحشي الحبشي قاتل حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه وعم رسول الله صلى الله عليه وسلم في وقعة أحد ، ومما رواه المفسرون أن وحشياً استعظم ذنبه ورأى أن إسلامه لن ينجيه من غضب الله ورسوله ، فانزل الله آية الفرقانهذه: (إلا من تاب وآمن وعمل عملاً صالحاً ،) ٧٠

فقال وحشي: هذا شرط شديد ، فأنزل الله آية سورة النساء هذه: (إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر مادون ذلك لمن يشاء) ٨٨ فقال وحشي: أراني بعد في شبهة . فأنزل الله آية الزمر (٥٣) إحدى الآيتين اللتين هما موضوع الكلام فقال هذا نعم . ثم جاء وأسلم ، وروى المفسرون إلى هذه الروايات رواية أخرى تفيد أنها نزلت في حق أناس أسلموا فأوذوا فارتدوا وكبر عليهم ذنبهم فأنزلها الله لتفتح لهم الباب ، ورواية ثالثة تفيد أنها نزلت في حق أناس اقتر فوا آثاماً كبيرة ، وكانوا يتساءلون عن حالهم إذا أسلموا . . والروايات الواردة في صدد وحشيغريبة وعجيبة في مناسبتها وظر فها ثم في تدرجها لأجل اقناعه وجعله يسلم! هذا في حين أن الآيتين (٣٥ و ١٥) منسجمتان انسجاماً تاماً نظماً وموضوعاً مع ماقبلهما ومع مابعدهما ، والسياق جميعه في مواقف المشركين وإنذارهم ، والأسلوب مكي ، وكل هذا ملموح فيه إذا تمعن فيه القارىء .

ومثالاً آخر آيات سورة النحل الأخيرة هذه:

(أدع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي أحسن إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين • وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ماعوقبتم به ولتنصبرتم لهوخير للصابرين • واصبر وما صبرك إلا بالله ولاتحزن عليهم ولا تك في ضيق مما يمكرون • إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون •) ١٢٤ – ١٢٨ •

فهناك روانة تذكر أن الآبات الثلاث الأخيرة مدنية ، ولم ترد الرواية في الكتب المعتبرة . غير أن الترمذي روى عن أبي بن كعب حديثاً وصف بأنه بسند حسن جاء فيه: (لما كان يوم أحد أصيب من الأنصار أربعة وستون رجلاً ومن المهاجرين ستة فيهم حمزة ، فمثلوا فيهم . فقالت الأنصار : إن أصبنا منهم يوماً مثل هذا لنربين عليهم ، فلما كان يوم فتح مكة أنزل الله (وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ماعوقبتم به) فقال رجل : لا قريش بعد اليوم . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : كفواعن القوم إلا أربعة . .) وأورد ابن كثير حديثاً ، عن عطاء بن يسار جاء فيه : (إن الآيات الثلاث نزلت بالمدينة بعد أحد حين قتل حمزة ومثل به . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « لئن أظهرني الله عليهم لأمثلن بثلاثين رجلاً منهم . فلما سمع المسلمون ذلك ، قالوا والله : لئن أظهرنا الله لنمثلن بهم مثلة لم بمثلها أحد من العرب بأحد قط . فانزل الله الآيات الثلاث . . .) ، وأورد ابن كثير حديثاً آخر عن ابي هريرة ، اخرجه الحافظ ابو بكر البزار جاء فيه (أن النبي صلى الله عليه وسلم لما نظر إلى حمزة ومثلته قال: رحمة الله عليك إن كنت ما علمتك إلا وصولاً للرحم ، فعولاً للخيرات ، والله لولا حزن من بعدك لسرني أن أتركك حتى يحشرك الله من بطون السباع ، أما والله على ذلك لأمثلن بسبعين كمثلتك ، فنزل جبريل بالآيات . فكفَّر النبي صلى عليه وسلم عن يمينه ، وقال : نصبر ولا نعاقب ، والأحاديث تذكر أن آنة:

(وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ماعوقبتم به ولئن صبرتم لهو خير الصابرين ٠)

فقد أنزلت في حادث أحد ، مع انالروايات تذكر أن الآيات الثلاث معالى مدنيات ، والآيات منسجمة مع بعضها ومع الآية السابقة لها في معنى واحد رائع ، وفيها خطة للنبي صلى عليه وسلم في دعوته إلى سبيل الله . فعليه أن يدعو إليها بالحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتي هي أحسن فإذا وقف أحد تجاهها موقفاً يستوجب المقابلة فيجب أن يكون ذلك في نطاق المماثلة . والآية قبل الأخيرة احتوت أمراً للنبي صلى الله عليه وسلم بأن لايضيق صدره بمكرهم ولا يحزنه ذلك ، وتسليته له بأن الله مع المتقين المحسنين ، وروح الآيات الأربع وفحواها من روح وفحوى الآيات المكية . وفي سورة العنكوت آنة مماثلة لم نقل أحد إنها مدنية :

(ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن إلا الذين ظلموا منهم وقولوا آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم ٠) ٤٦

وفي سورة النمل آيات مماثلة أيضاً ولم يقل أحد إنها مدنية :

(قل سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المجرمين ، ولا تحزن عليهم ولا تكن في ضيق مما يمكرون ،) ٦٩ و ٧٠

ومن المحتمل أن يكون النبي صلى الله عليه وسلم في ظروف حزنه على حمزة خطر له ماذكرته الروايات أو أن يكون ذلك مما خطر لأصحابه في ظروف حزنهم على شهدائهم ، فتلا النبي صلى الله عليه وسلم الآية وتم التراجع والقول (نصبر ولا نعاقب) فالتبس الأمر على الرواة ، وننبه على أن الآيات الأربع منسجمة مع سياقها السابق انسجاما قوياً ، وكأنها نتيجة له أو تعقيب عليه ، والطابع المكي قوي البروز على هذا السياق . وقد ورد ما احتواه من الأمر باتباع للنبي صلى اللهعليه وسلم ملة ابراهيم، وبما هو حلال وحرام من الذبائح في آيات أخرى في سورة الأنعام المكية ، وإقرأ مثلاً الآيات (١٦٦ و ١٦٦) من هذه السورة ، وقابلها مع آيات سورة النحل السابقة للآيات الأربع .

ولقد قلنا : إن عدد المروي من الآيات المكية في السور المدنية قليل ، , , ومن ذلك آيات سورة الانفال هذه :

(وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون. ويمكر الله والله خير الماكرين . وإذا تتلى عليهم آياتنا قالوا قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا إن هذا إلا أساطير الأولين • وإذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق" من عندك فأمطر علينا حجارة منالسماء أو ائتنا بعذاب اليسم . وما كان الله ليعذبهم وانت فيهم وما كان الله معذَّبهم وهم يستففرون . وما لهم الا يعذبهم الله وهم يصدون عن المسجد الحرام وما كانوا أولياءه إن أولياؤه إلا المتقون ولكن اكثرهم لايعلمون ٠) ٣٠ - ٢٤

والرواية التي تروى مدينتها غير وثيقة . والآيات منسجمة مع ما قبلها ومع ما بعدها ، وفيها تذكير بموقف المشركين من النبي صلى الله عليه وسلم في أواخر العهد المكي ، والمعقول أن يكون هذا التذكير بعد ذلك الموقف الذي كانت الهجرة النبوية على أثره . وفحوى الآيات يفيد. بقوة أنها مدنية . ومن ذلك الآيتان الأخيرتان من سورة التوبة . والرواية -التي تروى مكيتها غير وثيقة ، وفحواهماوفحوى سياقهما يفيدان أنهما جاءتا كتعقيب على موقف للمنافقين ، وهذا من مشاهد العهد المدنى .

ونكتفى بما تقدم لنقول في صدد الموضوع الذي عقدنا عليه النبذتين. (١٣ و ١٤) ونقول: إن ملاحظة السياق والتناسب والترابط بين الفصول والمجموعات القرآنية ضرورية ومفيدة جداً في فهم القرآن ومواضيعه وأهدافه من جهة ، وفي لمس ناحية من نواحي الروعة والإعجاز والإتقان فيه ، لأنهما تظهران للناظر في القرآن على ماهو عليه من ترتيب وانسجام وترابط نظماً وموضوعاً من جهة ، وتزيلان ما هو عالق بالأذهان من خطأ بأن الفصول القرآنية فوضى لاترتيب ولا انسجام بينها ، وأنها كانت توضع حذاء بعضها كيفما اتفق من جهة ، وتجعلان القارىء يلمح ضعف روايات كثيرة وردت في سياق الآيات القرآنية كسبب لنزولها ، وفي بعضها قلب لمعنى السياق القرآني وهدفه ، وفي بعضها ما يوهم التفكك وعدم الترابط في هذا السياق من جهة .

وكتعقيب أخير على الفصل كله نقول: إنه لايجوز للناظر في القرآن أن تكون نظرته فيه اعتباطية جزافية ، وأن عليه أن يستوعبه إذا أراد - 717 -

أن يفهمه فهما صحيحاً ، وأن يتكلم في شيء وارد فيه سواء أكان مسلماً أم غير مسلم ، وأن يتمعن في آياته وفصوله ، ويربط بعضها ببعض ، ويرجع بعضها إلى بعض ، ويفسر بعضها ببعض ، ولا يبتر آية أو جزء آية من آية ، ويبنى حكمه عليها بقطع النظر عن سياقها أو ما في السور أو الفصول الأخرى من تتمات واستدراكات وتوضيحات ، وأن لا بأخلف الروايات والأقوال على علاتها وبخاصة إذا لم تكن متطابقة مع فحوى ومدى النص القرآني ، ويستند إليها في الحكم والفهم والتأويل ، وأن يظل يلاحظ صلة التنزيل القرآني بالسيرة النبوية والبيئة النبوية ، وصلة اللغة القرآنية والأساليب القرآنية بلغة وأساليب العرب اللذين وجهت إليهم لأول مرة ، ونزلت بلغتهم وأساليبهم ، وأن يظل يلاحظ كذلك أن في الآبات آبات محكمات ، وأخر متشابهات ، وأن المحكمات هن أم الكتاب ، وأن عليه أن يلتزم الضابط القرآني في المتشابهات التي هي وسائل تدعيم للمحكمات والتي منها القصص والملائكة والجن والمشاهد الأخروية ومظاهر الكون وذات الله ، وأن يقف منها عند ما اقتضت حكمة التنزيل إيحاءه منهابالأسلوب الذي جاءت بهلتحقيق الهدف الذي استهدفته بدون تزيد ولا تخمين حتى لايخرج عن ذلك الضابط الذي فيه بصراحة على أن من لايتمسك به يكون ذا قلب زائع قاصداً الفتنة في التأويل الاعتباطي ، فإذا التزم بكل هذا وهو واجب لايستطيع أن يتحلل منه إذا كان راغبًا في الحق والمعرفة ، عصم نفسه من التورط والتمحل ، وسوء الفهم والتأويل والأدب .

ثانی عشر:

وهناكمسائل قرآنية أخرى يختلف فيها العلماء والباحثون المسلمون، ويتناولها الأغيار وذوو النيات السيئة لإبراز ما ظنوه ثغرات ، ومآخل فيها ضد القرآن ، وقد رأينا أن نلم بها أيضاً على رجاء أن نضع الأمر في نصابه الحق فيها إن شاء الله ، ولقد تناولنا هذه المسائل فيما تناولناه من شرح مسائل قرآنية عديدة أخرى في كتابنا (القرآن المجيد) اللي

طبع عام (١٣٨٠هـ ١٩٥٢م) في صيدا ، وقد رأينا أن نكتفي هنا بالإيجاز ، وأن نطلب ممن يحب الاسناد والتفصيل أن يرجع إلى كتابنا المذكور . اولا: جمع القرآن وتدوينه وترتيب ه

- 1 -

إن الناظر في كتب علماء القرآن والحديث والتفسير يجد أحاديث وروايات كثيرة في هذا الموضوع مختلفة اختلافاً غير يسير ومتعارضة أيضاً ، حيث يجد أولا أن هناك أحاديث وروايات تفيد أن النبي صلى الله عليه وسلم توفي ولم يكن القرآن قد جمع في شيء ، وأن جمعه وتدوينه إنما كان بعد وفاته . وأن ما كان يدون منه في حياته كان يدون على الأكثر على الوسائل البدائية مثل أضلاع النخيل ، ورقائق الحجارة وأكتاف العظم ، وقطع الاديم والنسيج ، وأن المدونات منه على هذه المواد لم تكن مضبوطة ولا مجموعة . وكانت على الأكثر متفرقة على المسلمين ، وال المعول في القرآن إنما كان على القراء وصدور الرجال وحفظهم ، وأن آيات القرآن في السور والسور في المصحف إنما تم ترتيبها كما هي في المصحف بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم .

وحيث يجد ثانياً: أن هناك أحاديث وروايات تذكر أنه كان خلاف في ترتيب مصاحف بعض أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وكلمات وآيات كانت تكتب في بعض المصاحف ، أو يحفظها الحفاظ ويقرؤونها لم تكتب في المصحف المتداول ، وسور زائدة أو ناقصة عما في هذا المصحف.

وحيث يجد ثالثاً: أحاديث وروايات تذكر أن القرآن كان حين نزوك يكتب على رقاع ، ثم ينقل منها الى القراطيس والصحف ، وترتب آياته في سور ، وسوره في تسلسل بأمر النبي صلى الله عليه وسلم وأن أجسام كل السور المكية الصغيرة والكبيرة كانت تامة مرتبة قبل الهجرة، وأنها كانت تنزل متلاحقة ، وكانت تبدأ السورة بالبسملة ، وتستمر متلاحقة حتى نهايتها ، ثم تبدأ سورة جديدة بالبسملة ، وأن ذلك استمر على هـذا

المنوال بعد الهجرة ، وأن السور الطويلة المدنية ذات المواضيع العديدة قد رتبت في آخر حياة النبي صلى الله عليه وسلم وبأمره ، وأن القرآن كان تام الترتيب آياته في السور وسوره في تسلسل في آخر حياة النبي صلى الله عليه وسلم كذلك ، وأن هذا الترتيب هو الذي كان عليه المصحف الذي حرر في زمن أبي بكر رضي الله عنه ليكون إماماً ، ثم المصاحف التي نسخت عنه بأمر عثمان رضي الله عنه ، والتي هيأصل المصاحف المتداولة، وأن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا في حياة النبي صلى الله عليمه وسلم يكتبون مصاحف مشله ، ويحفظون القرآن ، ويقرؤونه ، ويختمونه مرتباً بنفس الترتيب المتداول .

وهناك تعليقات لعلماء المسلمين على الأحاديث والروايات الواردة في كل مجموعة من المجموعات الثلاث . منها المعلل ، ومنها المتحفظ ، ومنها الموضح ، ومنها المنكر المعترض . وقد أورد الإمام السيوطي في كتابه « الاتقان » كل الأحاديث والروايات والاقوال أو جلها ، وأوردنا طائفة كبيرة منها في كتابنا القرآن المجيد ، فلم نر ضرورة لإيرادها هنا .

_ 7 _

ومن الحق أن نقول: إن كثيراً من الأحاديث المروية عن النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه في المجموعات الثلاث غير واردة في كتبالأحاديث الصحيحة ، وإن كثيراً منها يتحمل النظر والتوقف موضوعياً ، غير أن من الحق أن نقول أيضاً: إن ما جاء في المجموعة الثالثة إجمالا أكثر وثاقة من جهة ، وأنها مع الأقوال المؤيدة لها الصادرة عن كثير من علماء المسلمين وأئمتهم أكثر اتساقاً مع طبائع الأمور والظروف منجهة أخرى.

فالقرآن أعظم مظاهر النبوة ، ومعجزتها الخالدة ، وكان مدار الاحتجاج والدعوة مع العرب والكتابيين الذين كانت لهم كتبهم المتداولة في أيديهم المكتوبة على قراطيس وورق ومواد لينة تنشر وتطوى بسهولة، وقد تكرر في القرآن كثيراً الإشارة إلى كتبالكتابيين منجهة وذكر (الكتاب) في القرآن بمعنى (القرآن) من جهة أخرى . فلا يعقل في حال أن يهمل النبي صلى الله عليه وسلم تدوين ما كان ينزل عليه من الوحي القرآني ،

وان لاتكون عنايته بذلك فائقة ، وان لايحرص على تدوينه في وسائل لينة تطوى وتنشر كالصحف والقراطيس وورق الحرير ، ثم على حفظ مدوتاته حرصاً شديداً مرتبة منسقة . بل والمعقول أن يكون ذلك من أمهات مشاغله المستمرة . وكل هذا مما تفيده أحاديث وروايات المجموعة الثالثة ، ومما تفيده قرائن قرآنية كثيرة أوردناها في كتابنا القرآن المجيد (۱) ، ومما يؤيده تعليقات جم غفير من علماء المسلمين .

وما روى من أن القرآن كان يكتب على الوسائل البدائية الثقيلةالحجم والصعبة الحفظ ، والنقل كأضلاع النخيل ، وقطع الخشب والحجارة ، واكتاف العظام لانصح أن نقبل على علاته بناء على ما تقدم وإن كان ورد في حديث يعد من الصحاح ، وكل ما يحتمل أن يكون أن النبي صلى الله عليه وسلم إذ ستدعى أحد كتابه لإملاء ما يكون نزل عليه من وحى فور نزوله ، وهو ما كان تفعله دائماً على ماتفيده الأحاديث والقرائن القرآنية أن لا يكون متيسراً إلا شيء من هذه الوسائل البدائية ، فيكتب الكاتب عليها ما يمليه النبي صلى الله عليه وسلم مؤقتاً ريثما ينقل إلى مكانه من سجلات القرآن مما عبر عنه زيد بن ثابت كاتب وحي رسول الله في قوله في حديث مأثور له (كنا نؤلف القرآن في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم من الرقاع) ومن المحتمل كذلك أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من أهل المدن أو البادية ، كانوا يكتبون بعض الآيات التي كانوا يتلقونها من النبي صلى الله عليه وسلم على قطع من تلك الوسائل للتبرك والحفظ والنقل على اعتبار أنها أبقى على الزمن ، وأقل تعرضاً للفناء والتمزيق على نحو ما اعتاد المسلمون أن يفعلوا في مختلف أدوارهم في كتابة اللوحات القرآنية مع بعض التعديل . فلما دعى المسلمون إلى الإتيان بما عندهم من قرآن حينما عزم أبو بكر ، وكبار أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم على تحرير المصحف الإمام بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم بقصد زيادة الاستيثاق والضبط والتحرى أتوا فيما أتوا به بهذه القطع ، فحفظت الروايات هذه الصورة .

⁽¹⁾ انظر ص ٥٢ ــ ١١٥ وينوع كاص ص ٩١ وما بعدها .

ولقد كان في مكة والمدينة جاليات نصرانية ويهودية تتداول كتبأ مكتوبة على قراطيس تطوى وتنشر كما قلنا قبل . ولقد كانت مكةوالمدينة مدينة تجارية متصلة بالبلاد المجاورة المتحضرة التي يكثر فيها وسائل الكتابة اللينة مما لايعقل إلا أن يكون اهل هذه البيئة قد اقتبسوا ذلك .

ولقد احتوى القرآن أوامر بتدوين المعاملات التجارية النقدية وغيسر النقدية صغيرة كانت أم كبيرة ، ولقد تعددت الآيات القرآنية التي تذكر (الصحف) في صدد القرآن والكتب الأخرى ، ولم يقل احد انها كانت تعني تلك الوسائل البدائية ، بل إن المفهوم القرآني هو في جانب كونها وسائل تطوى تنشر ، ولقد سميت مجموعة القرآن التي حررت في عهد ابي بكر بعد وفاة النبي لتكون الإمام والمرجع باسم الصحف والمصحف لأنها كتبت على صحف من ورق على الأرجع أو من رقوق ناعمة مسواة . ولقد كان في أيدي أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كثير مس المصاحف والصحف القرآنية المكتوبة بخطوط متنوعة وهي التي أمر عثمان باحراقها حينما نسخ مصاحفه عن مصحف أبي بكر لتكون مؤحدة الرسم ، وأمر الناس بكتابة مصاحف جديدة عنها . وهذا العهد متصل بعهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حيث يفيد كل هذا أن وسائل بعهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حيث يفيد كل هذا أن وسائل الكتابة اللينة السهلة الطي والنشر والحفظ متيسرة في هذا العهد .

وهناك ما يمكن أن يعتبر حقائق لاخلاف فيها تؤيد كون المصحف المتداول هو مرتب وفق ترتيب النبي صلى الله عليه وسلم ، واحتوى كل ما كان ثابتاً قرآناً غير مرفوع وغير منسوخ حين وفاة النبي صلى الله عليه وسلم ، منها أن المصاحف المتداولة اليوم بين المسلمين هي نسخ متظّابقة نصاً وترتيباً ورسم كتابة ، وإن اختلفت خطوطها ، وليس هناك مصحف متداول بين المسلمين متباين معها في الألفاظ والترتيب ، ومنها أن التواتر الذي لم ينقطع هو أن هذه المصاحف نسخة طبق الأصل في نصهاوترتيبها ورسمها للمصاحف التي نسخت بأمر عثمان بن عفان رضي الله عنيه ، وأريد بها أن تكون جميع المصاحف موحدة الرسم حتى يمتنع الخلاف في واريد بها أن تكون جميع المصاحف العثمانية منسوخة نصاً وترتيباً عن المصحف القراءة ، ومنها أن المصاحف العثمانية منسوخة نصاً وترتيباً عن المصحف الذي حرر في زمن أبي بكر رضي الله عنه على ملا من اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، واحتوى كل ماثبت أنه قرآن لم يرفع ولم ينسخ

حين وفاة النبي صلى الله عليه وسلم ومنها أنه ليس هناك رواية أو حديث ما وثيق أو غير وثيق منسوب إلى أحد أصحاب رسول الله الله الله الله ين أشرفوا او باشروا كتابة المصحف الأول في زمن ابي بكر أو الصاحف العثمانية فيه أى اشارة، إلى أن ترتيباً جديداً طرأ على القرآن آيات في سور وسورا في تسلسل أو أربد به ذلك ، حيث يصح القول بجزم: ان المصحف الأول الذي نسخت عنه المصاحف العثمانية ، قد حرر حسب ماكان مرتباً مدوناً في القراطيس والمصاحف ، ومحفوظاً في الصدور في حياة النبي صلى الله عليه وسلم ، وإن كبار وعلماء أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قد حرصوا كل الحرص ، واهتموا أشبد الاهتمام لتحرير القرآن وضبطه على أحسن وجه واقومه ، وأنهم تضامنوا في ذلك كل التضامن حتى كان مصحف أبي بكر الإمام الذي لايتحمل أي شك في أنه كان متطابقاً لما مات عنه النبي صلى الله عليه وسلم نصاً وترتيباً والذي كان مصحف عثمان نسخة مطابقة له نصاً وترتيباً كذلك ، وأنهم كانوا مسوقين في حرصهم واهتمامهم بسائق ديني إيماني ملك عليهم مشاعرهم رهبة وهيبةوتقديسا وتعظيماً ولم يكن عملهم هذا شخصياً أو سياسياً بل هو متصل بأقوى عمد الدين والإيمان وأعظم مظاهر النبوة وأكبر تراث خلفه النبي صلى الله عليه وسلم ، وبحيث يمكن القول بجزم بناء على ذلك إن ما ورد في الروايات التي جلها أو كلها غير وثيق السند مع ذلك من زيادات أونقص في الكلمات والآيات والسور ، ومن مخالفة للترتيب لم يثبت عند الملأ مــن اصحاب رسول الله وناتج عن وهم وخطأ ، ولبس وعدم تثبت فأهمل ،

ومنه مايصح القول بقوة: إنه مخترع ومدسوس بنية سيئة وقصد مفرض وجمهور العلماء والمؤلفين مجمعون على هذه الحقائق بدون خلاف ومن جملة ذلك علماء ومؤلفوا الشيعة الإمامية (١) .

وهناك الحقيقة الكبرى ، وهي كون القرآن المتداول سورة وفصوله ومجموعاته وآياته وكلماته ونظمه كل ذلك متصل بالنبي صلى الله عليه وسلم ، وصادر عنه مباشرة بوحي رباني نزل على قلبه ، وكون هذا لم

⁽۱) ذكرنا هذا لأن هناك روايات يسوقها غلاة من الشبيعة يزعمون بها وقوع تحريفات واختزالات في القرآن مما يتصل بوصاية وولاية على بن أبي طالب وأولاده رضي الله عنهم يبرز عليها طابع الافتعال والاختراع قوياً .

يكن في وقت من الأوقات محل أخذ ورد وشك وتوقف من قبل المسلمين على اختلاف نحلهم وفرقهم وأهوائهم . ومن لدن شاهدي العيان لاعلام النبوة في حياة النبي صلى الله عليه وسلم إلى الآن ، كما أنصدور مماشرة عنه لم يكن محل ريب من قبل غير المسلمين أيضاً ، وكون القرآن ، وظل ولن يزال معجزة النبي العظمى الخالدة ، وكونه أصفى منبع إسلامي للاحكام والعقائد والتشريع والإلهام والفيض والتوجيه والتلقين فيه الحق والهدى والصدق والرشد ، وفيه المبادىء السامية والشفاء للصدور ، والعلاج للنفوس والحلول لمتنوع المشاكل الإيمانية والروحية والسلوكية والعلام للناس كافة ، وخلفه النبي صلى الله عليه وسلم في المسلمين بل وللانسانية فلا يضلون أبداً إذا ما أتبعوه وتمسكوا به ، يهدي به الله من أتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم . ولقد وعد الله بحفظه في آية سورة الحجر هذه:

(إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون .) ٩

فحقق الله وعده في حفظه من اي تبديل وتغيير وتحريف وزيادة ونقص ، مجمعاً عليه في رسم واحد ، ونص واحد ، ومصحف واحد ، وترتيب واحد في مشارق الأرض ومغاربها ، محتفظاً بكل إشراقه وسنائه وروحانيته ، وألفاظه وحروفه وأسلوب تلاوته وترتيله كما تلاه ورتله رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبترتيبه الذي رتبه مما لم يتيسر لأي كتاب سماوي (۱) ليظل مرجع كل خلاف ، وحكما في كل نزاع ، والقول الفصل في كل مذهب ، وعند كل نحلة ، منذ وفاة النبي صلى الله عليبه وسلم الى اليوم والى ما شاء الله لهده الدنيا ان تدوم ، ويكفي لتبين وسلم الى اليوم والى ما شاء الله لهده الدنيا ان تدوم ، ويكفي لتبين

⁽۱) ليس في أيدي اليهود والنصارى ما يجوز تسميته توراة موسى وانجيل عيسى عليهما السلام ، فقد كان فعلا توراة لموسى ، وانجيل لعيسى على ما ذكر بصراحة في اسفار المهد القديم والجديد ، ولكنهما فقدا ، وهذه الأسفار مكتوبة باقلام مختلفة بعد موت موسى وعيسى عليهما السلام وما جاء فيها من تبليغات معزوة الى الله بلسان موسى وعيسى قد جاء رواية وحكاية ، وليس منها شيء باملائهما (إقرأ كتابنا (القرآن والمبشرون) فان فيه فصلا في التوراة والانجيل في القرآن والواقع فيه وضع للامر في نصابه الحق) .

خطورة المعجزة الربانية العظمى في حفظه أن يذكر المرء ما كان من فتن وخلاف وشقاق وحروب ، وتنافس في سبيل الحكم والسلطات منه صدر الإسلام الأول ، وما كان من اجتراء اصحاب الأهواء في ذلك العهد وبعده على رسول الله صلى الله عليه وسلم والكذب عليه في وضعالاحاديث المتضمنة تأييد فئة على فئة ، ورأى على رأى ودعوة على دعوة ، وما كان من وضع الأحاديث والروايات لصرف آيات القرآن إلى غير وجهها الحق ، وتأويلها بفير وجهها الحق بسبيل ذلك ، وما كان من استعلاء قوم على قوم وشيعة على شيعة استعلاء القوة والسلطان مع اشتداد العداء والتجريح، واشتدادتيار الأحاديث المفتراة، وكان ممن صار له السلطان القوى الواسع المديد فئات كانت تقيم دعوتها على صرف الآيات الى هواهما ، وتأويلها على غير وجهها الحق والاجتراء على رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه بسبيل ذلك ، وأن يذكر أن هذا كان في وقت لم يكن القرآن فيه مطبوعاً ولا مصوراً ، ولم يكن من المستحيل فيهأن يجرأ الذين احترؤوا على رسول الله واصحابه ، وكذبوا عليهم ، وصرفوا الآيات على غير وجهها الحق على كتاب الله فيغيروا ويبدلوا ويزيدوا وينقصوا تبديلا جوهريا سائغاً على المسلمين مؤيداً لأهوائهم ، وينشروا به مصاحف عديدة ، وبخاصة في الآيات التي حاولوا صرفها عن وجهها الحق إلى تأييد أهوائهم ودعوتهم ، أو إضعافها لتكون أكثر مطابقة مع الوجوه التي أريك صرفها إليها سلبًا وإيجابًا ونفيًا وإثباتًا ، وفي وقت كَانت الكتابة ألعربية فيها سقيمة ، وكان التشابه بين الحروف كثيراً ، واحتمال اللبس قوياً . وما كان من محاولات قليلة في صدد ذلك كان غثاً وتافها ومرفوضاً كل الرفض ، ومنكرا أشد الإنكار فلم يكتب له حياة ولا دوام .

وتحقق هذه المعجزة القرآنية الربانية الحاسم المذهل دليل مقنع في حد ذاته لابتحمل اي مكابرة ولا توقف لكل ذي نية حسنة من غيسر المتدينين والمسلمين ، ومخرس مفحم لكل ذي نية سيئة في الوقت نفسه على صحة وصدق الوحى الرباني القرآني ، ونبوة محمد صلى الله عليه وسلم .

ولقد حفظت بركة هذه المعجزة الربانية اللغة العربية التي نزل بها القرآن قوية مشرقة لكل ما كانت بلغت إليه من شأو عظيم فريد قصرت وما تزال تقصر عنه معظم لغات الأرض من سعة وبلاغة ودقة نفوذ وعمق ونصاعة وقواعد وضوابط لتظل لغة الأمة العربية الفصحى في كل صقع

وفي كل دور وزمان وهو مالم يتيسر للفة أمة من أمم الأرض ، ولتكون إلى ذلك لفة عبادة الله لجميع الأمم الإسلامية المنتشرة في أنحاء الأرض خلال الأربعة عشر قرنا ، ثم خلال القرون الآتية إلى ما شاء الله بل لتترشيح لتكون لفة العالم الاسلامي ، بل لفة الانسانية حينما يأذن الله بتحقيق وعلاه ، وإظهار الاسلام على الدين كله ، ولن يخلف الله وعده ، وذلك رغم ما يبذله الملحدون والمبشرون والمستعمرون من ورائهم ضدها من جهود مستميتة يائسة تظهر حيناً وتخبو حيناً سواء فيما يقترحونه ، ويسعون فيه من اصطناع العامية في الكتابة والتأليف أم في استبدال الحروف اللاتينية بالحروف العربية لتشويه محاسن الاداء فيها وتبديد ما تمثله من تراث عربي إسلامي عربق محيد .

ولقد حفظت الأمة العربية ببركتها موحدة قوية الحيوية صامدة أمام ما وقع عليها من نكبات ، وتسلل إليها من عناصر غريبة محتفظة بمواهبها العظيمة وخصائصها القومية التي كان من مظاهرها اصطفاء الله لخاتم أنبيائه ورسله منها ، وإنزاله آخر كتبه بلغتها ، وأن غدت ذات رسالة عالمية خالدة بما حملها القرآن من عبء الدعوة إلى الله ، ونشر رسالته السامية المتممة لما سبقها والتي بقيت نقية صافية كما هي في منبعها الأول الذي حفظه الله ، والذي لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلف تنزيل من حكيم حميد ، وأن ترشحت بذلك لتكون خير أمة أخرجت للناس إن هي قامت بما حملها إياه القرآن من ذلك العبء ودعت إلى الخير وأمرت بالمعروف ، ونهت عن المنكر ، وتحققت بالأعمال الصالحة على اختلاف أنواعها .

والروايات تذكر أن عثمان أرسل نسخا من المصحف المنسوخ بالإملاء القرشي إلى الأقطار ، وأمر بالنسخ عنه ، وإحراق ماعداه ، وتم ذلك في هذه الأقطار وفي المدينة العاصمة ، ولو كان في أيدي المسلمين في المدينة ، وفي ما انتشروا فيها من المشارق والمفارب مصاحف مباينة في الآيات والترتيب والكلمات لمصحف عثمان المذكور ، لظهرت . فعمال عثمان لايمكن أن يكونوا قد مشطوا كل بيت في كل بادية وقرية ومدينة ، فأحرقوا ماكان

فيه من مصاحف ، وما دام لم يظهر مصاحف مباينة فيكون المسلمون قد اطاعوا أمر الخليفة طوعاً ورغبة وتديناً ، ولا يمكن أن يكون هذا إلا إذا لم يكن في أمره خلاف ، أي : لم يكن بين مصحف عثمان والمصاحف التسي كانت متداولة في أيديهم مباينات في غير الإملاء والكتابة ، لأن الاحتفاظ بذلك يكون منهم تديناً أيضاً ، ولا سيما أن فريقاً غير يسير من أهل الأمصار بل ومن المدينة ، قد نقموا على عثمان ، وثاروا عليه وقتلوه ، وصارت بسبب ذلك حروب دامية امتدت آثارها إلى أمد بعيد بعد قتله . وهذا الشرح يظهر تفاهة ما يقوله بعض المستشر قين والمبشرين من وجود مباينات بين مصحف عثمان والمصاحف المتداولة قبله ، ومن أنه لو لم يأمر عثمان بإحراق هذه المصاحف لتسنى للناسالو قوف على هذه المباينات . . .

وهناك رواية تذكر أن المصحف المتداول هو مصحف الحجاج ، وأنه مباين لمصحف عثمان ، والرواية من جهة غير وثيقة ، ومن جهة أن كل ما تفيده أن الحجاج أمر أو وأفق على وضع نقاط للحروف وتصحيح كتابة بعض الألفاظ دون أي تبديل وتفيير في مصحف عثمان ، ومن جهة أن جمهرة علماء القرآن قد كذبوها وفندوها من جهة النقل ومن جهة العقل(١) و يمكن أن يقال إضافة إلى ماذكروه: إنه كان ناقمون ومحاربون كثيرون منتشرون في مشارق الأرض ومغاربها للحجاج والدولة الأمويــة، ولا يمكن قطعاً أن يكون الحجاج وعماله وعمال الدولة الأموية قد تتبعوا كل ما في أيدي المسلمين بما فيهم هؤلاء الناقمون المحاربون من مصاحف وأبادوها وحملوهم على مصحف جديد ، فلو كان للرواية أصل ما لكان بقى مصاحف كثيرة جدأ في أيدى الخصوم والناقمين والمحاربين مباينة للمصحف المتداول المزعوم إنه مصحف الحجاج ، ولقد قامت بعد دولة الأمويين الشامية الدولتان العباسية والفاطمية ، وشمل سلطانهما القسم الأعظم مما كان تحت حكم الأمويين في المشرق والمغرب ، وكانت كلتاهما ناقمتين حاقدتين على الدولة الأموية والحجاج ومجتهدتين في تشويسه سيرتهما وهدم ما اسسوه ، وكان من أهم ما يقتضى أن يفعلو هنسف مازعم

 ⁽۱) انظر الاتقان للسيوطي والبرهان في علوم القرآن ، واقرأ كتابنا القرآن والمبشرون فان فيه بحثا وافيا في ذلك فندنا فيه قول المبشرين .

أن الحجاج فعله ، وإعادة الأمر إلى نصابه ، ولم ترو الروايات شيئً ما في هذا الصدد ، وفي هذا تكذيب حاسم لذلك الزعم .

ثانياً : أحاديث نزول القرآن على سبعة أحرف

_ 1 _

لقد أثرت أحاديث نبوية عديدة مختلفة الرتب في صدد نزول القرآن على سبعة أحرف ، وقد اختلف علماء المسلمين وباحثوهم في مدى هذه الأحاديث ، ورويت في صدد ذلك أقوال كثيرة عن بعض أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وتابعيهم فيها بعض الخلاف ، واستغل ذلك المشرون والملحدون ، فحاولوا أن يحدوا المآخذ والثفرات في القرآن عبره ، ووصــل الأمر في بعضهم إلى زعم أنه كــان للقرآن صيغ عـــديدة أسقطت عدا واحدة هي التي كتب بها مصحف عثمان رضي الله عنه ، بل ووصل التخريف في بعضهم إلى القول: إن المسلمين أضاعوا على الناس معرفة ما كان في الحروف والصيع الأخرى من مباينات ومناقضات واختلاف بالنسبة للحرف الـذي أثبتوه ، واقتصروا عليـه في حين أن الإنجيل نزل على أربعة أحرف تمثلت في أناجيل: متى ، ومرقس ، واوقا، ويوحنا ، ولم يكن فيها ما يخشاه النصاري من تناقض وتبابن فاحتفظوا بها كما نزلت كشبهادات متعددة على صحة الإنجيل ووحدة جوهره واتفاق معانيه مع اختلاف ألفاظه . والشرع العالمي الديني والمدنى لاتقوم صحته على شهادة واحدة ، وهكذا يكون لصحة الإنجيل أربع شهادات بينما ليس للقرآن إلا شهادة واحدة (١) ، وهكذا تبلغ الصفاقة والمفارقة في الزاعم إلى الزعم صراحة أنه كان للقرآن سبع نسنخ مختلفة في العبسارات

⁽۱) جاء هذا في ملحق لجريدة النهار البيروتية المؤرخ في ١٩٦٥/١/١ بامضاء الأبيوسف دره ، وجاء شيء من ذلك بتفصيل أوسع في الكتاب رقم (٢) المعنون بعنوان (الكتاب والقرآن) لمؤلف سمى نفسه (الاستاذ حداد) ، وعلمنا أن اسمه يوسف ، ولعله هــؤ نفسه كاتب ذلك الملحق .

والترتيب والسياق والسور والألفاظ مثل الأناجيل الأربعة . وينسي الهوى قائل ذلك أن الأناجيل ليست إلا ترجمة لحياة عيسى عليهالسلام كتبها أناس بعده سماعاً ورواية وليس فيها ما يدل على أن فيها شيئاً من إملائه مثل القرآن الذي هو إملاء النبي مباشرة بوحي الله ، وأنها ليست أربعة بل أضعاف هذا العدد بحيث يكون في هذا الزعم سخرية بالعقل والحقيقة وجرأة عليهما وعلى الحق والمنطق . وهذا فضلا عن أنه لم يقل أحد من المسلمين أن معنى نزول القرآن على سبعة أحرف اختلاف وتعدد في النصوص ، وأن الذي أجمع عليه أئمتهم أن ذلك إنما كان لتيسير قراءة القرآن بأداء ولهجة مختلفة حسب استطاعة وأداء ولهجة القراء فلهجنان من كتابة مصحف عثمان هو قصد كتابته بهجاء موحد لمنع اختلاف المسلمين في القراءة بسبب اختلاف طرق الكتابة والإملاء التي كتبوا بها مصاحفهم .

ولقد شرحنا هذا الأمر في كتابنا (الرد على المبشرين) فرأينا أن نشرحه هنا أيضاً لأن من المحتمل أن لايقرأ جميع الناس ، ذلك الكتاب أو أن يكون هذا الموضوع تكأة للملحدين فيكون شرحه هنا مناسباً .

ولقد شرحنا هذا الأمر في كتابنا (القرآن والمبشرون) فرأينا أن نشرحه هنا أيضاً لأن من المحتمل أن لا يقرأ جميع الناس ذلك الكتاب أو أن يكون هذا الموضوع تكأة للملحدين فيكون شرحه هنا مناسباً .

-1-

والأحاديث الواردة كلها تدعم ذلك ، فمما ورد منها في كتب الحديث الصحيح هذا الحديث الذي رواه مسلم وأبو داود ، عن أبي بن كعب قال : « إن جبريل أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : إن الله يأمرك أن تقرأ أمتك القرآن على حرف ، فقال : أسأل الله معافاته ومغفرته ، وإن أمتي لا تطيق ذلك ، ثم أتاه الثانية فقال له : إن الله يأمرك أن تقرأ أمتك القرآن على حرفين . فقال : أسأل الله معافاته ومغفرته ، وإن أمتي لا تطبق ذلك ، ثم جاءه الثالثة فقال : إن الله يأمرك أن تقرأ أمتك القرآن على ثلاثة أحرف ، فقال : أسأل الله معافاته ومغفرته ، وإن أمتي لا تطبق ذلك .

ثم جاءه الرابعة فقال: إن الله يأمرك أن تقرأ أمتك القرآن على سبعة أحرف . فأيما حرف قرؤوا عليه فقد أصابوا » . ومنها حديث رواه البخاري ، عن عبد الله بن عباس « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : أقرأني جبريل عليه السلام على حرف فراجعته فلم أزل استزيد ويزيدني حتى أنتهى الى سبعة أحرف » ومنها حديث رواه الترمذي عن أبي جاء فيه « أن النبي صلى الله عليه وسلم قال ياجبريل : إني بعثت إلى أمة أميين فهم العجوز والشيخ الكبير والغلام والجارية والرجل الذي لم يقرأ كتابا قط . قال يا محمد : إن القرآن أنزل على سبعة أحرف »

وهناك أحاديث وردت في كتب الحديث الصحيح فيها أحداث تطبيقية ، منها حديث رواه مسلم عن أبي قال « كنت في المسجد فدخل رجل يصلى فقرأ قراءة أنكرتها عليه ، ثم دخل آخر فقرأ قراءة سوى قراءة صاحبه ، فلما قضينا الصلاة دخلنا جميعاً على النبي صلى الله عليه وسلم فقلت : إن هذا قرأ قراءة أنكرتها عليه ، ودخل آخر فقرأ سوى قراءة صاحبه ، فأمرهما رسول الله صلى الله عليه وسلم فقرآ ، فحسين النبي شأنهما فسقط في نفسى من التكذيب ولا إذا كنت في الجاهلية ، فلما رأى وسول الله صلى الله عليه وسلم ما قد غشيني ضرب في صدري ، ففضت عرقاً ، وكأنما أنظر إلى الله عز وجل فرقاً ، فقال لي يا أبي : أرسل الله إلى" أن أقرأ القرآن على حرف ، فرددت إليه أن هون على أمتي ، فرد إلى الثانية : إقرأه على حرفين فرددت عليه أن هون على أمتى ، فرد على " الثالثة : اقرأه على سبعة أحرف » ومنها حديث رواه الاربعة عن عمربن الخطاب قال: « سمعت هشام بن حكيم بن حِزام يقرأ سورة الفرقان على غير ما أقرؤها ، وكان رسول الله أقرأنيها . فأردت أن أعجل عليه ثم أمهلته حتى انصرف _ أي انتهى من صلاته _ ثم لببته بردائه ، فجئت به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقلت : با رسول الله : سمعت هـ ذا يقرأ سورة الفرقان على غير ما أقرتنيها . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أرسله . ثم قال: اقرأ يا هشام ، فقرأ القراءة التي سمعته يقرأ . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هكذا نزلت ، ثم قال لى اقرأ فقرات فقال : هكذا انزلت ثم قال : إن هـذا القرآن أنزل على سبعة أحرف فاقرؤوا ما تسم منه » .

وهناك أحادث أقل رتبة من الأحادث الواردة في كتب الصحاح فيها اصل وتطبيق ، وفيها بعض الحلاف ، وليس فيها أي معنى يؤيد ذلك الزعم . من ذلك حديث رواه أبوعبيد القاسم بن سلام عن أبي بن كعب قال « ما حك في صدري شيء منذ اسلمت إلا أنني قرأت آية ، وقرأها آخر غير قراءتي فقلت أقرأنيها رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : اقرانيها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأتينارسول الله فقلت : يارسول الله : أقرأتني آية كذا وكذا قال نعم ، وقال الآخر : أليس تقرؤني آية كذا وكذا ؟ قال : نعم ، فقال : إن جبريل وميكائيل أتياني ، فقعد جبريل عن يميني ، وميكائيل عن يساري ، فقال جبريل : اقرأ القرآن على حرف فقال ميكائيل: استزده ، حتى بلغ سبعة احرف ، وكل حرف كاف شاف » ، وقد قال أبن كثير الذي أورد هذا الحديث في كتابه « فضائل القرآن »: إن هذا الحديث رواه النسائي أيضاً ، ومن ذلك حديث ابن جرير ، عن أبي بن كعب قال « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن الله أمرني أن أقرأ القرآ على حرف واحد ، فقلت : خفف عن أمتى ، فقال : اقرأه على حرفين ، فقلت : خفف عن أمتى ، فأمرنى أن أقرأ على سبعة أحرف كلها شاف كاف » ومن ذلك حديث رواه الامام أحمد عن حذيفة قال «لقى النبي حير بل عندأ حجار المرا فقال: إن أمتك بقرؤون القرآن على سبعة أحرف فمن قرأ على حرف فلا يتحول عنه إلى غيره رغبة عنه » وحديث رواه الامام أحمد عن عمرو بن العاص « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: أنزل القرآن على سبعة أحرف ، على أي حرف قرأتم أصبتم ، فلا تماروا :إن المراء فيه كفر (١)» وحديث رواه الامام نفسه عن طلحة قال: « قرأ رجل عند عمر ، ففير عليه فقال: قرأت على رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم نفير على". قال: فاجتمعا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقرأ الرجل على النبي صلى الله عليه وسلم فقال له: أحسنت . قال: فكان عمر قد وحد في نفسه من ذلك ، فقال لسه

 ⁽۱) المتبادر أن كلمة المراء والنهي عنه تعني عبدم المجادلة والقول قراءتي أحسن أو
 أصوب من قراءتك اذا ما كانت القراءتان لا تغيران نصا أو مقنى .

النبي صلى الله عليه وسلم: إن القرآن كله صواب ، ما لم تحمل مففرة عذاباً ، وعذاباً مغفرة » وحديث رواه أبو يعلى ، عن المنهال ، قال: « بلغنا أن عثمان قال يوماً وهو على المنبر: اذكر الله رجلا سمع النبي صلى الله عليه وسلم قال: أنزل القرآن على سنعة أخرف كلها شاف كاف أن قام فقاموا حتى لم يحصوا فشهدوا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ذلك ، فقال : عثمان : وأنا أشهد معهم » وحديث رواه الامام أحمد عن أبي هريرة قال النبي صلى الله عليه وسلم: « أنزل القرآن على سبعة أحرف ، المراء في القرآن كفر ثلاث مرات ، فما علمتم فافعلوا به ، وما جهلتم فردوه الى عالمه » وفي رواية « أنزل القرآن على سيعة أحرف عليماً حليماً غفوراً رحيماً » وحديث أورده ابن كثير في فضائل القرآن لفظ أبي داود ، عن أبي قال : « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنى أقرئت القرآن فقيل لى على حرف أو حرفين ؟ فقال الملك الذي معى: قل على حرفين ، فقيل: لي على حرفين أوثلاثة ؟ فقال الملك الذي معى: قل على ثلاثة ، حتى بلغ سبعة أحرف ، قال: ليس منها إلا شاف كاف ، إن قلت سميعاً عليماً ، أو عزيزاً حكيماً ، مالم تخلط آلة عذاب برحمة أو آية رحمة بعذاب » وحديث رواه الامام أحمد ، عن أم أيوب الانصارية أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « أنزل القرآن على سبعة حرف أبها قرأت أجز أك » .

وواضح من هذه الأحاديث أن الكلام يدور على كيفية أداء القراءة ولهجتها كما هو شأن الأحاديث الصحيحة التي سبق إيرادها ، وأوسع ما فيها من ترخيص هو التساهل في أن يخطىء القارىء ، فيقول عليماً بدل حليماً وغفوراً بدل رحيماً .

ولقد تعددت تخريجات العلماء لمعنى الأحرف السبعة ، حتى قال السيوطي : إنها بلغت خمسة وثلاثين ، وأورد في كتابه « الاتقان » منها

اثنين وعشرين ، منها ما لايبدو صلة بينه وبين قراءة النص القرآني(١) ، ومما له صلة بقراءة النص القرآني « أنه ليس المراد بالسبعة حقيقة العدد بْلِ التيسير والتسمهيل والسعة ، ولفظ السبعة يطلق على إرادة الكثرة في الآحاد كما يطلق لفظ السبعين في العشرات والسبعمائة في المئآت وهو المقصود بما جاء في القرآن من ذلك » ومنه « أن المراد وجوه قراءات الكلمة التي تحتمل كتابتها قراءات عديدة مثل جملة (أو عبد الطاغوت) التي يمكن ويصم قراءتها (عابد الطاغوت) ومثل جملة (مسالك يوم الدين) التي يمكن ويصبح قراءتها (ملك يسوم الديسن) ومنه « المراد بذلك إجازة تقديم وتأخير في الجملة مثل (وجاءت سكرة الموت بالحق) التي يصح أن تقرأ ، (وجاء سكرة الحق بالموت) و (إن الله لايهدي من هو كافر كذاب) التي يصح أن تقرأ (إن الله لايهدي من هو كاذب كفار) ومنه (أنَ الرخصة قد كانت في زمن النبي صلى الله عليه وسلم لأن أكثر الناس لم يكونوا يقرؤون ويكتبون أو يحسنون ذلك ، ولم يكونوا يعرفون رسم الحروف ومخارجها معرفة جيدة) ومنه (ما يقع من اختلافالقراءة للافراد والتثنية والجمع والتذكير والتأنيث ، وتصريف الأفعال من ماض وحاضر وامر ومخاطب وغائب واختلاف الإعراب باختلاف المواقع) ومنه (إن المقصود هو الأداء الصوتي من إمالة وترقيق وتشديد وتخفيف وتمكين دون تغيير في المعنى والصورة واللفظ) ومنه (إن المقصود هو الترخيص بقراءة الكلمة على وحهين أو ثلاثة أو سبعة تيسيراً وتهويناً) .

⁽۱) من هذا النوع مثلا ان المراد بها سبعة علوم علم الانشاء والايجاد ، وعلم التوحيد ، وعلم صفات اللهات والافعال وعلم صفات العفو والعذاب ، وعلم الحشر والحساب ، وعلم النبوات ، ومن ذلك ما احتواه القرآن من زجر وأمر وحلال وحرام ومحكم ومتشابه وأمثال ، او من حلال وحرام وأمر ونهي وحد وعلم ومن وطهر وبطن ، أو من أمر حتم وأمر ندب ونهي حتم ونهي ندب وأخبار واباحات، أوسبع معاملات من زهد وتناعة مع اليقين وجزم وخدمة مع الحياء ، وكرم وفتوة معالمققر ومجاهدة مع الخوف ، ورجاء مع الشكر ، وصبر مع المحاسنة ، ومحبة وشوق مع المشاهدة ، وهذا تخريج من الصوفيين ، ومنها أمر ونهي وبشارة ونذارة وأخبار وأمثال ، ومنها محكم ومتشابه وناسخ ومنسوخ وخصوص وعيوم وقصص ، ومنها مقدم ومؤخر وفرائض وحدود ومواعظ ومتشابه وأمثال . .

وقد أورد السيوطي إلى هذا تقريرات عديدة لبعض العلماء في صدد ذلك ، منها (إن المسلمين اجمعوا على تحريم إبدال آية بآية) و (إن جماعير العلماء من السلف والخلف ، وأئمة المسلمين قالوا: إن المصاحف العثمانية مشتملة على ما يحتمله رسمها من القرآت السبع ، وإنها جامعة للعرضة الأخيرة التي عرضها النبي صلى الله عليه وسلم على جبريل متضمنة لها لم تترك حرفا منها) و (إن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم لما رأوا الناس يختلفون في قراءة الكلمات أجمعوا على كتابتها على ما جاء في المصحف العثماني ، وعلى ما تحققوا أنه القرآن المستقر في العرضة الأخيرة ، وتركوا سوى ذلك ، وإن ما يقرؤه المسلمون فيه هو الذي كان يقرأ في العام الذي قبض النبي صلى الله عليه وسلم فيه ، وإن زيد بن ثابت الذي كتب مصحف أبي بكر كان كاتب وحي رسول الله وشهد العرضة الأخيرة ، وكتبها لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقراهاعليه، وكان يقرئ والناس عليها ، ولذلك اعتمده أبو بكر وعمر في كتب المصحف، وولاه عثمان نسخة ثانية فنسخه عن نسخة أبى بكر) .

وواضح من هذه الأقوال التي هي التي يصح سوقها في معرض شرح مدى أحاديث الأحرف السبعة ، ومن الأحاديث السبعة نفسها على اختلاف رتبها انها ليس فيها ما يفيد أنه كان للألفاظ القرآنية صيغمتعددة أو أنه كان يقرأ قراآت مختلفة في الألفاظ ، وكل ما تفيده أن بعض كلماته كانت تكتب وتقرأ بشيء من الاختلاف الأدائي ، وكل زعم أو وهم خلاف ذلك مردود بفحوى وروح الأحاديث على اختلاف رتبها ، وبفحوى تقريرات العلماء لمداها من جهة ، وبناء على ماشرحناه شرحاً وافياً مقنعاً فيما نعتقد من ظروف ووقائع تدوين القرآن وترتيبه في حياة النبي صلى الله عليه وسلم ، وتداوله بعده على نفس الترتيب من حهة أخرى .

ومن الجدير بالتنبيه أن الأحاديث المروية ، وتقريرات العلماء المتصلة بقراءة النص القرآني والمفسرة لمدى الأحاديث هي على المتبادر القوي في صدد تلاوة الالقرآن غيباً ، وليست في صدد كتابته أو تلاوته من الصحف

حاضراً من حيث الأصل والمدى في الحديث الذي يرويه الترمذي مايدعم ذلك ، فقد جاء فيه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لجبريل: إنه بعت إلى امة أميين ، أي: لايقرؤون ، وإنما يسمعون فيحفظون فيقرؤون من حفظهم حيث يبدو بارزا أن التيسير الرباني النبوي إنما كان لمن يتلو القرآن غيباً من حفظه لأن احتمال التقديم والتأخير ، وإبدال كلمة بكلمة هو الوارد في مثل ذلك .

وليس هناك اي قول بتجويز كتابة كلمة ما في مصحف بدل كلمة في المصحف العثماني المنسوخ يقيناً عن مصحف ابي بكر المأثور يقيناً عن النبي صلى الله عليه وسلم ، ولا بتجويز قراءة كلمة ما حاضراً من المصحف مغايرة لما في ذلك المصحف ولو كانت الكلمتان مترادفتين ، أو في معنى واحد ، ولا قراءة من مصحف مع تقديم أو تأخير في كلمة أو إغفال حرف ما حتى ولو لم يختل المعنى .

وننبه على امر مهم آخر وهو ان ما هنالك من تعدد القرآت مما يسمى بالقرآت السبع أو العشر ليس هو في صدد اختلاف في الألفاظ أو نقص أو زيادة فيها ، وإنما هو في صدد اختلاف الأداء في القراءة بسبب طريقة كتابتها وإملائها ونطقها وحسب مما سوف نزيده شرحاً في نبذة آسية .

ثالثاً: القرآت القرآنية

إن بعض المتمحلين يلتمسون فيما يسمى بالقرآت السبع أو العشر أو الأربع عشر ثقرات في القرآن ، فصار من المناسب إيراد نبذة وجيزة في ذلك لوضع الأمر في نصابه الحق إن شاء الله

وائمة القرآت المشهورة سبعة وهم: ابن عامر عبد الله البحصبي وكان مقامه في دمشق وهو تابعي توفي سنة (١١٨) ، وأبو سعيد عبد الله بن كثير الدارمي وهو تابعي ، وكان مقامه في مكة وتوفي سنة (١٢٠) وأبو بكر عاصم بن أبى النجود وهو تابعي مقامه في الكوفة وتوفي سنة (١٢٧)

وحمزة أبو عمار بن حبيب الزيات وكان مقامه الكوفة وتوفي سنة (١٥٦) وأبو رويم نافع بن عبد الرحمن وكان مقامه المدينة وتوفي سنسة (١٦٩) وأبو عمرو وأبو الحسن الكسائي ، وكان مقامه الكوفة وتوفي سنة (١٨٩) وأبو عمرو زبان بن العلاء وكان مقامه في البصرة وتوفي سنة (١٥٩) .

ويضيف بعضهم إلى هؤلاء ثلاثة أئمة للقراءة هم أبو جعفر بن زيد في المدينة وتوفي سنة (١٦٠) ويعقوب بن الحضرمي في البصرة وتوفي سنة (٢٠٦) فتصبح القرآت عشراً .

ويضيف بعضهم أربعة أئمة آخرين هم الحسن البصري المتوفى سنة (١١٠) وأبن محيصن الكي المتوفى سنة (١٢٣) ويحيى اليزيدي البصري المتوفى سنة (٢٠٢) ومحمد بن ابراهيم الشنبوذي البغدادي المتوفى سنة (٣٨٨) فتصبح القرآت أربع عشرة.

مع التنبيه على أن بين علماء القرآن خلافاً في صدد إمامة المضافين على السبعة الأولين والأخذ بقرآتهم حيث يجيزها بعضهم ويقصر بعضهم وجوب الأخذ بقرآت الأئمة السبعة الأولين.

_ 5

وتدور خلافات القراءة في النطاق التالى:

- ١ مخارج الحروف كالترقيق والتفخيم .
- ٢ الإمالة أي: الميل إلى المخارج المجاورة كنطق الألف المقصورة
 اقرب إلى الياء .
- ٣ ـ الإشمام وهو جعل الشفتين على صورة الخركة أو الإشارة من النهامن غير تضويت .
- الأداء كالمد والقصر والوقف والوصيل والتسكين والنقيل ومواضعها وما يجوز وما لايجوز منها.
 - ه ـ الرسم كالتشديد والتخفيف .
 - ٦ الإدغام والإظهار .
 - ٧ ـ الإبدال .

- ٨ _ قراءة المهموز والهمزات .
- ۹ اجسام الكلمات مثل ملك ومالك ، ومسجد ومساجد ،
 ويخدعون ويخادعون .
- التنقيط والحركات الإعرابية مثل يفعلون وتفعلون ، وننشرها وننشزها .

ولقد وضع علماء القراء شروطا اربعة لصحة القراءة الخلافية وهي :

- ١ _ التواتر بحيث لاتصح قراءة غير القراءة المتواترة المشهورة .
- ١ موافقة العربية بوجه ما بحيث لاتصح قراءة لاتتفق مع
 قواعد اللغة .
- ٣ _ رسم المصحف العثماني بحيث لاتصح قراءة مفايرة للرسم المذكور .
- وسحة سند القراءة بحيث لاتصح قراءة خلافية لاتستند إلى سند وثيق يتصل بأحد قراء اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وإجتماع الشروط الاربعة شرط لازمبحيث لاتصح قراءةلاتجتمع فيها

وواضح من كل ما تقدم ان القرآآت الخلافية هي اختلاف في قراءة كلمات المصحف العثماني في نطاق اللفظ والأداء والحركات والتنقيط ورسم الكتابة مما يتحمله كتابة مصحف عثمان ، ومما هو مسموع من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم المفروض انهم تلقوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أو رخص لهم رسول الله وفيه تسميل وتيسير وحسب ، وليس على كل حال في الفاظ وكلمات وآيات . . .

(٤) النسخ والتبديل والتعديل في القرآن .

-1-

وهذه مسألة أخرى يحاول المتمحلون أن يجدوا فيها ثفرة ضدالوحي الرباني القرآني ، فصارمن المناسب إيراد نبذة وجيزة يوضع بها الأمر في نصابه الحق إن شاء الله .

والثفرة التي يثير المتمحلون الكلام حولها هي في صدد ماتفيده بعض نصوص القرآن من وقوع نسخ وتبديل وتعديل في القرآن حيث يتساءلون تساؤل المنكر عما إذا كان يصح أن يكون القرآن وحياً من الله تعالى المحيط علمه وقدرته بكل ما كان ويكون عند المؤمنين ، ثم يكون منه بداء وتراجع عن موقف أو حكم أو أمر أوحى به أو تعديله أو إلغاؤه أو تبديله بغيره (١).

- 1 -

ولعلماء المسلمين بحوث سديدة قوية في دفع وتفنيد اعتراضات المعترضين وشبهاتهم ، وإثبات كون النسخ والتبديل في القرآن جائزا عقلا ، وليس من شأنه أن يخل بكمال صفات الله وقدرته وعلمه وحكمته ونقول على طريقتنا بالإضافة إلى ذلك : إن القرآن قداجاب على الاعتراض من ناحية المعنى والمدى إجابة قوية حيث قرر أن الله إذا شاءت حكمته شيئاً مامن ذلك ، فإنه لاحرج عليه لأنه يمحو ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب ، ولأنه إذا نسخ آية أو أنساها يأت بخير منها أو مثلها في نطاق حكمته وقدرته ، ولأنه إذا بدل آية بآية فإن ذلك يكون لتثبيت الذين آمنوا وهدى وبشرى لهم كما جاء في هذه الآيات :

ا _ (ما ننسخ من آية أو ننسها نات بخير منها أو مثلها ألم تعلم أن الله على كل شيء قدير • ألم تعلم أن الله له ملك السماوات والأرض وما لكم من دون الله من ولي" ولا نصير • أم تريدون أن تسألوا رسولكم كما

⁽۱) يقصد بالبداء ظهور أمر في موقف ما كان خافيا على صاحب الموقف ، فيجنح الى تعديل موقف أو العدول عنه نتيجة لذلك ، وفي القرآن آيات فيها هذا الفعل بهذا المعنى مثل آية-سورة يوسف هذه : (ثم بدالهم من بعد ما رأوا الآيات ليسجئنه حتى حين ٥٠٠)

سئلموسى من قبل ومنيتبدل الكفر بالإيمان فقد ضل سواءالسبيل ودء كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً حسداً من عند انفسهم من بعد ماتبين لهم الحق فاعفوا واصفحوا حتى ياتي الله بأمره إن الله على كل شيء قدير •) البقرة : ١٠٦ - ١٠٩

٢ _ (يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده ام الكتاب ٠) الرعد: ٣٩

٣ _ (وإذا بدلنا آية مكان آية والله اعلم بما ينزل قالوا إنما انت مفتر
 بل اكثرهم لايعلمون • قل نز"له روح القدس من دبك بالحق ليثبت الذين
 آمنوا وهدئ وبشرى للمسلمين •) النحل : ١٠١ و ١٠٢

ومن الجدير بالتنبيه أن كلا من آيات السور الثلاث نزلت في مواقف اعتراضية على ما شاءت حكمة الله أن يكون من تبديل ونسخ لتجيب على الاعتراض ، وتضع الامر في نصابه الحق حسب ماشرحناه ، فآيات البقرة من سلسلة في مواقف اليهود ، وتفيد أن اليهود حاولوا تشكيك المسلمين فيما كان من حكمة الله من نسخ أو إنساء لبعض الآيات ، وآيات النحل في صدد موقف اعتراض وتهويش من ناحية المشركين في ذلك أيضاً .

وهناك ما يصح أن يقال بالإضافة إلى ما في الآيات من أجوبة قوية تضع الأمر في نصابه الحق ، وتوجب على من يريد أن يتكلم في صدد ماقد تفيده نصوص القرآن من نسخ وتبديل وتعديل أن يلتزم بما يقرره القرآن، ويعتبره ضابطاً في هذه المسألة كما هو الشأن في المسائل الأخرى دون تيهان في متاهات الجدل والمماحكة .

فالقرآن دار ويدور على دعوة الناس وإنذارهم وتبشيرهم وحكاية مواقفهم وتصرفاتهم وما يجب وما يصلح لهم وما لايجوز ولا يصلح لهم ، وكل هذا بطبيعته عرضة للتطور والتبدل والتفاوت بين حال وحال وظرف وظرف وفئة وفئة فلا غرو أن يتسبق القرآن مع ذلك ، ولقد نبهنا في النبذتين (أولا) و (ثانياً) من الفصل الثالث على الصلة الوثيقة بين التنزيل القرآني والبيئة النبوية والسيرة النبوية ، وما كان فيهما مسن صور ومواقف متنوعة ومتبالة ومتفاوتة فعلا ، وما كان من تساوق هذا التنزيل معها ، وأوردنا شواهد عديدة عليه من القرآن .

والنسخ والتبديل والتعديل مما يمثل هذا التساوق ، أو يعبر عنه كما هو المتبادر ، ونعتقد أن فيما تقدم سدا لباب أي تمحل من غيرالمسلم

إذا لم يرد المكابرة والماحكة . وليس في اعتقاد المؤمن بالنسخ والتعديل والتبديل في القرآن على هذا المدى ما يصح أن ينقض إيمانه بقدرة الله وعلمه المحيطين بكل ما كانويكون . ويستطيع المؤمن أن يلمحهذا الاتساق في سنن الله الكونية والاجتماعية فيزداد إيماناً على إيمان . ففي مشاهد الكون والاجتماع البشري وأدواره التي تجري وفق النواميس الربانية تطور وتفاوت وتكيف وتبدل ونمو وتكاثر وتوقف وتراجع ، وتقلب من حال إلى حال ، مع أن الله تعالى قادر على خلق كل شيء دفعة واحدة في صورته النهائية .

_ " -

ومن الحق أن نذكر أن فريقاً من علماء المسلمين ينكرون النسخ في القرآن انطلاقاً من استحالة البداء على الله ويسوقون فيما يسوقون آية سورة فصلت هذه:

(لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ٠)٢٤

وليس في هذه الآية الحجة التي يريدون ، فليس النسخ باطلاً ، وكل أمره هو تبديل أمر رباني بأمر رباني آخر كلاهما حق في ظر فيهما ، وكلاهما في علم الله ، ونطاق قدرته وحكمته ، والنصوص التي تقرر وقوع النسيخ والتبديل أقوى من أن تؤول تأويلاً يؤول إلى إنكار ذلك ،

ولقد جرت عادة الله على إرسال رسله فترة بعد أخرى ، وفيرسالات بعضهم تبديل وتغيير ونسخ مما نص عليه القرآن ، ومما يمثله هذه الأسات :

ا حومصدقا للبينيدي" منالتوراة ولأحللكم بعض الذي حر"م عليكم وجئتكم بآية من ربكم فاتقوا الله واطبعون • إن الله ربي وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم •) آل عمران : •ه و ١ه

المن الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيراً مما كُنتُـم تخفون من الله نور وكتاب مبين مين . الكتاب ويعفو عن كثير قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين .

يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم ٠) المائدة: ١٥ و ١٦

٣ – (وان احكم بينهم بما انزل الله ولا تتبع اهواءهم عما جاءك مسن الحق لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً ولو شاء الله لجعلكم امة واحسدة ولكن ليبلوكم فيما آتاكم فاستبقوا الخسيرات الى الله مرجعكم جميعاً فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون ٠) المائدة : ٨)

٤ - (الذين يتبعون الرسول النبسي الأمي الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والانجيل يامرهم بالعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي انزل معه أولئك هم المفلحون ٠) الأعراف : ١٥٧

- { -

وعلماء القرآن يقسمون النسخ في القرآن الى ثلاثة انواع: نسخ تلاوة وحكم ، ونسخ تلاوة مع بقاء حكم ، ونسخ حكم مع بقاء تلاوة .

وفي آيات البقرة والنحل التي اوردناها آنفا دليل قرآني على صحمة وقوع النوع الأول فيما هو المتبادر وإن لم يكن في القرآن ما يوضع كنه ما وقع..

وهناك روايات عديدة مختلفة الرتب تفيد أن نصوصاً قرآنية عديدة نزلت ثم رفعت في حياة النبي صلى الله عليه وسلم ، وليس في وقوع هذا النوع من النسخ خلاف ، وقد انقضى في حياة النبي صلى الله عليه وسلم والخلاف هو في صحة ورتب الروايات .

اما النوع الثاني ، اي : المنسوخ تلاوة ، والباقي حكماً فلا يورد الذين يقولون به إلا الآية المسماة بآية الرجسم ، وقد روي لها نصان ، وهما هذان :

ا ــ (إذا زنى ألشيخ والشيخة فارجموهما البتة نكالا من الله والله عزيز حكيم .)

٢ — (الشيخ والشيخة فارجموهماإذا زنيا البتة بما قضيا من اللذة.) ونحن نتوقف في التسليم بهذا النوع ونعتقد أن الأولى ، والله اعلم أن تكون هذه الآية نسخت حكماً وتلاوة إذا كانت حقا مما نزل ورفع ، وأن الرجم في الإسلام للزاني المحصن هو حكم نبوي غير مستند إلى هذه الآية ، بدليل ما بين مدى الآية ، ومدى التشريع النبوي من فرق واضح، فليس في الآية تفريق بين محصن وغير محصن ، وقد اختصت بالشيخ والشيخة دون سائر الزناة . . .

بقي النوع الثالث ، وهو النسخ حكماً ، والباقي تلاوة ، ونحن وإن كنا نذكر النسخ فقط ، فإن الكلام يشمل التبديل والتعديل ايضاً لأنه يوع من النسخ .

وبعض العلماء ينكرون هذا النوع ، ويحاولون أن يجدوا لكل ما يبدو أنه ناسخ أو منسوخ أو مبدل أو معدل تعليلا يخرجه من هذا النطاق ، وهناك من ألف كتباً في الناسخ والمنسوخ ، وأورد شواهد كثيرة عليه ، وبعضهم يقتصد ويقتصر على ما هو بارز مشهور من نصوص فيها نسيخ أو تعديل أو تبديل مع خلاف بينهم فيما يساق من شواهد أيضاً ، وبعضهم يورد أمثلة كثيرة .

وإذا كان كثير من الشواهد التي تساق مما يتحمل توقفاً ، فإن في القرآن شواهد تجعل القول بواقع هذا النوع صواباً مع بروزكون ذلك قد جرى في نطاق ما كان من تطور ، وتبدل في المواقف والظروف .

ويبرز هذا بصورة عامة من المقارنة بين مدى وأسلوب القرآن المكي ، والقرآن المدني ، وفيما يلي أمثلة موضحة :

(۱) إن القرآن المكي أمر النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين مرارآ بالصبر ، وعدم الاستجابة لاستفزاز الكفار وأذاهم مما يمثله هذه الآيات: الستخفتك الذين لايوقنون .) ا ـ (فاصبر إن وعد الله حق ولا يستخفنك الذين لايوقنون .) الروم: ٦٠

٢ ــ (قل للذين آمنوا يغفروا للذين لايرجون ايام الله ليجزي قوماً
 ١٠ الجاثية : ١٤

وآية الجاثية نزلت في موقف شتم فيها مشرك عمر بن الخطاب رضي الله عنه أو غيره من المسلمين ، فاستأذن النبي بالمقابلة ، فاقتضت حكمة الله بنصحهم بالصبر والغفران .

وظل هذا الى اوائل المهد المدني ايضاً ، ويمثل ذلك آيةالبقرةهذه: (ود كثير من اهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً حسداً من انفسهم من بعد ما تبين لهم الحق فاعفوا واصفحوا حتى ياتي الله بأمره إن الله على كل شيء قدير ٠) ١٠٩

وآية النساء التذكيرية بذلك هذه:

(الم تر الى الذين قيل لهم كفوا ايديكم واقيموا الصلاة وآتوا الزكاة فلما كتب عليهم القتال إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية وقالوا ربنا لم كتبتعلينا القتال لولا اخرتنا الى أجل قريب قلمتاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى ولا تظلمون فتيلا ٠) ٧٧

ثم أخذت تنزل آيات الإذن بالقتال مما يمثله هذه الآيات:

ا _ (أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير • الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق" إلا أن يقولوا ربنا الله ولولا دفيع الناس بعضهم ببعض لهد"مت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز •) الحج : ٣٩ و ٠٠

٢ _ (وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لايحب
 المتدين ٠) البقرة : ١٩٠٠

٣ - (كتب عليكم القتال وهو كره لكم وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى أن تحبّو أشيئاً وهو شر لكم والله يعلموانتم لاتعلمون ٠)
 المقرة : ٢١٦

إن شر الدواب عند الله الذين كفروا فهم لا يؤمنون • الذين عاهدت منهم ثم ينقضون عهدهم في كل مرة وهم لايتقون • فإما تثقفتهم في الحرب فشر د بهم من خلفهم لعلهم يذكرون • وإما تخافن من قوم خيانة

فانبذ إليهم على سواء إن الله لايحب الخائنين •) الأنفال (١) : ٥٥ – ٥٨ ٥ ٥ (قاتلوا الذين لايؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون • (٢)) التوبة : ٢٩

والمتبادر أن في هذه النصوص شواهد على تعديل وتبديل في الموقف حسب تبدل الظروف .

(٢) والقرآن المكي نهى عن الزنا ، وانذر فاعليه بالعذاب الأخروي كما
 جاء في هاتين الآيتين :

ا _ (ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلا •) الإسراء: ٣٢ _ (والذين لايدعون مع الله إلها آخر ولا يقتلون النفس التي حر"م الله إلا بالحق ولا يزنون ومن يفعل ذلك يلق أثاماً • يضاعف له العذابيوم القيامة ويخلد فيه مهاناً •) الفرقان: ٦٨ _ ٣٩

فلما كان العهد المدنى نزل أولا هذه الآيات:

(واللاتي ياتين الفاحشة من نسائكم فاستشهدوا عليهن أربعة منكم فإن شهدوا فأمسكوهن في البيوت حتى يتوفاهن الموت أو يجعل الله لهن سبيلا . واللذان يأتيانها منكم فآذوهما فإن تابا وأصلحا فأعرضوا عنهما إن الله كان توابآ رحيماً . .) النساء : ١٥ و ١٦

ثم نزلت آية النور الثانية هذه:

(الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ولا تأخذكم بهما رافة في دين الله إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين ٠) ٢

والتعديل والتبديل واضحان في هذه الآيات أيضاً .

(٣) ومثل هذا يقال في الربا ، فقد قرر القرآن المكي كراهية الله للربا في هذه الآية:

⁽١) هذه الآيات في حق يهود بني قينقاع في المدينة على ما ذكرته الروايات .

⁽٢) هذه الآية نزلت بين يدي غزوة تبوك التي قادها النبي صلى الله عليه وسلم ضد قبائل مشارف الشام النصرانية .

(وما آتيتم من ربآ ليربو: في أموال الناس فلا يربو عند الله وما آتيتم من ذكاة تريدون وجه الله فأولئك هم المضعفون ٠٠) الروم: ٣٩

فلما كان العهد المدني نزل أولا نهي عن أكل الربا أضعافاً مضاعفة في آية سورة آل عمران هذه:

(يا أيها الذين آمنوا لاتأكلوا الربا أضعافاً مضاعفة واتقوا الله لعلكم تفلحون ٥٠٠) ١٣٠

ثم نزلت هذه الآيات في النهي الحازم عن الربا مطلقاً:

(يا ايها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقي من الربا إن كنتم مؤمنين. فإن لم تفعلوا فاذنوا بحرب من الله ورسوله وإن تبتم فلكم رؤوس أموالكم لاتظلمون ولا تظلمون ٠) البقرة : ٢٧٧ و ٢٧٨

وهذه أمثلة للنسخ والتعديل في نصوص وظروف مدنية .

(1) لقد نبه القرآن في أول العهد المدني على ما في الخمر والميسر من الإثم في هذه الآية:

(يسالونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإنههما أكبر من نفعهما ٠) البقرة : ٢١٨

ثم نزلت هذه الآية لتنهى عن الصلاة في حالة السكر فقط:

(يا ايها الذين آمنوا لاتقربوا الصلاة وانتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون •) النساء : ٣٤

ثم نزلت هذه الآيات بالنهي الحازم عنهما:

(يا أيها الذين آمنوا إنها الخمر والميسر والانصاب والازلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون • إنها يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل انتم منتهون •) المائدة : ٩٠ و ٩١

وفي سورة البقرة إيجاب بالوصية للوالدين والأقربين .

(كتب عليكم إذا حضر أحدكم الموت إن ترك خيراً الوصية للوالدين والأقربين بالمعروف حقاً على المتقين ٠٠) ١٨٠

ثم نزلت آية النساء هذه التي تعين للوالدين والأقربين انصبة في التركسات .

(يوصيكم الله في اولادكم للذكر مثل حظ الانتيين فإن كن نساء فوق اثنتين فلهن ثلثا ما ترك وإن كانت واحدة فلها النصف ولأبويه لكل واحد منهما السدس مما ترك إن كان له ولد فإن لم يكن له ولد ورثه ابواه فلأمه الثلث فإن كان له إخوة فلأمه السدس من بعد وصية يوصي بها او دين ٠) ١١

وبعد هذه الآية وما بعدها تتمة لها قال النبي صلى الله عليه وسلم: (إن الله قد أعطى لكل ذي حق حقه فلا وصية لوارث (١)).

والجمهور على أن آية النساء قد نسخت آية البقرة في صدد الوصية لمن له نصيب مفروض.

(٣) وفي سورة المجادلة هاتان الآيتان:

(يا ايها الذين آمنوا إذا ناجيتم الرسول فقدموا بين يدي نجواكم صدقة ذلك خير لكم واطهر فإن لم تجدوا فإن الله غفور رحيم ، ااشفقتم ان تقدموا بين يدي نجواكم صدقات فإذ لم تفعلوا وتاب الله عليكم فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأطيعوا الله ورسوله والله خبير بما تعملون،)

والمتبادر أن الآية الثانية قد نزلت بعد مدة ما من الآية السابقة لها واحتوت نسخًا لما في هذه الآية من إيجاب اقتضته حكمة الله وظروف المؤمنين فوضعت بعدها.

(٤) وفي سورة الأنفال هاتان الآيتان:

(يا ايها النبي حرض المؤمنين على القتال إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين وإن يكن منكم مائة يغلبوا الفاً من الذين كفروا بانهم قوم لايفقهون و الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفاً فإن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين وإن يكن منكم ألف يغلبوا الفين بإذن الله والله مع الصابرين و) الأنفال: ٥٠ و ٦٦

⁽١) رواه الترمذي والمحديث من أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع .

والمتبادر أن الآية الثانية نزلت كذلك بمد الآية الأولى بمدة ما ، واحتوت تعديلا لها اقتضته حكمة الله ، وحالة مجموع المؤمنين ، فوضعت بعدها للمناسدة .

(٥) في سورة البقرة هذه الآية:

(أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم هن لباس لكم وأنتم لباس لهن علم الله انكم كنتم تختانون انفسكم فتاب عليكم وعفا عنكم فالآن باشروهن وابتغوا ما كتب الله لكم وكلوا واشربوا حتى يتبيئن لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر ثم اتموا الصيام الى الليل ولا تباشروهن وانتم عاكفون في المساجد تلك حدود الله فلا تقربوها كذلك يبيئن الله آياته للناس لعلهم يتقون ٠) ١٨٧

وقد روي أن الصيام كان عند أول فرضه يبدأ عند النوم بحيث لا يجوز لمن يستيقظ من نومه قبل الفجر أن يأكل أو يجامع ، وأن الآية قداحتوت نسخا أو تعديلا لذلك ، ونص الآية قد يفيد هذا حقا ، ومن المحتمل أن يكون الترتيب الأول ترتيباً من النبي صلى الله عليه وسلم بوحي غير قرآني ، ثم اقتضت حكمة الله وحالة المسلمين تعديل ذلك ، فنزلت الآية بالتعديل .

(٦) _ في سورة البقرة هاتان الآيتان:

ا ــ (والذين يتوفون منكم ويندون أزواجاً يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشراً فــإذا بلغن أجلهن فلا جناح عليكم فيمــا فعلن في أنفسهن بالمروف والله بما تعملون خبير ٠) ٢٣٤

٢ - (والذين يتوفون منكم ويندون ازواجآوصية لازواجهم متاعآ
 إلى الحول غير إخراج فإن خرجن فلا جناح عليكم فيما فعلن في انفسهن من معروف والله عزيز حكيم ٠) ٢٤٠

ولقد كانت عدة حداد المتوفى زوجها سنة كاملة ، وهذا ما قد تفيده الآية الثانية أيضاً ، فاحتوت الآية الأولى تعديلا للمدة ، واعتبرها الجمهور ناسخة أو معدلة ، واستند القائلون إلى حديث رواه البخاري ، عن عبد الله بن الزبير يفيد أن بعض أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا يعتبرونها كذلك . ونص الحديث هو : « عن عبد الله بن الزبيس

قلت لعثمان : (والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً وصية لأزواجهم متاعاً إلى الحول غير اخراج) قد نسختها الآية الآخرى فلم تكتبها أو تدعها ؟ قال : يا ابن اخي : لا أغير شيئاً من مكانه » .

وهناك أمثلة وشواهد عديدة أخرى ، فنكتفي بها تقدم حيث يتضح منه ما نبهنا عليه من مقتضى حكمة الله من نسخ وتبديل تساوقاً مسع الظروف ، ومن كون ذلك غير متناقض مع وحي القرآن الرباني ، وفيه سد الباب التمحل لمن يريد التماس الثغرات مكابرة ومماحكة .



الفصيب لالرابع

وجهة لوجه مع محكمات القرآن

-1-

بعدما تقدم في الفصل السبابق من شروح وبيانات وعواصم من النظرة الاعتباطية الجزافية في القرآن التي ينسد بها باب التمحل والمماحكة والتحريف والافتراء وسوء التأويل والفهم والأدب ، نصبح وجها لوجه امام المحكمات القرآنية التي وصفها القرآن بأنها (أم الكتاب) والتسى انطوى فيها مبادىء وأسس الدعوة الاسلامية وأحكامها وقواعدها وتشريعاتها وتلقيناتها في مختلف الشؤون على مانبهنا عليمه في النبذة الرابعة من الفصل السبابق المعقود على موضوع الأسس والوسائل ، أو المحكمات والمتشابهات في القرآن . وتقول بكل جزم وبأقوى صوت وأعمق إيمان: إن في هذه المحكمات كل ما هو متوافق مع الحق والعقل والعدل والمنطق والعلم ، ومصلحة الانسانية في مختلف نواحي الحياة الروحية والعقلية والمعاشية والسياسية والحضاربة والثقافية ، وأنها ليس فيها أى شيء يمكن أن يتناقض ، أو لابتفق وبتسق مع كل ذلك ، وأنها ليس في تشريعاتها وتلقيناتها ومبادئها السياسية والاجتماعية والاقتصادسة والسلوكية والشخصية ما لايمكن تطبيقه مع كل ظرف ، وما يمكن أن يؤدي تطبيقه الى غير صالح المجتمع الاسلامي وخيره ، وأن فيها من المرونة ما يجعلها قابلة للانطباق والتطبيق على كل ظرف ، وفي ظل أي تطور مما فيه الدليل القوى على كونها وحياً من الله الحكيم الخبير المدبر المحيط ، وبكلمة اخرى نقول: إن من مقتضى هذه المحكمات أن الدين الاسلامي دين متكامل ، أي : دين عقيدة ونظام ودنيا وآخرة وسياسة وقضاء واجتماع وسلوك ، وأنه دين إنساني عالمي رشع ليكون دين الانسانية جميعها ابيضها واحمرها وأسودها وأسمرها وأصفرها وعربها وعجمها ، وليظهره على الدين كله كما جاء في آيات قرآنية عليدة منها آية سورة الفتح هذه:

(هو الذي ارسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفي بالله شهيداً ٠) ٢٨

ورشح معتنقيه إذا عملوا الصالحات التي تعني كل ما فيه خير ومصلحة وحق وعدل وعزة وكرامة للاستخلاف في الأرض ، وتمكين دينهم فيها كما جاء في آنة سورة النور هذه :

(وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهمم وليبدلنتهم من بعد خوفهم أمناً ٠) ٥٥

وقرر أنهم بذلك يكونون خير أمة أخرجت للناس يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، وأن ذلك يتحقق منهم حينما يمكنهم الله بالايمان والأعمال الصالحة في الأرض.

وقد قام على الدعوة الى الله وحده المتصف بجميع صفات الكمال ، المنزه عن كل نقص ومماثلة ، وعلى تقرير ربوبيته للعالمين جميعاً دون اختصاص ، واستغنائه وتنزهه عن الشريك والمساعد والولد بأي معنى كان ، وسواء أكان ذلك تأويلا أم وسيلة أم شفاعة ، وقد حارب القرآن بكل قوة ودونما هوادة كل انواع ومظاهر الشرك التي تمشل انحطاط الانسانية وتسخيرها لقوى وافكار وعقائد سخيفة مفايرة للعقل والمنطق والحق ، كما تمثل نظاماً جاهلياً فيه التقاليد الجائرة ، والعادات المنكرة ، والعصبيات المقوتة ، وهدف الى القضاء على مناطرا على الديانات والعصبيات المهودية والنصرانية من سوء تأويل وانحراف وانقسام واختلاف أي : اليهودية والنصرانية من سوء تأويل وانحراف وانقسام واختلاف وتهاتر ، والى تحرير الانسانية من الخضوع لأية قوة خفية وظاهرة غير وتماتر ، واكرم الأخلاق ، وأفضل المناهم ، والخطط الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والفردية والانسانية ، وأشدها مرونة للنهوض

الى ذرى الكمال في كل مجال من مجالات الحياة ، وتوجيهها نحو أحسن السبل وأشرفها وأنزهها وأعدلها وأتمها صفاء وسناء ، شاملة للناس جميعهم على اختـ لاف اجناسهم والوانهم ، ليكونوا تحت رايتـ اخوة متساوين في الحقوق والواجبات على اختلاف مناحيها ، وليقوم في ظلم عالم واحد ، ونظام واحد ، ودين واحد ، ولغة واحدة وبكلمة وأحدة مجتمع انساني واحد ، يتولى الأمر فيه الصالحون خلقا ودينا الاكفياء الحريصون على المصلحة العامة ، لاطاعة فيه لسلطان بمعصية وضرر ، ولا سند لحاكم فيه إلا كتاب الله وسنة رسوله ومصلحة العباد والبلاد المتسبقة معهما ، ولا مكان فيه لظالم جبار ، وطاغية مسيطر ، والشورى فيه صفة اساسية لأهله ، وواجب ملزم لحكامه ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ـ أي : الأمر بكل ما فيه خير وصلاح ونفع ، والنهي عن كل مافيه شر وفساد وضرر لل والدعوة الى الخير والسلام، والتواد والتراحم والتواصى بالصبر والحق والمرحمة من واجبات كل فئة فيه حاكمة ومحكومة وصفة اساسية ، وخصائص ذاتية لأهله نتيجة لاسلامهم وإيمانهم ، لايسمح فيه باستقطاب الثروة في جانب ، والفقر في جانب ، ويؤخذ فيه من الغني للفقير ، ويمنع فيه القوي من ظلم الضعيف ، وسياعد فيه القادر العاجز ، ويتواصون جميعاً بالصبر والمرحمة والتعاون والتعاطف ، وسيتمتعون جميعاً بكل طيب حلال من طيبات الحياةوزينتها بدون تفريط ولا إفراط ولا إسراف ولا اعتداء ، وتمنع فيه الفواحش والمنكرات والمضرات والموبقات والإثم والبغي ، في ظل سلام شامل يعرف الناس عبره أنهم إنما وجدوا ليتعارفوا ويتفاهموا ويتعايشوا ويتعاونوا على البر والتقوى دون الإثم والعدوان ، ويتسابقوا في الخيرات ، وفي ظل شرائع وتعاليم وخطوط ومبادىء قابلة للانطباق في كل زمن ومكان ، ومستجيبة لمختلف مطالب البشر المادية والروحية ، ومخاطبة للعقبل والقلب معا وموفقة في ذلك كله بين سعادة الدنيا والآخرة بأسلوب لاتعقيد فيه ولا التواء ولا آصار ولا أغلال وتكاليف شاقة ، ونافـــذ إلى أعماق النفس ، مع الأمر بالدعوة الى سبيل الله أي: الدعوة ألى الاسلام بالحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتي هي أحسن ، وعدم الإكراه والإجبار في الدين ، وسعة الصدر لن اراد الاحتفاظ بدينه وعقيدته إذا

واد" المسلمين وسالمهم ولم يتآمر عليهم وعلى دينهم مسع الأمر بمعاملة هؤلاء بالقسط والبر وحسن التعايش والتعامل ، وبعدم القتال إلا للدفاع ودفع العدوان والمقابلة بالمثل ، وتأمين حرية الدعوة ، وإرغام الظالمين ، وقد وصف معتنقوا هذا الدين في القرآن بصفة (الوسط) التي تعني الخيرية والاعتدال في كل شيء ، وعدم الإفراط والتفريط ، وعدم الفلو" والتقصير ، وعدم الاقتصاد على ناحية والتقصير في ناحية مما فيه خير دنيا ودين ، والتمسك بكل ما هو الأفضل والأصلح والأنفع والأحسن من كل أمر وصفة وخلق وعمل وموقف ، ووصف هذا الدين بأنه مصدق لما بين يديه من الرسالات التوحيدية التي جاء بها أنبياء الله ، ومتمم لها ، وقد جاء كتابه مصدقاً كذلك لما بين يديه من كتب الله ومهيمناً عليها ، وبعفو عن كثير ، ويحل لهم كثيراً مما كانوا يخفون فيه ، ويضع الأمور ويعفو عن كثير ، ويحل لهم كثيراً مما كانوا يختلفون فيه ، ويضع الأمور في كل ذلك في نصابها الحق .

ولقد اختص الدين الاسلامي الانثى بعناية خاصة ، فجعلها صنوا للذكر وقسيما له في الانسانية والحقوق والواجبات والتكاليف والحياة العامة ، وبنيان الدولة والمجتمع سواء بسواء ، كما اسبغ على الحياة الزوجية رعاية عظيمة ، كفل فيها حق المراة من مختلف النواحي مما لسم يكن له مثيل في سابق الاسلام ، ومما لم يلحق به إلى الآن .

ولتقريرات المحكمات القرآنية وتلقيناتها معنى عظيم آخر هو أن ما احتوته من ذلك أمراً كان أم نهياً ، وإيجابياً كان أم سلبياً ، وفي مختلف المواقف والظروف والاعتبارات مما يجب على المسلم الالتزام به عبادة وتديناً وعقيدة وإيماناً ، وليس من قبيل التنظيم القانوني والاجتماعي البشري الذي يمكن أن يستبيح المرء التحلل منه وعدم الالتزامبه ، بل ومخالفته إذا شاءت له المنفعة والهوى .

- 1 -

ونرى قبل البدء في التفصيل أن ننبه على أن الملحدين وأعداء الاسلام من النحل الاخرى يوردون مفامز وشبهات وانتقادات متنوعة ضد المبادىء والبوادر الاسلامية الأساسية التي تنبثق عن المحكمات أيضاً

مما نتصل بالجوانب العقائدية والسياسية والجهادية والاجتماعية والاقتصادية والحياة الزوجية والسلوكية الخ ... كما فعلوا بالنسبة للجوانب الثانوية وأوردنا كثيراً منه وفندناه في الفصول السابقة . وكما أن ما أوردوه بالنسبة للجوانب الثانوية ناتج عن غباء وجهل وقصد مماحكة ومماراة وعدم استيعاب نصوص مع سوء قصد وحقد وروح عدوانية فان ما يوردونه بالنسبة للجوانب الأساسية ناتج عن ذلك كله من حهـة وعن بعض وقائع تاريخ الاسلام في بعض الظروف وواقع المسلمين مسن جهة روعن التكاء على بعض أقوال واجتهادات غير سليمة من جهمة . ولا تتحمل منابع الاسلام الصافية (القرآن واالسنة النبوية) مسؤوليته وهما المنبعان الأصيلان اللذان وصلا الينا سليمين من عهد النبوة واللذان هما في متناول كل الناس اطلاعها وفهما . ونعتقد أن فيما سوف نورده من تفصيل لمقتضيات المحكمات القرآنية والنبوية وتلقيناتهما الرد الكافي لسد كل تمحل واسقاط كل شبهة وتفنيد كل مفمز وقد اكتفينا بذلك دون ذكر شبهات ومغامز معينة لأن ما اوردناه في التفصيل الآتي جامع شامل لكل شيء ولا سيما أننا أوردنا كثيراً من ذلك في كتابنا (القرآن والمبشراون) او فندناه وأن علماء وباحثين اسلاميين كثيرين انبروا قديما وحديثا إلى تفنيد ذلك ورده في كتب كتبوها وبخاصة في هذا القرن واواخر القرن الفائت.

ولقبد اشتد انتباه كثير من رجال العلم والعقبل في بسلاد الغرب الى الاسلام في هذا القرن والقرن الفائت ، فدرسوه في منابعه الصافية ومحصوه وتبينوا ما في كتب المبشرين والمستعمرين والحاقدين من سوء فهم وجهل وقصد وتخريف وتشويه وحقد وفندوه وعقدوا المقارنات بين الاسلام وبين غيره وكتبوا كتبا كثيرة نوهوا فيها بكل ذلك وبما ينطوي في الاسلام من عقائد ومبادىء وتشريعات وخطوط وتلقينات بلغت اللروة في السمو والحكمة والحق والصدق والاستجابة لكل مطلب والحلكل مشكلة المانا وانسانيا واجتماعيا وسياسيا وسلوكيا واخلاقيا

واقتصادياً وكان من نتيجة ذلك أن صاروا وصار كثيرون آخرون من بلادهم يقبلون على اعتناق الاسلام والانضواء اليه وما يزال هلذا واقعا مستمراً في كل بلد من بلاد الفرب الاوربية والامريكية . وهكذا فضلا عن ما كان من أهل العلم والكتاب والعقل من مثل ذلك من عهد النبوة والقرون العديدة التي تلته وكان من نتيجته اقبال الآلاف المؤلفة على اعتناقه والانضواء اليه . وكل هذا بسبب قوة عناصر الاستجابة التسى انطوت في الدعوة الاسلامية واهدافها عقائديا واجتماعيا واقتصاديا وانسانيا وسلوكياً وعجز كل المحاولات الحاقدة العدائية عن اطفاء نورها . ولقد كانت هذه العناصر كفيلة باستمرار ذلك ليس فقط في عهود قوة السلطان الاسلامي بل في عهود ضعفه بل ولقد كان معتنقوا الاسلام والمنضوون اليه في هذه العهود أكثر منهم في عهود قوة السلطان الاسلامي . ويتمثل ذلك فيما هو جار الى اليوم في القارتين الأخرابين (آسيا وأفريقية) وفي الملونين وفي الامريكيتين يكاد يكون سيلا متدفقاً حيث يجد هؤلاء في الاسلام الذي لايفرق بين أبيض وأسود وأحمر وأصفر وعظيم وصعلوك وغنى وفقير وفي الاخوة والمساواة والكرامة الطمأنينة التي لم تمنحهم إياها المسيحية حيث ظلوا في ظلها يقاسون الاضطهاد والحيف والتماين العنصري والطبقي . وكل هذا على ضعف وسائل التبشير في الاسلام وعدم تنظيمه . ولسوف يظل مستمرأ كذلك حتى يعم نوره ويتحقق وعد الله عز وجل باظهاره على الدين كله (يريدون أن يطفئو نور الله باقواههم ويأبي الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون . هو الذي ارسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون) . صدق الله العظيم .

ونأتى الآن الى التفصيل:

ا - إن أولى المحكمات القرآنية تقرر وجوب الإيمان بوجوب وجود الله تعالى الأزلي الأبدي العليم الحكيم القادر المبدع الخالق الرازق ،

المتصف بصفات الكمال ، المنزه عن المماثلة والشريك والولد والمساعد بأي اعتبار وتأويل ، وعبادته وحده ، والاتجاه إليه وحده .

وهذا الإيمان اول اركان الايمان في العقيدة الاسلامية ، وعقيدة الاسلام بالله عز وجل بهذه الصفات مع ربوبيت الشاملة للعالمين التي قررها القرآن ، تمتاز عن أي عقيدة بالله في أي نحلة أخرى كتابية أم غير كتابية ، من حيث التنزيه والشمول والبساطة والصفاء والنقاء .

ونقول من باب المساجلة: إن الملحدين مهما تمحلوا فلن يستطيعوا ان يقدموا بديلا لهذا الركن يبعث للنفس الرضى والأمن والطمأنينة ، وقد شرحنا هذه النقطة ، وسقنا عليها من الدلائل والشواهد والشهادات في الفقرة (٩) من الفصل الاول ما يغني عن التكرار ،

٢ - والإيمان بأنبياء الله ركن من أركان الإسلام المحكمة ، والمؤمن بالله وحكمته لايمكن أن يرى أن من غير المعقول أن يصطفي الله من يعلم أهليته من بني آدم ، ليوحي اليه بدعوة الناس إليه وعبادته وحده ، وبيان مايصلح لهم ويصلحهم من مختلف النواحي ، والحث على السير فيه ، وبيان ما يضرهم من مختلف النواحي والتحذير منه ، ورسم ما يقتضي من حدود ممالا يستطيع العقل البشري وحده الاهتداء إليه على الوجه الأفضل، ومما يكون فيه تأييد يجعل المؤمن يلتزم به إيمانا واحتساباً أكثر مما يمكن أن يلتزم به لو كان وضعاً بشرياً ، وقد شرحنا ذلك ، وسقنا عليه من الدلائل كذلك في الفصل الأول في الفقرة التاسعة منه مما يغني عن الإسهاب مرة أخرى .

٣ - والصلاة ركن من اركان الاسلام المحكمة ، وبالاضافة الى مافي الصلاة في حد ذاتها من معنى واجب الشكر لله ، والاعتراف بعظمته والخضوع له ، وما في ذلك من رياضة روحية ، تمنح القائم بهاقوةونشاطأ وأملا ، وليست مما يتعارض مع عقل ، فإن من شأنها أن تعصم المسلم عن الفحشاءوالمنكر ، وتحفزه على القيام بواجباته نحو الله والناس ، وتساعده على تحمل التضحيات ، وتهذب نفسه ، وتزكي أخلاقه مما لايستطيع عاقل أن يكابر فيه ، ومما احتوت آيات عديدة تقريره والتنبيه عليسه ،

ومما لارب فيه أن الصلاة بإيمان وقلب وذكر تحمل المصلي على التفكي في الله ، وتقواه بالتزام ما أمر به ونهى عنه ، وعلى الاستحياء من التلسى بالنفاق والكذب إذا ماخالف بين باطنه وظاهره ، وقوله وعمله ، واقترف إثما أو عزم عليه بينما هو تهيأ من وقت الآخر للوقوف بين بدى الله ، وفي ذلك من قوةالزجر والإنسلاح ما يكفي لتهذيب أخلاقه وتطهيرها. ومجمتع يفرض على جميع أفراده من رجال ونساء ، ومنذ البلوغ بل وقبيل البلوغ أن تكون لهم هذه الوسيلة الروحية خمس مرات كل سوم جدير بأن تسود فيه الأخلاق الفاصلة ، وتنتفى أو تقل فيه الفواحش والمنكرات إذا مورست بقلب وجد وإخلاص ، وفي هذا تبرز غاية صلاح الأفراد والمجتمع وطهارتهم وإبعادهم عن مواطن الزالل والخبائث والمنكرات في الصلاة . والصلاة فوق أنها واحب لابحوز أن يعطل القيام به أي اعتبار آخر ، فإنها لا تأخذ من وقت المسلم أكثر من ساعة في جميع اليوم ، وممارستها تقع في وقت توقفه عن عمله اليومي ، فليس فيها ما بتوهمه بعضهم من مصاعب وأشفال ، وإذا كانت هذه الوسيلة ضعيفة الأثر في كثير من المسلمين اليوم ، فلا بتحمل القرآن والاسلام مسؤولية ذلك ، ولا يضعف ذلك قوة هذه الوسيلة وصلاحها في الوقت نفسه ، ولقــد أثر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حدثان عظيما المغزى حاء أحدهما « من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر فلا صلاة له » وفي ثانيهما « من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم يزدد من الله إلا بعداً » ووسيلة الصلاة الاولى طهارة البدن والثياب ، وحسن الزى والمنظر ، وقد أوجب القرآن ذلك على المسلمين كلما قاموا الى الصلاة ، ووقفوا أمام الله في آيات عــدىدة .

وهكذا تبرز غاية الصلاح الدنيوي في ذلك بروزا قويا أيضاً ، حيث يفرض على المجتمع الاسلامي الطهارة والنظافة وحسن المنظر والمظهر ، والعيوف عن القذارة والمستكرهات ، ويصبح هذا خلقاً من أخلاق أفراده رجالا ونساء بالممارسة اليومية المتكررة ، والتيمم رمز للطهارة ، وتنبيه على وجوب الاهتمام بها ، وهناك مأثورات نبوية توجب على المسلم أن يغتسل في الاسبوع مرة ، أو كل يوم جمعة ، ولو لم يكن جنباً مع لبس ثوب نظيف غير ثوب المهنة في هذا اليوم للصلاة الجامعة ، وفي هذا إتمام ودعم للهدف .

ومن اركان الصلاة الاتجاه فيها نحو المسجد الحرام في مكة ، وفي هذا معنى رمزي عظيم حيث يكون المسلمون في جميع اقطار الأرض منتظمين في صلاتهم المحددة الأوقات نحو وجهة واحدة فضلا عما فيها من وسيلة تعلق المسلم بمهبط وحي الله على رسوله ، ونشأة هذا الرسول وجهاده في سبيل نشر دين الله في تلك البلدة المكرمة .

٤ ـ والزكاة من أركان الاسلام المحكمة ، وهي واجبة كل سنة على كل من يملك قدراً من المال حال عليه الحول وزاد عن حاجته المعاشية الراهنة ، يقدر اليوم بنحو خمسمائة ليرة سورية أو سبعين جنيها مصرياً ، وهو قدر زهيد ونطاق حيازته واسع جداً ، وللسلطان أن يجبيها من المستحقة عليهم لإنفاق حصيلتها على شؤون الدولة المتنوعة ، ثم لسدعوز الفئات العاجزة ، كما جاء ذلك نصاً في آية سورة التوبة هذه :

(إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم (١) .)

اي: إن الزكاة جزء من نظام الدولة الاقتصادي في الاسلام لهاذا وذاك ، ومساعدة الفئات المعوزة العاجزة من صلب هذا النظام مما لايكاد يكون له مثيل ، ومما لو طبق تطبيقاً صالحاً لما كان في المسلمين فقر ولا عوز .

والزكاة ليست على النقد فقط ، بل هي على عروض التجارة ، وغلات الأرض وكنوزها والمواشي بحيث يتسع بذلك نطاق حيازة النصاب حتى يعم أهل المدن والريف معاً .

⁽۱) الفقراء: هيم المحتاجون السائلون ، والمساكين : هم المحتاجون المتعففون عن السؤال ، والعاملين : هم الموظفون الذين يتولون جباية الزكاة وتوزيعها ، والمؤلفة قلوبهم : هم الفئات التي في تقوية روابطها بالاسلام ، وترسيخ الاسلام فيها تقوية للبنيان الاسلامي، والرقاب : تعني شراء العبيد وعنقهم ، والفارمين : هم الذين تلم بهم جوائح اقتصادية مدمرة أو يغرقون في ديون كبيرة من غير تقصير أو يتحملون عبئاً مالياً فادحا في سبيل الفير إصلاحا أو مساعدة أو غرامة ، وينوؤون بحمله وحدهم وابن السبيل : من انقطعت بسه الطريق ولم يبق معه ما يقوم بأوده ولو كان في بلاده غنيا ، وسبيل الله : هو الدعوة الاسلامية ونشرها والدفاعنها وعن المسلمين .

وفي جعل الزكاة ركناً من أركان الإيمان الاسلامي ، وعلامة من علاماته الملازمة له التي لايصدق مدعيه إلا بها مع الصلاة على ما جاء في آيات قرآنية كثيرة فيها مغزى عظيم من حيث اعتبار أدائها عبادة ، وليس بمعنى الضريبة التي كثيراً ما تشق على النفس ، ويتهرب منها المفروضة عليهم ، وهي بهذا الاعتبار من أعظم مظاهر ودعائم التكافل الاجتماعي في الإسلام .

وننبه على أن الزكاة ليست وحدها مورد المال في الدولة ، ففي القرآن موارد أخرى ومسوغات لفرض ضرائب ، وأخذ أموال من القادرين إذا ما اقتضت المصلحة ذلك ، وكل الموارد المذكورة في القرآن قد نص فيها على أن تكون لشؤون الدولة والفئات العاجزة المحتاجة معاً ، وبذلك يتأكد التزام الدولة في الاسلام بمساعدة هذه الفئات بمقياس واسع جداً، وهذا ما يجعل نظام الاسلام المالي في هذا الصدد فريداً رائعاً .

وننبه على أن القرآن بالاضافة إلى ما أوجبه وحدده من التزام الدولة بمساعدة هذه الفئات ، قد حث المسلمين على التبرع والتصدق لمساعدة هذه الفئات حثا متلاحقا ، حتى ليصح القول : إن الزكاة المفروضة على سعة متناولها على مانبهنا عليه هي الحد الأدنى لما يجب أداؤه على جميع المسلمين الحائز بن لذلك النصاب الزهيد .

وفي القرآن والسنة مايلهم أن الذين تستحق عليهم الزكاة يستطيعون ان يوزعوا زكاتهم بالاضافة إلى تبرعاتهم الأخرى الزائدة عنهاعلى مصارفها، فيكون في ذلك ما يؤكد معنى التكافل الحميم بين المسلمين مباشرة بعيداً عن الشكليات الرسمية وصعوباتها وحساسيتها .

ومن الجدير بالذكر والتنبيه أن القرآن في صدد أوامره بالانفاق زكاة وغير زكاة ينبه في مواضع كثيرة على أن المال الذي في أيدي الناس هـو مال الله ومما رزقهم الله وأن الناس هم وكلاء الله مستخلفين منه فيه كويندد تنديداً شديداً بالمسكين الباخلين ، وبالمانين بصدقاتهم على المحتاجين حيث يبلغ ذلك الذروة السامية .

ولقد نبهت السنة على أن المساعدات يجبأن تكون لمستحقهاوالمحتاج اليها حقاً ، ولمن لاتسعفه قوته وظروفه وحالته على الاستغناء عنها

وحسب ، ونددت بالذين يسالون الناس وهم أقوياء ، وأمرت فقرأء المسلمين بالتكسب والاستفناء عن السؤال ما قدروا ، وأن نظام الدولة في مساعدة الفقراء المحتاجين العاجزين أو الفارمين والحالة هذه في نطاق هذا التوجه النبوي لايؤدي الى تواكل وكسل .

٥ ـ والصيام من اركان الاسلام المحكمة ، وقد فرضه الله على المسلمين ليكون وسيلة لتقواهم الله ، أي وسيلة تساعدهم على التزام ما أمرهم به من أمور الخير والصلاح والعزة ، واجتناب ما نهاهم عنه مسن المنكرات والآثام والبغى والفواحش ، وفي الصيام ترويض للنفس على الصبر عن المباحات البدنية ، والمرء الذي يروض نفسه على ذلك يكون مروضاً من باب أولى على الامتناع عن المحرمات والفواحش والآثام ، وفي الصيام تضحية للذات ، والمرء الذي يروض نفسه على ذلك يكون من باب أولى قادراً على التضحية بشيء من أنانيته وعلى التفكير بفيره ٤ والصيام يشمر الانسان بألم الجوع والحرمان ، ويجعله يفكر بالجائعين والمحرومين، ويعمل على تخفيض الآلام عنهم ، ومجتمع تكون له هذه الرياضةالروحية شهراً كاملا في كل سنة يكون له فضلى الوسائل الى الاصلاح والصلاح والتهذيب النفسي والخلقى والاجتماعي ، وهكذا تبرز غاية من غايات الصيام في الحياة فضلا عما فيها من تعبد لله وشكر له . وهناك مأثورات عن النبي ذات مغزى عظيم منها قوله صلى الله عليه وسلم : «من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه » وقوله « إذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث ولا يصخب فإن سابه أحد أو قاتله فليقل: إني امرؤ صائم » وقوله « من فطر مسلماً كان له مثل أجره » وقد روى ابن عباس « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم فرض زكاة الفطر طهرة للصائم من اللغو والرفث وطعمة للمساكين » وهي واجبة على العبد والحر والذكر والأنثى والصغير والكبير ، وليست متوقفة على نصاب ، وهي زهيدة يستطيع معظم الناس أن يؤدوها ، فتكون نعم الوسيلة العاجلة في آخر رمضان لمساعدة المعوز العاجز .

٦ ـ والحج على المستطيع من أركان الاسلام المحكمة ، وقد كان قبل
 الاسلام لمقاصد اجتماعية عديدة مفيدة فيها منافع للناس ، فاقتضت

حكمة الله الانقاء عليه بعد تحريده مما علق به من شوائب الشرك والقبح ، لأن تلك المقاصد مستمرة ، ومن منافع شهود الحج تيسير اجتماع المسلمين من كل صوب وحدب على اختلاف الانحاء والأجناس ، وتعارفهم الغابات الاحتماعية النافعة الحليلة مالانخفى ، وبالإضافة الى ذلك ، فإن في فرض الحج على المستطيعين من المسلمين من رحال ونساء ، وفي حعل الكعبة قبلة ومطافأ غابات جليلة متصلة بصلاح المسلمين فىالدنيا بالاضافة الى الفكرة التعبدية ونعنى ربط قلوب المسلمين في مشارق الأرضومفاربها بالبقعة المقدسة من بلاد العرب مبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومهبط وحي الله لتكون لهم مهوى أفئدة باستمرار ، فتبث فيهم روح القوة والاتحاد والأخوة ، ووحدة الاتحاه والهدف ، وما لوقوف حجاج المسلمين جميعاً في عرفات في زي واحد لايمتاز به ملك عن صعلوك ، ولا أمير عن خادم ، ولا غنى عن فقير ، ولا أبيض عن أسود ، متجهين جميعهم إلى الله وحده ، لايخشون غيره ، ولا يعترفون بالربوبية والقوة والعظمة لسواه ، ولا تطلبون ما يتمنون إلا منه ، ولا يستعيذون ممايخافون إلا به . وجميعهم يشعرون بفقرهم إليه من المعانى السامية ما هو جدير بأن يرتفع بالمسلم الى أعلى ذرى الشعور بالقوة والشحاعة والكرامة ، وطهارة النفس والضمير.

٧ - ومن أركان الاسلام المحكمة الايمان باليوم الآخر ، وقد شرحنا هذا الركن في الفقرة الثامنة من الفصل السابق شرحاً وافياً نبهنا فيها الى ما في هذا الركن من مقاصد إصلاحية وأخلاقية وروحية ونفسية دنيوية بالاضافة الى حقيقته الإيمانية ، وكونه غير خارج عن نطاق قدرة الله . ومما لابد من أنه من مقتضى حكمته السامية التي لايصح أن تخفى على عاقل منصف ، وفندنا ما يقوله الملحدون بأن فيه تعطيلا لقوى المسلمين ، وصرفاً لهم عن الحياة الدنيا ، بل وأثبتنا أن فيه حفزاً لهذه القوى ، ولإقدام المسلم على التضحية كما أن فيه بثاً للطمأنينة والأمن في نفسه فنكتفى بهذا التنبيه .

٨ ـ وبالاضافة الى ما انطوى في الأمور السابقة الذكر من مقاصد سامية متصلة بوجود الانسان في الحياة الدنيا ، فإن من مقتضى تقريرات القرآن وتلقيناته المحكمة بالنسبة للانسان وحياته في الدنيا :

آ ـ إن القرآن قد أعار الانسان اهتماماً عظيماً سواء في تمييزه عن سائر مخلوقاته ، وبخاصة الحيوانية التي يتماثل معها في أطوار الخلق يجعله خلقا آخر ، وخلقه في أحسن تقويم أم في تفضيله على كثير مما خلق ، أم في التنويه بكون الله قد سخر له ما في السموات والأرض وأسبغ عليه نعمه ظاهرة وباطنة أم بكونه حمله الأمانة والتكليف ومسؤوليتهما دون سائر خلقه ، أو بكون الله أصطفاه ليكون خليفة في الأرض ، وجعله مدار اختياره في الدنيا ليتسابق أفراده في الخيرات ، وليبلوهم أيهم أحسن عملا أو بكون ذكره في مجال التشريف أنه سواه بيده ، ونفخ فيه من روحه ، وعلمه البيان ، وعلمه القلم ، وعلمهما لم يعلم ، وميزجده الأعلى بذلك على ملائكته ، واختصه بالحياة الأخروية وحسابها ونعيمها وعذابها نتيجة لذلك بحيث يمكن القول : إن الإنسان هو الموضوع الرئيسي الذي دار عليه القرآن .

ب _ إن صلاح الانسان في أخلاقه الشخصية والاجتماعية ، وصلاح المجتمع البشري ، وتوجيه الفرد والمجتمع الى الخير والحق والكمال في الحياة الدنيا هدف رئيسى من أهداف القرآن .

ت _ إن ما احتواه القرآن من آيات و فصول كثيرة ومتنوعة في صدد حياة الانسان الدنيوية من شتى نواحيها الشخصية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية والأخلاقية ينطوي على دلالة حاسمة على اهتمام القرآن بشؤون حياة الانسان الدنيوية اهتماماً بالغاً ، واعتباره إياها موضوعاً جوهرياً .

ث - إن القرآن لم يهدف إلى منع المسلمين من الاستمتاع بطيب الحياة وخيراتها والانتفاع بما فيها ولا الى حملهم على نفض أيديهم مما خلق الله فيها ، ولا الى تعطيل مواهبهم عن الاستفادة من سننه فيها ، ولا الى تعطيل مواهبهم عن الاستفادة من سننه فيها ، بل إنه حث على ذلك كله ، واستنكر تحريمه والانكماش عنه ، ونهى عن ذلك بصراحة وقوة ، وكل ما هنالك أنه أوجب أن يكون في نطاق الحلال والحق والعصد والاعتدال والإيمان بالله وحده ورسالة رسوله واليوم الآخر.

ج - إن الله قد وعد المؤمنين السدين يعملون الصالحات في القرأن بتبوئهم في الدنيا المبوأ الحسن ، وتمكينهم في الأرض واستخلافهم فيها، وثوريتهم إياها .

ح - إن ما جاء في القرآن من آيات احتوت تهويناً بشأن الحياة الدنيا ومتاعها إنما جاء في سياق أو بنصوص تدل على انها استهدفت مقاصد سامية أخرى لاتمت إلى قصد منع المسلمين من أخدهم بنصيبهم من الدنيا واستمتاعهم بطيباتها وانتفاعهم بقوى الله ، وسننه في أنفسهم وفيها أو عدم الاشتفال بها وهي حفزهم على التضحية بالنفس والنفيس في سبيل الدفاع عن الاسلام والمسلمين ، والحيلولة دون استغراقهم في شهوات النفس وأهوائها التي تعطل تلك المقاصد السامية .

خ - إن المسلمين مدعوون للاهتمام بالحياة الدنيا والانتفاع بخيراتها وطيباتها وقواها وسننها وإعمال مواهبهم وعقولهم بسبب ذلك ، مع الملازمة بين الايمان والعمل الصالح الذي من أعظمه خطورة العمل على إعلاء كلمة الله وشريعته ، والتزام العدل والحق والبر والخير ، واجتناب الاثم والشر والمنكر والبغي ، والتعاون على البر والتقوى ، فيحققوا معنى الانسانية الفاضلة والمجتمع الفاضل في أنفسهم وفي كيانهم .

د - إن من واجب المخلصين من نبهاء المسلمين وصالحيهم أن يتعاونوا على إشاعة تعاليم القرآن في صدد الحياة الدنيا على وجهها الحق ، ومكافحة ما تركته عصور التردي والجمدود والجهل والظلم والتغلب في سواد المسلمين من آثار ، أو ما بثه أعداء المسلمين في عقول الناشئة من أكاذيب وأوهام جعلتهم يسيئون هدي القرآن .

ذ ـ ليس في القرآن مايوحي بالتعصب المذموم والجمود الضار تجاه أي أحد ، وتجاه أي شيء ، أو يقف عثرة في سبيل أي أمر نافع وخير ومفيد من الاصلاح والصلاح والتجدد والتجديد والاقتباس ، وليس فيه تحديد لجزئيات حياة الناس وأشكالها وكيفياتها سياسية كانت أم اجتماعية ، أم سلوكية ، بل فيها ما يوحي بالمرونة ، وسعة الأفق والتجديد ، والثورة ضد كل قديم ضار ، مما فيه ضمان لكل تقدم ، ونهوض في مختلف المجالات ، وكلما هنالك أنه أوجب أن يكون ذلك في

نطاق الايمان بالله ورسوله واليوم الآخر ، والتزام الحق والعدل والمصلحة والمعروف ، واجتناب الاثم والبغي والعدوان ، والموبقات والميوعة في الأخلاق ، والسلوك العام والخاص ، وبعضهم يصف هذا تعصباً مذموما ، وهسلا افتراء على الحسق والحقيقة والفضائل الأخلاقية .

ر ـ وختاماً لهذه النبذة نقول: إن القرآن قد قرن بين الايمان والعمل الصالح في معظم الآيات حيث يلهم هذا أن العمل الصالح اللذي يشمل كل مافيه بر وعدل وخير وطاعة وحق ومعروف هو المجسد لايمان المؤمن الذي يظل في حيز الخفاء والفيب ، فيكون العمل الصالح دليلا حسياً عليه ، وبكلمة أخرى: إن العمل الصالح مظهر ممارسة لايمان المؤمن ومصداق له . وفي هذا ما فيه من مغزى خطير بعيله الملدى .

وفي القرآن تقريرات في صدد كون الانسان إلى خسران وشوم وضياع ، وارتداد الى اسفل السافلين أخلاقاً وسلوكاً ، إذا لم يكن مؤمناً عاملا للصالحات متواصياً بالصبر والحق والمرحمة حيث تتضمن ذلك تقرير ما للايمان من قوة الوازع الآثم والمنكر الحافز على الخير والحق .

٩ _ ومن مقتضى تلقينات القرآن وتلقيناته المحكمة في صدد نظام الدولة الأساسى:

1 _ إقرار فكرة الدولة والسلطان على اساس الايمان بالله وحده ، وعبادته وحده ، ونشر دينه بالحكمة والموعظة الحسنة ، وإقامة القسط بين الناس ، والدعوة الى الخير ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، والدفاع عن الاسلام والمسلمين .

ب _ إن القرآن يلهم أن يتولى الدولة والسلطان الصالحون من المسلمين برضاء وموافقة أهل الحل والعقد والشأن ، وأوجب على المسلمين طاعتهم والنصيحة لهم ، والتضامن معهم في الخطط والأعمال التي تستهدف خير الاسلام والمسلمين ومصلحتهم .

ت _ إنه يقيد الطاعة على المسلمين لأولى الأمر بأن يكون هـولاء

منهم ، ومعنى هذا أن من ألواجب أن يكون الذين يتولون السلطان مسل المسلمين ، وأنه ليس على المسلمين واجب الطاعة والرضوخ والخضوع لسلطان غير مسلم .

ث _ إنه يلهم وجوب توفر الصفات الصالحة في اولي الأمر كالرفق واللين والتسامح والبعد عن الفلظة والفظاظة والإعنات ، والحرص على صالح المسلمين ، والشعور معهم في سرائهم وضرائهم ، والإغضاء عن هفواتهم والعفو عن جاهليهم ، والسعة لتأبيهم ونادميهم ، والقدرة على النهوض بواجباتهم ، ومشاورة اولي الحل والعقد والعلم في شؤون الدولة .

ج _ إنه يقيد واجب طاعة المسلمين الأولي أمرهم بالمعروف ، اي : فيما هو صالح نافع ، وفيه خير وبر ومصلحة وحق وعدل ، وما هو متعارف بين العارفين أنه كذلك ، وفي نطاق أوامر القرآن والسنة النبوية ونواهيهما ، فلا تجب عليهم الطاعة لهم في إثم ومعصية ومنكر .

ح _ إنه يقيد ما لأولي الأمر أن يدعوا المسلمين إليه ، ويطلبوا طاعتهم فيه ، والتضامن معهم عليه بمافيه للمسلمين مصلحة وفائدة وخير وحياة ، فليس لأولي الأمر أن ينحرفوا عن ذلك ، وليس على المسلمين الاستجابة إليهم إذا انحرفوا عنه .

خ - إنه يوجب على أولي الأمر مشاورة أهل الرأي والشأن والحل والعقد والعلم في شؤون الدولة ومهامها وعزائمها ، وليس فيه ولا في السينة تحديد لكيفية المشاورة وظروفها مما يلهم أن هذا متروك للمسلمين ليتدبر أولوا العلم والحل والعقد والأمر فيه ، ويضعوا قواعد له حسب ما تقتضيه المصلحة والظروف مع إمكان تطور ذلك حسب المصلحة والظروف على المال .

د _ إنه يوجب توسيد أعمال الحكومة إلى الأمناء الأكفياء ، ويعتبر غير ذلك خيانة للامانة .

ذ ـ إن القرآن والسنة النبوية هما مرجع المسلمين في أمورهم ، -

سواء في ذلك أفرادهم ، والقائمون بالأمر فيهم ، فما كان فيه نص وحكم صريحان قطعيان يعمل به دون أي اجتهاد وتبديل ، وما لم يكن فيه ذلك يجتهد فيه من أولي الأمر ، وبالتشاور مع أهل العقد والعلم والخبرة ، وفي نطاق توجيهات القرآن والسنة وخطوطهما ومبادئهما العامة ، ومصلحة المسلمين ، وليس ما يمنع أن يؤخذ ما سار عليه المسلمون السابقون ، وغيرهم ، أو يقاس عليه ، أو يقتبس منه في ذلك النطاق .

ر _ إن شرط طاعة المسلمين لأولي الأمر أن تكون في معروف لا يعني أن يكون لكل فرد حق الاجتهاد فيماهو المعروف والمنكر ، والنافع والضار ، أو حق التمرد على كل أمر لا يظنه أو لا يراه نافعاً معروفاً ، إذا لم يكن هناك و قائع و شواهد ونصوص صريحة وصحيحة ، وما ليس فيه هذا يكون التقدير فيه إلى أولي الأمر بمشورة أهل الحل والعقد والعلم والبصيرة ، وعلى الأفراد رد الأمور الى هؤلاء ، والاستجابة والطاعة لما يقدرونه ويقررونه ، وخلاف ذلك هو خروج عن سبيل المسلمين ، ومستحق للعقاب والتنكيل .

ز ـ إن السلطة في الدولة الاسلامية واحــدة ، ومرجعها الأعلى رئيسها ، ولا فصل فيها بين الدين والدنيا ، وفكرة العلمانية وفصل الدبن عن الدولة غير واردة بالنسبة للاسلام ، لأنه دين ونظام معاً ، وقياس ذلك مع ماتم في الحكومات الاجنبية قياس مع الفارق ، فالسيحية التي كان يدين بها معظم هذه الحكومات ليست دين نظام وعقيدة حقاً أولا . ولقد تكون فيها كهنوت وتحالف مع الحكام، وأضطهدت الحريات المتنوعة للافراد والجماعات في ظل ذلك ، فأدى هذا فيما سمى عصر النهضة الى التمرد حتى وصل الى فصل الدولة عن الدين . ومع ذلك فان هذا الفصل لم يمنع كثيرا ممن تسلطوا على الحكم بعده ، والى اليوم من الطغيان والظلم والاستبداد والارهاب ، فليس في الجنوح اليه والحالة هذه ضمان . هذا في حين أن تقريرات المحكمات القرآنية وتلقيناتها التي لا تفصل مبدئياً بين الدولة والدين ، تتضمن كل الضمانات لحرية الأفراد والجماعات من مختلف نواجيها في نطاق المبادىء والأركان الاسلامية السامية ، ولمنع الطفيان والعدوان والاستبداد ، ولتحقيق كل عدل وحق وبر ورحمة وتعاون وتكافل ونهضة وعلم وتقدم استعداد في كل المجالات ، ولمنح المسلمين حق الرقابة والشورى ، ومخالفة ذلك تفقد الحكم المستبد شرعيته ، وتسقط عن المسلمين واجب الطاعة له على ما مر ويأتي شرحه ، وفي هذا ما يجعل أي تفكير لفصل الدولة عن الدين بلا أي معنى ولا مسوغ، وإذا كان حكام مسلمون تسلطوا واستبدوا في ظل ذلك ، فان هذا وقع أيضاً من حكام بلاد علمانية ولا دينية ، ومع ذلك فان الوازع الاسلامي يظل أقوى إلهاماً وإلزاماً وضماناً .

س - إن رئيس الدولة هو صاحب العزيمة والأمر المنفذ لما يتم عليه رأي أهل الحل والعقد والعلم والشأن نتيجة لتشاورهم ، هذا ما يسمى اليوم بالنظام الرئاسي .

ش – إن الدولة الاسلامية هي كيان المسلمين جميعهم ، ومصلحتها هي مصلحتهم، وعليهم واجب التضامن فيما يعتزمه القائمون عليها من عزائم ، ويقررونه من خطط كما عليهم واجب التضامن معهم في رد العدوان ، وقمع الفتن واتقائها ، وواجب التعاون على البر والتقوى ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والدعوة الى الخير في نطاق الدولة ، والقيام بواجبهم نحوها من الطاعة فيما فيه معروف ومصلحة ، وأداء الزكاة والنفرة الى الجهاد ، واعتبار انفسهم جزء الا يتجزأ منها .

ص - إن بنيان الدولة في الاسلام يقوم على الرجل والمرأة معاً على قدم المساواة ، ودليل ذلك اتصافهما بصفة (الانسان) الذي هو ذكر وانثى ، وتكليفهما معاً بالأمانة وحملهما(۱) إياها ، وكون ماكلف به الرجل من تكاليف دنيوية وأخروية وسياسية واجتماعية وبدنية ومالية وفكرية قد كلفت به المرأة ، وجميع ما منحه الرجل من حقوق سياسيةواجتماعية ومدنية وفكرية قد منحت للمرأة بدون تمييز ونقص وزيادة ، وقد رتب عليها تبعات كل موقف في الدنيا والآخرة نفس التبعات المترتبة على الرجل بدون نقص وزيادة ، وقد اعترف القرآن بشخصيتها المستقلة حينما أمر النبي صلى الله عليه وسلم بأخذ البيعة منها استقلالا عن الرجل (٢) .

وقد قرر أن المؤمنين والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمر ونبالمعروف

⁽١) آيات سورة الأحزاب الاخيرة .

⁽٢) آية سورة الممتحنة (١٢) .

وينهون عن المنكر ، ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ، ويطيعون الله ورساوله .

وقد اعترف بمواقف المؤمنات المماثلة في كل ذلك لمواقف المؤمنين في قوله:

(فاستجاب لهم ربهم اني لا اضيع عمل عامل منكم من ذكر أو انثى بعضكم من بعض فالذين هاجروا واخرجوا من ديارهم واوذوا في سبيلي وقاتلوا وقتلوا لاكفرن عنهم سيئاتهم ولادخلنهم جنات تجري من تحتها الأنهاد ٠) آل عمران : ١٩٥

ونتيجة لذلك يكون لها من حيث المبدأ الحق والمجال في مشاركة الرجل في مختلف المسائل العامة وشؤون الدولة والحكم بمافي ذلك المؤسسات والمجالس باستثناء رئاسة الدولة ، لأن هناك حديثاً يشجب ذلك ، وما في القرآن من نصوص يتميز فيها الرجل عنها ، إنما هو في شؤون خاصة ، ومحدودة متصلة بالحياة الزوجية وبطبيعة كل منهما ، وليس من شأنه نقض ذلك (١) وما يورده بعضهم من حجج وأقوال لا ترتكز

(۱) ومع ذلك فالقرآن قرر أن للزوجة في هذه الحياة من الحقوق على زوجها مثل التي له عليها مها سوف نزيده شرحا بعد ، ويذكر بعضهم آية سورة البقرة (فان لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان ممن ترضون من الشهداء أن تضل احداهما فتذكر احداهما الاخسرى) البقرة : ۲۸۲ ، التي تفيد أن شهادة الرجل تعدل شهادة امرأتين ، ويذكر بعضهم ماتفيده آيات المواريث (للذكر مثل خط الانثيين آل عمران : ۱۱) ، كناقض للمساواة التامسة بين الرجل والمرأة ، والنصوص التي تسوي بين الرجل والمرأة في الحقوق والواجبات والمركز والمواقف والتبعات والتكاليف أشمل وأقوى من أن ينقضها هذان الامران الثانويان جدا بالنسبة الى ذلك من جهة ، وهناك ما يصح أن يورد في صددهما من جهة أخرى ، ففسي النسبة الى ذلك من جهة ، وهناك ما يصح أن يورد في صددهما من جهة أخرى ، ففسي أيات الفاحشة والزنا والوصية وعدة الطلاق ، ولا تذكر للشهادات والشهدد في معرض أثبات الفاحشة والزنا والوصية وعدة الطلاق ، ولا تذكر صفسة الشاهسد ، والمتمارف المسلم به هو أن كل ما ذكر المؤمنون اطلاقا في القرآن بدون قرينسة يشمسل المؤمنات أيضا ، يحيث يمكن أن يكون في ذلك تعديل ، وآية البقرة الى هسدا في صدد إحضار شهود للشهادة وليس في صدد شهادة شهود واقعة حادثة ، وقد احتوت تعلبسلا

وفي الآية قصد التسلية واضح أيضاً أكثر من قصد التقرير ، مع تقرير كون مايصيب الناس هو بإذن الله وعلمه ... ومنها آية سورة الشورى هذه:

(وما أصابكم من مصيبة فيما كسبت أيديكم ويعفوعن كثير ٠٠) ٣٠ والآية تعزو مايصيب الناس من مصائب إلى أخطائهم ، وتربط المصائب بأسباب تقع من الناس ، وتقرر أن هذه الأخطاء تستدعي أكثر مما يقع عليهم ، ولكن الله يتسامح ويعفو عن كثير مما يقع منهم .

وفي الآية التي تلي هذه الآية تتمة وهي:

(ومسا أنتم بمعجزين في الأرض وما لسكم من دون الله من ولي" ولا نصير ٠) ٣١

حيث توضح أن المقصود بالخطاب هم الكافرون ، ولعل الآيتين نزلتا في موقف حجاج بين النبي صلى الله عليه وسلم والكفار في صدد مايصيبهم من مصائب . ومنها آيات سورة النساء هذه:

(ألم تر إلى الذين قيل لهم كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة فلما كتب عليهم القتال إذا فريق منهم يخشون الناس كخشيسة الله أو أشد خشية وقالوا ربنا لم كتبت علينا القتال لولا أخرتناإلى أجلقريبقل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى ولا تظلمون فتيلاً ، أين ما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة وإن تصبهم حسنة يقولوا هذه من عندك قل كل من عند الله من عند الله وإن تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك قل كل من عند الله فما لهؤلاء القوم لايكادون يفقهون حديثاً ، ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك وأرسلناك للناس رسولاً وكفى بالله شهيداً ، من يطع الرسول فقد أطاع الله ومن تولى" فما أرسلناك عليهم حفيظاً ،) ٧٧ — ٨٠

والآيات بسبيل التنديد في موقف لفريق من المسلمين هم على الأرجح منافقون ، حيث كانوا يعزون ما يصيبهم من مصائب للنبي صلى الله عليه وسلم ودعوته ، وما ينالهم من خير إلى الله وحده لئلا يبدو أن الدعوة النبوية قد عادت عليهم بالخير والبركة، وقد اظهروا الجزع الأنهم كتب عليهم القتال بعد فترة من الزمن اكتفى فيها منهم بالإيمان بالله ورسوله وإقامة الصلاة

وإيتاء الزكاة ، فنددت الآيات بهم ، وردت عليهم بالأسلوب والفحوى. اللذين اقتضتهما حكمة التنزيل ، والآيات هي بسبيل موقف جدلي. للمنافقين ، ومع ذلك فقد تضمنت فيما تضمنته تقرير كون ماقد يقع على الناس من مصائب وأخطار هو بسبب أخطائهم وتصر فاتهم ... ومن ذلك آيات سورة التوية هذه:

(إن تصبك حسنة تسؤهم وإن تصبك مصيبة يقولوا قد اخذنا أمرنا من قبل ويتولوا وهم فرحون ، قل لن يصيبنا إلا ماكتب الله لنا هو مولانا وعلى الله فليتوكل المؤمنون ، ،) ، ه و ١٥

والآيات بسبيل موقف جدلي للمنافقين أيضاً . وقد تضمنت الرد. عليهم والتنديد بهم مع تسلية النبي صلى الله عليه وسلم وتطمينه ، وقد تكون جملة (إلا ما كتب الله لنا) أقوى ما تضمنته آيات القرآن في تقرير كون مايصيب الناس بغير كسبهم هو مكتوبعليهم ، غير أن قصد التطمين والتثبيت والتسلية هو الأبرز الاقوى .

ومهما يكن من أمر فمسألة (القضاء والقدر) هي كالمسألة السابقة عقيدية نظرية ، وهي ليست إسلامية فقط ، بل قدر مشترك عند جميع الملل والنحل ، ومثقفين وغير مثقفين ، بل وملحدين أيضاً من حيث إن هناك كلاما يساق في صدد مسألة كون الناس مسيرين أو مخيرين وتأثرهم فيما يفعلون ، ويقع عليهم بظروفهم وبيئاتهم ونشأتهم وتربيتهم ووراثاتهم وظروف غيرهم ونشاطاتهم المعاكسة الخ ، وأنهم ليسوا مخيرين في الحقيقة في كثير مما يفعلون أو يقع عليهم ، ولكن ليس من شسأن ذلك مع ذلك أن يمنع أحداً من العمل والنشاط في مختلف المجالات مهما كانت عقيدته فيها ، لأن نتائج ذلك العمل والنشاط مغيبة لاتعرف إلا بعد ظهورها ، ثم يستمر الانسان في العمل والنشاط ، لأن ذلك من طبعة الحياة .

والقدر إلى هذا وفي نطاق مداه النظري هو الذي وقع وتم بقطع النظر عما كان قبله وما يكون بعده ، وهو عرضة للتبدل دائماً ، فقد يصيب الانسان مالاً ، أو يقع في إفلاس ، وقد تقع منه جريمة ، أو يكون صالحاً

مستقيماً في وقت ما . وكل هذا عرضة للتبدل نتيجة لاستمرار الانسان على النشاط ما دام حياً ، وهكذا تتسلسل المسألة فلا يبقى للقدر ذلك المعنى المحتم الجامد الراسخ في الأذهان من الوجهة النظرية أيضاً .

والقول والحالة هذه: إن عقيدة (القضاء والقدر) تشل قوى الإنسان ، وتجعله يستسلم للواقع مجاف للحقيقة والواقع ، فليس من إنسان وقع عليه شيء أو وقع منه فعل إلا استمر بعده في العمل والنشاط دون توقف .

وبالنسبة للمسلم فإن فيما تقدم ما يضع الأمر في نصابه . ومع ذلك حتى لو كانت هذه العقيدة مستحكمة عند المسلم بالنسبة لما يقع عليه من مصائب ، أو يقع منه من أفعال بقطع النظر عما كان قبل ذلك ويكون يعده ، فإن المسلم الذي يعتقد ذلك ، يقدم على جسيم الأمور غير هياب ولا وجل ، لأنه معتقد أنه لن يصيبه إلا ما كتب له ، ولن يغني عنه حذر من قدر كما يقول المثل ، وهذا هو التحليل المبدئي لأثر هذه العقيدة في المسلمين ، والذي كان يحركهم في الصدر الإسلامي ، ويجعلهم يقدمون على المخاطر والمصاعب ، وينجزون ما يكاد يكون من المعجزات في مختلف شؤون الحياة ومجالاتها .

ولقد اقتضت حكمة الله أن يزودهم بتطمين وتثبيت قرآنيين ، فجاء بعد آيات التوبة المذكورة هذه الآية :

(قل هل تربصون بنا إلا إحدى الحسنيين ونحن نتربص بكم أن يصيبكم الله بعداب من عنده أو بايدينافتربصوا إنا معكم متربصون ١٠٠٠٥٠ وجاء في سورة البقرة هذه الآيات :

(يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة إن الله مع الصابرين، ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله اموات بل احياء ولكن لاتشعرون ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفسوالثمرات وبشر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون ولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون،) ١٥٧-١٥٧

وفي هذا رد" مبدئي وعملي على من يتمحل من الملحدين في صدد اثر هذه العقيدة في المسلمين ، ويريد هدم الإسلام من أجلها ، ساءفألهم ، وخاب أملهم ، ورد" الله كيدهم إلى نحورهم .

وقد يكون واقع المسلمين يوحي ذلك ، ولكنه واقع له أسباب أخرى. غير الاسلام وعقائده السليمة الصافية مما لايمكن أن يكابر فيه إلا أحمق. ٥ ــ ولصادق العظم مواقف تعسفية في صدد آيات قرآنية عديدة أساء تأويلها وفهمها ومداها ، وأساء الادب في مناسبتها ، وقصد بذلك المماحكة والتمحل ، وإظهار نقائض القرآن وانتقاد الفكر الديني الإسلامي عبر ذلك كما كان شأنه وقصده فيما سماه مأساة إبليس ، وقد رأينا أن نلم بها لانها قد تمثل رأي غيره من أمثاله الملحدين أيضا ، وقد يكون في بعضها إشكال لذوي النيات الحسنة من مسلمين وغير مسلمين ، فيكون الإلمام بها ، ووضع الأمر في نصابه الحق في صددها إن شاء الله مفيداً لهم مع ما يكون في ذلك من رد على الملحدين ، وإظهار ما في تمحلاتهم ومماحكاتهم من ضعف وغثاثة وقصد سيء .

آ) من ذلك أية سورة الإسراء هذه:

(وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميراً ٠) ١٦

وقد أورد العظم هذه الآية في البحث الذي سماه مأساة إبليس في كتابه (نقد الفكر الديني) وقال بالحرف في تفسيرها: (إن الله قد شاء تدمير القرية . . بمحض مشيئته ، ولكن لئلا يكون للعباد عليه حجة فيما شاء لجأ إلى المكر ، فأمر مترفيها أن يفسقوا فيها حتى يبدو للجميع وكأن القرية استحقت ذلك التدمير ، بينما الحقيقة غير ذلك . وهمذا من مكر الله)!!

كبرت كلمة تخرج من فيه ، لايقولها إلا شخص فقد المنطق والذوق. والمقل والأدب معا .

ولو أوتي شيئاً من ذلك حقاً ، لكان قبل كل شيء لاحظ أن الله يقتضي أن يكون في غنى عن إقامة حجة كاذبة لعباده فيها مكر وخداع مما هو محض هراء ، ثم كان انتبه إلى الآيات التي قبل هذه الآية وبعدها فرأى فيها مايمنعه من هذا الهراء أيضاً ، فقد جاء قبلها هذه الآيات :

(وكل السان الزمناه طائره في عنقه ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً ، إقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً ، من اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها ولا تزر وازرة وزر أخرى وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا ،) ١٣ ـ ١٥

وجاء بعدها هذه الآيات:

(وكم أهلكنا من القرون من بعد نوح وكفى بربك بذنوب عباده خبيراً بصيراً و من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموماً مدحوراً و ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكوراً ٥٠) ١٧ ــ ١٩

فهل يقول ذلك الهراء عاقل ولو كان ملحداً في تأويل آية جاء قبلها وبعدها هذه الآيات التي تقول بلسان الله: إن الله لايعذب أحداً حتى يبعث إليهم رسولا ينذرهم ويبشرهم ، ويبين لهم الطريق ، فإذا ماجحدوا وانحرفوا حق عليهم العذاب ، وأنه لايحمل ذنب أحد على غيره ، وأن الله لايهلك الناس إلا بذنوبهم ، وأن من آمن واتقى شكر الله سعيه ... وشيء من التروي وحسن الفهم والذوق يظهر أن عبارة الآية على ضوء ما قبلها وبعدها أسلوبية أريد بها تقرير ناموس اجتماعي عام ، وهو أن الأمم والمدن إذا ما ساد عليهم الفساق وحكموهم ، ورضوا هم بذلك كان في ذلك دمارهم . وجملة (فحق عليها القول) في الآية مؤيدة لهذا التأويل، فلا يصح أن يفرض أنه حق عليها القول بالتدمير إلا مع القول إنها وقفت موقعاً منحرفاً مع أمرائها الفساق متجاوبة معهم راضية بفسقهم ، ولقد فسرها المفسرون بتفسيرات أخرى ولكنها في معنى كون التدمير جزاء فسرها المفسرون بتفسيرات أخرى ولكنها في معنى كون التدمير جزاء عادلاً من الله بسبب سيرة الأمراء الفاسقة ، ومن هذه التفاسير : (إن

الله يأمر الأمراء بأوامره ونواهيه ، فلا يعملون بها وينحرفون ، ويرضى أهل بلدهم بذلك فيستحقون التدمير) وفي هذا أيضاً صواب وسداد . والآية من ناحية أخرى تتضمن تقرير مسؤولية الزعماء ، لأنهم عادة يطاعون ، فإذا كانوا فساقاً أثروا في قومهم ، وأوردوهم موارد الهلاك . . ولقد جاء في سورة هود هذه الآية :

(وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون •) ١١٧

حيث تقرر تنزه الله تعالى عن إهلك قرية إذا كان أهلها صالحين ومصلحين ظلما واعتباطاً ، وجاء في سورة القصص هذه الآية:

(وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث في أمها رسولاً يتلو عليهم آياتنا وما كنا مهلكي القرى إلا وأهلها ظالمون ٥٠) ٥٩

وجاء في سورة الأنعام هذه الآية :

(ذلك أن لم يكن ربك مهلك القرى بظلم وأهلها غافلون •) 131

أي إن الله لا يهلك قرية غافلة لا يكون قد جاءها منه رسول يبين لها طريق الحق ، وبعبارة أخرى لايهلكها عن غفلة وجهل وحسب ، بل إذا انحر فت عن طريق الحق بعد أن يكون بينها لها رسله . وهذه الآية جاءت حجة على المنحر فين حيث حاء قبلها هذه الآبات :

(يا معشر الجن" والإنس الم ياتكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي وينذرونكم لقاء يومكم هذا قالوا شهدنا على انفسنا وغرتهم الحياة الدنيا وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين ٠٠) الأنمام: ١٣٠

وفي القرآن آيات عديدة أخرى تقرر كون الله عز وجل لايظلم أحداً ، وأن الناس هم الذين يظلمون أنفسهم بما يفعلونه من سيئات ، ويقفونه من مواقف الكفر والانحراف كما جاء في هذه الآيات التي لها أمثال أخرى:

ا _ (إن الله لايظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أحراً عظيماً •) النساء : • }

الرابعة: حالة الخضوع ، وهي حالة الفريق الذي خضع للمسلمين ، وأدى إليهم الجزية بدءاً أو بعد حرب فواجب المسلمين أن يوفوا له بما اشترطوا له من حماية وذمة ما دام محافظاً على حالته وشروطه .

ت _ من تلقينات القرآن أن كل غير مسلم يعتنق الاسلام يصبح أخا لسائر المسلمين ، له ما لهم وعليه ماعليهم ، وإسلامه يجب كل ما صدر عنه قبله .

ث من تلقينات القرآن وتقريراته أنه لا يجوز للمسلمين ودولتهم أن يتبادلوا الولاء والنصر والموادة مع أعدائهم الموصوفين في الفقرة الأولى بأي عدر كان ، ومهما تكن الظروف ، كما أنه لا يجوز لهم أن يخلطوا فيهم مسن ظهرت بوادر المكر والكيد والبغض امنه لهم ، ولا يتخدوه بطانة لهم ، وعليهم أن يكونوا منه على حدر ، ومن يخالف ذلك فليس من الله في شيء ، ويعتبر كالمرتد عن دين الله .

ج ً ـ من تلقينات القرآن أنه يجوز للمسلمين ودولتهم أن يسايسروا ظروفهم بحيث يسوغ لهم أن يتقوا عدوا ويدافعوه بالتي هي أحسن إذا كان ذلك في مصلحة المسلمين أو فيه دفع ضرر عنهم ، على أن لا يكون خضوعاً ولا ولاء وتحالفاً وتناصراً ولا ذلا ، ولا يكون فيه تواطو وغض عن دماء المسلمين وأموالهم وأعراضهم .

ح ً — ان القرآن قد أولى المواثيق والعهود عناية عظيمة ، فيجب على المسلمين ودولتهم أن يلتزموا ما يبرمونه من عهود ومواثيق ما دام الطرف الآخر ملتزماً بها ، وعليهم اذا شعروا منه خيانة وغدراً أن يعلنوه بشعورهم وان لا يأخذوه على غرة .

خ سران القرآن كرر أوامره ببذل النصح للأعداء ودعوتهم إلى الحق، وإشعارهم بأن باب السلم والتوبة مفتوح لهم دوماً ، وبالجنوح إلى السلم

حال ما يجنحون إليها . فعلى المسلمين ودولتهم التزام هذه الأوامر (١) .

د سيرة النبسي صلى الله عليه وسلسم وخلفائه الراشدين ومأثوراتهم تنظوي على التلقين بأن لغير المسلمين من رعايا الدولة والعسرب والمستعربون ، منهم من باب اولى — ما للمسلمين فيها من الحقوق والحريات المتنوعة المشروعة ، وعليهم ما عليهم من الطاعة والإخلاص والامانة والتضامن والتكاليف .

ذ - إن القرآن استهدف التأنيس بين أهدل الكتاب والمسلمين بخاصة ، وحسن التواصل والتعايش والتفاهم لما يجمع بينهم من وحددة المصدر ، وأن على المسلمين ودولتهم أن يستلهموا ذلك إذا كان أهل الكتاب مسللين غير معتدين مباشرة أو مظاهرة .

وفي القرآن ملهمات بأن تعبير أهل الكتاب هو أوسع شمولاً مسن اليهود والنصارى ، فاذا كان عند ملة كتاب تقول تقاليدها : إنه أوحي به من خالق الأكوان ومبدعها ومدبرها إلى بعض رجالها أو أنبيائها القلماء ، وفيه شرائع ووصايا ومبادىء وعليها سمة كتب الله المعروفة فيصح أن تعتبر كتابيسة .

ر سران القرآن يقرر أن اليهود من أشد الناس عداوة للمسلمين ، وأن النصارى أقربهم مودة إليهم ، وعلى المسلمين ودولتهم أن يستلهموا هذا في نطاق مصالحهم وأمنهم وطمأنينتهم وكرامتهم .

١٠ - ومن مقتضى تقريرات محكمات القرآن وتلقيناته في صــدد
 العدل والقضاء:

⁽۱) من الواجب أن ننيه على أن هذا لا يشمل الدولة اليهودية في فلسطين ، لانها قامت على أرض العرب التي اغتصبتها بالحديد والنار والبغي والعدوان ، ونكلت بأهلها أقسى تنكيل وطردتهم ونهبت أموالهم وأملاكهم ، ومن واجب المسلمين ودولهم أن يبقوا معها في حالة حرب وكفاح الى أن تزول وتعود فلسطين جميعها الى داية الاسلام والعروبة .

آب إن فكرة العدل والحق والإنصاف هي ألتي يجب أن تكون ضابط المسلمين ورائدهم في تعاملهم مع الناس مسلمين كانوا أو غير مسلمين .

ب ـ إن التزام العدل والحق والإنصاف واجب لا يجوز أن يتأثر بكراهية وبغضاء ، ولا بعاطفة غضب ، أو لحمة قربى ونسب ، وعصبية دين وملهب وجنس .

ت _ إن الواجبين المذكورين يترتبان على المسلمين عامة ، وعلى من يتولى القضاء منهم خاصة .

ث _ إن على قضاة المسلمين بنوع خاص الحدر والتنبه تجاه مسا يعمد إليه المتقاضون أحياناً من كيد ومكر وتدليس وإغراء وذلاقة السان ، كما أن عليهم أن لا يتأثروا بالمظاهر الزائفة والأيمان الكاذبة ، وأن يكون همهم تحري الحق والعدل والإنصاف والحكم به مجرداً عن كل شائية واعتبار .

ج - إن على المسلم أن يعتقد أن مخالفت لمقتضى الحق والعدل والإنصاف ، ومحاولته أكل مال غيره بأي أسلوب ولو عن طريق المحاكمات والقوانين مع علمه ذلك إثم ديني يعاقب عليه من الله ، ولا يكون له حلالا" ، وأن الله رقيب عليه ولو الستطاع إخفاء إثمه عن الناس ، وأن عليه أن يتجنب البغي والعدوان والاحتيال والإثم على مال أي إنسان وعرضه وسائر حقوقه بأي أسلوب ، ومن جملة ذلك ألغش والتغرير وأن لا يظاهر غيره على ذلك مهما كانت الرابطة التي تربطه به ، ومهما كان بينه وبين ذلك الإنسان من بغضاء وكراهية ، وأن يسرع إلى التوبة والإصلاح إذا بدا منه شيء من ذلك ود الحق إلى صاحبه .

ح _ إن قلب الحق باطلاً والباطل حقاً ، وإلصاق الإثم والتهم بالأبرياء من الجراثم الدينية الكبرى التي يستحق مقترفها سخط الله وغضبه وعذابه .

خ ـ لا يجوز لمسلم أن يتهرب من التقاضي أمام القضاء الإسلامي ، أو يفضل عليه غيره ، وعليه أن يذعن له سواء أكان الحكم له أم عليه .

د _ إن القضاء الإسلامي يستمد احكامه واساليبه من القرآن والسنة وتلقينا تهما وملهماتهما وخطوطهما العامة ، وليس ما يمنع من الاقتباس والسير على السوابق الصالحة فيما ليس فيه نصوص صريحة في نطاق تلقينات القرآن والسنة ، وخطوطهما العامة .

ذ _ يجب على المسلمين أن يوثقوا معاملاتهم المالية والتجارية وخاصة - ديونهم ابوثائق وسندات ، منعا للثبك والنزاع ، وعلى الكتباب أن يؤدوا مهمتهم بكل أمانة وصدق وعدل .

ر ـ يجب على الذي عليه الحق أن يتقى الله فيعتر ف بما عليه بتمامه، ويسجله ويوقع عليه ، ويجب على الذين يتولون مقام غيرهم وكالة أو وساية أو ولاية أن يفعلوا ذلك أيضا .

ز ... يجب توثيق المعاملات والوقائع والقضايا بالشهود العدول ، ويجب على الشهود أن يلبوا الدعوة للشهادة ، وأن يؤدوا شهاداتهم بكل أمانية وصدق .

س ــ إن للكاتب والشاهد حق الحماية والصيائة والحرمة ، فلا يجوز مضارتهما في أي حال وعلى القضاء ردع من يضارهما ، أو يخل بواجب الأمانة والصدق منهما .

ش ـ إن القضاء الإسلامي مرجع لحل وتنظيم الشؤون والمشاكل والخلافات المدنية والأحوال الشخصية ، كالديون والوصايا والهبات ، وإثبات الرشد والنكاح والطلاق والإرث وما شاكلها بالإضافة إلى الجرائم الدموية والبدنية والمالية العدوانية .

ص _ في القرآن أمر بالاشهاد والاستشهاد ، وتوثيق المعاملات

بالكتابة حيث يكون كل هذا من وسائل إثبات الحقوق وحل الخلافات أمام القضاء ، وليس فيه ما يمنع إثبات الحقوق ، وحل الخلافات بأي وسيلة معقولة وشرعية أخرى .

ض - في القرآن ما يفيد أن العدائة في المخبر والراوي والشاهد شرط ، وأن من حق القضاء أن يرد شهادة الفاسق ، وهدو الذي عرف بالانحراف عن أوامر الله ونواهيه ومن ذلك الكذب والفش والخيائة والرشوة .

ط _ ليس للقضاء الإسلامي أن يجبر الكتابيين الذين يعيشون في. كنف السلطان الإسلامي على التقاضي أمامه في أمورهم الخاصة ، وإذا رغبوا في التقاضي أمامه ، فالقضاء يكون وفقاً للشرع الإسلامي . ولهم أن يتقاضوا في أمورهم الخاصة أمام قضاتهم على شرط أن يكون قضاؤهم مستمداً من كتبهم الدنية .

ظ ـ ليس في القرآن عقوبات محددة إلا لجرائم القتل العمد والقتل الخطأ والزنا والقذف (١) والسرقة ، وحكمة ذلك كما هو المتبادر انها جرائم تهدد أرواح الناس وأموالهم وأعراضهم في كل ظرف ومكان.

وعقوبات الجرائم الخمس المذكورة رادعة ، وليس فيها ما يتحمل تمحلاً جاداً ، وتمحل بعض الناس بعقوبة قطع اليد للسارقواه ، والتجارب تثبت أن البلاد التي تطبق فيها هذه العقوبة تقل فيها هذه الجريمة عن غيرها ، وهناك اجتهادات تستند إلى قرائن قرآنية أن السارق إذا تاب وأصلح قبل الحكم عليه يعفى من القطع ، وهناك آثار راشدية تسيغ عفاء السارق إذا سرق لسد رمقه ، ولم تكن السرقة مهنة له .

ع ـ أما غير الجرائم الخمس المحدودة عقوباتها في القرآن ، فالمتبادر أن حكمة الله اقتضت ترك التدبر فيها للمسلمين بما يتناسب ويتلاءم مع الظروف والمصلحة ، ويمكن استلهام القرآن في ذلك . ففي القرآن نهي عن

⁽۱) القذف : هو اتهام رجلوامرأة بالزنىدون أن يقدم المتهم أربعة شهود عيان على صحة التهمــة .

كثير من الأفعال الشخصية والاجتماعية والسلوكية ، وتنديد بفاعليها ، وإندارهم بعذاب الله وغضبه ونقمته ، مشل الكذب ، وشهادة الزور ، والاحتيال لأكل أموال الناس بالباطل ، وخداع الناس والحكام ، والأخبار والإشاعات الكاذبة ، ونقض العهد ، وخيانة الأمانة ، ونبز الناس ولمزهم والسخرية بهم وغيبتهم ، والتجسس عليهم ، وإخلاف الوعد الخ الخ . . .

فليس ما يمنع الدولة أن تضع عقوبات على هذه الأفعسال بمشورة أهل الحل والعقد بما يتناسب مع أثر كل فعل وخطورته ومداه ، ويكون فيها صيانة للأفراد والمجتمع ، وهناك ماثورات نبوية وراشدية بترتيب عقوبات على مثل هذه الأفعال فيكون ذلك ملهما مسوغاً .

ع ـ لقد حرم القرآن الخمر والميسر ، ونبه على ما فيهما من إثـم وفساد ، مما صار أمراً مسلماً به في جميع انحاء الأرض والمجتمعات ، فعلى الدولة منعهما ، وترتيب العقوبات الرادعة على فاعليهما ، وقد رتب النبي صلى الله عليه وسلم وخلفاؤه حداً على شاربي الخمر ، وفي ذلـك قدوة وأسوة .

غ _ لقد حرم القرآن الربال ، ونبه على ما فيه من ظلم وإثم ، والاستغال بالربا مما يشل النشاط الاقتصادي ويعقد نفسية الناس إزاء بعضهم . فعلى الدولة أن تمنع تعاطيه وتجد مع أهل الرأي والعلم أساليب مشروعة أخرى بديلة عنه .

ف ــ والتآمر مع الأعداء وموالاتهم والتجسس لهم ، وخيانة الدولة ، والمجتمع الاسلامي وإقلاق أمنه وطمأنينته وإشاعة الفاحشة فيه ، والعبث في الأرض فسادا من أفظع الجرائم المستنكرة في القرآن التي ندد بمقتر فيها ، وانذر بعذاب الله وسخطه ، وليس ما يمنع الدولة كذلك من ترتيب عقوبات زاجرة عليهم بمشورة أهل الحل والعقد .

ق _ إن استغلال الفرص لتأمين المنافع الخاصة على حساب المجتمع والأفراد وضررهم ، والاحتيال عليهم وغشهم والتفريس بهم ، وعدم التضامن مع المسلمين في الأزمات والنضال ، واللعب على الحبلين مع الدولة واعدائها والإمساك عن البذل وبخاصة في سبيل الله ، والتثبيط عنه ، والتهرب من القتال والتبطىء عنه ، وبث الدعايات والإشاعات الضارة

والتهويش على القائمين بالمصالح العامة بسائق الفرض والحقد من الجرائم التي استنكرها القرآن ، وانذر مقتر فيها ، وليس ما يمنع الدولة من ترتيب عقوبات رادعة عليها .

ك لا يجوز التسرع في توجيه تهمة الكفر والفسق والظلم والخيانة والانحراف عن أحكام الله وسنة رسوله للناس والحكام إذا كانوا يظهرون الإسلام ، ويقومون بأركانه فضلا عن استحلال دمائهم أو العدوان عليهم فهذا من الفساد المؤدي إلى الفتنة والمستحق للعقوبة (١) .

ا ا ــ ومن تقريرات الحكمات القرآنية وتلقيناتها في صدد أسباب القتال والحهاد مما يتصل بالأمور الاحرائية فيهما.

آ ـ ليس الجهاد هو الحرب والقتال وحسب ، بلهو أوسع ، فكل خدمة للإسلام والمسلمين تعد جهاداً في سبيل الله ، سواء أكانت بالحرب أو بالمال أو بجهد آخر غيرهما .

(١) من الجدير بالذكر وله مغزى عظيم في هذا الصدد أن القرآن احتوى آيات عديدة فيها تنديد شديد ببعض المسلمين ومواقفهم التي كان بعضها خطيرا جداً ، وفي بعضاالآيات صراحة بأن منهم من خلط عملا صالحا وآخر سيئًا ، ومع ذلك فانه لم ينف عنهم صفــة الايمان وخاطبهم بها ، اقرأ مثلا آيات آل عمران (۱۵۱) - (۱۵۳) والتسسساء (۷۲ - ۷٪) و (۱۶۰ – ۱۶۶) والمائدة (۷۷) والانفال (۲۰ – ۲۸) والنوبة (۲۳و۲۸ – ۳۰ وا ۱۰۱ – ۱۰۲ و١١٩٠ و ١٢٠) والنور (١١-١٨) والحديد (٨-١٠ و ٢٦) والمتحنة (١-٣) والصف (٢و٣ ، والذين هم موضوع هذه الآيات ليسوا منافقين على ما يفيده فحواها بكل قوة ، ومع ذلك فان من الجدير بالذكر وله مغزى عظيم في هذا الصدد أنه لم يروأن النبي أمسر بقتل منافق رغم ما احتواه القرآن من آيات كثيرة تقرر بأن المنافقين كفروا بعد ايمانهم وتذكر مواقف خطيرة لهم ضد رسول الله صلى الله عليه وسلم والاسلام وفي حالات الحرب فضلا عن حالات السلم 6 وتأمر النبي بانذارهم ومجاهدتهم والاغلاظ عليهم كالكفار وتحمسل عليهم حملات قارعة قاصمة ، وذلك على أمل أن يرعووا ويستجيبوا لهتاف التوبة التي دعسوا اليها ولأنهم كانوا يتظاهرون بالاسلام دعوى ويقومون بأركانه ولو كرها ورياء . . . اقرأ آيات البقرة (٨-١٦ و٢٠٣ - ٢٠٣) والنساء (٨٨و٨٨ و ١٣٧ - ١٤٦) والمائدة (٢٥و٣٥) والتوبــة (٤٣ - ١٠١ و ١٠١ و ١٠١ و ١٢٣ - ١٢٧) والاحسراب (١٢ - ٢٤ و٧٥ - ٢٢) والحشر (١١ - ١٧) والمنافقون (١-٨) والتحريم (٩) . ب _ القتال في الاسلام فرض على القادرين كلما دعت إليه الحاجة، وفرضيته تشمل الجهاد بالمال والنفس معا ، وإذا كفى أن يقوم به بعضهم فلا بأس ، وإذا دعت الحاجة إليه فتقاعس عنه المسلمون ، أو لم يكف أن يقوم به من قام بهمنهم أثم القاعدون ، ولا يؤاخذ الله العاجزيس عنه ، ويسيغ التسامح لمن لهم أعذار معقولة مع إيجابه عليهم القيام بأي عمل مفيد لمصلحة الإسلام والمسلمين في ظروف القتال بخاصة .

ت _ إن القتال قد استهدف غايتين ، الأولى : دفع الظلم والعدوان والبغي والاضطهاد عن المسلمين ، ومقابلة من باداهم بالعدوان والأذى ، والثانية : تأمين حرية الدعوة إلى دين الله حتى لا تكون فتنة ويكون الذين للسبه .

ث _ إن الخيانة والغدر ونكث العهد وفتنة المسلمين عن دينهم أي: إجبارهم بالقهر على الارتداد ، والصد عن سبيل الله ، والحيلولة دون حرية الدعوة إليه والطعن في الدين ، ومظاهرة أعداء المسلمين عليهم وخيانتهم والكيد لهم من موجبات القتال ، ولا قتال ضد المسالمين والحياديين والموادين ، والكافين أيديهم والسنتهم عن المسلمين .

ج ـ ليس القتال لإجبار الناس على الإسلام ، لأن الدعوة إلى الاسلام تقوم على الحكمة والموعظة الحسنة والجهال بالتي هي أحسن ، وقه قرر القرآن أن لا إكراه في الدين ، فمن استجاب برضاه صار مسلما ، ومن أبى وكف يده ولسانه عن الإسلام والمسلمين ، يتسرك وشأنه ولا سبيل للمسلمين عليه .

ح - في البلاد التي استقر كيانها ، وتوطد السلطان الإسلامي فيها يكون القتال بدعوة أولي الأمر حينما يرون ذلك ضروريا وملائما ، أماالبلاد التي لا سلطان للمسلمين عليها ، ولا كيانا مستقرا لها والتي تسلط عليها الغير ، وسيم فيها المسلمون الخسف والظلم ، فالجهاد بالمال والنفس واجب على الجميع دون حاجة إلى دعوة من سلطان . حيث يتقدم أولوا العزم والشأن ، ويدعون المسلمين إليه ، فينفروا افرادا وجماعات إلى الجهاد بالنفس والمال ، ويتوسلون إلى إرغام الظالمين ، وتقويض سلطانهم بكل وسيلة ، فإن تقاعسوا مع استطاعتهم أثموا .

خ ـ على المتمتعين بالأمن والسلطان من المسلمين أن لا يتوانسوا في الجهاد في سبيل نصرة وإنقاذ من يقع من إخوانهم تحت تسلط الأعداء وبغيهم وظلمهم ، وأن يتوسلوا إلى ذلك بكل وسيلة ، فإذا قصروا أثموا .

د ـ يجب بذل الجهد قبل القتال في النصيحة والدعوة إلى الكف عن البغي والظلم والأذى والفدر والانحراف عن طريق الله والتوبة إلى الله ، فإن لم تفد النصيحة ، وجب الجهاد بالمال والنفس .

ذ ـ ليس القتال للابادة ، وإنما هو لدفع العدوان والبغي والأذى ، وتأمين حرية الدعوة إلى الله وحقوق المسلمين وأمنهم ، وخضد شوكة العدو ، ولا يجوز أن يتجاوز الانتقام والمقابلة بالمثل الحد المعقول والمماثل ، ويجب ترك الباب مفتوحاً دائماً لمن ينتهي عن موقفه الباغي ، ويجنج الى السلام أو يلقي السلاح ، ويعلن خضوعه ، فإذا وقع هذا وجب الكف عن القتال اذا أمنت الخيانة والغدر وسوء النية ، ومقابلة الجنوح إلى السلم بالمثل وقبول ما يظهره العدو من أمارات الاستسلام والسلام والإسلام .

ر _ إذا انعقد بين المسلمين والأعداء صلح ، فعلى المسلمين أن يو فوا للمو فين منهم ما استقاموا على عهدهم ، وليس لهم أن يقاتلوا إلا الناكثين منهم ، وإذا استشعروا بنية نكث أو خيانة من معاهديهم ، فعليهم أن يعلنوهم بما شعروا حتى يكونوا على بينة ، ويكونوا وإياهم في موقف متساو ، ولا يباغتوهم مباغتة بينما يكونون يظنون أنهم على عهد معهم .

ز ـ ليست الفنائم هدفا من اهداف القتال ، ولا يجوز أن تجعل كذلك ، كما لا يجوز التشدد مع الناس لهذا القصد ، ويجب قبول ظواهرهم إذا ما جنحوا إلى الخضوع والسلم ، وأظهروا الإسلام وتابوا ، وأمنت الخيانة والفدر وسوء النية .

س من واجب المسلمين إعداد ما استطاعوا من قوة بكل انواعها لإرهاب العدو ، وعمل كل ما يمكن في سبيل دفع اذاه ، وإحباط كيده ، وتوطيد هيبة المسلمين وحريتهم ، وبذل المال خاصة بدون بخل في سبيل ذلك ، فإذا تقاعس المسلمون عن ذلك أو قصروا أثموا فضلاً عن تعريضهم أنفسهم للهلاك والدمار .

ش ـ إن امر الأسرى الذين يقعون في يد المسلمين في حروبهم مع اعدائهم بعد خضد شوكتهم منوط بما يراه اولوا الأمر ٤ والتشريع القرآني الصريح هو المن أي : التسريح بدون مقابل او الفداء اي : التسريح بمقابل فدية ٤ والقتل والاسترقاق للأعداء مما فعله النبي صلى الله عليه وسلم وأقره القرآن ٤ وقد جرى في نطاق ضيق ٤ فيكون ذلك كذلك حسب مصلحة المسلمين وامنهم وسلامتهم .

ص - ليس للأفراد أن يتدخلوا في سياسة الحرب العليا ، او يتناولوها بالجدل والإذاعة ، وإنما عليهم رفع ما يتصل بهم منها لأولي الأمر ، والطاعة لهولاء فيما يصدرونه من أوامر ، ويرونه من تدابير ، ويشتد واجبهم في ظروف الحرب خاصة باجتناب النزاع والخلاف والتمرد والتهويش والتشويش .

ض - للمسلمين أن يتوسلوا بكل وسيلة ، وأن يغتنموا كل فرصة لقهر أعدائهم وقتالهم وأن يقاتلوهم في كل ظرف ،وأن لا يتحرجوا من مقابلتهم بالمثل عملا وظرفا ، وعليهم أن لايهنوا في تعقبهم وإرهابهم ومقاتلتهم ، والاستعداد لهم والحذر منهم ، والاحتفاظ بنظامهم وقواهم المعنوية مهما طرأ عليهم من الطوارىء حتى ولو دارت عليهم الدائرة في موقف ما ، وقتل قائدهم الأعلى .

ط _ إذا أبدى العدو رغبة في مفاوضة المسلمين ، أو معرفة شراوطهم، فيجب على أولى الأمر قبول ذلك ومنح رسله الأمان والحماية .

ظ - إن التقصير في واجب الجهاد بالمسال والنفس والاستعداد والمرابطة ، وإرهاب العدو عدا الله إخلال بواجب ديني مستوجب لفضب الله ، فهو مؤد إلى التهلكة والفساد والذل ، واختلال نظام الإسلام والمسلمين . ومسوغ لوقوف أولى الأمر تجاه من يبدو منهم ذلك موقف التأديب والتنكيل .

ع - إن التثبيط والتعويق والتخلف والتقاعس عن الجهاد بالمال والنفس ، والسعي في الفتنة والفساد والتمرد في ظروف الحرب بنوع خاص عدا أنه من الجرائم الدينية التي تستوجب غضب الله وسخطه

وعقوبته ، فإنه من الجرائم السياسية التي تسوغ لأولي الأمر أن يقفوا من أصحابها كذلك موقف التأديب والتنكيل.

غ - إن الأولى الأمر أن ينظموا طريقة النفرة الى الجهاد بالنفس والمال ومباشرته وإعداد العدة له ، والاستعداد له على الوجه الذي يرونه صالحا وكفيلاً بالقصد . ولهم أن يأخذوا من القادرين من المال ما يسد الحاجة ويندبوا القادرين على القتال والنافعين في مختلف مجالات الحرب بالقدر الذي يسد الحاجة أيضاً .

ف _ إن لأولي الأمر أن يفرغوا فريقاً للجهاد والمرابطة بصورة دائمة كما أن لجماعات المسلمين أن يفعلوا ذلك حينما تمس الحاجة وتقضي المصلحة، وعليهم أن يكفلوا لهم نفقاتهم ويكفوهم واسرهم .

ق ـ ليس بين المسلمين قتال ، فإذا وقع فهو شاذ ، ويجب على الفرقاء الذين ليسوا طرفاً في النزاع ان يتدخلوا في وقفه وحل النزاع على أساس الحق والعدل والأخوة ، فإذا لم يقبل أحد الطرفين ، واستمر فيكون باغياً ، وعلى الفرقاء الذين ليسوا طرفاً في النزاع أن ينصروا الفريق المبغي عليه بالسلاح إلى أن يدعن الباغي للحق ، وتبعاً لهذا فليس بين المسلمين أسرى حرب واسترقاق أسرى وقتلهم ومن وفداء في صددهم .

وهذه تلقينات وتقريرات المحكمات القرآنية في صدد ما يمكن أن يوصف بالمبادىء الإيمانية:

آ _ إن المسلم بإسلامه يكون قد عقد عقداً مع الله بأنه باع نفسه للجهاد بالمال والنفس في سبيله ، واشترى الله منه ذلك بالجنة ، فيجب عليه كعقيدة إيمانية أن يوفي بما عاهد الله عليه ، وينفر إلى الجهاد كلما دعا الداعي إليه ، وأن يعتقد بأن الله تعالى موف له بوعده الحق .

ب _ يجب على المسلم أن يعتقد أن الله قد كتب على نفسه نصر المؤمنين ، وأنه ناصر من ينصره حقاً فيما يباشره من جهاد في سبيله بماله ونفسه من أجل الدفاع عن الحق ومكافحة الظلم ، وضمان الحرية للدعوة

إلى سبيل الله مع واجب الاستعداد بكل وسيلة، وإعداد كل قوة مستطاعة لذاك.

ت ـ يجب على المسلم ان يعتقد انه فائز ورابح في جهاده على كل حال ، فإن بقي حيا فتكون له حسنى الجهاد وثوابه وكرامته ، وإن قتل فتكون له حسنى الشهادة ، وإن كتب للمسلمين النصر ، فيكون الفتح والعزة بالإضافة إلى إحدى الحسنيين المذكورتين للأفراد الذيبين ينالون إحداهما . وإن لم يكن النصر فيكون ابتلاء واختبارا ربانيين يثاب الصابرون عليهما ، ولا يجوز أن يهنوا ويحزنوا ويقنطوا وينفضوا يدهم من عدوهم ، أو يأسوا من نصر الله .

ث _ يجب على المسلم أن يعتقد أن إيمانه وصدقه وصبره تحت الاختبار ، وأن الله قد يبتليه بالخوف والجوع والنقص في الأموال والأنفس والثمرات في سبيل الجهاد، وعليه أن يقابلذلك بالصبروالتسليم، وأن لا يضعف في طلب العدو وإرغامه ، ولا أن يتهاون في جهاده ، وعليه أن يعتقد أنه لا يصيبه ظما ولا نصب ولا جوع ، ولا يظا موطنًا جهاديا يغيظ به عدواً ، ولا ينفق نفقة صغيرة ولا كبيرة ، إلا كتبها الله له وأثابه عليها بأحسن الثواب .

ج - يجب على المسلم أن يعتقد أن شهداء الجهاد هم أحياء عند ربهم مكرمون بكل مجالى التكريم ، ومتمتعون بكل أسباب النعيم .

ج _ يجب على المسلم أن يعتقد أن الأجل لا يتقدم لحظة ولا يتأخر لحظة مما هو مقرر في علم الله ، وأنه حينما يدركه أجله يموت ، سواء أكان في بيته أم في عمله، أم في ساحة القتال ، أم في برج مشيد ، وأن الجهاد لا يقدم من أجله ، وأن تجنب الجهاد لا يؤخر هذا الأجل .

خ - إن المسلم لايكون مسلما حقا صادق الإيمان إلا إذا كان الله ورسوله والجهاد بالمال والنفس في سبيل الله أحب إليه من كل شيءحتى من أبيه وابنه وأخيه وزوجته وعشيرته وماله وتجارته ومسكنه ، وإلا إذا جاهد بماله ونفسه برضا وطيب نفس وإقدام .

د ـ إن الذي يسارع إلى تلبية داعي الجهاد بالمال والنفس في اوقات السعة وتباشير الشدة والحرج والخطر اعظم درجة ممن يجاهد في اوقات السعة وتباشير

النصر ، وأن المجاهد بنفسه على كل حال أفضل من القاعد ولو كان قعوده بسبب كون دوره لم يأت ولم تكن إليه حاجة .

ذ ـ إن الذي يفر من امام العدو لغير غاية حربية يكون قد ارتكب جريمة دينية عظمى .

ر - إن المسلم حينما ينزل الى ميدان القتال يكون امام الله وأمام عدوه وعدو الله ، ويكون قد وضع نفسه في ميزان الاختبار بالخشية من الله أو من عدوه ، ومن الواجب عليه ديناً أن يختار الخشية من الله والاستماتة في سبيله .

ز _ يجب على المسلم أن يعتقد أن جهاده في سبيل الله والحق ، وأن الله وليه وناصره ، وأن عدوه باغ مبطل ، وأن الله خاذله ومنكسه ، وأن له التغوق على عدوه بالمدد الرباني ، وأنه يستطيع بهذا أن يقاتل ويغلب عددا أكثر من عدده إذا صدق في جهاده ، وأخلص في نيته .

س – إن التثبيط عن الجهاد بالمال والنفس ، والتخلف عنه عند الدعوة إليه والتقصير فيه ، وعرقلة سيره ووسائله ، وابتغاء الفتنة ، وإشاعة الوساوس والدسائس والاشاعات الموهنة في ظروفه ووضع العقبات في طريقه وعدم التضامن التام فيه ، والاكتفاء بالتبجج وعدم قرن القول بالعمل فيه جرائم دينية عظمى يستحق مقتر فوها والمندمجون فيها عقوبة الله وغضبه بالإضافة إلى كونها جرائم سياسية يستحق مقتر فوها عقوبات زاحرة عليها .

ش - وهناك أحاديث نبوية في مبادىء الجهاد من المفيد التنويه بها بخاصة في هذا البحث الخطير:

(۱) منها حديث جاء فيه «الجهاد واجب مع كل أمير بسراً كان أو فاجراً» حيث يفيد أنه ليس لأحد من المسلمين أن يتعلل عن الاستجابة إلى دعوة أولي الأمر إلى الجهاد بالمال والنفس بحجة كرهه لهم ، أو ظنه أنهم منحر فون ، وعليه أن يلبي دعوتهم إلى الجهاد على كل حال ، لأن الأمسر يتعلق بمصالح الإسلام والمسلمين وحياتهم وكرامتهم .

(٢) ومنها ما يسوغ قتل الجاسوس ، ومنها ما يحض على بثالعيون لاستطلاع اخبار العدو ، ومنها ما ينهى عن المثلة ـ أي تشويه الاجسام

في قتلى الأعداء ، وعن قتل الأطفال والنساء والشيوخ والعاجزين عن القتال ، ومنها ما يأمر بحقن دماء رسل الأعداء ، وبإجازة جواد أي مسلم لأحد الأعداء إذا كان مستسلماً مأمون الغدر ، ومنها ما يحرم الفلول أي : سرقة شيء من الغنائم وإخفائه ، ويقضي بمعاقبة الغالين ، ومنهاما يسوغ اغتيال من بكون شديدالأذي للاسلام والمسلمين .

17 ـ ومن تقريرات القرآن المحكمة وتلقيناتها في صدد الدعوة إلى سبيل الله أي : الإسلام والتبشير به :

آ ـ إن سبيل الله هي تعاليم الله ورسوله وبعبارة ثانية هي الدعوة الإسلاميـة .

ب _ إن الدعوة إلى الإسلام ، ونشر تعاليمه الإيمانية والأخلاقية والاجتماعية والسلوكية والانسانية بين المسلمين وغيرهم مما يجب على الدولة والمسلمين عامة ، والتقصير في ذلك هو تقصير في واجب ديني خطير.

ت _ إن خطة الدعوة الى سبيل الله هي الحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتي هي أحسن دون إكراه ولا عنف .

ث _ إن من حق الدولة والمسلمين أن يقفوا من الذين يشذون في الجدل ، ويتجاوزون الحسنى فيه من غيرهم إلى البغي والظلم موقف المسلم.

ج _ إن الوقوف في وجه الدعوة إلى الله وسبيله ، وصد الناس عنها وتعطيلها ، والحيلولة دون حريتها والطعن فيها ، والعدوان على دعاتها والمستجيبين إليها مما يسوغ للدولة والمسلمين عامة الجهاد ، والنضال حتى ينتهي الباغون عن موقفهم ، وتضمن للدعوة ودعاتها والمستجيبين إليها الحرية والصيانة والأمن والإنطلاق .

ح _ إن على الدولة واجب الانفاق على نشر اللاعدوة الاسلامية ومبادئها ، وإعلاء شأنها وضمان الصيانة والحرية لها ورد" البغاة عليها ، والطاعنين فيها ، والصاد"ين عنها مما يدخل في بيت المال من موارد .

خ _ إن على الدولة تنظيم الدعوة وأساليبها ونشر مبادئها تنظيماً بضمن لها النحاح .

د ـ إن على المسلمين أيضاً بالإضافة إلى الدولة أن يبدلوا جهدهم في نشر الدعوة وتنظيمها وحمايتها وكفالة حريتها ، والإنفاق على ذلك من أموالهم بالإضافة إلى ما يؤدونه إلى بيت المال ، وتقصيرهم في ذلك هو تقصير في واجب ديني خطير .

ذ _ إن القرآن بوصفه المسلمين أمة وسطاً ليكونوا شهداءعلى الناس كما جاء في آية سورة البقرة (١٤٢) قد أمرهم بأن يحققوا مدى هذا الوصف في انفسهم وهو أن يكونوا عدولا خيرين دائماً بعيدين عن التقريط والإفراط والفلو والتقصير ، متمسكين بالأحسن والأفضل والأصحوالانفع من كل أمر وخلق وعمل وموقف ليكونوا قدوة للناس ، وليحملوا مشعل الهداية لهم ، ووعد بإظهاره على المدين كله ، وأوجب على كل مسلم بالتالي كل ذلك ، وحملهم مسؤولية التقصير فيه .

ولقد حقق السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان ها الوصف في أنفسهم فكانوا ها الناس الله الناس والوصف مطلق شامل لكل والدعاة إلى الله فيهم واستجاب لهم الناس والوصف مطلق شامل لكل السلمين في كل ظرف ومكان .

ر - إن من أهم أركان الدعوة الإسلامية عموم الرسالة المحمدية وإنسانيتها وعالميتها .

ز - إن عناية القرآن بأهل الكتاب - وبخاصة اليهبود والنصارى تنطوي على تقرير كون ذلك من الأركان المهمة للدعوة الى سبيسل الله ، لاتحاد الإسلام مع أهل الديانتين في المصدر والأساس ، ولما يترتب على اتحاد أهل الديانات الثلاث تحت راية القرآن ، ورسالة النبي محمدصلى الله عليه وسلم من نجاح الدعوة إلى سبيل الله والكساحها غيرها ، واختصاص اليهود والنصارى بالذكر هو بسبب كون ديانتهم الكتابية الإلهية المصدر هو الأمر المعروف اليقيني لدى جميع الناس .

س _ إن عناية القرآن بالعقل ودعوته المخاطبين والسامعين إلى التفكر والتدبر وحسن الاختيار تنطويان على تقرير كون ذلك ركنا مهماً من أركان الدعوة إلى سبيل الله .

ش _ إن اسلوب القرآن في دعوة الناس إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة والبرهان والإشفاق ، وتوجيه الخطاب إلى العقل والقلب معا ينطويان على تقرير كون ذلك ركنا من أركان الدعوة إلى سبيل الله .

ص - إن بساطة الرسالة الإسلامية وصفاءها وخلوها من التعقيد ، وعدم وجود ماينافي فطرة الله التي فطر الناس عليها فيها ، واحتواءها اشر ف المثل ، وأقوى الحوافز للخير والحيق والعدل والبر والكرامة والانطلاق ، وانسانيتها وعالميتها واعتبارها الناس جميعاً سواسية إخوة في نطاقها بقطع النظرعن الجنس واللون والأحسابوالثروات، واستهدافها إقامة اخاء إنساني عام يقوم على الحرية والمساواة ، وبنيان اجتماعي عام يقوم على التعاون والتضامن ، وكيان سياسي عام يقوم على المصلحة العامة، وكل هذا من تقريرات القرآن مما يؤهل الدين الاسلامي للظهور على الدين وسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيداً ،)

ض _ إن في معنى الإسلام ما يفسح المجال بسهولة ويسر لانضواء الناس تحت ماية القرآن على اختلاف الأقطار والأجناس والألوانوالنحل، لأن المطلوب هو إسلام أنفسهم لله وحده .

ط - وبالإضافة إلى ما تقدم (١) إن قدسية اللغة العربية باعتبارها لغة القرآن والسنة والعبادات مما يؤهلها للانتشار بين المسلمين على اختلاف الأقطار والاجناس ، وغدوها لغة المسلمين العامة ، ووسيلة من وسائل توطيد الوحدة والأخوة بينهم (٢) إن سير التاريخ والحوادث في عهد النبي صلى الله عليه وسلم وبعده مما أيد نجاح الدعوة إلى سبيل الله في صورتها الأخيرة وهي الرسالة الإسلامية في مختلف الاقطار ، وبين مختلف الاجناس والنحل بما في ذلك أهل الكتاب وبخاصة من نصارى ويهود ، وما كان من شذوذ ، فمرده إلى أسباب ليست من عناصر اللدعوة والرسالة ، (٣) إن التنظيم والجهد والبذل مما يترتب على الدولة والمسلمين كفيل بتحقيق ما وعد القرآن به من إظهار الإسلام على الدين كله (٤) إن الحروب النبوية والفتوحات الإسلامية لم تستهدف فرض الدعوة وإنما استهدفت رد العدوان والاذى ، وضمان حربة الدعوة ، وإن بقاء جماعات من

اصحاب الأدبان الأخرى على مدى الأحقاب بين ظهرانسي المسلمين ، وفي ظروف قوة السلطان الإسلامي العظمي يمارسون طقوسهم ، ويحتفظون بمعابدهم وتقاليدهم لدليل حاسم على أن الدعوة الإسلامية كانت وسارت وفق الخطة القرآنية المثلى وهي الحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتي هي أحسن ، وترك المسالمين والحياديين والمعاهدين والخاضعين من أهسل الملل الأخرى وشأنهم مع االبر بهم والإقساط إليهم . وإذا كان التاريخ سجل شذوذاً ، فإنه لا يمت بسبب إلى هدى القرآن والسنة . (٥) إن الدعوة الإسلامية لم تنتشر في ظروف قوة السلطان العراسي الإسلامي فحسب ، بل انتشرت وكسبت مئات الملايين في مختلف أنحاء الأرض في ظروف ضعفه أيضاً ، مما ينطوي فيه دليل حاسم على قوة عناصر الدعوة وعظمتها لذاتها . (٦) إن حالة المسلمين الحاضرة من ضعف وجهل وتخلف واستخداء وضعف تعاون لا يمكن أن تمت إلى هدى القرآن والسنة الذي ينطوى على كل أسياب الخير والحق والقوة والكرامة والتعاون والسؤدد والحرية والتقدم ، بدليل أن المسلمين الأولين حققوا كل ذلك ، وعاشسوا في ظله ، وإنما هي راجعة إلى أسباب وعوامل طارئة متنوعة ، ومنها ماكان من سوء فهم وتأويل لذلك الهدى وانحراف عنه . (٧) إن واحب الدعوة إلى سبيل الله في صورتها الأخيرة أي: الرسالة الإسلامية لا يقتصر على نشرها في غير المسلمين ، بل يشمل نشر حقائق الإسلام ومبادئه بين المسلمين حتى يتحقق وعد الله لهم بالقوة والتمكين والبركات والخيرية والوسطية حينما يؤمنون حق الإيمان ، ويفهمون حقائق دينهم ، ويتحققون بها ويعملون الأعمال الصالحة التي تشمل كل ما فيه خير وصلاح وبر وتعاون وتقدم وحتى يمكن بنوع خاص حماية الناشئة الإسلامية من التيارات الهدامة .

١٣ - ومن تقريرات محكمات القرآن وتلقيناتها في الشو ونالاجتماعية.

آ - إن على المسلمين كافة أفرادهم وجماعاتهم - وكل في نطاق قدرته وإمكانه - أن يقوموا بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والتضامن فيه ، بالإضافة إلى واجب الدولة والقائمين بأمرها بذلك .

ب _ إن التقصير في هذا الواجب إثم ديني يستحق سخط الله فضلاً عن أنه مؤد إلى إهمال المعروف واستشراء المنكر مما فيهضرر كلي للمجتمع.

ولقد أثرت عن النبي صلى الله عليه وسلم أحاديث عديدة فيها تشديد بوجوب القيام بهذا الواجب الخطير ، وإنذار بعقاب الله العام ولعنته للمجتمع الذي يقصر فيه ، وهناك حديث يوجب على كل مسلم المبادرة إلى تغيير أي منكر يراه بيده أو لسانه أو قلبه على أدنى حال ،

ت _ إن المعراوف: هو كل ما ورد في القرآن والسينة حث عليه ، واستحباب له ، وتنويه بفاعليه من مكارم الأخلاق والعادات والأفعال الشخصية والاجتماعية والسلوكية والإنسانية النافعة المستحبة والحسنة ، وما تعارف اهل الحل والعقد والعلم والراي في ظرف وعصرعلى أنه من هذا الباب مما لم يرد فيه قرآن وسنة ، والمنكر : هو كل مسا ورد في القرآن والسنة نهي عنه ، وتنديد بفاعليه ، واستكراه له من آثام وشرور وسيئات اخلاق وعادات وأفعال شخصية واجتماعية وسلوكية وإنسانية ، وماتعارف أهل الحل والعقد والعلم والراي في ظرف وعصر على أنه كذلك مما لسم يرد فيه قرآن وسنة .

ث ـ ليس في القرآن والسنة تحديد لكيفية القيام بهذا الواجب مما يلهم ان ذلك ترك للمسلمين حسب المصلحة والظروف ، والمتبادر ان قيام الجماعات على شكل جمعيات متعددة ومتنوعة الأهداف من سلبية مانعة محذرة أو ايجابية داعية محبذة ، كمكافحة المسكرات والميسر والبغاء والربا والظلم والبغي والباطل وفساد الاخلاق والإسراف والخلاعة والمجون والميوعة ، وكمساعدة الفقراء والعاجزين ، وإنشاء الملاجىء والمسافي ، وتنظيم الدعوة إلى سبيل الله ومكارم الأخلاق والإصلاح بين الناس هو الأجدى والاضمن للنجاح في هذا الواجب .

ج ـ ان ما يحتاج إلى الهيمنة والتنفيذ ، وبهذل القوة من الأمسر بالمعروف والنهي عن المنكر يترتب على الدولة ، وماله صلة بحياة المجتمع الذي لا يكفل النجاح فيه إلا بالتضامن وحسن الاضطلاع والتقدير مما لايحتاج إلى بذل القوة يترتب على الجماعات ، ومالايخفي وجه الصواب فيه ، ولا ينجم عن القيام به فوضى ومفسدة هو مجال الأفراد .

ح _ في حالة ما إذا لم يكن للمسلمين دولة عادلة ، ووقعوا تحت سيطرة الأغيار والمتغلبين والطفاة ، فإن هذا الواجب يترتب على جماعاتهم وأفرادهم بلزوم أشد .

خ _ إن على المسلمين كل في نظاق إمكانه أن يدعوا الى الخير ، ويقعلوه ويتضامنوا فيه ، والخير : هو كل واجب وعمل فيه مكرمة وبر للآخرين ، ونفع ومساعدة لهم .

د ـ إن المسلم المقصر في فعل الخير والدعوة إليه والتضامن فيه يعد مقصراً في وأجب ديني .

ذ _ إن تقصير مجتمع من المجتمعات الإسلامية في الدعوة إلى الخير وفعله إثم يشمل جميع أفراده ، ويستحق سخط الله فضلاً عن إيراثه الوهن والضعف في البنيان الاجتماعي .

ر - ليس في القرآن ولا في السنة تحديد للكيفية والأساليب في فعل الخير والدعوة إليه مما يلهم أنه ترك للمسلمين حسب ما يرون فيه المصلحة والحكمة في مختلف ظروفهم ، على أن قيام الجماعات بذلك بشكل جمعيات ومنظمات هو أجدى وأضمن للنجاح .

ز ـ إن من صفات المسلمين وواجبهم التعاون على كل ما فيه مكرمة ومصلحة وفائدة عامة ، وتجنب كل ما فيه إثم وشر وبفي ومعصية وضرر.

س ـ إن على المسلمين أن يحققوا في أنفسهم تلك الصفات، ويتمسكوا بها بحيث لا يبيحون لأنفسهم مفايرتها والانحراف عنها بسبب أي اعتبار وعاطفة .

ش - إن الانحراف عن تلك الصفات والتقصير بذلك الواجب ، أو الاندماج في مؤامرة فيها إثم ومعصية وعدوان ، كل ذلك مستوجب لسخط الله ، ومخل بصفة الإسلام ، ومؤد إلى وهن المجتمع الإسلامي الذي يجب دعمه على كل مسلم .

ص - إن من صفات المسلمين وواجبهم أن يتواصوا بالحق والصبر والرحمة . أي : أن يوصي بعضهم بعضا بذلك ويبشوه فيما بينهم ، ويتضامنوا فيه .

ض - إن الإنحراف عن هذه الصفات والتقصير بهذا الواجب مخلان بصفة الاسلام ، ومستوجبان لسخط الله ، ومؤديان إلى وهن المجتمعالذي يجب دعمه على كل مسلم .

ط ــ إن القرآن استهدف قيام مجتمع إسلامي صالح قوي عزيز متضامن متقدم ، واوجب على المسلمين تحقيق هذا الهدف .

ظ _ إن موالاة الأعداء وموادتهم بأي شكل وسبب محظورتان على المسلمين ، ومنافيتان للإخلاص الواجب للمجتمع الإسلامي ، ودالتان على عدم الإخلاص في الدين والصدق في الإيمان ، وإثمان دينيان مستوجبان لسخط الله .

ع _ إن على المسلمين واجب التضامن حتى لا يبقى أي ثغسرة في صفو فهم ينفذ منها العدو" إلى كيانهم .

غ ـ إن على المسلمين واجب تبادل الولاء والإخلاص فيما بينهم على أي حال .

ف _ إن التنازع والخلاف والفرقة والقتال فيما بين المسلمين مسؤد إلى وهن الكيان الإسلامي ، وتشتيت صفوف المسلمين وتعاطفهم وذهاب ريحهم وفشلهم ، وهو محظور عليهم ، وإثم ديني مستوجب لسخط الله . وعليهم واجب التضامن في منع ذلك ، وإصلاح ما بين المتنازعين منهم بالحق والعدل ورد الباغي عن بغيه .

ق _ إن إثارة الفتنة والدس والكيد بين المسلمين افرادهم وجماعاتهم من أشد الآثام الدينية المستوجبة لسخط الله ، والمؤدية إلى وهن المجتمع الإسلامي .

ك _ إن على المسلمين واجب التضامن في الوقوف موقف الشدة والحزم تجاه الفئات الخبيثة المفسدة المثيرة للفتن ، وقمع شرها وخطرها دون أي تساهل ، أو تأثر برحم أو مصلحة خاصة ، وهو مقياس إخلاص المسلم لدينه وملته والتقصير فيه مستوجب لسخط الله فضلا عن ضرره الشديد في الكيان الاجتماعي الاسلامي العام ، وعدم اقتصار ضرره على رؤوس الفتنة ومثيريها وحسب .

ولقد نبهت السنة على واجب المجتمع الإسلامي بالضرب على يد الظالم منهم ومنعه اوانفرت بعموم عقاب الله للمجتمع الذي يتساهل بذلك، وهناك حديث جاء فيه «اعظم الجهاد عند الله كلمة حق عند حاكم جائر».

ل _ إن القرآن أوجب على المسلمين الإصلاح فيما بينهم .

م - إن توطيد الصلح بين المسلمين واجب لذاته ، وواجب لأنه يؤدي إلى طمأنينة المجتمع الإسلامي، ويقيه القلق والاضطراب والأحقاد والضغائن التي تؤدي إلى النزاع والخلاف .

ن - إن الأخوة بين المؤمنين مما يجب أن يكون مانعاً للشعاق والنزاع والقتال فيما بينهم .

ه ـ إن القرآن يأمر المسلمين بالمبادرة إلى التدخل ، وإزالة ما يقع بين المسلمين من اسباب الشقاق والنزاع .

و - إن القرآن يحظر على المسلمين أن يحلفوا على عدم البر والتقوى والإصلاح والصلح ، واتخاذ اليمين ذريعة إلى ذلك ، والسنة النبوية توجب على الذي يحلف مثل ذلك ، أو الذي يحلف على فعل معصية أن يرجع ويكفر عن يمينه .

ي - إن القرآن يأمر المسلمين الذين لا يكونون طرفاً في قتال ونزاع بين مسلمين وآخرين بأن يتدخلوا للصلح بينهم ، وأن ينصروا المبغي عليه إذا لم يخضع الطرف الثاني إلى الحق والصلح.

آ - إن القرآن يوجب على المسلمين أن يتفاملوا فيما بينهم بالحسنى والتسامح والعفو وكظم الفيظ .

ب ـ إن هذا الواجبهوواجبلناته، وواجباجتماعي، لأنه يؤدي إلى تقوية البنيان الاجتماعي الإسلامي من حيث إنه يقيه اسبباب الاحقاد والمهاترات التي يؤدي إليها عدم التعامل بالحسنى والعفو والتسامح وكظم الفيظ ، ويجعل التضامس والتواد والمحبة هي السائدة في المجتمع الاسلامي .

ت ـ إن القرآن يأمر المسلمين بالانضواء إلى السلم والمسالمة كشعار عـام .

ث - إن القرآن يأمر بحسن التعامل مع كل الفئات ، من اقدارب واباعد وجيران ، ومساكين وفقراء وأبناء سبيل وأرقاء وخدم ، ويعتبر مخالفة هذا الأمر من الكبر والاختيال الئلذين يكرههما الله .

ج ً _ إن القرآن يأمر بعدم الجهر بالسوء إذا لم يكن ظلم واقع ، ويحبذ العفو عن المساءة .

ح ً _ إن القرآن يأمر بالقول الأحسن ، وينبه على أن خلاف ذلك من نزغات الشيطان .

خ سان القرآن يحث على درء السيئة بالحسنة ، ودفع السيئة بالتي هي احسن ، وينبه على أن ذلك هو الطريقة المثلى التي تؤدي إلى توطيد المحبة والولاء الحميم بين المسلمين وتزيل العداء من القلوب .

والواجبات والتلقينات القرآنية الأربع المذكورة آنفاً ، هي واجبة الاتباع للناتها كأخلاق شخصية إسلامية كريمة ، ويؤدي اتباعها في الوقت نفسه إلى تقوية البنيان الاجتماعي الاسلامي من حيث إنها تقيه أسبب النزاع والأحقاد والضفائن الناتجة عن مخالفتها .

د ً _ إن القرآن يأمر بحسن التعايش والتعامل مع المسالمين مسن غيرهم فضلاً عن إيجابه ذلك فيما بين المسلمين .

ذ ً _ إن البر بالفقراء والضعفاء والمساكين والمحتاجين والتصدق عليهم ، ومنع الأذى عنهم ، والأخذ بيدهم ، ومعاملتهم بالرفق والحسنى في كل ظرف واجب مترتب على المسلمين بقطع النظر عن أي اعتبار ، ومؤد إلى قوة بنيانهم الاجتماعي .

زً _ لا يجوز لمسلم أن يقصر في هذا الواجب بسبب ما قد يبدو من الفقير والضعيف من أعمال ومواقف مثيرة ، والقرآن يسيغ للمسلمين أن يتصدقوا على المحتاجين الفقراء من غير ملتهم .

وهذا الواجب هو واجب لذاته باعتباره خلقاً إسلامياً شخصياً كريماً ، وهو في نفس الوقت اجتماعي ، لأنه من شأنه أن ينفخ الروح في هذه الفئات ، ويشعرهم بقيمة الحياة وكرامتهم الانسانية والتضامن الإسلامي ، ويجعلهم اعضاء نافعين في المجتمع ، ويكون علامة على مظاهر التعاطف والتراحم التي لاتتم الوحدة الاجتماعية والاخوة الإسلامية إلا بها ، ومن شأن التقصير في ذلك أن يثير شعور الحقد والبغض والنقمة في هذه الفئات مما يكون فيه تهديد لأمن المجتمع وطمأنينته .

س ً _ من تقريرات القرآن الاجتماعية أن صلاح أي مجتمع و فساده

منوطان بالدرجة الأولى بما تكون عليه اخلاق افراده ونفوسهم من صلاح وفسياد .

ش رومن هذه التقريرات أن فساد المجتمعات وصلاحها كثيراً ما يكونان نتيجة لسلوك أكابرها وزعمائها الذين هم في العادة القدوة للافراد ، وهم يتحملون القسط الأكبر من فساد المجتمعات إذا كانوا فاسدين شخصياً .

ص ً - ومن هذه التقريرات أن الغزاة الأجانب يفسدون أخلاق أهل البلاد التي يتغلبون عليها ، ويوهنون من قوتها ، ويذلون أعزتها ، ويفصمون روابطها ، وأن الخير كل الخير والواجب كل الواجب هو الحيلولة دون وقوع النكبة بكل وسيلة ممكنة .

ض ً - ومن هذه التقريرات أن الباطل مهما لمع وظهر ، فلن يلبث أن يزهق ويضمحل ، وأن الثبات والنفع إنما هما للحق ، وأن من وأجب المسلمين ومصلحتهم تأييد الحق ونبذ الباطل .

طر سيحظر القرآن على المجتمع وأفراده أن يتمسكوا بقديم لقدمه ، أو يناوئوا الجديد لجدته ، والضابط الذي يوجب القرآن على المسلمين أن يستلهموه في عاداتهم وتقاليدهم وأعمالهم وخططهم وعزائمهم ، ومنا يعرض لهم وما هم عليه هو الحق والخير والعسدل والمصلحة والأفضلية والفائدة العامة يقطع النظر عن القدم والجدة .

ظ ً _ إن القرآن يوجب على المسلمين التروي والأناة في رواية الأنباء والاستماع إليها لاحتمال القصد السميء والنيسة الخبيشة ، والتسرع والرعونة فيها .

ع ً - إن القرآن يوجب على جماعات المسلمين وذوي الشأن والأمر فيهم بذل الجهد والتوسل بكل وسيلة للإصلاح بين المسلمين ، والقضاء على الانقسامات والتفرقة والخلافات الدينية .

١٤ – ومن تقريرات المحكمات القرآنية وتلقيناتها في صدد علاقـة
 الناس ببعضهم وحرياتهم ومساواتهم .

آ - إن القرآن قد توخى أن يتمتع المسلمون كافة بالحرية والمساواة والأخوة بصورة عامة ضمن نطاق الحق والعدل والقصد .

ب - ليس لحرية المسلم حدود إلا المحرمات والواجبات القرآنيـة

والنبوية التي تتناول أولها الخبائث والفواحش والمنكرات والعدوان وسيىء العادات والأعمال والأخلاق ومكروهاتها ، وتتناول ثانيتها القيام بأركسان الإسلام والدعوة إلى الله ، وطاعة أوامره ، وأوامر رسوله ، وأولي الأمسر بما فيه المصلحة والحياة والمعروف وليس فيه معصية ومنكر(۱) ، والترام العدل والبر وصالح العادات والأعمال والأخلاق ومستحباتها ضمن وسسع النفس وطاقتها مع عدم مؤاخذة المسلم بما يقع فيه من محظورات بسائق الخطأ والنسيان والإكراه والإضطرار .

ت _ وفي القرآن ما يلهم أن الله يسيغ للمسلمين حريبة الاعتراض على مالا يؤخذ فيه رايهم من العزائم التي ينغذها أولوا الأمر مع أمر هؤلاء بتوسيع صدورهم لذلك الاعتراض ، ومشاورة المسلمين في مختلف العزائم التي يعتزمونها (٢) .

ث _ إن القرآن قد وطد الأخوة بين المسلمين بكل قوة دون فرق ولا اعتبار لجنس أو لون أو حسب أو مال ، وجعلها من صفات الإسلام ، ونتائجه الطبيعية ، وأوجب الإصلاح بين المتنازعين من المسلمين منعاً لكل تصدع ، والاجتماع على رد الباغي على غيره دفعاً لكل ظلم يتنافى مع هذه الأخوة .

ج _ إن القرآن قد وطد المساواة التامـة في الحقـوق والتكاليف والمباحات والمحظورات والثواب والعقاب بين جميـع المسلمين ذكورهم وإناثهم وعربهم وعجمهم وغنيهم وفقيرهم ، وملكهم وصعلوكهم دون تمييز احد على احد ،وقضى على كل تمايز بسبب اللون والجنس والحسب والملل والمركز الاجتماعى .

ح _ إن ما منحه القرآن للرجل من منح قليلة دون المرأة كمضاعفة الإرث ، وحق القوامة في الحياة الزوجية ، وواجب الانفاق ، وجعل شهادته افي بعض الظروف دون شهادته ، وحق تأديبها في حالة النشوز

⁽١) الكلام عائد لأولى الأمر وأوامرهم التي يمكن أن يكون فيها منكر ومعصية ٠

⁽٢) اقرأ آيات سورة آل عمران ١٥٣ - ١٥٩)

والانحراف هي خصوصيات متصلة بطبيعة كل منهما وواجباته ولا تنقص ولا تخل في مساواتها التامةمعه في الإنسانية والتكاليف والحقوق والواجبات والمباحات والمحظورات ، والأهلية المدنية مما أقره القران بكل قوة وصراحة .

خ ـ إن ما جاء في القرآن من التنبيه على أنالله رفع بعض الناسعلي بعض درجات وفضل بعضهم على بعض في الرزق هو بسبيل تقريس واقع ومظهر اجتماعي عام ، وليس هو بسبيل تقرير وإقرار دوام هذا الواقع، وعدم احتمال التبدل فيه ، فهذا لابصح وروده ، لأن ذلك مظهر لتفاوت الناس في المواهب والاستعداد والنشاط ، وهذا التفاوت متحول ومتبدل متطور ، وتكون نتائجه كذلك متحولة متبدلة متطورة ، ولهذا فنرىأناساً في يوم مرتفعين على غيرهم متمتعين بسعة رزق أكثر من غيرهم ، ونرى في يوم آخر غيرهم قد أرتفع بعد ضعة ، واتسم رزقه بعد ضيق ، ونرى المرتفع قد نزل ، والموسع في الرزق قد ضاق وهكذا . وهذه سنة الحياة التي هي سنة الله ونظامه في الحياة الاجتماعية والبشرية ، ولقد خوطب المسلمون عامة بدون فرق بين غنى وفقير وضعيف وقوى بكل الواجبات والحقوق على قدم المساواة ، ومع ذلك فاذا سارت الدولة وفق تلقينات القرآن وحالت دون استقطاب الثروة والاستعلاء لفئة محدودة اونظمت تداول الثوروة بين مختلف الفئات ، وجعلت كل الناس سواسية امام الحق والعدل والفرص تزعزع الركن الأساسي لهدا التفاوت وخف حتى يزول .

د - إن القرآن في إقراره الرق إنما نظم نظاماً واقعاً شائعاً في الله الدنيا ، ولم ينشئه ، ولم يقصد إقراره كنظام اجتماعي واجب الاستمرار، أو إيجاب التمايز الطبقي به ، وقد أوجب إطلاق سراح الأسرى الذين هم المادة الرئيسية للرق بالمن أو الفداء ، واحتوى اوامر وتوصيات وتلقينات وتشريعات في صدد ما أجاز بقاءه رقيقاً تؤدي إلى تحريره سواء في الحض على عتق الرقاب ، وتحميل بيت المال واجباً في ذلك، أم في اجازته شراء الرقيق نفسه (۱) ، أم في تحرير الأمة التي تلد من سيدها ، ام في تقرير

⁽۱) هذا يسمى المكاتب ، وبمجرد الاتفاق بينه وبين مالكه يصبح كسبه له ، ويصح أن يأخذ الزكاة ليستعين بذلك على شراء نفسه .

كون أولاد الاحرار من الإماء احراراً (١) . هذا فضلا عن إيجاب معاملته بالحسنى ، وقد وطلد المساواة التاملة بينه وبين الحراء ، في التكاليف والعبادات والثواب والعقاب ، وليس في القرآنوالسنة تسويغباسترقاق المحايدين والمسالمين والمعاهدين من غير المسلمين ، أو إيجاب لاسترقاق المحاربين من غير المسلمين كما أن استرقاق الحر المسلم ممتنع البتة ، المحاربين من غير المسلمين كما أن استرقاق الحر المسلم ممتنع البتة ، الاسرة والحياة الزوجية في الاسلام :

آ ـ إن هذا البنيان قد قام على احسسن الأسس ، وابعدها عن اسباب الانهيار خلقياً واجتماعياً واقتصادياً وسلوكياً وإن في ما انطوى في تلك التقريرات ما يفقده الفرب وما أدى فقده له من خطر الانهياد والتفكك وما جعل علماءه الاجتماعيين يضجون منه وينذرون مجتمعهم بأوخم عواقبه ، وتيار الإلحاد الذي يهدد كياننا يهدد هذه الأسس الفضلى ، ويجعل المجتمع الإسلامي على حافة الهاوية التي وصلت إليها الأسرة في المجتمع الفربى .

ب _ ولقد حض القرآن المسلمين عامة على الزواج ، وامر بالتساهل فيه ، والمساعدة عليه بالنسبة للطبقات الفقيرة والأرقاء خاصة مما فيه تقين بوجوب عدم المغالاة في الشروط والمهور .

ت _ إنه استهدف من الزواج إنشاء كيان للأسرة يقوم على المودة والرحمة والوفاق والاستقرار والاستمرار والواجبات والحقوق المتقابلة وندد بالزواج الذي لايهدف إلا إلى إشباع الشهوة ، ولا يكفل الاستقرار والاستمرار وقرة العين في اللرية .

ث _ إنه عظم من شأن الرابطة الزوجية تعظيما كبيرا ، وحث على الوفاق والصلح وتفادى النزاع بكل وسيلة .

ج _ إنه اوجب على الزوج حسن المعاشرة ، وكظم الفيظ ، وعدم الاستجابة إلى عاطفة الكراهية ، والنزوات العابرة ، واوجب على الزوجة الإخلاص والطاعة والأمانة ، وعدم الانحراف والشذوذ ، وحفظ الزوج في ماله وعرضه وكرامته في حالتي الفياب والحضور .

⁽١) تحرر الأمة التي تلد من سيدها باب واسع جدا للتحرر كما هو وأضح .

ح - إن المحكمات القرآنية وتلقيناتها تحظر امر الزوج لزوجته بمنكر ومعصية ، وتعطيها حق عدم طاعته في ذلك ، وتمنحها حق الأهلية المدنية التامة ، وليس في الحديث النبوي الذي أوردناه قبل في حرف ص من الفقرة : ١٠) وجاء فيه تنبيه على أن خير النساء من لم تخالف زوجها في نفسها وفي مالها ، ما ينقض هذا ، وإنما فيه تنظيم له ، وما أوردناه في الفقرة المذكورة من تعليق وتوضيح يورد هنا بتمامه بطبيعة الحال(١) .

خ ـ إنه أوجب على الزوج مهراً لزوجته كما أوجب عليه نفقتهـا بالمعروف وحسب قدرته سعة وضيقاً ، وحعل له مقابل ما امتاز ب الرحل من مين ات حق القوامة عليها ، وتأديبها في حالة شذوذها وإخلالها بالواحيات التي أوحيت عليها مستهدفاً بلذلك ضمان إصلاحها وارعوائها ٤ وتفادي الطلاق والكوارث الأخرى ، ومنها على تحاوز الضرورة ، وجعل لها مع ذلك عليه حقوقاً مثل التي له عليها ، ويدخل في ذلك الأمانة الزوجية والبر والتكريم ، ومراعاة المزاج والترفيه ، واعتبادها شريكته في مختلف نواحي الحياة ومعاملتها على هذا الأساس ، وقضاء مالاتستطيع قضاءه من حاجات ، وعدم الإعنات والفلظة والقسوة في المعاملة والتضييق عليها في المعاش واللباس ، وعدم الاستحابة لنزوات النفس والكراهية ، وليس للزوج أن يتقاضى حقوقه على الزوجة إلا بوفائه بحقوقها عليه ، وقد شدد القرآن في رعاية هذه الحقوق ، وفي عدم مضارتها ، وابتزاز أموالها بأي أسلوب ، وقد منحه درجة هي في معنى رآسة الأسرة دون أن يكون من شأنها حق الانتقاص من حقوقها عليه وتقصيره فيها مع جعل عقدة النكاح في بده وإبجاب الانفاق عليها كسبب أو مظهر من مظاهر تلك الدرجة ، وأوجب القرآن في حالة التنازع بين الزوجين في صدد موقف أحدهما من الآخر ، أو جقوق أحدهما تجاهالآخر تدخل ولى الأمر والشأن في الإصلاح ، وإيجاد الحل الملائم للنزاع ، وهذا يعني أن للزوجة حق

⁽۱) هناك حديث رواه الطبراني عن واثلة بن الاسقع قال : (قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ليس لامرأة أن تنتهك من مالها شيئا إلا بإذن زوجها إذا ملك عصمتها » وقد قال الطبراني : إن بين رواته من لا يعرفهم ، فيصح التوقف فيه واعتماد الحديث الذي أوردناه في الفقرة المذكورة وحده مع تعليقنا عليه) .

الاعتراض على ما قد يحاوله الزوج من شذوذ عن حقوقه وواجباته نحوها، ووقفه عند حده الحق الشرعى .

د ـ إنه أباح للرجل جمع أربع زوجات في عصمته إذا آنس في نفسه القدرة على الاتفاق والعدل بين الزوجات ، وأمر بالاقتصار على واحدة في حالة احتمال عدم القدرة والعدل مع تقريره صعوبة الاستطاعة على العدل مهما حرص الزوج عليه مما ينطوي في هذا التوجيه للوحدة الزوجية، وقصر رخصة التعدد على الظروف الضرورية الموجبة .

ويغمز البعض بهذه الرخصة ، مع أن الوقائع وحقائق الحياة ، والتجارب وما ارتكس فيه الغامزون تجعلها نعمة في شريعة ترشحت لتكون شريعة البشر أبد الدهر بعد أن أحيطت بكل التحفظات الضرورية، وجعلت للضرورة القصوى التي لاتخلو حياة الناس من مواجهتها . وإذا كان بعض المسلمين أساؤوا استعمالها ، فلا يتحمل الإسلام مسؤولية ذاك .

ذ ـ إنه أباح الطلاق الذي يقصد به الفراق بعد أن تخفق الجهود التي أوجب بذلها في سبيل التوفيق ، ويصبح الفراق لاندحة منهلصلحة وحياة كل من الزوجين . ورسم للطلاق خطة حكيمة منسقة مع هدف الإبقاء على الرابطة الزوجية ما أمكن ذلك ، ومنه الفرصة في مراجعة المطلق لمطلقته إذا ما تراضيا وتوافقا على الحياة المنسجمة ، وقد اساغت السنة تفويض الزوج زوجته بتطليق نفسها منه إذا ما انحرف عن جادة الحق والاستقامة ، وصارت حياتها معه شاقة عسيرة ، وقد قررت السنة أن الطلاق مما يبغضه الله ، وأوجبت تفاديه ما أمكن ، ولعنت من السنة أن الطلاق مما يبغضه الله ، وأوجبت تفاديه ما أمكن ، ولعنت من تسعى في طلاق نفسها بدون سبب صحيح ، ولعنت الفواقين والفواقات أي المكثارين من الطلاق والزواج .

ر - إنه قرر مبدءاً أساسياً لدوام الحياة الزوجية ، وهو الإمساك بالمعروف والحسنى ، ونهى والعساك الزوج زوجته بنية ضررها وابتزائر مالها ، وجعل للزوجة المطلقة التي يريد الزوج مراجعتها أن لاتقبل إذا لم تتيقن من حسن نيته ورغبته في الصلاح ، كما نهى أهل الزوجة من منعها من العودة إلى زوجها إذا تراضى الزوجان ، والتلقين القرآني يخول القضاء التدخل في حال

مخالفة هذه المبادىء والأوامر ، والمبدأ الاساسي يتناقض مع إكراه الزوجة على الحياة مع زوجها وهي تعتقد أنه غير ملتزم به .

ز ـ ليس في القرآن طلاق لم يقصد به فراق ، ولا طلاق بات مرة واحدة ، وفي السنة ما يفيد أن هذا الطلاق منوط بنية الزوج إن كان أراد الفواق البات أمضى عليه وإلا لا .

س - إنه حظر التزاوج بين المسلمين وغير الكتابيين ، وأجاز تزوج المسلم بالكتابية دون المسلمة بالكتابي" ، وحكمة ذلك قائمة في كون المسلم يؤمن ويحترم أنبياء الزوجة الكتابية وكتبها خلافاً للزوج الكتابي بالنسسة للمسلمة .

ش - إن أهل المذهب الجعفري أي: الشيعة - من المسلمين يجيزون نكاح المتعة الذي يكون بأجر وعقد لمدة معينة ، أما أهل السنة فإنهم يحرمونه ، والآيات والآثار تجعل النفس مطمئنة بالتحريم أكثر ، والخلاف في نكاح المتعة جعل السنيين لايرونها زنى صريحاً يستحق العقوبة المحددة على الونى .

ص - إن القرآن حث على تزويج العبيد والإماء الصالحين ، واباح الماك الإماء استفراش من شاء منهن بدون عقد ومهر ، والأمة والعبد هما من كان رقيقاً أو من نسل رقيق قبل الإسلام ، أو استرق في حرب شرعية وقعت بين المسلمين واعدائهم . وقد نبهنا على أن الحياديين والمسالين والمعاهدين والخاضعين من غير المسلمين لايسترقون ، فيكون خطف الإناث من هؤلاء ، وبيعهن على اعتبار أنهن إماء ، واستفراشهن على هذا الاعتبار غير شرعي ، وإذا ولدت الأمة من سيدها لايجوز عليها بيع ولا هبة ، وتتحرر بعد موته ، وابنها منه حر.

وأباح القرآن زواج الحر بالأمة بإذن أهلها . وبعقد ومهر ، وليس في القرآن اما يمنع زواج الحرة بعبد ليس ملكها ، لأن عبدها محرم عليها ، والقرآن عالج أنكحة الرقيق كحالة قائمة لتنظيمها وحسب .

ض _ إن القرآن اعتبر المرأة في حالات الزواج ونتائجها طرفاً ثانياً نافذ الاجراء ، فلا تتزوج إلا برضاها وموافقتها بدءاً وبكراً وثيباً ، وهي تقبض مهرها ، وتتصرف فيه كما تشاء ، وقد قيدت السنة زواج البكر

بموافقة ابيها مع إيجاب موافقتها على كل حال ، واجازت موافقة الاب على نكاح ابنته القاصرة مع منحها الخيار حينما تبلغ إذا الم يكن ناوجها دخل عليها .

ط _ إن نصوص القرآن وروحه تلهمان أن الزواج وحالاته ونتائجه هي ذات طابع مدني ، ولا تتوقف على مراسم دينية كهنوتية كما هو الشأن في الأديان الأخرى ، والمأذون الشرعي هو مسجل وحسب ، والأذن الشرعي هو تنظيم وحسب .

ظ _ إن القرآن قد وطد حق الرجال والنساء على السواء في إرث الشخص الذي لهم به صلات قرابة معينة تخولهم حق إرثه ، وليس لرجل قوي أن يحول دون حق امراة أو ضعيف أو قاصر أو يتيم فيه .

ع _ إنه قرر أن الإرث الواجب توزيعه هو ما فضل من التركة بعد الداء دين المورث ، وتنفيذ وصيته ، وأداء الدين ، وتنفيذ الوصية وأجبان محتمان ، على أن لايكون فيهما قصد الإضرار والحيف ، وأتمت السنة التشريع ، فمنعت الوصية لوارث ، وكرهت أن يوصي المورث بأكثــر من ثلث ثروته الفاضلة عن دينه تفادياً للحيف بالورثة وتعريضهم للعوز .

غ - إنه قرر كمبدا عام أن يكون نصيب الذكر ضعف نصيب الأنمى، إلا بعض استثناءات محددة ، وليس في هذا المبدأ حيف على المرأة كما يتمحل به المتمحلون ، بل هو عادل جدا ، فالمرأة قلما تكون مكلفة بغير نفسها إذا لم يكن لها معيل ، ولها على الأغلب معيل تجب نفقتها عليه ، والرجل والحالة هذه هو أشد حاجة الى المال منها بنسبة كبيرة ، لأنه المنفق على زوجته وأسرته بما فيها أمه واخته على الأعم الأغلب ، ومع ما ذكرناه ، فإن المرأة تأخذ في بعض الحالات نصف التركة أو ثلثها ...

ف _ في القرآن توزيعات للأنصبة المهمة للتركات على الورثة ، والسّنة قد تكفلت بإيضاح ما سكت عنه القرآن من التوزيعات الثانوية .

ق _ إن القرآن قـد حث على الوصية ، والسنـة نصت على أن لا وصيـة لوارث ، فتكون الوصية لمن لايكون لـه نصيب في التركـة ، وأوجب القرآن تنفيذها ، وحددت السنة أن لاتزيد عـن ثلث التركة ، والوصية على هذا الاعتبار بر بالأقارب الذين لاتكون قرابتهم مخولة لهم بالإرث ، وقد حث القرآن الورثة على البر بالأيتام والمساكين وذوي القربى

المعوزين حين قسمة التركة . وفي هذا تلقين بالوصية للأيتام والمساكين ووجوه البر أيضاً بالإضافة الى الاقارب غير الوارثين ، وفي القرآن تنبيه على أن لايكون في الوصية جنف ، ولا إضرار ، ويدخل في ذلك قصد حرمان المستحقين من إرثهم الشرعى أو تحويره أو تقليله .

ك - إن في القرآن نصوصاً وعبارات تلهم أن القضاء في العولة الإسلامية مرجع لمختلف الشؤون الشخصية من نكاح وطلاق وعدة وإرضاع ومهر وشقاق وتعويض ونفقة وإصلاح وتوفيق ووصية وحل مشاكلها ، وتنظيمها . ونعتقد أن ذلك يشمل تنظيم الطلاق والتعدد ، والإشراف عليهما وعدم تركهما للنزوات .

ولقد اثرت احاديث كثيرة عن مراجعات المسلمين رجالهم ونسائهم وأزواجهم وزوجاتهم للنبي صلى الله عليه وسلم وخلفائه الراشدين رضي الله عنهم في صدد مختلف شؤون النكاح والطلاق والنفقة والعدة والإرث والوصية والمهر والرضاع والظهار والإيلاء والأيمان والخلاف والشقاق الخ . وعما كانوا يقررونه من حلول لذلك يلتزم بها المراجعون مما فيه توكيد وتدعيم .

١٦ - ومن تقريرات المحكمات القرآنية وتلقيناتها في صدد توطيد أواصر الاسرة والآداب السلوكية:

آ - إن القرآن قد أسبغ على كيان الأسرة حفاوة بالغة ، واستهدف تقويته بتقوية الأواصر بين افرادها .

ب _ إنه أوجب البر بالوالدين والأقارب ومساعدتهم في كل حال ، غير انه قيد هذا الواجب بقيد الحق والعدل ، ودين الله ، ومصلحة السنامين العامة .

ت _ إن القرآن أوجب على المسلمين الاستئناس والاستئذان والإذن قبل دخولهم على بيوت غيرهم ، وجعل هذا عاماً للرجال والنساء والأقارب والأباعد .

ث - ليس في القرآن ما يمنع دخول الرجال على النساء ، والنساء على الرجال بعد الاستئناس والاستئنان والأذن ، وكل ما أمر به ولقنه وهو حسن النية وطهارة القصد والأدب وعدم ابداء المرأة لزينتها ومفاتن جسدها أمام غير محارمها .

ج - إن وجه المراة ويديها ليست عورة عند جمهور العلماء والمفسرين ، وهذا مستأنس من جملة (إلا ما ظهر منها) في آية سورة النور (٣٢) التي تأمرها بستر المفاتن والزينة عن غير المحارم ، وهناك حديث نبوي بعدم جواز ستر المرأة وجهها ويديها اثناء إحرامها في الحج، وفي هذا تأييد لذلك ، وليس في القرآن ، ولا في السنة حظر على خروجها من بيتها لشؤونها المباحة والمشروعة ، وعلى هذا فليس عليها بأس إذا احتشمت في لباسها وسترت مفاتنها أن تخرج من بيتها سافرة الوجه واليدين لممارسة ما أباحه لها القرآن ، وللقيام بالتكاليف والواجبات والاهلية التي خاطبها بها القرآن أسوة بالرجل ، وكل ذلك في حدود المعروف والبعد عن دواعي الفتنة والإغراء ومواطن الريب والتهتك والأماكن العامة غير البريئة ، وتعاطي المنكرات .

ح _ قد يلهم القرآن اولوية التفرق في المسكن بحيث يكون للآباء بيوت وللأبناء بيوت ، وللاخوال بيوت، وللاخوال بيوت، وللاخوال بيوت، وللعوانس بيوت والأرامل من الأمهات والأخوات والعمات والخالات بيوت، والمتبادر أن الحكمة في ذلك تفادي النزاع والشقاق .

خ _ قد يلهم القرآن انه ليس على المسلمين رجالهم ونسائهم واقاربهم واباعدهم حرج في أن يتناولوا الطعام معا بالإضافة إلى الجلوس معا .

د _ ليس في القرآن حداد على ميت ، والزوجة المتوفى عنها زوجها تتربص بنفسها دون زواج اربعة اشهر وعشرآ ، وليس ما يمنع خروجها من بيتها اثناء ذلك اذا اقتضت الضرورة واجتماعها بالناس ، والسنة نصت على عدم تزينها ولبسها المفرحات اثناء ذلك ، ونصت على أن لا حداد على ميت غير الزوج أكثر من ثلاثة أيام .

ذ ولقد نددت السنة النبوية بالرجال المتشبهين بالنساء ، والنساء المتشبهات بالرجال ، ونبهت على عدم خلوة امراة باجنبي عنها بدون حضور محرم ، وعدم بيتوتة رجل أجنبي عند امراة ليست محرمة عليه بدون محرم ، وعدم دخول رجل اجنبي على امرأة زوجبا غائب ، وعدم إذن المرأة لمن يكرهه زوجها ، وعدم استقباله ، وعدم سفر امرأة سفراً طويلاً بدون محرم ، وعدم تبرج المرأة بثياب شفافة خليعة .

وكل هذا من الآداب الرفيعة ، والأخلاق الفاضلة المتساوقة مسع تلقينات القرآن التي توجب على المرأة الاحتشام ، وترمي إلى صيانتها من الربية والانزلاق واذى الفساق . وليس في التزامها الواجب إلا الخير والسمو والكرامة والصيانة .

ر - في سورة النور أية تأمر النساء بضرب خمرهن على جيوبهن وفي سورة الاحزاب آية تأمر النساء بادناء جلايبهن عليهن . وفحوى آية النور يفيد أن الأمر لأجل ستر مفاتن الجسد التي تظهر من شقوق الثوب وان ذلك آت من أن الخمار كان زيا ممارساً . وليس الأمر القرآني انشاء جديداً ملزماً له . فاذا تحقق الهدف بطريقة اخرى حصل المقصود ولقد درج المسلمات على التخمر أي وضع خمار على رؤوسهن وليس فيه بأس ولا حرج ، بل هو عنوان الاحتشام المحمود . وفحوى آية الأحزاب يفيد أن الأمر لتمييز المسلمة حتى لا يؤذيها الفساق . والأمر بادناء الجلباب آت من أنه كان زياً ممارساً وليس الأمر القرآني انشاء جديداً ملزماً له . فاذا تحقق الهدف بطريقة أخرى حصل المقصود . ومع ذلك فليس من حرج على المسلمة اذا أرادت أن تتجلب بعباءة او ملاءة وما يماثلها والله أعلم .

ز بويقول بعضهم ان اختلاط الرجال بالنساء حرام والحق في هذا هو ان الاختلاط الحرام ما فيه شذوذ عن الرسوم والآداب المحددة في القرآن والسنة . أي أن تكون المرأة فيه بادية الزينة مكشوفة المفاتس امام غير محارمها وفي خلوة منفردة مع اجنبي دون محرم وفي مشهد ومجلس فيه منكر ومعصية وفي الدخول على بعضهم بدون استئذان وإذن . وهناك احاديث كثيرة يفيد أن النساء كن يشهدن مجالس النبي صلى الله عليه وسلم وخلفائه ويراجعنهم في شؤونهن على ملأ من اصحاب رسول الله وكن يذهبن الى المساجد فيصلين مع المسلمين ويذهبهن الى الجهاد وينشطن فيه ويحضرن الطعام مع الرجال ويؤدين مناسك الحج كتفا الى كتف مع الرجال ويدخل عليهن الرجال ويسعين في مصالحهن وحاجاتهن ويجتمعن ويتشاركن ويتعاون مع الرجال بسبيل نظك سافرات الوجوه والأيدي . وان كل ذلك استمر بعد النبي صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين بغير إنكار ما دام انه يجسري في نطاق

ألرسوم والآداب القرآنية والنبوية ومن الحقائق المشاهدة المتواترة أن الاختلاط والتشارك في النشاط ومختلف الاعمال يتم على اوسع نطاق بين الرجال والنساء أقارب وأباعد في ارياف المسلمين وبادياتهم والمرأة سافرة الوجه واليدين بدون أي استثناء وانكار . .

وكل هذا متسق مع حكمة الله التي جعلت كيان المجتمع الانساني قائماً على الذكر والانثى وساوت بينهم في الانسانية والحقوق والتكاليف والخطاب في كل أمر ديني ودنيوي وجعلت كلا منهما في حاجة الى الآخر في نطاق تلقينات كتاب الله وسنة رسوله والله أعلم .

17 _ ومن تقريرات المحكمات القرآنية وتلقيناتها في صدد الاخلاق والتربية الشخصية:

آ _ إن القرآن قد حفل أعظه احتفال بأخلاق المسلم وتقويمها وتربيتها بحيث لم يترك صغيرة ولا كبيرة مما يتصل بالأخلاق الحسنة والسيئة إلا نبه عليها موجبا التزام الأولى ، محدرا من الأخرى ، متوخيا إثارة مقتها ، منددا يمن تكون فيهم ، هادفا بذلك إلى أن يكون المسلم في أخلاقه نموذجا للكمال الإنساني ، وأن يكون الاتساق تاما بين التربيسة القرآنية الأخلاقية ، والتلقينات القرآنية السياسية والاجتماعية .

ب _ إنه خاطب العقل والقلب معا فيما توخاه من هذه الحفاوة ، فوعد وأوعد من ناحية ، وبين ما للإخلاق من آثار في حياة الإنسان صلاحاً وفساداً من ناحية .

ت _ إنه احتوى مجموعات رائعة جاء بعضها بأسلوب الأمروالتنويه، وبعضها بأسلوب النهي والتنديد والتنبيه ، ويصح أن يكون كل منها دستوراً أخلاقياً خالداً نافذاً إلى أعماق القلوب والعقول (١) .

⁽۱) نكتفي بالإشارة الى أرقام وسور هذه المجموعات التي يحسن بالقارىء أن يقرأها دائما ، فان فيها غذاء للقلوب والعقول والسلوك ، وفيها رد على المتمحلين والملحدين مفحم ملزم : البقرة (۱-17 و۱۷۷و ۲۰۳ – ۲۰۷) والنساء (۳۲ – ۳۸) والانعام (۱۰۱ –۱۰۳) والرعد (۱۱–۲۰) والنحل (۹۰–۹۷) والإسراء (۳۳–۳۲) والمؤمنون (۱–۱۱) والفرقسان (۳۳ – ۲۷) والشورى (۳۸ – (77)) والمارج (۱۹–۳۵) ،

وقد نوه فيها بكل خلق كريم وأمر به ، وأثنى على المتخلقين به ، وندد بكل خلق سيىء ، ونهى عنه وندد بالمتخلقين به .

ث _ إنه اهتم لبيان كون الأخلاق الحسنة فضيلة لذاتها ، ودعا إلى الاهتمام للجوهر أكثر من العرض ، ولذاتية الفضائل أكثر من الأشكال والمظاهر.

ج - إنه أكد على المسلمين التزامهم بمبدأ محاسفة الناس على اختلاف فئاتهم من أقارب وأباعد وجيران، ومن جملتهم الفئات الضعيفة، والتسامح معهم والعفو والصفح عنهم ، وبمبدأ القول الأحسن والفعل الأحسن ، درء السيئة بالحسنة ، وبمبدأ عدم مخاشنة الناس في عمل أو قول .

ح _ إنه اشتد في الحملة على الظلم ، وحذر منه ودعا إلى الوقوف منه موقف المنكر المقاوم .

خ _ إنه اشتد في الحملة على الكذب والكاذبين كما حفل بالصدق والصادقين ، وهدف إلى مقت الكذب والتحلي بالصدق في نفس المسلم .

د _ إنه احتفى كثيرا بفضيلة الصبر في الشدائد والخطوب ، ومعالجة الأمور ، وحث على التحلي به ، وهدف إلى تربية المسلم عليه ، وليس فيما جاء في هذا الصدد ما يفيد تسويغ الصبر على الذل والظلم والهوان والتفاهة والرضا بذلك .

ذ _ إنه أكثر من الدعوة إلى تقوى الله في مختلف الأعمال والتصرفات، هادفاً بذلك إلى جعل المسلم رقيباً على نفسه في أعماله وتصرفاته ومراقباً لله فيما يفعل ويقول حتى يتجنب السيء والمنكر، ويقدم على الصالح المعروف، متوخياً تنمية الضمير الوازع فيه.

ر - إنه نهى عن أتباع الهوى ، وندد بالذين يتبعون أهواءهم ، ويقفون من الحق موقف المكابر ، متوخياً بذلك النأي بالمسلم عن هذا الخلق ، وبث روح الحق والحقيقة واحترامهما في نفسه .

ز ـ انه انفرد في تحظير الخمر والميسر ، وتقرير ما انطوى فيهما من

طُرر وشر ، متوخياً بذلك إبعاد المسلم عن هذين الشرين الضارين بكرامته وصحته وماله ودنه .

س _ إنه انفرد في تحظير الربا إطلاقا ، واشتد في الحملة على المرابين ، وخاصة الذين يأكلون الربا أضعافا مضاعفة ، ويستغلون عسر الناس وعوزهم ، ويعاملونهم بالقسوة ودعا إلى التسامح والتساهل مع المعسرين والمعوزين .

ش _ إنه الشتد في التنديد بالمتكبرين والمختالين ، والمتفاخرين بانسابهم وثن السخرية بالناس ، ونهيم عن السخرية بالناس ، ونبزهم بالالقاب وغمزهم ولمزهم ، وعن تتبع أعمال الغير والتدخل فيها والتجسس على الناس وغيبتهم ، وكثرة الظنون في الناس وبث الانباء الكاذبة أو المربية ، وأكل أموال الناس بالباطل والتحايل عليهم ، وغشهم والتغرير بهم ، واستغلال الضعفاء والفقراء والمحتاجين وانتقاص حقوقهم ، ومناصرة الاقارب بالباطل فضلاً عن غيرهم من الناس ، وأوجب على الناس التزام الحق والقسط ولو على أنفسهم هادفاً بذلك الناي بالمسلم عن هذه الإخلاق والتصرفات المكراوهة ، وبث احترام الناس وحقوقهم وكراماتهم في نفسه .

ص _ إنه اشتد في التنديد بالرياء والمرائين والمناقضين بأفعالهم الاقوالهم ، والمخادعين في مظاهرهم وحقائقهم ، والذين يفضبون من كلمة الحق والنصيحة بالحق ، ويأمرون الناس بالبر ، وينسون أنفسهم ، ويتخذون اسمالله واليمين به ذريعة إلى الامتناعين الخير والبروالمعروف، متوخياً بذلك تحلي المسلم بالصدق والحق في سيرته وسريرته وعلنه وجعله يفعل الخير والمعروف مع الناس بقطع النظر عن أي اعتبار .

ولقد نبهت السنة على أن الكذب في الحديث ، والإخلاف في الوعد ، وخيانة الأمانة ، والفدر بالعهد ، والفجور في الخصومة من شعب النفاق، وآيات المنافقين ، وأن من فيه صفة من هذه الصفات يكون فيه خلة من النفاق حتى بدعها .

ض ـ إنه ندد بالتبذير والإسراف والترف والمبذريس والمسرفين والمترفين ، ونبه على ما في ذلك من انحراف خلقي وديني وسلوكي ،

وأوجب أن يكون المسلم وسطاً دون تقتير ولا تبذير مبتعداً عن الترف الذي يحرفه عن مقتضيات الحق والدين القويم .

ط _ إنه جعل الإحسان والصدق والعدل والإنصاف والحسنى والبر بالضعفاء والفقراء والأرقاء والخدم ومعاملتهم بالحسنى ، ودرء السيئة بالحسنة ، وقول التي هي أحسن ، وألدفع بالتي هي أحسن ، وكظم الفيظ ، والعفو ، والتسامح مما يجب أن يكون من صفات المسلمين وأخلاقهم وضوالبط صلاتهم ببعضهم وبالناس عامة .

ظ _ إنه أمر أن يكون الحق والإنصاف والعدل والقيام بالقسط قولاً وفعلاً من صفات المسلمين في تعاملهم فيما بينهم ، وسواء أكانذلك بالنسبة لأشخاصهم أم أقاربهم أم الآخرين ، أم بالنسبة لمن يحبون ويكرهون ، وحذر من أن يكون للهوى والعاطفة والقرابة وحب الذات والفتى والعنى والحب والبغض أي تأثير في ذلك .

ع _ إنه أمر المسلمين بأن يكونوا أوفياء بعهودهم نحو الله ونحو الناس ، وأمناء لأماناتهم وشهاداتهم دون تأثر بالهوى ، وحب الذات والقربى ، والحب والكراهية .

غ - إنه احتفى بالعقل حفاوة عظيمة ، سواء فيما احتواته الآيات القرآنية من تقرير كون الله ينزل آياته للناس ليعقلوها ويتدبروها ، ولتكون عبرة لأولي الألباب وأولي الأبصار ، ام فيما احتوته من تنديد بمن لا يستعملون عقولهم لفهم ما ينزل الله من آيات ، وإدراك ما في كون الله من مشاهد ومظاهر حتى بلغت الآيات نحو الخمسين فضلاً عما في القرآن من آيات فيها إهابة بالناس للتفكير والتدبر والتروي فيما يسمعونه من آيات ، ويشاهدونه من مظاهر قدرة الله في أنفسهم وفي الأكوان ، مما فيه إيحاء للمسلم بأن يتفكر ويتدبر ويتروى ويمحص ويبحث ويقارن ويقايس ويستنبط ويستنبط ويستنجو وحسن التأويل والتلقي، ويكون كل ذلك رائده فيما يسمعه من أخبار وكلام ويعتزمه من عزائم ، ويلتزمه من التزامات دون الهوى والعواطف والنزوات الجامحة (۱) .

⁽۱) زعم صادق العظم في كتابه «نقد الفكرالديني»انحث القرآن على استعمال العقل هو في صدد استكشاف آلاء الله ، وقد فندنا قوله ، وأثبتنا انه في صدد الدين والدنيا معا في. الفقرة (۷) من الفصل السابق .

ف _ لقد انطوى في لفت القرآن النظر إلى نعم الله ، وما أودعه الله والكون من منافع ونواميس قصد الحث على الإقبال على الانتفاع بذلك والجد والداب والسعي للرزق الحلال ، وتقرير كون ذلك من حق جميع الناس دون ما تميز ولا تفاضل هادفا بذلك بث الهمة ، وحفز الجهد في سبيل الكسب الحلال ، والانتفاع بنواميس الله الكونية ، وعدم منع أحد من مثل ذلك ، وعدم بقاء احد عالة على غيره ، وكلا على مجتمعه ، وهناك احاديث نبوية عديدة تحض الناس والفقراء على التكسب والعمل ، وعلى إتقان العمل .

ق _ إنه استهدف فيما احتواه من بيان ما للسيئات والحسنات من آثار ، ونتائج في الحياة جعل المسلم يدرك بالعقل والأمثال أن اجتناب الأولى ، والتزام الثانية هما من مصلحته .

ك _ إنه احتفى حفاوة عظيمة بالعلسم والعلماء والتعلم والقراءة والكتابة حتى لقد بلغت الآيات في كل ذلك المئات في مختلف الأساليب والمناسبات ، وحميًّل العلماء مسؤولية عظمى مما يسوغ القول: إنه يقرر أن العلم والتعلم والقراءة والكتابة من الصفات التي يجب أن يتصف بها المسلمون ، وأن عليهم ولهم أن يتوسلوا بكل وسيلة إلى ذلك بما في ذلك الاقتباس من الغير ليتمكنوا من القيام بواجباتهم المتنوعة ضمن مبادىء القرآن والسنة وتلقيناتهما .

ل _ إنه الزم العلماء تمحيص الحق وبيانه للناس والتزامه ، وعدم اتخاذ العلم وسيلة للتزلف والاحتيال . وينطوي في ذلك تقرير كون دعوى العلم لاتصدق إلا إذا صار له في نفس صاحبه أثر لممارسة مقتضياته وسلوكه من صدق وإنصاف وتسليم بالحق ، ونزول عنده ، وبعد عن الهوى والتهويش والمكابرة .

م ــ ليس في القرآن ولا في السنة ما يمنع أي مسلم في أي وقت إذا كان مؤهلاً من الاستنباط من القسرآن والسنة والاجتهاد والقياس والتمحيص في مختلف شؤون الدين والدنيا في نطاقهما . وهذا لا يعني إهمال ماكان من اجتهادات الأئمة والعلماء السابقين واستنباطاتهم والتزام ما فيها من سداد وصواب وحق والأخذ به .

ن - ليس في القرآن ولا في السنة تحديد لمجال العلم والفكر ولا تخصيص ذلك للرجل دون المرأة ، وكل ما ورد من خطاب قرآني في هذا الشأن شامل اللرجل والمرأة على السواء مما يسوغ القول: إن ذلك المجال مطلق على أوسع مداه خلافاً لما يزعمه الملحدون على ما جاء في كتاب صادق العظم (۱) ، وأنه مباح للرجل والمرأة على السواء ، وليس من حد لله إلا واجب التزام العقائد ، وما تقتضيه مبادىء القرآن والسنة وتعاليمهما وتلقيناتهما السامية من الآداب والأخلاق الحسنة .

ه ـ ليس في القرآن ، ولا في السنة ما يمنع المسلم والدول الإسلامية من الاقتباس من غير المسلمين لمختلف صور ووسائل الحياة والعلم والفن ، والتنظيمات المتنوعة المعيشية وغير المعيشية والحكومية وغير الحكومية في نطاق التزام عقائد الإسلام وأركانه ومبادئه وتلقيناته الأخلاقية والاجتماعية والأدبية والسلوكية والاقتصادية .

و - إن في الآيات الواردة في الأمور الإيمانية ، واركان الإسلام ، والوعد والوعيد والبعث والحساب والثواب والعذاب والحضاعلى الأعمال الصالحة ، والزجر عن الأعمال السيئة والقصص والأمثال اهدافاً اخلاقية تربوية تهدف إلى جعل المسلم إنساناً فاضلاً في الدنيا أيضاً .

لا - في القرآن والسنة نصوص كثيرة تقرر أن كل ما يقع من الناس ويقع عليهم هو بمشيئة الله وعلمه ، وتوجب الإيمان بذلك ، وفيهما نصوص كثيرة أخرى تقرر قابلية الناس للكسب والعمل والتمييز والاختيار ، وتنسب إليهم أعمالهم المتنوعة ، وترتب عليهم عواقب هذه الاعمال وفقاً لها في الحياة الدنيا والآخرة ، غير أن فيهما نصوصاً كثيرة فيها ضوابط تزيل وهم التناقض ، وتجعل القول: إن الإنسان يفعل ما يفعله بمشيئته وقابلياته التي شاء الله أن يودعها فيههو الأوجه والمتسق مع حكمة إرسال الرسل ودعوة الناس بواسطتهم إلى الله ، ومكارم

⁽۱) زعم العظم أن العلم في القرآن هو في صدد العلم الديني وحسب وأن معرفة المسلمين الاولين اقتصرت على المعرفة الدينية ، وقد فندنا قوله في الفقرة (۷) من الفصل السابق؛ وأثتنا من نصوص القرآن أن العلم فيه قد تناول شؤون الدين والدنيا معا ، وأن المسلمين الاولين فهموا ذلك كذلك وكان لهم حظ عظيم في علوم الدنيا كما كان لهم مثل هذا الحظفي علوم الديس .

الأخلاق ، وتحذيرهم من الإنحراف عن الله والأعمال السبيئة ، وترتب عليهم ولهم الثواب والعقاب وفق مواقفهم من ذاـك ، وتسوغ القول : إن النصوص الأولى هي اسلوبية متشابهة قد تتحمل وجوها أخرى للتأويل ، وقد تكون بسبيل تقرير إحاطة وشمول علم الله وقدرته الأزلية الأبدية ، وتكون تلك الضوابط هي المحكمة التي يجب الوقوف عندها . ومع أن مسألة القدر التي يدور الكلام عليها في هــذه النبــذة ليست إسلامية وحسب ، وإنما هي عالمية مللية ، فإن القرآن والسنة قد عالجاها أفضل والنشاط والتسابق في الخيرات ، وتقريرهما كون الله إنما خلقهم ليعملوا ويرى الله عملهم ورسوله وإن كلا منهم ميسر لما خلق لـــه وإنمـــا خلقهم ليبلوهم أيهم أحسن عملاً مما ينطوي فيه ما هو الأولى أن يعلمه المسلمون من حكمة الله في خلقه . وليس ما فيه المسلمون اليوم من ضعف وخمول هو كما يقول الملحدون . أثر عقيدة القدر فيهم . وقد كان الأولون من المسلمين أعظم الأمم قوة وسلطانا ونشاطأ وحيوية وعلما بتلقينات كتاب الله وسنة رسوله . وإذا فهمت عقيدة القدر بمداها الصحيح تجعل المسلم أكثر إقداماً على العمل والنشاط والتضحية بعكس ما يتوهمه المتوهمون .

ي _ /وفي المحكمات القرآنية والنبوية وتلقيناتهما تنبيه للناس إلى كون واجبهم في الحياة الدنيا هو العمل الصالح المفيد ، وإلى كون ذلك هو حكمة الله المتوخاة في خلقهم وتسخير مافي الكون الهم ، وإلى كون الله قد جعل حياتهم الدنيوية اختباراً لهم في ذلك، ودعاهم إلى التسابق في الخيرات ، وفي هذا رد على سؤال قد يتواقع عليه ملحد وهو الحكمة الإلهية في خلق الناس وإمانتهم ، ثم إحيائهم وثوابهم وعقابهم ، فالله تعالى لا يسأل عما يفعل ، ولكنه خاطب الناس من واقع الحياة ، فالكون قائم والناس موجود ون يسعون وينشطون ما داموا احياء كسنة من سنن الخلق ، وما دام الأمر كذلك ، فيجب عليهم أن يأخذوا الأمر على واقعه ، وأن يعتبروا انفسهم أنهم أمام اختبار الله بالعمل الصالح المفيد الضامن لهم سعادة الدنيا والآخرة وكفى .

۱۸ ــ ومن تقريرات المحكمات القرآنية وتلقيناتها في صدد إصلاح المسلم ومعالجته أخلاقياً وروحياً:

آ _ إن القرآن توخى بصورة عامة التوسعة ، وعدم الإحراج ، سواء أكان ذلك في تكاليف العبادة أم التعامل والمعيشة ، وسائر شؤون الحياة .

ب _ إنه نهى عن حرمان النفس من الاستمتاع بطيبات الرزق وزينة الحياة ، واستنكر التقشف والتزمت ، ولم يقيد المسلمين إلا بالطيب الحلال ، والقصد والاعتدال ، والبعد عن ما هو خبيث ورجس وفسق .

ت _ إنه سمح للمضطر بالمحظور عليه ضمن نطاق الضرورة وظروفها .

ث _ إنه رفع عن المسلم الحرج والمسؤولية عما يصدر منه بسائق النسيان والخطأ والإكراه من أعمال محظورة بشرط توفر حسن النية وطهارة القصد ، وباستثناء مايسبب ضررة بليفا كالقتل الخطأ حيث أوجب التعويض مع حض المتضرر على العفو .

ج - إنه نهى عن جعل اليمين وسيلة لعدم البر والإصلاح والتقوى، ومساعدة المحتاجين ، وحرمان النفس من الطيب الحلال ، ورفسع حرج المين اللغوالتي لانية للضرر ولا عزيمة فيها ، وأمر بالكفارة عن اليمين التي فيها عزيمة وتحريم لما أحل الله ، أو أذى أو ضرر أو مجانبة بسر وتقوى وإصلاح والتي يكون الأفضل والأنفع عدم الالتزاام بها ، وعمل ما هو خير ومفيد .

ح ـ إنه قرر عدم تكليف الإنسان بما لا يطيق سواء فيما يتصل بالعبادات أو الشؤون الدنيوية الأخرى ، وينطوي في هذا عدم مسؤوليته عما لا يطيق .

خ - إنه لم يقيده في مأكله ومشربه ومعاشرته للنساس إلا بالحلال الطيب وحسن النية واللطف والتسامع .

د ـ إنه قرر عدم أخذ أحد بجريرة أحد ، وأن كل إنسان مسؤول عن عمله دون غيره .

ذ _ إنه أنكر التحليل والتحريم الآي شيء من مأكل ومشرب وعمل بغير سند وعلم وحق .

ر - إنه دعا إلى الاهتمام بجوهر الأعمال والفضائل وذاتيتها أكثر من أشكالها ومظاهرها .

ز _ إنه طمأن الذين يجتنبون كبائر الإثم والفوااحش بالتجاوز عما قد للمون به من هفوات وذنوب صفيرة عابرة .

س _ إنه قرر أن الرسالة المحمدية استهدفت تحليل الطيبات ، وتحزيم الخبائث ، وتخفيف التكاليف الشديدة السابقة .

ش _ إنه دعا إلى التوبة ، وقد شملت دعوته إلى التوبة عن جميع ما يصدر من الإنسان بصورة عامة ، ومن المسلم بصورة خاصة من مواقف وأعمال وآثام ، ومعنى التوبة الندم على عمل الذنب والعزم على التراجع عنه وعدم فعله .

ص _ إن الدعوة القرآنية إلى التواهـة قــد الطـوت على مقاصد إصلاحية وتربوية جليلة الإنسان بصورة عامة ٤ والمسلم بصـورة خاصـة بحيث تهيء للمذنب والمخطىء مجالاً لاستئناف حيـاة جدهـدة مملوءة بالرحـاء .

ض _ إنه شرط في التوبة أن يرافقها عزيمة صادقة على رجوع التائب إلى الله والحق والصواب والصلاح ، وتجنب الإثم والمنكر ، والانحراف والضرر ، وتلافي ماكان منه من وفساد ، وأن يتوب التائب وهو في متسع من العمر والعاقبة والقوة ليتحقق بذلك قصدها الإصلاحي .

ط _ إن الفرق بين التوبة في الاسلام والاعتراف في النصرانية هو ان الأولى تتم بين الله والإنسان ضمن الشروط المذكورة في الفقرة السابقة بدون وساطة كهنوتية ، لأنه ليس في الإسلام سلطة كهنوتية ، تحدد للمسلم ما يفعل وما لايفعل ، وما يجوز وما لايجوز ، ولا تكون عقوده وحركاته شرعية إلا بموافقتها وتوسطها ، فالمسلم حر" في كل اعماله وعزائمه في حدود الإيمان بالله ورسوله وقرآنه واليوم الآخر .

وما أمر الله ورسوله به ونهيا عنه ، مما يجعل قوى العقل والفكر والضمير في ظل الإسلام مطلقة تستطيع أن تحلق في كل جو في نطاق تلك الحدود.

ظ _ إنه نهى عن القنوط ، واعتبره من نقائض الإيمان ، وبثالامل والرجاء ، واعتبرهما من مظاهر الإيمان .

ع _ إنه يلهم أن الأمل والرجاء مما يبعث القوة والروح والنشاط في الإنسان في حين أن القنوط يفقده ذلك .

غ - إنه توخى تثبيت قلب المسلم وتشجيعه على التضحية والإقدام، وتحمل الشدائد والمشاق والمكروه بنفس واضية مطمئنة إذا ما واجهها ، وليس من ذلك قبول الذل والظلم والرضوخ لهما.

ف _ إن ما ورد في القرآن من آيات تضمنت وصف مصائر الناس الأخروية قد انطوت على وسيلة لتعويد المسلم الأمل والرجاء في المستقبل، وجعله يواجه متنوع الأحداث والحظوظ بدون تذمر ولا اضطراب . بالإضافة إلى ما انطوى فيها من الحقيقة الإيمانية .

ق _ إن ما ورد في القرآن من آيات تعد المؤمن باليسر بعد العسر قد انطوت على وسيلة لتنمية الجلد والصبر والمقاومة في المسلم ، وخاصة في الظروف الصعبة ، والمواقف الحرجة .

ك _ إن القرآن حث على تحمل ما قد يشق على النفس، ويكون فيه خير آجل ، وانطوى في ذلك وسيلة لبث الطمأنينة والهدوء في نفس المسلم وتنمية نوازع الحق والبر والأمل فيه ، والرضا بذلك الشاق العاجل مقابل خيره الآجل .

ل _ إن ما ورد في القرآن من آيات تحض على التقدوى ، وتعد بالفرج والنصر قد انطوت على وسيلة لبعث الأمل في المسلم ، وعدم الاستبلام لليأس والقنوط أمام النوازل والخطوب .

م - إن القرآن قد دعا إلى التوكل على الله ، وانطوى في هذه الدعوة وسيلة لتطمين نفس المسلم وجعله اقوى على مواجهة الخطوب والأخطار ، وليس فيها أي معنى من معاني الاستسلام ، وعدم الأخذ بالأسباب المؤدية إلى التغلب على تلك الخطوب والأخطار .

ن ـ ليس في تلقينات القرآن والسنة ما يوحي بالاستسلام للمكروه والبغي والحظر والحرمان والشظف ، والرضا بذلك ، وما يبدو من هذا في سواد المسلمين هو أثر من آثار سوء فهم القرآن والسنة والجهل والتخلف والغفلة والانحطاط اللذين عاشوا فيهما دهرا طويلا".

_ تعقیب وهتاف وتوضیع _

_ 1 _

وكل ما جاء في النبذ التسم عشرة مستفادة من آيات القرآن في مختلف سوره ، وهناك أحاديث نبوية كثيرة متساوقة مع ذلك كل

التساوق ، وفي بعضها شرح وبيان لما جاء في القرآن مقتضباً ، وقد أثبتنا نصوص الآيات والأحاديث وشرحناها في أبواب وفصول جزئي كتابنسا «الدستور القرآني والسنة النبوية في شؤون الحياة» .

ونهيب بكل مسلم سواء اكان صادق الإيمان أم ضعيفه ، أم كان مسما بالإسلام دون التحقق به قليلا أو كثيراً ، بل ونهيب بغير المسلمين والملحدين من الجملة أن يقرؤوا هذا الكتاب وأمثاله الكثيسة لغيرنا التي فيها شرح لما في القرآن والسنة من مبادىء وتعاليم ، ولو على سبيل العلم بالشيء ، ويستوعبوها ليروا مصداق كل ما أوجزناه من تقريرات المحكمات القرآنية والنبوية وتلقيناتها .

وإذا كان من كلمة نختم بها كتابنا ، فهي مناشدة ذوي النيات الحسنة ، والمقاصد البريئة من اللامبالين بالدين بدون إلحادعلمي وبخاصة الدين الإسلامي ممارسة أو معرفة ، الراغبين في الحق والحقيقة أن يتمعنوا فيما كتبناه ، وفي مستنداته في كتابنا المذكور ، وكتب غيرنا أمثاله ، ثم القول إن من يفعل ذلك سوف يجد ما يقنعه كل القناعة بأن الدعوة إلى القرآن والإسلام ليست دعوة إلى الجمود والتخلف والتمسك بالقديم البالي الذي يحلو للملحدين تسميته بالرجعية ، وإنما هي دعوة إلى تجدد ونهوض وثورة على ما يرتكس المسلمون والعرب فيه اليوم من جمود وتخلف ، وأن الحملة عليه هي حملة ظالمة باغية باطلة فاسدة (١) .

أما ذووا النيات السيئة والمقاصد المرببة الذين صمعوا على التصامم

⁽۱) مما يقوله صادق العظم في كتابه «نقد الفكر الديني» (انه يمكن أن يكون فسي تعاليم الاسلام ثورةعلى القديم السابق ولكن هذا لم يكن بالتسبة للمستقبل المستمرة، وقلا تجملا فأدى الى تخلف العرب) وهذا كذب تكذبه النصوص والوقائع والحقائق المستمرة، وتخلف العرب والمسلمين اليوم لا تتحمل تلك النعاليم مسؤوليته ، لانها تدعو الى سمة الافق والمرونة والنشاط في مختلف المجالات وفي كل دور ، وتمنع التمسك بالقديم لقدمه ، وعدم الاخلا بالجديد لجدته مطلقا، وضابطها النفع العام والمسلحة والانسجام مع العقل ، والتزام مبادىء الاسلام السامية السمحاء التي ليس فيها الاكل أسباب السسعادة والحيويسة والصلاح والكرامة ، ويقول أيضا : (ان طبيعة الدين هي أن فيه عقيدة ثابتة محددة تعيش فسسي الحقائق الازلية وتنظر الى الوراء لتستلهم بعده ، وان اكتشاف حقائق جوهرية جديدة المحتاب معارف هامة جديدة أمر لم يكن يعني المسلمين ، وكل ما كان من أمرهم الوصول

والمكابرة حتى صار يصدق عليهم وصف القرآن (ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة) فهم شركاء في العداء للإسلام والعرب مع سائر اعدائهم وعملائهم من حيث يريدون ويدرون أو لا يريدون ولايدرون، وفي كل ما يسو قونه تهافت ومجازفة وسوء فهم ، وسوء تأويل وسوءأدب، وعناد ومكابرة . وعلى ذوى النيات الحسنة الذبن نرجو أن يكونوا قد استجابوا لهتافنا ، وانشرحت صدورهم بحقائق الإسلام ، وسمومبادئه ومقاصده أن لا يجاوروهم ، بل وأن ينبذوهم ويناوؤهم بكل قدوة وبدون هواادة ، وأن يتضامنوا في ذلك مع الملتزمين بواجباتهم وإسلامهم قبلهم ممارسة ومعرفة حتى ينحسر شرهم وخطرهم وضررهم اللذي أخلل ينتشر بخاصة في أوساط ناشئتنا ومثقفينا ، ويصبح تياراً جارفاً يجرف كل مالنا من قيم وتراث وأمجاد ونوازع وحوافز وضمير وحياء ، وخلق حسن ، والتزام للواجبات الدينية والقومية والوطنية والأسرية ، وتصبح امتنا نتيجة له فاقدة الهوريتها وذاتيتها وطمأنينتها وتماسكها ، وألعوبة بيد اللاعمين من الأغيار ، وطعمة سائفة اللطامعين ، مما يتحمل المثقفون ذوو النيات الحسنة مسؤوليته الأدبية والأخلاقية والدينية إذا هم قصروا فيه . ونهيب بذوى السلطات الحكومية ، والمراكز الاجتماعية والأدبية منهم بنوعخاص أن يتضامنوا في سبيل نشر الوعي الديني ، والالتزامات الدينية في ناشئة المسلمين ومدارسهم حتى لايجر فها ذلك التيار الرهيب .

الى نظرة أممق وفهم أشمل للنصوص المنزلة حتى يتصلوا الى المعارف الكامنة منذ الأزل استنادا الى قول القرآن (ما فرطنا في الكتاب من شيء) مع أن أبرز سمات النشاط الملمي فكرة الاكتشاف الذي يجعل من العلم نشاطا حركيايتخطى دائما منجزاته السابقة)ونقول:ان تقريرات المحكمات القرآنية والنبوية وتلقيناتهما التي توحي للمسلم بالارتباط بالحياة الدنيا، وتجديد نشاطه العلمي والفكري والعملي في مختلف مجالات هذه الحياة باستمر اروتطلع وسعة أفق تجعل هذا القول بالنسبة للاسلام في غير محله ، وأن الوقائع والحقائق تثبت أنه كان للمسلمين الأولين جولات واسعة ايجابية متجددة متحركة في مختلف مجالات الحياة المقلية والفكرية والعلمية والعملية استلهاما من تلك التقريرات ، ولقد شرحنا في الفصل السابق مسدى العبارة القرآنية (ما فرطنا في الكتاب من شيء) وما في تأويل صادق العظم لها من تعسيف فنكتفي بهذا التنبيه .

ونوجه إلى ذوى النيات الحسنة هتافاً آخر من قبيل المساجلة بأنه لا يمكن لأي كان أن يدعى صادقاً بأن أي عصر استطاع أن يتفلت من تأثير المثل العليا والأفكار الفلسفية الإصلاحية الأخلاقية والاجتماعية والانسانية التي الهمتها الأديان والفلاسفة النبهاء منذ القديم ، وجاءت على أقوى وأفضل وأسمى مايكون في خاتمة رسالات الله ، وبلسان خاتم الرسل والنبيين في ختام كتب الله (القرآن) . وإن مما لا يمكن أن ينكر أن ما عند الغرب اليوم من آداب وأفكار ونظريات ومثل وفلسفة بل ونظهم وتقاليد يرجع كثير منها إلى ذلك القديم ، وأن الدعوة المستندة إلى ذلك لايمكن أن تكون شاذة أو دعوة إلى القهقري دائماً ، لأن البشرية سلسلة متصلة الحلقات ، وأجيال متواثقة الصلات يمد بعضها بعضا ، ويسرث بعضها بعضاً ، وتظل أولاها ممتزجة بأخراها ، وأخراها مقتبسة مسن اولاها ، وإن غير ذلك هو تجاهل للحقائق والوقائع وتحكم لا مسوغ له ولا سند ، وان من الحقائق التي لا يماري فيها أن النظام شيء وتطبيقه شيء آخر ، وأن عدم تطبيق نظام ما لا ينتج عنه دائماً عدم صلاح ذلك النظام ، وأن شذوذ أمة أو جماعة أو حكومة في ظرف ما عن الطريق القويم ، وارتكاسها في الفوضى والعماء والمنكرات لايتأتى دائماً من عدم صلاح ما عندها من نظم وتقاليد وأسس دينية ، وأنه كثيراً ما يتأتى من عوامل متنوعة أخلاقية واجتماعيمة وسياسمية وداخليمة وخارجية ونفسيمة والقتصادية ، وأن هذا ليس محصوراً في بلد دون بلد ، ولا في دولــة دون دولة ، ولا في زمن دون زمن، بل هو شيءممكن الحدوث في كل بلد ، وفي كل دولة ، وفي كل زمن ، وأن الدعوة التي ندعو إليها إنما ترمي إلى تفهم واستجلاء مافي القرآن والسنة النبوية من أهداف ونظم ومبادىءوقواعد، والتنبيه على ما فيها من سمو وصلاحية، ولا يماري في فائدة ذلك والرجوع إليه ، والتمسك به وإحيائه إلا جاهل به أو مكابر أو مفرض ، وأن جذور الدين متأصلة في الناس تأصلاً لا يمكن لأي قوة أو دعوة أن تقتلعها منهم، وان وجود واحد في كل مائة ألف يفكر بغير ذلك لايعني أن الناس يمكنأن يتفلتوا من تأثير الدين وقوته ونفوذه ، وما دام القرآن الذي هـو كتاب المسلمين المقدس عامة وكتاب أكثرية العرب العظمى خاصة بين أيديهم يتلونه

صباح مساء ٤ ويعتقدون أنه نبراسهم ومرجعهم، وفيهمن النظم والماديء والقوااعد والأحكام والتلقينات ما يمس جميع جوانب حياتهم بمقياسأوسع كثيراً مما في أي كتاب ديني مقدس آخر ، فإن صلتهم به وتأثيره فيهم لا يمكن أن ينقطعا مهما تقلب الظروف ، وتطورت الأحوال ، وما دام ما جاء فیه من تقریرات محکماته وتلقیناتها قد حاء علی أقوی ما بمکن مین سعة أفق وإحاطة واستجابة لكل حاحة ومشكلة وعلى أشد ما يكون مرونة تتيح اقتباس كل ما هو صالح نافع من أي كان ، والأخذ بأحسن اللوسائل. والاستعداد في كل ناحية من نواحي الحياة ، ويساعد على إثارة الهمم ، وإنقاظ الضمائر وتحربك النشباط وبعبارة أخرى بدعو بكل قوة إلى كيل مافيه كمال الإنسانية وخيرها وتقدمها ورفعتها ، وما يفتح الطريق واسعاً لقيام بنيانها وكيانها على التفكير الحر والعلم بدون عائق ، فإنه يكون من الخير كل الخير أن بحسن تلقيها وتفهمها والاستبصار بها ، والاستمداذ منها ، ويكون من الشر كل الشر ان يترك السواد الأعظم الذي يدين بالقرآن ويقدسه ، ويتأثر به في غفلة وحهل وعمى عما فيه ، ستغلهم المستغلون ويتحكم فيهم الجامدون ، وإن في انتشار هذه الدعوة بين المثقفين خاصة لمن شأنه أن يجعلهم أصحاب التأثير ، وأن يمكنهم من قيادة هذا السواد الأعظم ، وتوجيهه إلى ما فيه الخير والحق والصلاح والقوة والفوز ...

ولقد ارتاع كثير من عقلاء الفرب وحكمائه من تيارات الإلحاد والمجون والتحلل التي تجتاح أوربة وأميركة ، وأخذوا يرفعون أصوات الانذار ينبهون على وجوب الالتزام بالقيم اللهينية العاصمة من هذه التيارات ، وليس من دين غير اللهين الاسلامي يصلح ليكون هو اللعاصم الصحيح الهادي للبشر ، الضامن لسعادة البشرية ، وحل مشاكلها الروحية والاجتماعية والاقتصادية على أفضل وجه مما يقوم اللهليل عليه قويا ساطعا في تقريرات المحكمات القرآنية والنبوية وتلقيناتها المشروحة قبل، وفي المقارنة بينها وبين ما في الأديان الأخرى من معالجات غير وافية وغير شافية ، فمن العفلة العظمى أن لاينتبه المسلمون إلى ذلك ، وأن يقصر النبهاء منهم في تجلية هذا الله إن ونشره لتحقيق وعد الله تعالى بإظهاره على اللهين كله ، وإنه لمن كبريات الجرائم أن يحاول الملحدون العرب سد هذا الطريق بحملاتهم التهديمية الفاحرة .

ولقد شاءت حكمة الله عز وجل أن يكون رسوله العربي محمد بسن عبد الله صلى الله عليه وسلم خاتم رسله وأنبيائه ، وأن يكون كتابه العربي،

المبين مهيمنا على ما سبقه من الكتب ، وأن يكون الدين الذي جاء به خاتم رسله وأنبيائه مرشحاً ليكون دين البشرية جميعها ، وليظهره على الدين كله ، لأنه جاء بالهدى ودين الحق ، وأن تكون صفات هذا الرسول النبي صلى الله عليه وسلم مكتوبة في التوراة والإنجيل ، وأن تكون دعوته إلى الناس جميعاً كتابيين وغير كتابيين ، وعرب وغير عرب ليدعوهم إلى الله وحده ، ويأمرهم بالمعروف ، وينهاهم عن المنكر ، ويحل لهم الطيبات ، ويحرم عليهم الخبائث ، ويضع عنهم ما أثقلهم من تكاليف وآصار وأغلال، وأن يكون هذا الرسول ورسالته رحمة للعالمين ، فصار مسن واجب كل مستطيع من المسلمين والعرب بالدرجة الأولى أن يخدم هذا الكتاب الرباني العظيم بالتجلية والشرح ، وبيان ما فيه من قواعد ونظم وتعاليم ومبادىء وتلقينات وتوجيهات فيها صلاح البشرية وسعادتها ، والتمسك به والتزام ما جاء فيه ، وتفنيد كل ما يوجه إليه بسائق الفرض والجهل .

والخوف من إقامة بنيان على تعاليم ونظم مستمدة من الدين ومن استلهام هذه التعاليم والنظم إنما يكون صحيحاً حيثما تدعو إلى التعصب المذموم ، والجمود الضار ، وتقف عثرة في سبيل الإصلاح والصلاح ، والتجدد والاقتباس ، وتحدد للناس جزئيات حياتهم واشكالها وكيفياتها ، وتحد من نشاطهم وحيويتهم وتضطرهم إلى البقاء ضمن نطاق جامد ، وكل هذا منتف كل الانتفاء من التعاليم والنظم والأهداف العامة التي انطوت في القرآن على ما شرحه .

وليس في اتكاء جماعة أو حكومة من المسلمين على الإسلام اواتسامهم بسمته مع انحرافهم عن تعاليمه ومبادئه وتلقيناته ومداه الواسع المرن وسوء فهمهم وتأويلهم له ما يصح أن يكون حجة ضد ما ذكرناه .

ولقد طفت المادية والتفكير المادي على المدنية الغربية حتى كاد يكون صبغة عامة لها ، وحتى كاد يعطل في الناس شعور الرحمة والبر والتسامح والوئام والأخوة الانسانية ، وحتى كاد يميت في الانسانياو هو أماته فعلاً المضمير الذي يمكن أن يمد صاحبه بنوازع الخير والبر والحق والإحسان والإنصاف ، وحتى صاروجه الحياة الانسانية كالحا ، وصارت الحياة جحيماً لا يطاق ، لأن ميزانها الوحيد هو المادة وما تنتجه من قسوة وتناحر وانانية وجشع وضعف شعور ، واستغراق في الشهوات ، وتنافس على

السلطان والطفيان ، وما تحلب من روابط التقاليب والآداب الكريمة ، والعواطف الإنسانية ، وما تبيحه من الوسائل في سبيل تحقيق نهزوات النفوس ومطامعها ورغباتها التي تمليها تلك الصبغةمهما كان فيها من إثم وبغي وعدوان وطفيان ، ومجافاة للحق والمنطق والبسر والعمل ، ولأن التوازن قد الفقد بالمرة تقريباً بين الروح والمادة والقلب والعقل ، والعاطفة والعلم مما أقض مضاجع العلماء والباحثين الاجتماعيين في الغرب نفسه .

فمن الحق والخير أن يحتاط بعض مثقفينا في دعوتهم إلى الانسياق في التيار المادي بدون تبصر ولا روية ، وبدون قيد وشرط ، وبدون حساب للعواقب ، لأن في ذلك بتا للصلة التي تربطنا بماضينا اللامع المجيد الوضاء الذي لايزال يشع نوره من وراء الظلمات التي تراكم بعضها فوق بعض خلال عصور الففلية والعماء والتغلب الجاهيل ، وصرفا عن أعظم مدد وأقوى هدى يمكن أن يمد المسلمين والعرب والإنسانية معا بأفضل الأسباب ، ويهديهم إلى أقوم الطرق . ومن الحق والخير أن نعمل جميعا على إيجاد التوازن بين الروح والمادة ، والقلب والعقل، والعاطفة والعلم ، وأن نعتبر بعثرات الغرب المادية وعيوبه ، وأن نقوي ضمير والإنسانية بما فيهمن نوازع الخير والبر والرحمة والعفو والتسامح والحق والعدل والإحسان ، وكل هذا يتيسر بالدعوة القرآنية والرسالة الإسلامية.

- 4 -

ولقد يقول بعض شبابنا القوميين: إن هذه الدعوة تتعارض مع المصالح القومية العربية ، فنحن ندعو إلى مجد قومي عربي ووحدة قومية عربية في حين أن الإسلام قد فتح الباب لفير العرب ، فدخلوا الإسلام إخوة متساوين ، واستغلوا هذه المساواة ، فدحروا العرب ، وتسلطوا عليهم في الكيان الإسلامي العام الذي تألف من العرب وغير العرب دون أن يجد العرب أو سوادهم في ذلك كبير أمر ، ودون أن يحفزهم إلى العمل على استرداد سيادتهم بجد ودافع قوي ، وبعبارة أخرى في حين أن المساواة الإسلامية جعلت العرب يهضمون سلطان غيرهم وسيادتهم عليهم ، وضياع سلطانهم القومي دونما حرج ولا تحفز حقبة طويلة من الدهر ذل العرب فيها وتمزقوا .

ولقد يقولون أيضاً: إن هناك إخواناً لنا في القومية ليسوا مسلمين، وإن اندماجهم فيها ضرورة قومية . في حين أن هذه الدعوة قد تقييم العثرات دون ذلك ، وقد تثير بعض التيارات والنزغات التيلا تساعد على تحقيق هذه الضرورة القومية .

ونقول لهؤلاء الإخوان:

أولاً: إنه ليس لأحد أن ينكر أن للأمجاد التاريخية أثراً عظيماً في حياة الأمم وقوة حيويتها ومقاومتها لصروف الدهر وضرباته الموجعة ، وإن الإسلام الذي جاء على يد الرسول العربي صلى الله عليه وسلم بقرآن خلدت به اللغة العربية وتقدمت ، وحفظت به الأمة العربية من التمزق أمما وقوميات عديدة ، والذي صار العرب به وحدة أمة ذات رسالة إنسانية خالدة ، والذي كان له من الأثر العظيم في حياة البشر وحضارتهم وتوجيههم نحو المثل العليا هو من أعظم الأمجاد التي تستطيع الأمة العربية أن تفخر وتعتز وتزهو بها ، ومن أقوى الحوافز على تحريبك الهمم إلى استئناف حياة المجد والقوة بل وأعظمها وأقواها وإن في محاولة إهمال ذلك أو التهوين منه أو تجاهله جحوداً منكسراً لتلك الآثار والأمجاد ، وتعطيلا أثيماً لهذه الحوافز .

وثانياً: إن الإسلام الذي يمثله القرآن والسنةلم يهمل ناحية التنويه بالعرب ومركزهم وشأنهم في الكيان الإسلامي العام. ولقد انطوى في القرآن والسنة تلقين قوي يحق البروز والشأنية لهم في هذا الكيان ، وحملاهم مهمة هداية البشر وترقيتهم ، وإقامة بنيان الإنسانية على أقوى الأسس واعدلها وافضلها ، ونبها على عظيم مسؤوليتهم عن هذه المهمة ، وجعلا الصلة لاحمة بين ذل العرب وذله ، وعزة العرب وعزته ، على ما جاء في نصوص عديدة منها ما فيه التنبيه على ما في الرسالة المحمدية من علو ذكر لقوم النبي صلى الله عليه وسلم ، ومنها ما فيه تقريرغدو العرب بالإسلام الذي كانوا أول المعتنقين له عدولا شهداء على غيرهم ، ومنها ما فيسه الإشارة إلى اصطفاء العرب للمهمة العظمى وتقرير شأنهم العظيم في الكيان الإسلامي ، ومنها ما فيه تقرير كون حبهم من الإيمان ، وبغضهم كفر ونفاق ، فليس من تعارض والحالة هذه بين تعاليم القرآن والسنة ، وبين الطموح فليس من تعارض والحالة هذه بين تعاليم القرآن والسنة ، وبين الطموح

إلى الأمجاد القومية العربية ، والعزة القومية العربية ، والوحدة القومية العربية ، بل وإنه ليصح أن يقال : إن هذا من مقتضى تلك التعاليم لأنفي قوة العرب ومجدهم وعزتهم ووحدتهم قوة الإسلام ومجده وعزته ووحدته . يضاف إلى هذا أمر خلود اللغة العربية وتقديسها على اعتبارها لغة القرآن ، ولغة العبادات الاسلامية التي يجب على كل مسلم أن يفقهها ويقدسها . وما في هذا من الوسيلة إلى نشر النفوذ العربي ، وسيادة اللغة العربية ، وخفقان رايات العرب الأدبية والروحية والثقافية بلوالسياسية في مختلف أنحاء الأرض مما تبذل الدول الكبرى في سبيله طائل الأموال وعظيم الجهود دون أن تناله كما تشتهي في حين أن القرآن قد أوجب وعاجب ديني وجداني يندفع فيه المسلم الذفاعاً دينياً وجدانياً .

وقد أثبتت وقائع التاريخ أن العرب في صدر الإسلام قد فهموا هذا فهما صحيحاً ، وطبقوه على الوجه الذي فهموه ، ولم يروا بينه وبين تعاليم الإسلام في مصدريها الرئيسيين القرآن والسنة أي تناقض وأثبتت كذلك أن ماكان من استعلاء غير العرب على العربإنما كان لعوامل سياسية أخرى لم تعد خافية ، ولا تمت بسبب إلى تعاليم الإسلام ولا يصح القول إنها نتيجة لها .

وثالثاً: إن الخوف من عودة التاريخ واستغلال المسلمين غير العرب للمساواة الإسلامية للتغلب على العرب كرة أخرى قد أصبح اليوممنتفياً ولم يبق منه إلا ذكرى التاريخ . ولقد كان ذلك كنتيجة لظهور الإسسلام واستعلائه وزحف العرب وفتوحاتهم في مشارق الأرض ومغاربها حيث قام بالضرورة سلطان عام ، وسياسة عامة ، وكيان سياسي عام ، وكان ماكان من تناحر على السلطان والسيادة في هذا الكيان ، واستعانة بعض العناصر العربية الطامحة إلى السلطان والحكم بالعناصر المسلمة غير العربية مما فسح المجال لهذه العناصر بالتدخل ثم بالتغلب ، والظروف الراهنة للعرب وغير العرب تجعل تكرر ما وقع غير محتمل البتة. وهذا شيء ، واحتمال قيام تضامن وثيق سياسي واقتصادي وثقافي بين الدول الإسلامية العربية وغير العربية شيء آخر ، وفيه إذا تحقق من الخير العميم للعرب ما يوجب عليهم أن يبذلوا الجهد في سبيل تحقيقه . ومثل هذا مما تبذل الشعوب المتقاربة بل وغير المتقاربة جهداً عظيماً في سبيل تحقيقه ، وتحقيقه بين الدول الإسلامية أكثر إمكاناً بفضل ماقرره القرآن ووطده وتحقيقه بين الدول الإسلامية أكثر إمكاناً بفضل ماقرره القرآن ووطده

من الأخوة بين المؤمنين ، وما يعكسه ذلك من آثار إيجابية تظهر قوية في كل موقف وظرف ، ويدعمها حب وتقديس من غير العرب للعرب ، وإذا يسر الله للعرب وحدتهم السياسية ـ التي هي في الحقيقة وحدة إسلامية ، لأن أكثرية العرب السابقة مسلمة ـ وهـو مطمحهم الذي هـو في نطاق الإمكان فيكونون في نطاق ذلك الاحتمال أصحاب الشأن الأعظم والأقوى ، وحتى الوحدة الإسلامية التي يريد البعض أن تكون الدعوة إليها دون الوحدة العربية لا يمكن أن تكون الدعوة إليها صحيحة ومجدية قبل أن تقوم الوحدة العربية .

ورابعاً: إن التنديد أو التحظير الذي ورد ضد الدعوة إلى العصبية مفهوم من حيث النص فهما خاطئاً ، والحديث الوارد في هذا الصدد رواه أبو داود ، عن جبير بن مطعم قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم «ليس منا من دعا إلى عصبية ، وليس منا من قاتل على عصبية ، وليس منا من مات على عصبية .» وروى أبو داود ، عن واثلة بن الأسقع قال : قلت يا رسول الله ما العصبية ؟ قال : «أن تعين قومك على الظلم» ويظهر أن واثلة كان يسمع الحديث الذي وجه إلى جبير فسأل سؤاله وأخذ الجواب، هذا من حيث النص ومن حيث المدى الاجتماعي ، فإن التحظير قد يكون واردأ صحيحا ضد الدعوة إلى العصبية القبيلية التي كانت تقاليد العرب قائمة عليها ، والتي كانت تعتبر أساساً للوحدة الإجتماعية عندهم ، وحائلة دون تكتل العرب ووحدتهم القومية العامة بحيث يكون بذلك هادفا إلى إضعاف هذه العصبية الضيقة وإقامة الوحدة القومية والأخوةالقومية العامة مقامها في صدد تكوين الأمة وبناء كيانها العام كما هو معلوم لكل من درس أحوال العرب وتقاليدهم الاجتماعية وسير الدعوة النبوية والسيرة النبوية ، وهو من نوع ما يقوم الآن ، ويشجبه القوميون العرب من الدعوة أو النعرة الاقليمية ، وقد كان هذا التنديد والتحظير قبل انتشار الإسلام إلى خارج جزيرة العرب وإلى أمم غير عربية ، وفي ظرف الحصار الدعوة في العرب وجزيرتهم ، وفي هذا كما هـو المتبادر دعامة حاسمة لما نقرره .

والدعوة العربية القومية التي يساق التحظير الذي فهم فهما خاطئا كما شرحنا في صددها هي في حقيقتها دعوة إلى القضاء على النعرات الإقليمية والتفرقة وإلى ازدهار عربي ، وتكامل عربي ، وكرامة عربية وقوة عربية ونهضة عربية ووحدة عربية تشمل جميع ارجاء الوطن العربي

من الخليج إلى المحيط . وكل هذا متفق مع مبادىء اللاعوة الإسلامية وتعاليمها وأهدافها ، وحينما يلحظ أن اكثرية العرب الساحقة في هذا الوطن الشاسع هي مسلمة يظهر للملاحظ تلقائياً أن محصل تلك اللعدوة القومية عائد في حقيقته إلى المسلمين والمهم في الأمر هو أن لا تكون الدعوة القومية العربية في أي حال وتصور وموقف منعزلة أو مجرده عن السمة الإسلامية والتحقق بها ، وهي السمة التي لم يكن للقومية اللعربية شأنها العظيم ، ولن يكون لها شأنها العظيم إلا بها ، والتي لولاها لما كانت الأمة العربية اليوم أمة واحدة تملأ أرجاء الوطن العربي الكبير من الخليج إلى المحيط ، ويستطيع ابناؤها أن يدعوا أن لها رسالة إنسانية خالدة . ونعتقد أن سواد العرب الأعظم الن يكون لهم موقف مجرد أبو منعزل عن هذه السمة وأن هذه السمة راسخة في ضمائرهم وعقولهم وقلوبهم رسوخا شديداً في ثر عليه أية محاولة .

وقد يكون من المفيد الإشارة إلى التجريبة التركيبة ، فقد جهد مصطفى كمال وخلفاؤه لتغيير سمة الأتراك الإسلامية ، وجاء وقت ظن الناس أن الجهد قد نجح ، غير أنهم مالبثوا أن راوا أن ظنتهم خاطىء ، وأن السمة الإسلامية عادت إلى البروز واللمعان ، لأن جدورها قوية في ضمائر الأتراك ، وقلوبهم وعقولهم وتقاليدهم ، ومثل هذا يقال بتمامه بالنسبة للأمم الإسلامية التي تعيش في كنف الاتحاد السوفياتي الشيوعي والصين الشيوعية ، والمتلازم بين العروبة والإسلام أشد رسوخاً وأشد قوة وطبيعية من التلازم بين الإسلام والأمم غير العربية .

وقد يقول بعض المتزمتين رغم الخطأ الذي شرحناه في فهم التحظير، ورغم التلازم القائم المستمريين الدعوة العربية والسمة الإسلامية: إنهوقد صارت هذه السمة هي سمة العرب فيجب الاكتفاء بها دون الدعوة العربية، والسمة العربية .

ونعتقد أن في هذا خطأ ومغالطة أيضاً ، فإن سمة الإسلام قد صارت فعلا سمة العرب ومن الواجب أن تبقى سمة لهم وهي فعلا سمتهم ، وستبقى كذلك إلى ما شاء الله ، ولكن ذلك لا يعني ولا يمكن أن يعني أن الله الية العربية قد زالت ، أو يجب أن تزاول ، أو يمكن أن تزاول بها ، فهي مستمدة من واقع ذاتي قائم لا يجوز المكابرة فيه ، وهو تميز الامة العربية

في اللغة والمواطن والخصائص ، وهذا هو شأن كل الأمم التي تدين بالإسلام، وكما أنه لا يعقل ولا يصح في حال أن يكتفى بتسمية هذه الأمم بالأمم الإسلامية دون أبوه لذاتيتها المتميزة بلغاتها وخصائصها ومواطنها ،ودون ملاحظة ذلك في تسميتها القومية وتعريفها وفي ما تنشط في سبيله من ازدهار وتكامل في شتى الميادين ، فإنه لا يعقل أن يكتفى بتسمية الأمة العربية بالمسلمين دون أبوه لذاتيتها المتميزة بلغتها وخصائصها وموطنها ك ودون ملاحظة ذلك في تسميتها القومية ، وفي ما تنشط في سبيله من ازدهار وتكامل في شتى الميادين ، وهذا أمر بديهي إلى درجة أن المكابرة فيه تبدو غريبة جداً . إلا في حالة واحدة هي أن تكون السمة العربية مجردة عن السمة الإسلامية وهو ما نبهنا على رفضه وعدم احتماله ، وعلى كون العروبة والإسلام سيظلان متلازمين ، ولا يمكن فك أحدهما عن الآخر ، والتنويه القرآني بقوم النبى صلى الله عليه وسلم واصطفائهم ومسؤوليتهم ينطوى فيه إقرار بالوجود العربي القومي في نطاق الإسلام ، وهذا الإقرار قائسم في حدرثين نبوبين أيضاً جاء في أحدهما: «لا فضل العربي على أعجمي إلا بالتقوى» ، وجاء في ثانيهما: «من أحب العرب فبحبى أحبهم ومن أبغض العرب فينغضى أنغضهم» .

وخامساً: إن تعاليم القرآن والسنة لاتحتوي أي مانع من اعتبار غير المسلمين من العرب المسالمين المتضامنين معمسلميهم إخوانا لمسلميهم في القومية ، ومن التعامل معهم على هذا الاعتبار في نطاق الدولة والكيان الاجتماعي معا ، وهذه التعاليم أبعد ماتكون عن إثارة أي بغضاء أو عداء لغير المسلمين المسالمين عامة ، بل إنها تحث صراحة على البسر بهم ، والإقساط إليهم ، وحسن التعايش والتعامل معهم ، وهناك نصوص قرآنية ونبوية في ذلك ، ومما لا ريب فيه أن لغير المسلمين من العسرب المناحجين بإخوانهم اندماجاً قومياً والمتضامنين معهم في السراء والضراء والمسالح والمطامح الأولوية في هذا الحث ، هذا إلى أن الفخر بالإسلام ونبي الإسلام العربي وقرآن الإسلام العربي فخر عام للعرب مسلميهم ومسيحيهم ، ولا نعتقد أن هناك عاقلاً لبيباً من هؤلاء لا يعتز به ولا يندمج فيه .

ولقد فهم المسلمون الأولون الأمر على حقيقته المشروحة ، فكان المسالمون الموادون من غير المسلمين يعيشون معهم علمي وفساق تام ،

ويشتركون معهم في شؤون الدولة ووظائفها ، وما يمكن ان يكون شدوذ عن هذا المدى ، إنما كان لأسباب اخرى منها تحريك المدول الاستعمارية الطامعة ببلاد العرب والتي طردها الإسلام من هذه البلاد ، وتظل تطمع بالعودة إليها بإحداث البلبلة والفتنة والوساوس والدسائس .

واتسام الحكومات العربية بسمة الإسلام هو نتيجة لكون اكثرية رعاياها الساحقة مسلمين . وليس من شأن هذه السمة ولا من شأن ذكر بعض الدول العربية في دساتيرها ان دينها الاسلام او ان دين رئيسها الاسلام أن يحجب مالغير المسلمين وبخاصة العرب منهم مالهم فيها مس مركز وحقوق . بل من شأن ذلك أن يثبتها لأن هاذا المركز والحقوق مما نصت عليه واكدته تلك المصادر .

والحمد لله رب العالمن



الفهرسس

الصفحة

٣ _ مقدمة الكتاب

الفصل الأول: ليس الملحدون أول المتصدين والمتهجمين . في هذا الفصل صور قرآنية متنوعة لمواقف الجاحديين لله ، ووحدانيته ، ونبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، والوحي القرآني ، وأهداف الرسالة الإسلامية ،والحياة الأخروية ، وأسبابها وتطورها! وردود مفحمة قارعة في نصوص نافذة إلى أعماق القلوب والعقول ، ويتمسل فيها قوة وعظمة الصمود القرآني والنبوي وانتصارهما ، واستطراد إلى إنكار الملحدين لوجود الله ، ونبوة الأنبياء والرد عليهم .

٧٧ - ١٠٥ الفصل الثاني: اثر الدعوة النبوية الإبجابي الواسع الشامل لكل الفئات في حياة النبي صلى الله عليه وسلم، ومدى شهود العيان وشهاداتهم لأعلام النبوة م

الغصل الثالث: النظرة الاعتباطية والجزافية إلى القرآن الكريم ، والعواصم من ذلك ، وفي هذا الفصل المباحث التالية وما يتبادر للمؤلف من وجه الحق فيها ، وما يلمح في النصوص القرآنية من أهداف وحكم (۱) .

۱۰/۷ إ - القرآن والسيرة النبوية

⁽۱) في هذا الفصل ود على كثير من تعسفات صادق العظم ، وسسوء تأويله في كتسابة (نقد الفكر الديني) وهو يمثل في ذلك الملحدين عامة بطبيعة الحال .

الصفحة

- ١١٤ ٢ القرآن والبيئة النبوية
- ١٢٠ ٣ _ القرآن واللغة الغربية
- ١٢٩ ٤ الأسس والوسائل أو المحكمات والمتشابهات في القرآن. كضابطين قرآنيين لفهم النصوص القرآنية والوقوف عندها.
- ١٤٧ ه ـ القصص القرآنية ، ومن جملتها قصة آدم وابليس التي شغلت حيراً كبيراً في كتاب صادق العظم وتمحلاته .
 - ١٩٣ ٦ ـ الملائكة في القرآن
 - ٢٠٣ ٧ _ الجن في القرآن
 - ٢١/١ ٨ _ نواميس الكون ومشاهده في القرآن
- ٢٢٠ الحياة الأخروية في القرآن ، وبحث في حقيقتها الإيمانيسة ومداها وأثرها في حياة المسلم وغير المسلم
 - . ١٠ / _ صفات الله عز" وجل" وأفعاله وأسماؤه في القرآن
- ١١ نصوص قرآنية في صدد المسائل المتنوعة التالية تثير الوهم ، وما يتبادر للمؤلف من وجه الحق والحكمة فيها، وقد آثار كثيراً منها صادق العظم في كتابه وتعسف في فهمها وتأويلها.
 - ٢٥٠ ١ _ مسألة الهداية والضلال .
 - ٢٥٥ ٢ _ مسألة خلق الله لأفعال عباده ، وخلق العباد لأفعالهم .
 - ٢٦٤ ٣ _ مسألة القدر
- ٢٧٠ ٤ ـ الآيات التي فيها إرادة الله لهـ الله الناس ، ومكـره بهم وكيده ، وخداعه لهم واستهزاؤه بهم ، وأغلاقه لقلوبهم وأبصارهم ، وتسليطه الشياطين عليهم ،

وتزيينه الأعمالهم وإملائه واستدراجه لهم ، وجعله الشياطين من الإنس والجن والمجرمين أعداء الأنبيائه ، وحعله في القرى أكابر محرمين ، وحكاماً فاسقين .

٢٩١ ـ ٥ ـ مدى نصوص القرآن في صدد العلم والمعرفة .

٢٩٥ - ٦ - مدى آية (ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم)

۲۹۱ - ۷ - مدى آية (وقاتلوا المشركين كافة)

٢٩٧ - ٨ - عموم وخصوص الرسالة المحمدية في النصوص القرآنية

٣٠٠ _ ٩ _ مدى آية (ما فرطنا في الكتاب من شيء)

. ٣٠ _ ١٠١ _ النصوص التي تنعى على الحياة الدنيا .

٣٠٦ ١١ _ روايات أسباب النزول

٣١٠ مروايات الآيات المكية في السور المدنية والعكس

۳۱۷ مباحث قرآنیة أخرى مختلف فیها ، ووجه الحق المتبادر منها وهـي :

٣١٨ ١ ـ تلاوين القرآن وجمعه وترتيبه

٣٢٧ ٢ _ أحاديث نزول القرآن على سبعة أحرف

٣٣٤ ٣ - القرآات القرآنية .

٣٣٧ } _ النسخ والتبديل والتعديل في القرآن و

الفصل الرابع: وجها لوجه مع المحكمات القرآنية:
في هذا الفصل عرض هام لتقريرات المحكمات القرآنية
لأهداف ومبادىء ومنطويات الرسالة الإسلامية ثم تفصيل
لهذه التقريرات لمختلف الشؤون على النحو التالي مع
تنبيه الى مقامر الملحدين للمحكمات القرآنية والى انتباه
كثير من علماء الغرب وعقلائهم وتأثرهم بها .

٣٥٣ ١ ـ مدى الإيمان بالله

٣٥٤ ٢ ـ مدى الإيمان بأنبياء الله

٣٥٤ ٣ _ مدى ركن الصلاة والتطهر والتجمل لها

- ٣٥٦ ٤ ـ مدى ركن الزكاة وما في نظام الدولة المالي من التزام بمساعدة الفئات العاجزة والمحتاجة
 - ۳۰۸ ه ـ مدی رکن الصیام
 - ۳۵۸ ٦ _ مدى ركن الحج
 - ٣٥٩ ٧ _ مدى الإيمان بالحياة الأخروية
- ۸ ـ تقریرات القرآن وتلقیناته المحکمة بالنسبة لحیاةالإنسان فی الدنیا
- ١٦٦٢ ٩ تقريرات القرآن وتلقيناته المحكمة في صدد نظام الدولة الأساسي ، وبنيان اللدولة وواجباتها وحقوقها وواجبات وحقوق المسلمين في نطاقها وموقف الدولة من غير المسلمين .
- ٣٧٣ ما _ تقريرات القرآن وتلقيناته المحكمة في صدد العدل والقضاء والجرائم المتنوعة .
- ٣٧٧ مقريرات القرآن وتلقيناته المحكمة في صدد الجهاد والحروب.
- ١٢ ٣٨٤ ـ تقريرات القرآن وتلقيناته المحكمة في صدد الدعوة إلى سبيل الله والتبشير بالاسلام
- ٣٨٩ ١٣ _ تقريرات القرآن وتلقيناته المحكمة في الشؤون الاجتماعية
- ١٤ ١٤ تقريرات القرآن وتلقيناته المحكمة في صدد علاقة الناس ببعضهم وحرياتهم ومساواتهم .
- ۱۵ ۳۹۸ تقريرات القرآن وتلقيناته المحكمة في صدد الحياة الزوجية والموارث .
- 7.3 ١٦ ـ تقريرات القرآن وتلقيناته المحكمة في صدد توطيد أواصر الأسرة والآداب السلوكية .
- 10 17 تقريرات القرآن وتلقيناته المحكمة في صدد الأخلاق والتربية الشخصية .
- ۱۸ ۱۸ تقريرات القرآن وتلقيناته المحكمة في صدد إصلاح المسلم ومعالجته أخلاقياً وروحياً .
 - ١٥) تعقيب وهتاف وتوضيح